بنیاد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

غيبة الدّولة
و مقدّمات الغيبة

دراسة تأريخيّة في أحوال الإمام الحسن العسكري عليه السلام
و عصورالدولة العبّاسيّة
و غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه

عادل عبدالرحمن البدري

بسم الله الرحمن الرحيم

غيبة الدّولة و مقدّمات الغيبة

دراسة تأريخية في أحوال الإمام الحسن العسكري عليه السلام

وعصور الدّولة العبّاسيّة وغيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه

عادل عبدالرحمن البدري

البدري، عادل عبدالرحمن، ۱۹۵۶ - م.
غيبة الدّولة و مقدّمات الغيبة دراسة تأريخية في أحوال الإمام الحسن العسكري عليه السلام و عصور الدّولة العبّاسيّة و غيبة الإمام المهدي (عج) / عادل عبدالرحمن البدري. - مشهد : مجمع البحوث الإسلاميّة ، ١٤٣٦ق. = ١٣٩٣ش.
٣٧٢ ص.
ISBN 978-964-971-978-8
فيپای مختصر.
الف. بنياد پژوهشهای اسلامی. ب. عنوان.
کتابخانه ملّی جمهوری اسلامی ايران
٣٧٥۴۶٢۶

غيبة الدّولة و مقدّمات الغيبة

دراسة تأريخية في أحوال الإمام الحسن العسكري عليه السلام
وعصور الدّولة العبّاسيّة وغيبة الإمام المهدي (عج)

عادل عبدالرحمن البدري

مراجعة: جعفر الباتي

الطبعة الأولى: ١٤٣٦ق. / ١٣٩٤ش. / ١٠٠٠ نسخة - وزيري
الثمن: ١٤٩٠٠٠ريال إيراني
الطباعة: مؤسّسة الطّبع والنشر التّابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة
مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٣٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٣٢٢٣٣٩٢٣، (قم)٣٧٧٣٣٠٢٩
www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مقدّمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام النبيّ المصطفى المختار، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وعلى صحبه المنتجبين الأخيار.

وبعد، رافقت مسيرةَ الإنسان الطويلة منذ خلق الله في الأرض آدم عليه السلام، وحتّى وقتنا الحاضر الذي نعيشه، صور متعدّدة للتظالم، وسفك الدماء، والتنازع والتصارع من أجل البقاء في هذه الحياة الدنيا، على هذه الأرض التي نطأها ووطأها أجدادنا من قبل، بما سمّي في الدراسات العلمية الحديثة قانون تنازع البقاء. وهذا التنازع والتصارع امتدّ من مستوى الأفراد إلى مستوى القبيلة والعشيرة، ليتصاعد إلى مستويات وآفاق أكبر وأبعد، نحو العرق والقوميّة، أو ربّما الجماعات الكبيرة والدول والحكومات.

وهذا الانشقاق والشقاق في المجتمع البشريّ يتضاعف، وتزداد حدّته مع تقادم الأزمان والأيّام، فما زالت الحروب الدينية والطائفيّة والإثنيّة تهدّد المجتمع البشريّ بالمزيد من المحن والكوارث التي نسمعها و نشاهد بعضها في وسائل الإعلام المسموعة والمرئيّة. ولم تستطع المنظمات العالمية، نحو مجلس الأمن الدوليّ، ومنظمات السلم العالميّ، أن تحدّ أو توقف العداوات والاشتباكات المسلّحة بين

الجماعات البشرية، والتي تندلع هنا وهناك، بين الحين والآخر. ولكن ما زالت الآمال معقودة على أن يرى العالم حالات من التصافي والانسجام بين الأمم والشعوب، وحتّى الأمّة الواحدة التي فقدت وحدتها ولُحمتها. ولكنّ الأديان السماوية لم تكن تهمل أو تتجاهل هذا الواقع الدامي، بل كانت تبشّر منذ زمن بعيد بشخص منقذ مصلح يجمع هذا الشتات البشريّ المتخاصم، ويجعل الجموع البشريّة تعيش في جوّ من الوئام والسلام الذي يحلم به الإنسان. والديانة الإسلاميّة بصفتها آخر ديانة سماوية جاءت لهداية البشر وإصلاحهم، حملت معها للإنسان المعذّب تباشير شخص كامل منقذ اصطلحت عليه الأخبار لقب المهديّ المنتظر، الذي عرّفته النصوص الدينية بأنّه من نسل فاطمة بنت محمّد المصطفى عليهما الصلاة والسلام، وهو آخر شخص وصيٍّ معصوم في الأرض، وعند ظهوره بأمر سماويّ سينهض بهذا الدور الإصلاحيّ الكبير الذي تحلم به الأمم والشعوب، وستنعم به الأرض وأهلها بالأمن والاستقرار، وتعمر الدنيا بالخيرات والبركات. ولعلّ هذا الكتاب الذي سطره المؤلّف يكون له إسهام متواضع في إلقاء ضوء على هذا الموضوع ربّما يستنير به القرّاء الكرام، ومن الله التوفيق.

عادل البدري

مشهد الرضا عليه وعلى آبائه التحيّة والسلام

مفاتيح و تمهيدات البحث

من النعم التي أنعم بها الخالق جلّ وعلا على الإنسان من بين مخلوقاته على الإطلاق هي نعمة العقل، هذا العقل الذي به فضّل الله جلّ وعزّ آدم عليه السلام على بقيّة المخلوقات، وعلا وشرف وساد. جاء في الخبر: ما تمّ دين إنسان قطّ حتّى يتمّ عقله[1]. وكان اختيار آدم عليه السلام للعقل من بين ثلاث هبط بها جبرئيل عليه السلام، وكما يروى عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: هبط جبرئيل عليه السلام على آدم عليه السلام فقال: يا آدم، إنّي أُمرت أن أخيّرك واحدة من ثلاث، فاختر واحدة ودَعِ اثنتَين، فقال له آدم: وما الثلاث ياجبرئيل؟ فقال: العقل والحياء والدِّين، قال آدم: فإنّي قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه، فقالا له: يا جبرئيل، إنّا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث ما كان، قال: فشأنكما، وعرج[2]. وكأنّ هذا الاختيار الواعي لآدم عليه السلام ـ والذي يعلم به تعالى من قبل ـ هو الذي أهّله لأن يكون خليفة الله في أرضه، فالحوار الذي كان بين الله تعالى ومخلوقاته من الملائكة ربّما يؤيّد ذلك، فللّه حكمة ودراية

١ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا دِينَ لمَن لا عقلَ له» (**غرر الحكم**: ٣٥٠)، **كنز العمّال** ١٥: ٩١٦ / الرقم ٤٣٥٨١.

٢ـ **أمالي الصدوق**: ٥٣٤ / ح ٣، **الخصال**: ١٠٢/ح ٥٩ ـ باب الثلاثة.

في وضع آلة التفكّر والتدبّر في آدم ليوصله إلى الأغراض التي أرادها تعالى من خلقه آدم، ومن هذا العقل الذي أودعه فيه ككنز عظيم يختزن المعارف والعلوم والأسرار. جاء في خبر رواه الصدوق أسنده إلى رسول الله ﷺ أنّه قال: ما عُبِد الله بمثل العقل، وما تمّ عقل امرئٍ حتّى يكون فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون، يستقلّ كثير الخير من عنده، ويستكثر قليل الخير من غيره، ولا يتبرّم بطلّاب الحوائج إليه، ولايسأم من طلب العلم طول عمره، الفقر أحبّ إليه من الغنى، والذلّ أحبّ إليه من العزّ، نصيبه من الدنيا القوت والمعاشرة. وأمّا المعاشرة لايرى أحداً إلّا قال: هو خير منّي وأتقى. إنّما الناس رجلان: فرجل هو خير منه وأتقى، وآخر هو شرّ منه وأدنى، فإذا التقى الذي هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا التقى الذي هو شرّ منه وأدنى قال: عسى أن يكون خيرُ هذا باطناً وشرّه ظاهراً، وعسى أن يُختَم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده وساد أهلَ زمانه[1].

والظاهر من النصّ القرآني أنّ الخليفة والنائب عن الذات العليا الذي أخبر الله ملائكته به هو العاقل المؤهّل للخلافة في الأرض، كما جاء في التصريح القرآني في قوله تعالى ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[2]، فهذا العلم الذي أشار لهم به تعالى هو امتلاك هذا الكائن للعقل الذي يقود إلى الطاعة والصلاح، وينهى عن المعصية والفساد، كما جاء في خبر أسنده الراوندي إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الله تعالى قال: يا ملائكتي... إنّي أخلق

١ـ علل الشرائع: ١١٦/ ح١١.

٢ـ البقرة: ٣٠.

خَلقاً بيدي أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي، ينهَونهم عن معصيتي، وينذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، أجعلهم حجّة لي عُذراً ونُذراً، وأنفي الشياطين من أرضي وأطهرها منهم، فأسكنهم في الهواء وأقطار الأرض وفي الفيافي، فلا يراهم خلقي ...[1] وكأنّ هذا النصّ يبيّن اللطف الإلهي للإنسان الذي يكون معرّضاً للغواية والضلال، والنصّ يشير أيضاً إلى وجود طائفة مصفّاة من الأدناس من بين المخلوقات البشرية تُكمل هذا اللطف بهداية الخلائق والأخذ بيدهم، وهم الخلفاء، وأوّل خليفة كان منهم في الأرض هوآدم عليه السلام. وهذا الخليفة في مخزون علم الله سيكون قادراً على أداء دوره، ولكن لايعلم عن هذا المخلوق الآدميّ أحد، من صنف الملائكة أو غيرهم، فعلم الغيب ومآل الأمور لهذا الخليفة هو من مختصّات علمه تعالى، فلم تكن الملائكة تعلم عن ماهيّة هذا المخلوق الجديد شيئاً. وكان هذا العلم الذي حجب عن الملائكة وانفرد به تعالى له ما يبرره في الأزمان اللاحقة بما انطوى عليه من حِكم كثيرة، منها البَداء[2]، وربّما

١ـ **قصص الأنبياء** ١: ١٨٣ـ١٨٤.

٢ـ البداء هو الاعتقاد بالمحو والإثبات وفقاً لقوله تعالى ﴿ **يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ الرعد: ٣٩. قال المجلسي: إعلم أنّ الآيات والأخبار تدلّ على أنّ الله عزّوجلّ خلق لوحَين أثبت فيهما ما يحدث من الكائنات، أحدهما اللوح المحفوظ الذي لاتغيّر فيه أصلاً وهو مطابق لعلمه تعالى، والآخر لوح المحو والإثبات فيُثْبت فيه شيئاً ثمّ يمحوه لحِكم كثيرة لاتخفى على أُولي الألباب، مثلاً يكتب فيه أن عُمر زيد خمسون سنة، ومعناه أنّ مقتضى الحكمة أن يكون عمره كذا إذا لم يفعل ما يقتضي طوله أو قصره، فإذا وصل الرحمَ مثلاً يُمحى الخمسون ويكتب مكانه ستّون، وإذا قطعها يكتب مكأنّه أربعون، وفي اللوح المحفوظ أنّه يصل وعمره ستّون، والتغيير الواقع في هذا اللوح مسمّى بالبداء. **بحار الأنوار** ٤: ١٣٠. وعرّف عبد المنعم الحفني البداء هو تغاير الإرادة الإلهيّة، وقال: البدائيّة أتباع مذهب هشام بن ←

ذهب البعض من وحي هذه الآيات إلى تأييد استنباط أهل العلم، ووفقاً لمقياس العقل، أن يكون نصب الإمام من الواجبات لقوله تعالى ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[1] حيث بدأ بالخليفة قبل الخليقة، والحكيم العليم بدأ بالأهمّ دون الأعمّ، وذلك تصديق قول الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام حيث يقول:الحجّة قبل الخَلق ومع الخلق و بعد الخلق[2]. يقول الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي: ولو خلق الله تعالى الخليقة خلوّاً من الخليفة لكان قد عرّضهم للتلف[3]. وبعبارة أخرى تقال هنا:هو وجوب اللطف على الله تعالى، وذلك بتوجيه عباده وجهة الخير والصلاح، وعونهم على طاعته ومجانبة عصيانه من غير قسر ولا إكراه، كبعثة الأنبياء عليهم السلام ونصب الأوصياء عليهم السلام. وهو من آيات كمال الله المطلق، وحكمته البالغة، ولطفه الواسع العميم، إذ يشمل عباده بألطافه المادّية والروحية، ويوجّههم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة. وليس المراد من وجوب اللطف أنّه تعالى مأمور به، ومفروض عليه من قبل الخلق، وإنّما المراد منه ضرورة اتّصافه بهذا اللطف كضرورة اتّصافه بوجوب الوجود[4].

فالأنبياء والأوصياء هنا هم صورة من صور هذا اللطف الربّاني، أو بعبارة أخرى لعلّها تكون بديلة: ضرورة من ضرورات حياة الإنسان الضعيف المعرّض للغواية

الحكم، المتكلّم الشيعي، الذي يقول:إنّ عالم الله يتعلّق بالموجودات، ويعني أنّ الله يجعل الشيء قبل أن يكون، ومن ثمّ فعلمه محدث ويتأثّر بحدوث الأشياء. **الموسوعة الفلسفيّة:** ٩٢.

١ـ البقرة: ٣٠.

٢ـ **أصول الكافي** ١: ١٧٧/ ح ٤٠.

٣ـ **الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم:** ٢٥٦.

٤ـ ينظر السيّد مهدي الصدر، **أصول العقيدة في التوحيد والعدل** ١: ٢١٨.

والتيه والضلال على الأرض التي يحيا عليها، كما جرى للخليقة السابقة لآدم في الأرض من قبل، حينما بغوا وطغوا وأفسدوا، كما أشارت لهم الآية الكريمة ﴿**أتَجعَلُ فيها مَن يُفسِد فيها ويَسفِكُ الدماء**﴾، فلا بدّ هنا من وجود قوّة مانعة هادية تكون لهم بمثابة منجاة وخلاص من العذاب الذي سيحلّ بهم لو تمادوا في غيّهم وطغيانهم، ولئلّا تتكرر الصورة القاتمة للخلائق التي سكنت الأرض قبل آدم وعتت فحقّ عليهم العذاب. يقول الكاتب محمّد كاظم محمّد جواد: إذن وجود الأنبياء أو أوصيائهم ضرورة حياتية في المعادلة الكونيّة، لأنّهم يشكّلون سدّاً منيعاً من نزول العذاب على البشرية جمعاء، وكما جاء في الحديث الشريف «لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها»[1]، فكما لاحياة من دون ماء وكلأ، كذلك لاوجود للإنسان من من دون الأنبياء وأوصيائهم، ومن أوّل يوم أهبط الله آدم على الأرض اجتباه للنبوّة حجّة على كلّ ما في الأرض[2].

ومن هنا فالخلافة التي كانت لآدم عليه السلام وامتدّت إلى بنيه المطهّرين من الأنبياء والأوصياء هي من آثار هذا اللطف، والعقل هنا كان كاشفاً لهذا اللطف ومهتدياً به. وعليه فالعقل الذي وهبه الله لآدم عليه السلام كان امتداداً وترجمة للطف الإلهيّ، لأنّ العقل يقود ويهدي إلى الخلافة والوصيّة وإدارة النظم الدينية التي صارت تتوارث أشكال الصلاح والهداية. ولولا هذه النظم الدينيّة لما عرفت الأرض المظاهر العبادية والمقدّسات الدينية التي تتّجه لها من كلّ حدب وصوب جموع العباد، وتنحني لها هاماتهم إجلالاً وتقديساً. وحين يُترَك العقل وسجيته، أو ما يسمّى بالحسّ

١ـ يراجع: **الكافي** ج١ ـ باب أنّ الأرض لا تخلو من حجّة، و**بحار الأنوار** ٢٣: ٢١.

٢ـ **أهل البيت عليهم السلام القيادة الربّانيّة**: ١٤٤.

والشعور الفطري، فسنراه يتّجه بعفوية وتلقائية باتّجاه دعوة التوحيد، فلا ينفكّ العقل البشري في تاريخه البعيد الموغل في القِدم أبداً عن الإصغاء إلى نداءات التوحيد، ومقاومة ورفض الأصوات الناشزة والصادرة من معاقل الشرك والإلحاد. يقول الحافظ رجب البُرسي: الموحّدون لحضرة الجلال أربعة: العقل، والروح، والنفس، والقلب هو الموحّد الرابع. ويذهب الحافظ رجب إلى أنّ العقل هو القوّة المسلّطة على القوى الأخرى فيقول: العقل حامل الروح، والروح حامل النفس، والنفس حامل القلب، والقلب حامل الجسم[١]. فالعقل وفق هذا التسلسل أرفع درجة وأقوى سلطة وأمضاها، ومنه يكون ميزان الأشياء، بما في ذلك العبادات. ويقول أبو زيد البلخي:العقل قوّة إلهيّة مميّزة بين الحقّ والباطل، والحَسَن والقبيح. وأمّ العلوم، وباعث الخطرات الفاضلة، وقابل اليقين. وقد: قيل إنّما سُمّي عقلاً لأنّه عِقال للمرء عن التخطّي إلى ما خطر عليه. وقد أكثرت الفلاسفة الاختلاف في ذكره ووصفه، قال أرسطاطاليس في كتاب البرهان: إنّ العقل هو القوّة التي بها يَقْدر الإنسان على الفكرة والتمييز، وبها يلتقط المقدّمات من الأشياء الجزئيّة يؤلّف منها القياسات[٢].

ومن هذا الأساس جاءت أخبار الأئمّة عليهم السلام في وضع العبادات في موازين العقل والفهم والإدراك، فيروي الشيخ الصدوق عن محمّد بن سليمان، عن أبيه أنّه قال:قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله كذا وكذا ! قال فقال أبو عبد الله عليه السلام: كيف عقله ؟ فقلت: لا أدري، فقال عليه السلام:إنّ الثواب على قَدْر

١ـ مشارق أنوار اليقين في حقائق أسرار أمير المؤمنين: ٤٣ و ٤٧.

٢ـ البدء والتاريخ: ١٥.

العقل...[١] ومن المؤكّد أنّ العقل البشري السليم، وحسب قانون الفطرة، يحترم منجزات العقول المبدعة والهادفة في إبداعها، ومن هنا يمكن تفسير كيفيّة انتقال مواريث الأنبياء وما أودع الله عندهم من أسرار السماء، وما كان لهم من الحكم والمعارف والعلوم. وربّما كان قوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُدَ﴾[٢] فيه إشارة إلى أثر هذا اللطف الربّاني. والعلوم التي كانت لدى الأنبياء هي واحدة من لطائف الله عزّوجلّ، جاء في خبر أسنده الحسن بن سليمان الحلّي إلى ضريس الكناسي قال:كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده أبو بصير فقال:إنّ داود ورث علم الأنبياء، وإنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّداً صلى الله عليه وآله ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمّداً صلى الله عليه وآله، وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى[٣]. ومن هنا فالعلوم تعتبر أرقى ميراث وأرفعه، والعقل وعاء هذه العلوم. وجاء في رواية أسندها البرقي إلى إبراهيم بن عبد الحميد عن الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام قال:ما بعث الله نبيّاً قطّ إلّا عاقلاً، وبعض النبيّين أرجح من بعض، وما استخلف داود سليمان عليهما السلام حتّى اختبر عقله. واستخلف داود سليمان عليهما السلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة[٤]. وتشير رواية أسندها الراوندي عن العبد الصالح عليه السلام ـ أي الإمام الكاظم عليه السلام ـ إلى هذا الاستخلاف جاء فيها: إنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن استخلف سليمان على قومك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:إنّ الله أوحى إليّ أن أستخلف سليمان عليكم. فضجّت رؤوس أسباط[٥] بني إسرائيل من

١ـ **أمالي الصدوق:** ٣٤١/ ح ٦ ـ المجلس ٦٥.

٢ ـ النمل: ١٦.

٣ـ **تفضيل الأئمة عليهم السلام على الأنبياء والملائكة:** ٢١٣ / ح٥٣.

٤ـ **المحاسن:** ١٩٣/ ح٩.

٥ـ الأسباط: هم أولاد إسرائيل، وإسرائيل هو نبيّ الله يعقوب عليه السلام. كما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام ←

ذلك وقالوا:غلام حَدَث يُستخلَف علينا وفينا مَن هوأعلم منه! فقال لهم داود عليه السلام: أروني عِصيَّكم، فأيّ عصى أثمرت لأحد فهووليّ الأمرمن بعدي، فقالوا: قد رضينا. فجاؤوا بعصيّهم، فقال داود: ليكتب كلّ رأس منكم اسمه على عصاه. فكتبوا، ثمّ جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه، ثمّ أدخلت بيتاً وأغلق الباب وشُدّ بالأقفال وحرسه رؤوس أسباط بني إسرائيل، فلمّا أصبح صلّى بهم الغداة، ثمّ أقبل ففتح الباب، فأخرج عصيّهم قد أورقت وعصا سليمان قد أثمرت، قال: فسلّموا ذلك لداود. ولمّا أراد أن يعلم حكمة سليمان قال:يا بُنيّ، أيّ شيءٍ أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفوبعضهم عن بعض. فقال: يا بنيّ، أيّ شيءٍ أحلى؟ قال: المحبّة، وهوروح الله في عباده فافترّ ضاحكاً[1].

ولا شكّ في أنّ الشيء الموروث هو بالضرورة من آثار العقل المبدع، سواء كان ماورثه سليمان عليه السلام يعني الحكمة أو الملك أو النبوّة أو العلم أو المال، فالعقل هنا هوالرائد لكلّ إنجاز ينجزه الإنسان. والعقل البشري ربّما يرى ويخلص إلى أنّ الماضين لهم شيء نافع ومفيد، وهوجدير بالتوريث والبقاء، أو في الأقلّ كانت لهم تجارب ورؤى قابلة للاستفادة والاستنساخ. كما وأنّ ما يشاهد ويلحظ من الرفاهيّة

في **عيون أخبار الرضا** عليه السلام ١: ٢٤٥ / ح١ ـ الباب ٢٤، ومعنى إسرائيل بالعربية عبد الله، لأنّ إسرا هوعبد، وإيل هوالله، أوهوقوّة الله، كما جاء في **علل الشرائع**، للصدوق: ٤٣/ ح ٢ ـ الباب ٣٩ ـ اثنا عشرسبطاً، كلّ سبط قبيلة. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ١٦٣ (سبط). والأسباط في ولد إسحاق بن إبراهيم بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهما السلام، فولد كلّ ولد من وُلد إسماعيل قبيلة، وولد كلّ ولد من وُلد إسحاق سبط، وإنّما سمّي هؤلاء بالأسباط وهؤلاء بالقبائل ليُفصَل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق عليهما السلام. **لسان العرب** (سبط).

١ ـ **قصص الأنبياء** ٢: ٣٨ / الرقم ٢٩٤.

والتحسّن في أداء الإنسان وحركته الدائبة نحو التقدّم، سواءً كان في جهده العقلي النظري، أوفي جهده البدني العملي التطبيقي في كسب الرزق، أو تطوير وسيلة عيش الإنسان، أوفي نمط حياته بالشكل المتطوّر والمتصاعد عبر التاريخ، كان كلّ هذا من آثار هذا العقل البشري الذي خصّ الله به الإنسان وخاطبه في كتبه السماويّة، وربّما كانت المخاطبة السماوية للعقل حافزاً من الله للإنسان ليقوم بما قام به من جهد أوصله أو كاد لأن يحيا ويعيش عيشاً مختاراً ومميّزاً، في سالف العصور والأزمنة التي خلت. يقول السيّد محمّد حسين الطباطبائي: وعلى هذا جرى كلامه تعالى، فإنّه يعرّف العقل بما ينتفع به الإنسان في دينه ويركب به هداه إلى حقائق المعارف وصالح العمل، وإذا لم يَجْرِ على هذا المجرى فلا يسمّى عقلاً، وإن عمل به في الخير والشرّ الدنيوي فقط، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[2]، فالآيات كما ترى تستعمل العقل في العلم الذي يستقلّ الإنسان بالقيام عليه بنفسه، والسمع في الإدراك الذي يستعين فيه بغيره مع سلامة الفطرة في جميع ذلك، وقال تعالى ﴿**وَمن يَرغَبُ عن مِلّةِ إبراهيمَ إلّا مَن سَفِهَ نَفْسَه**﴾[3]. وإلى هذا الاتجاه روى البرقي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قوله: ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل. وإقامة العاقل

١ـ المُلك: ١٠.

٢ـ الحجّ: ٤٦.

٣ـ **الميزان في تفسير القرآن** ٢: ٢٥٠، والآية في سورة البقرة: ١٣٠.

أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله رسولاً ولا نبيّاً حتّى يستكمل العقلَ، ويكونَ عقله أفضل من عقول جميع أمّته[١].

وما زال الإنسان يجاهد ويسعى بشكل يختلف به عن سائر مخلوقات الله التي تدبّ في الأرض، فالله تعالى أراده أن يكون فاضلاً مفضّلاً كريماً مكرّماً، وبه يستديم وجوده الذي أراده الله جلّ وعلا له، وبالضرورة قد يؤدّي به هذا العقل الذي وضع بين يديه وتحت تصرّفه ـ وهو نعمة منه تعالى للإنسان دون غيره من المخلوقات ـ إلى التأمّل والتفكير والنظر في الأمور وعواقبها، وما خلق من مخلوقات ملأ بها الكون الذي لايمكن لأحد الإحاطة به أو إدراكه أو الوصول إلى بعض أسراره. فهذه الموهبة الإلهيّة المعطاة للإنسان، والتي تعتبر سبب حصول الهداية والحكمة والمعرفة، ربّما تتعرّض للتضليل والإغواء، فتَضِلّ وتنحرف عن جادّة الصواب. يقول السيّد محمّد حسين الطباطبائي: لفظ العقل يطلق على الإدراك من حيث إنّ فيه عقد القلب بالتصديق، على ما جبل الله سبحانه الإنسان عليه من إدراك الحقّ والباطل في النظريات، والخير والشرّ والمنافع والمضارّ في العمليّات، حيث خلقه الله سبحانه خلقة يدرك نفسه في أوّل وجوده، ثمّ جهّزه بحواسّ ظاهرة يدرك بها ظواهر الأشياء، وبأخرى باطنة يدرك معانيَ روحانيّةً بها ترتبط نفسه مع الأشياء الخارجة عنها كالإرادة والحبّ والبغض والرجاء والخوف ونحو ذلك، ثمّ يتصرّف فيها بالترتيب والتفصيل والتخصيص والتعميم، فيقضي فيها في النظريات والأمور الخارجة عن مرحلة العمل قضاء نظريّاً، وفي العمليات والأمور المربوطة بالعمل قضاء عمليّاً، كلّ ذلك جرياً على المجرى الذي تشخّصه له فطرته الأصليّة، وهذا هو العقل. لكن

١ـ **المحاسن**: ١٩٣ / ح ١١.

ربّما تسلّط بعض القوى على الإنسان بغلبته على سائر القوى، كالشهوة والغضب، فأبطل حكم الباقي أو ضعّفه، فخرج الإنسان بها عن صراط الاعتدال إلى أودية الإفراط والتفريط، فلم يعمل فيه هذا العامل العقلي على سلامته، كالقاضي الذي يقضي بمدارك أو شهادات كاذبة منحرفة محرّفة، فإنّه يحيد في قضائه عن الحقّ وإن قضى غير قاصد للباطل، فهو قاضٍ وليس بقاض، كذلك الإنسان يقضي في مواطن المعلومات الباطلة بما يقضي، وإنّه وإن سمّى عمله ذلك عقلاً بنحو من المسامحة، لكنّه ليس بعقل حقيقةً؛ لخروج الإنسان عند ذلك عن سلامة الفطرة وسنن الصواب...[1].

ومع ما يؤدّي إليه العقل من حكم ومعارف نافعة يختزنها، إلّا أنّه ينتكس في متاهات الغرائز والرغبات اللامشروعة التي تغريه، يقول السيّد مهدي الصدر: ولكنّ العقل ـ رغم حكمته ونفاذ سلطانه ـ عُرضةٌ للإغواء والتضليل، والانخداع بالغرائز العارمة، والأهواء المضلّلة، والشهوات المسعورة التي تضعف طاقته، وتقلّص من سيطرته الهادية، وتلبس عليه الحقّ بالباطل، فيغدو آنذاك واهناً هزيلاً صريع الشهوات والأهواء. من أجل ذلك كان الصراع عنيفاً ضارياً بين العقل والأهواء، ينتصر العقل فيه تارة ويندحر أخرى حسب طاقته وجَلَده: فإذا انتصر العقل كان مناراً ساطعاً بالنور والهدى، وينبوعاً دافقاً فيّاضاً بالخير والجمال، وإذا انتصرت الأهواء كانت داعيةَ شقاء ومصدر تخلّف وإخفاق. لهذا كان الإنسان بحاجة ماسّة إلى مدد روحي، وتسديد سماوي يساند العقل ويعاضده على انتصاره في معركة

---

١ ـ الميزان في تفسير القرآن ٢: ٢٤٩.

الأهواء[١].

ومن هنا كانت الرحمة الربّانيّة للإنسان تتمثّل برسل السماء الذين بُعثوا لهداية الناس، فكانوا يتخاطبون مع الإنسان ويحاججونه لهدايته وانتشاله من زلّات الإنسان الذي ينسب الاشتباهات والانتكاسات التي تصيبه إلى العقل نتيجة حيرته وضلاله، وربّما كان الاتّكاء على القوى العقلية المجرّدة تبعد الإنسان عن الإصغاء إلى صوت السماء، فلا يمكن للعقل وحده أن يهتدي، أو يسير سيره التكاملي، أو يفسّر الظواهر، أو يتمثّل كلّ شيء يواجهه ويراه، أو يهضمه ـ إن صحّ التعبير ـ أو يتقبّله، أو يردّه إن كان غير سائغ، بدون عون أو تعضيد أو توجيه أو إشارة، أو نحو ذلك يرسلها الخالق للإنسان فيفهمها بأنّها كانت أداة أو وسيلة مساعدة له، أرسلت له برسالة واضحة. وهذه الرسالة الواضحة كانت تصل العقل البشري من زمن بعيد، واختارت السماء لهذه الرسالة واسطة تعرّفت بالأنبياء

١ـ **أصول العقيدة في التوحيد والعدل** ٢: ٢٠. ويرى الفارابي أنّ العقل في الإنسان يكون بالقوّة، أي يكون استعداداً لإدراك المعقولات مستقبلاً كما هو حاصل عند الأطفال، فإذا ما أدرك صور المحسوسات صار بالفعل، وانتقال العقل من القوّة إلى الفعل لايتمّ له بالإرادة، لكنّه عمل العقل الفعّال الذي يسمّى فعّالا، لأنّه يفعل في العقل الإنساني فيتحوّل من الإدراك الحسّي إلى الإدراك العقلي، كما هو حاصل للراشدين. ويسمّي الفارابي العقل بالفعل عقلاً بالملكة، وللإنسان كذلك عقل مستفاد هو أسمى درجات العقل الإنساني، وهو نمط العقل الذي للفلاسفة والأنبياء والأولياء، يتأثّر بالعقل الفعّال فيدرك المعاني الكلّيّة. ولهذا السبب يجعل الفارابي أصحاب العقول المستفادة على رأس مدينته الفاضلة، لأنّهم أقدر الناس على معرفة الخير وهداية الناس بحكم أنّهم المتلقّون لفيض العقل الفعّال، ولهذا السبب يجعل الفارابي التأمّل العقليّ هو طريق المعرفة والأخلاق وتحقيق السعادة، فالعقل سابق على العمل، والعمل تابع للعقل. **الموسوعة الفلسفيّة**، لعبد المنعم الحفني: ٣٠٠.

والرسل، الذين بعثوا برسائل وشرائع لابدّ منها، لتنظيم حياة الناس، وإسناد العقل البشري وتعضيده؛ لأنّ «العقل البشري يحتاج إلى النبوّة والشريعة والهداية الربّانية لإكمال معرفته بخالق الوجود وبعالم الآخرة وتنظيم الحياة، لذلك بعث الله النبيّين»[١].

ولم تكن بعثة الأنبياء والرسل خاضعة لزمن معيّن دون آخر، بل غطّت مراحل البشرية في أدوارها المختلفة، ولذا لوحظ بأنّ الرسل الذين بعثهم الله تعالى كان يتلو بعضهم بعضاً، وبلا فترة انقطاع طويلة قد يتيه فيها الإنسان، فبلغ عددهم الشيء الكثير[٢] بما يغطّي أعداد المخلوقات الهائلة التي أوجدها الله تعالى، كما يُفهَم من منطوق الآية في سياق خطاب القرآن الكريم للنبيّ محمّدﷺ الخاتم لسفر الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام بقوله تعالى ﴿**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[٣]، فهذه الأعداد من الانبياء ما أُرسلت إلّا للهداية والإصلاح و إلقاء الحجّة على العباد. وبالنتيجة لم يوكَّل الإنسان إلى العقل وحده بدون حجّة ونذير، لأنّ الخالق أعرف بعباده، ومن رحمته ولطفه بهم أن عزّز العقل بالرسل، فاستقلال العقل البشري بالهداية والمعرفة تبدو غير متكاملة ومتعثّرة في أحايين كثيرة، كما يفهم من مجمل الآيات الكريمة

١ـ **النبوّة:** ٧.

٢ـ روى الشيخ الصدوق أنّ أبا ذرّ سأل النبيﷺ فقال:قلت:يا رسول الله، كم النبيّون؟ قال:مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبيّ. قلت: كم المرسلون منهم؟قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً. **معاني الأخبار:** ٣٣٣ / ح ١.

٣ـ النساء: ١٦٤ و١٦٥.

الواردة في سورة البقرة، على سبيل المثال الآيات: ١١و٤٤ و٧٣ و٧٦و١٦٤ و٢٤٢، وفي سورة آل عمران: الآيتان ٦٥ و١١٨، وفي سورة الأعراف: الآية ١٦٩ . . وغيرها من الآيات في بقيّة السور، ولكن يبقى للعقل دور في قدح وإثارة كثير من التساؤلات التي قد تكون ضروريّة للوصول إلى أسرار بعض المعارف والحقائق التي يتشوّق لها الإنسان، وربّما كان يراها ضروريّة له في تتميم معارفه الناقصة والمحدودة التي أحسّ بها، أو يكون هناك غرض آخر يختمر في ذهن الإنسان الذي سبقنا في الأعصر التي مرّت.

ومن المؤكّد أنّ الكون والخليقة على الإجمال مملوءة بالأسرار والعجائب والرموز التي يتطلّع الإنسان للتعرّف عليها وفهمها وربّما كانت السماوات والأرضون مثار تساؤل وتأمّل لدى عدد كبير من عقلاء البشر، ولعلّ أدنى صورة وأقربها إلى الذهن البشري، أوبعبارة أخرى إلى العقل الذي يصوّر ويحلّل الأشياء ويقف عندها، بصفته آلة التفكير البشري، صورةُ هذه الأرض التي وَطِئها الإنسان القديم، ونطأها نحن ونحيا عليها، فربّما تساءل ويتساءل عقلاء البشر منذ عهود طويلة عن هذه الأرض وسرّها وبداية تاريخها المجهول للعقل البشري. وربّما كان قوله تعالى ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾[1] إشارة إلى هذا التساؤل، أو تحفيز للعقل على إثارة مثل هذه الأسئلة.

إلّا أنّ السؤال الذي كان يسأله العقلاء، أوينبغي أن يسأله أهل الفكر والمعرفة، والذين عبّر عنهم الكتاب بأُولي الألباب، كانت له إجابة أو إجابات متعدّدة من أولياء الله وخلفائه على مرّ الأعصُر والأزمان، وربّما لم تكن هناك إجابات مدوّنة يمكن الاطمئنان إليها، إلّا ما ورد من شذرات متناثرة رويت عن الأنبياء عليهم السلام والأئمّة

١ـ آل عمران: ١٩٠.

المعصومين عليهم السلام لم يدرك أهل الأخبار قيمتها، أو اضطربوا في تثبيتها، أو كأنّهم لم يفهموها، أو ربّما ضاعت مع ضياع الأشياء الأخرى التي أهملتها ذاكرة الإنسان، فلم نقف نحن، أو لم يكن قد وقف من كان قبلنا على صورة وافية يمكن الركون إليها بعض الشيء، فلا ندري عن تاريخ نشأتها الشيء الكثير، وحتّى من سبقنا، أو من سكن، أو أراد أن يسكن السماوات والأرض، أو يستثمرها أو يعمرها، سواء كان منها، أي من أصل الكائنات التي كانت فيها، أو ممّن هبط إليها من كواكب أخرى، فلم يكن لنا مأثور مدوّن من العلم اليقيني الموثوق الذي يخبرنا بمن فيها من خلق وعهود وأزمان خلت وغبرت، وربّما كانت هذه الأرض التي نحيا عليها وفتنت من قبلنا جرداء قفرة[1] لا حياة فيها ولا عمارة، حتّى كانت أقدام آدم عليه السلام أوّل شيء لامست تراب الأرض وبثّت فيها الحياة، أو كأنّ هناك من الخلق ما يخالف آدم عليه السلام في خلقته، ولكنّه كان يبدو على نحو من الإدراك والفهم الذي يضارع ما لدى الإنسان من عقل، وربّما كان النسناس أقرب إلى الصورة التي يتصوّرها الإنسان عن هذا المخلوق الذي سبق آدم عليه السلام، إن افترضنا ذلك.

وقد تساءل جيل من عصر التشريع عن هذا الخلق الذي سكن الأرض قبل أن يسكن أبناء آدم عليه السلام، وكما روى قطب الدين الراوندي بإسناده إلى عمرو بن أبي المقدام عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنّه سُئل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: هل كان في الأرض خَلقٌ من خلق الله تعالى يعبدون الله قبل آدم عليه السلام وذرّيته؟ فقال عليه السلام: نعم، قد كان في السماوات والأرض خلق من خلق الله يقدّسون الله ويسبّحونه ويعظّمونه بالليل والنهار لا يَفتُرون، وأنّ الله عزّوجلّ لمّا خلق الأرضين خلقها قبل السماوات.

١ـ القفر والقفرة: الخلاء من الأرض، والجمع قِفار وقُفور. **القاموس المحيط** ٢: ٢٠٦.

ثمّ خلق الملائكة روحانيّين لهم أجنحة يطيرون بها حيث يشاء الله، فأسكنهم فيما بين أطباق السماوات يقدّسونه في الليل والنهار ويعظّمونه، واصطفى منهم إسرافيل وميكائيل وجبرئيل. ثمّ خلق عزّوجلّ في الأرض الجنّ روحانيّين لهم أجنحة، فخلقهم دون خلق الملائكة، وحفظهم أن يبلغوا مبلغ الملائكة من الطيران وغير ذلك، فأسكنهم فيما بين أطباق الأرضين السبع وفوقهنّ يقدّسون الله بالليل والنهار لا يفتُرون. ثمّ خلق خلقاً دونهم، لهم أبدان وأرواح بغير أجنحة يأكلون ويشربون، نسناس أشباه خلقهم وليسوا بإنس، وأسكنهم أوساط الأرض على ظهر الأرض مع الجنّ يقدّسون الله الليل والنهار لا يفترون. قال: وكان الجنّ تطير في السماء، فتلقى الملائكة في السماوات فيسلّمون عليهم، ويزورونهم ويستريحون إليهم، ويتعلّمون منهم الخير. ثمّ إنّ طائفة من الجنّ والنسناس الذين خلقهم الله وأسكنهم أوساط الأرض على ظهرها مع الجنّ تمرّدوا وعتوا عن أمر الله، فمرحوا وبغوا في الأرض بغير الحقّ، وعلا بعضهم على بعض في العتوّ على الله تعالى، حتى سفكوا الدماء فيما بينهم، وأظهروا الفساد، وجحدوا ربوبيّة الله تعالى[1].

فظهرت وتبدّت في الأرض آنذاك لوحة قاتمة سوداء لم تكن مرادة للمخلوقات التي سبقت آدم عليه السلام، ربّما أثارت اشمئزاز وتعجّب الملائكة الذين لايعرفون غير الطاعة والتقديس للذات الإلهيّة، كما وتعلم الملائكة أنّ الذات الإلهيّة لاترتضي الفساد والكفر والانحراف لما يخلق الله تعالى عزّوجلّ من مخلوقات، ومن هنا كأنّ ما جرى للملائكة من محاورة وسؤال تقديسي للذات الإلهيّة، والذي أشير له في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

١ـ قصص الأنبياء ١: ١٧٩ـ١٨٠.

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1] ربّما يومي إلى هؤلاء الطائفة من الجنّ والنسناس، أو نحوهم من المخلوقات التي لايعلمها إلّا الله الذي خلقها وأوجدها والتي سبقت الإنسان في الأرض، وكما أشار إليهم الإمام عليّ عليه السلام في الخبر المذكور. وربّما قد تتزاحم التصوّرات والرؤى والأوهام في الذهن البشري، عند قوم دون غيرهم، فتنتهي بهم إلى التشكيك في وجود حياة لمخلوقات خلقها الله في الأرض، أو نفي الوجود البشري، أو الوجود المناظر الآخر الذي غاب عن أعيننا، والذي قد يدخل فيما اصطُلح عليه بعالم الجنّ والأرواح، فيما سلف ومرّ على هذه الأرض من أزمان وأحداث. وربّما كانت هناك مخلوقات أعظم وأكثر ممّا أخبرتنا الروايات الواصلة إلينا، ولعلّه لم تضبط صورتَها ألسنة الرواة فأهملتها، أو لأنّها لم تكن قابلة للتصديق، أو حرّفتها أقلام الوضّاعين عن حقيقتها فتساقطت أخبارها مع تقادم الأيّام.

وعلى العموم، لايمكن للأرض التي خلقها الله ضمن مجموعة من الكواكب العظيمة الدائرة والسائرة بعلمه وتقديره أن تكون خالية من أرواح وأبدان مخلوقاته الهائلة المتنوّعة التي ملأت الأجرام والكواكب، ومهما كشف الإنسان أو توصّل إلى بعض هذه الأسرار والحقائق، فهناك طائفة من الكائنات لم يَسَع العقل البشري إدراكها واستكناهها. ومن المؤكّد في حسابات العقلاء لابدّ لهذه الخلائق الهائلة من توجيه وقيادة ورسائل وخطابات واتصالات عبر شخص أو قوىً تكون واسطة توصيل لها، لتفهم دورها، أو واجباتها، وحكمة وجودها وخلقها. وهذه لا تتمّ إلّا لشخص أو عدّة من جنس البشر، لأنّ الإنسان هو أرقى المخلوقات وأرفعها، وانتخاب واحد من

١ـ البقرة: ٣٠.

البشر هنا يكون ضرورياً، وفقاً لقياسنا العقليّ، وكما أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1]، وبالتأكيد هذا الشخص، وفقاً لاختيار الخالق وإرادته، يكون كاملاً ومسدّداً، ويتّصف بصفات أخلاقيّة ممتازة تغاير سائر البشر، فهو لايتنازع مع العباد ولا يخاصمهم في يوميّات حياتهم وتفصيلاتها، ولا يشاطرهم في ضلالاتهم أو جهالاتهم، ولا يكون منافساً لهم ينتزع منهم ما يقوّم حياتهم، فهو شخص مختار مصطفى متكامل بالدلالة والإشارة، أُمر أن يمارس دور القيادة والريادة والهداية معاً، وأن يأخذ بأيديهم نحو الفلاح والصلاح.

وهناك أدوار ومهمّات أخرى يتمّ إناطتها بخليفة الله في الأرض قد لا نفهمها نحن، فالمخلوقات الغائبة عن أعيننا أو التي لا نتمكّن من التفاهم معها يأخذ بزمامها خليفة الله الذي يتمكّن ـ بما أعطاه الخالق من طاقة وقدرة ـ من أن يدير، أو يتخاطب أو يجيب عن أسئلة هذه المخلوقات، أو يكون سفيراً للخالق يذكّرها أو يبلّغها رسالة الخالق، فهو لكلّ ما خلق الله، سواء كانت الرسالة التي يحملها لهذه المخلوقات أو لغيرها، فلهذه المخلوقات عقول وأحاسيس ومشاعر وغرائز وفقاً لتكوينها يدركها الشخص المصطفى المختار، فلولم يكن لهذه الكائنات من الحسّ والشعور والدراية بما يناسب تكوينها، لَما أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2]. ومن هذا المنطوق القرآني يظهر لنا أنّه لابدّ من وجود واسطة، أو وسيلة لها نوع من القدرة والمواصلة والارتباط، أو توثيق المراسلة ونحوها، والتي تكون بين هذه المخلوقات والخالق.

---

١ ـ الجمعة: ٢.

٢ ـ الإسراء: ٤٤.

وهذه المخلوقات تفكّر وتتدبّر وفقاً لمداركها، ولها قياس كأنّه قياس عقلي، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[1]، فالقرآن يحكي هنا عن نفر من الجنّ وكأنّهم واعون استمعوا القرآن وتدبّروه، ورجعوا به إلى قومهم مخوّفين لهم من معاصي الله، وأنّهم قالوا: إنّا سمعنا كتاباً، يعني القرآن قد أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه، يعني التوراة، يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم. وحُكي أنّهم قالوا: يا قومنا أجيبوا داعي الله، يعنون محمّداً صلى الله عليه وآله إذ دعاهم إلى توحيده وخلع الأنداد[2]. وكذا الأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾[3]، وهذه الكائنات قد تتعامل مع الإنسان وتضع طاقاتها لخدمة الإنسان أو غيره، فتبدو كأنّ هذه المخلوقات كانت حاضرة بين يدي الإنسان، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[4].

ومن خلال هذه النصوص الموثّقة نصل إلى حقيقة وجود هذه المخلوقات التي لايمكن أن نراها أو نتّصل بها، ولكن هناك واسطة بين هذه المخلوقات وبين خالقها لايمكن أن تتجاهلها الأخبار، والمروي في الأخبار أنّ هذه الواسطة هو النبيّ والوصيّ، المعبَّر عنه بالخليفة في الآية، فالنبيّ ومن بعده الوصيّ، بما أعطاه الله

١ـ الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.

٢ـ **التبيان في تفسير القرآن**، للشيخ الطوسي ٩: ٢٨٣.

٣ـ الجنّ: ١.

٤ـ سبأ: ١٢.

ووهبه من طاقات وقدرات، هو الذي يأخذ بيد هذه المخلوقات، لأنّه يفهم لغتها و إشاراتها ومخاطباتها، فلربّما لاتتمكّن قوّة أوأيّ شيء آخريمكن له أن يتواصل مع هذه المخلوقات غير النبيّ والوصيّ، والذي ربّما كانت، أو كادت رسالته بمعناها الشمولي تعني هذه المخلوقات فيما عنت، أويكون دليلها نحو الخالق المنعم الذي خلق هذا الكون العظيم الهائل بكلّ موجوداته وعجائبه. وفي خبر روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال حول بعض هذه المخلوقات التي يطلق عليها مصطلح الجنّ: إنّهم لَأطوعُ لنا منكم يا معشر الإنس[1].

وقد يدرك العقل البشري ببداهة، أو بعد جهد وتأمّل، أنّ هذا الكون المذهل المملوء بالأسرار والخفايا والذي يسير بقانون دقيق، قد وضعه وصوّره وقدّره بدقّة متناهية خالقٌ عالم قاهر ذلّل كلّ شيءٍ وأخضعه لسلطانه وقدرته اللامتناهية، وهو الخالق الواحد الأحد، القادر الحكيم الذي أحكم كلّ شيءٍ وأتقنه، وقدّره وسيّره بقانون وضعه لوحده، بلا شريك ولا معين ولا ناصر، في نظام خَلقٍ بديع باهر. ويعطي القرآن الكريم صورة عن وصف هذا الخالق العظيم الجبّار بالقول: ﴿**بَدِيعُ السَّمواتِ وَالأرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[2].

والوكيل هنا بمعنى المسيطر والمهيمن[3]، أو بمعنى الزعيم أو الكفيل[4]، وكأنّ الآية تلخّص القدرات العظيمة والمخلوقات الهائلة في هذا الكون، وتلمّح إلى

١ـ **بصائر الدرجات**، للصفّار القمّي: ١٢٣/ ح ١٥ـ الباب ١٨، الفصل الثاني.

٢ـ الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٢.

٣ـ **النظائر**، لمقاتل البلخي: ١٤٥. قيل: أي مُتَوليّ الأمور و مدبّرها و حافظها. تفسير شبّر.

٤ـ **تفسير غريب القرآن**، للطريحي: ٤٨٥.

هذا الإبداع الهائل العجيب الذي صُنع بقدرة واحد غنيّ مستغنٍ مكين بوحدانيته وجبروته. وهناك توضيحات أورتبما تكون تفصيلات لخلق الله تعالى وإبداعه للوجود المملوء بالأسرار والعجائب، تناول بعضها النبيّ ﷺ والأئمّة المعصومون عليهم السلام، لكن لم تضبطها الرواية البشريّة. وهذا الشرح والبيان عبر بعضُه الأزمان ليصل إلينا، وكما جاء بعض هذا الشرح والبيان في كلام وخطب الإمام عليّ عليه السلام، ومن ذلك ما جاء في وصف صنعه وخلقه تعالى للكون والوجود، في قوله عليه السلام: أنشأ الخَلقَ إنشاءً، وابتدأه ابتداءً [1]، بلا رَويةٍ أجالها، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا هَمامةِ نفسٍ اضطرب فيها، أحال الأشياءَ لأوقاتها، ولَأَمَ بين مُختَلِفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها (وفي نسخة: أسناخَها) [2]، عالِماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأَحنائها... [3].

١ـ قال ابن ميثم البحراني في شرحه: المفهوم من الإنشاء هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إليه، والمفهوم من الابتداء هو الإيجاد الذي لم يقع من الموجد قبل، والرويّة: الفكر، وهمامة النفس: اهتمامها بالأمور. ومن روى همامة نفس، فالمراد ترديد العزوم، مأخوذ من الهمهمة، وهي ترديد الصوت الخفيّ، وروي أيضاً: همّة نفس. والإحالة: التحويل والنقل والتغيير والانقلاب من حال إلى آخر. وروي أيضاً بالجيم، وروي أيضاً: أجَل، أي وقّت، والملاءمة: الجمع، والغرائز: جمع غريزة، وهي الطبيعة التي طبع عليها الإنسان كأنّها غُرزت فيه، والسِّنخ: الأصل، وروي: أشباحها جمع شبح، وهو الشخص، والقرائن: جمع قرينة وهي ما يقترن بالشيء، والأحناء: جمع حنو وهي الناحية.. **شرح نهج البلاغة** ١: ١٣٢.

٢ـ قال الشيخ محمّد تقي التستري: وألزمها أشباحها، هكذا في المصرية وابن أبي الحديد، ولكن في ابن ميثم: أسناخها. **نهج الصباغة في شرح نهج البلاغة** ١: ١٥٠.

٣ـ **نهج البلاغة**: الخطبة الأولى، يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم. يقول ابن ميثم: لمّا نبّه عليه السلام على نسبة إيجاد العالم إلى الله تعالى جملةً أشار بعده إلى أنّ ترتيبه وما هو عليه ←

من بديع الصنع والحكمة كان مفصّلاً في علمه. وعلى وفق حكمته البالغة قبل إيجاده. والمراد بقوله: أجال الأشياءَ لأوقاتها، الإشارة إلى ربط كلّ ذي وقت بوقته بحسب ماكُتب في اللوح المحفوظ بالقلم الإلهيّ بحيث لا يتأخّر متقدّم ولايتقدّم متأخر منها. ومعنى الإجالة نقل كلّ منها إلى وقته، وتحويله من العدم والإمكان الصرف إلى مدّته المضروبة لوجوده. واللام في لأوقاتها، لام التعليل. أي لأجل أوقاتها إذ كلّ وقت يستحقّ بحسب قدرة الله وعلمه أن يكون فيه ما لايكون في غيره، وعلى النسخة الأخرى: فمعنى تأجيلها جعل أوقاتها أجَلاً لها لاتتقدّم عليها ولاتتأخر عنها، كما قال ﴿**إذا جاءَ أجَلُهم لا يَستقدِمونَ ساعةً ولايَستأخرون**﴾. ونبّه بقوله: ولأَمَ بين مختلفاتها، على كمال قدرة الله تعالى، وبيان ذلك في صورتين: إحداهما أنّ العناصر الأربع متضادّة الكيفيات، ثمّ إنّها إذا اجتمعت بقدرة الله تعالى وعلى وفق حكمته حتّى انكسرت صورة كلّ واحد منها بالآخر، وهو المسمّى بالتفاعل، حصلت كيفيّة متوسّطة بين الأضداد متشابهة وهي المزاج، فامتزاج اللطيف بالكثيف على ما بينهما من تضادّ الكيفيّات وغاية البعد بقدرته التامّة من أعظم الدلائل الدالّة على كمالها، الثانية أنّ الملائمة بين الأرواح اللطيفة والنفوس المجرّدة التي لاحاجة بها في قوامها في الوجود إلى مادّة أصلاً وبين هذه الأبدان المظلمة الكثيفة واختصاص كلّ نفس ببدن منها وتدبيره واستعماله فيما يعود إليها من المصالح على النظام الأقصد والطريق الأرشد، ممّا يشهد بكمال قدرته ولطيف حكمته. وقوله: وغرّز غرائزها، إشارة إلى ركن القوى الجسمانيّة النفسانيّة فيما هي قوىً له، وخلق كلّ ذي طبيعة على خلقه ومقتضى قواه التي غُرزت فيه من لوازمه وخواصّه، مثلاً كقوّة التعجّب والضحك للإنسان، وقوّة الشجاعة للأسد والجبن للأرنب، والمكر للثعلب، وغير ذلك، وعبّر عن إيجادها فيها بالغرز، وهو الركز استعارةً لما يَعقل من المشابهة بينها وبين العود الذي يركّز في الأرض من جهة المبدأ وجهة الغاية، وذلك أنّ الله سبحانه لمّا غرّز هذه الغرائز في محالّها وأصولها، وكانت الغاية من ذلك ما يحصل منها من الآثار الموافقة لمصلحة العالم أشبه ذلك غرز الإنسان العود في الأرض لغاية أن يُثمر ثمرة منتفعاً بها. وقوله: وألزمها أسناخها، إشارة إلى أنّها لاتفارق أصولها ولايمكن زوالها عنها، لأنّ اللازم هذا شانه، ومن روى: أشباحها، بالشين المعجمة ، فالمراد أنّ ما غرّز ←

وكلّ هذه العظمة المتجلّية في الخلق والوجود بحاجة إلى تذكير مستديم، والتفاتة وتأمّل لايمكن لغير من يملك العقل أن يدرك بعض هذه الأسرار، و لكي يتدبّر الإنسان في الحكمة الإلهيّة والغاية المرجوّة منها.

ولأجل أيّ شيء وضع هذا الكون، وما الذي يراد من المخلوق، ولكي يتعرّف الإنسان بعض المراد من حكمة وغاية الصانع القادر الحكيم، لابدّ من عون ودليل ومرشد يختاره الله لأداء هذا الدور، إضافة إلى الأدوار الأُخر أيضاً، فلذا كانت للأنبياء درجات، فمنهم من كانت له معرفة وقدرة في جانب اختاره الله له ليقوم بدوره دون غيره، ومنهم من أعطاه قدرات هائلة تجاوزت عالم وسلطة الإنس، كما جرى لسليمان وداود عليهما السلام، حيث أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا**

في الإشخاص من اللوازم والغرائز لاتفارقها، سواء كانت تلك الغرائز من لوازم الشخص كالذكاء والفطنة بالنسبة إلى بعض الناس، والبلادة والغفلة لآخر من لوازم الماهيات وطباعها لوجود الماهيات في أشخاصها، هذا إن قلنا: إنّ الضمير في قوله:وألزمها، عائد إلى الغرائز، أمّا إن قلنا:إنّه عائد إلى الأشياء، كان المراد أنّ الله سبحانه لمّا أجال الأشياء لأوقاتها ولاءم بين مختلفاتها وغرّز غرائزها في علمه وقضائه، ألزمها بعد كونها كلّية أشخاصها الجزئيّة التي وجدت فيها، لايقال: إنّ لوازم الماهيات مقتضى الماهيات، فكيف يمكن نسبة إلزامها لأصولها إلى قدرة الله تعالى، لأنّا نقول: المستند إلى ماهية الملزوم ليس إلّا ماهيّة لازمة، وأمّا وجوده له فبقدرة الله تعالى، فيكون معنى إلزامها لأصولها إيجادها في أصولها تبعاً لإيجاد أصولها على تقدير وجودها. قوله:عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها. المنصوبات الثلاثة وهي قوله: عالماً ومحيطاً وعارفاً، منصوبة على الحال، والعامل فيها قوله:ألزمها إعمالاً للأقرب، والأحوال الثلاثة مفسّرة لمثلها عقيب الأفعال الثلاثة الأُوَل.. **شرح نهج البلاغة** ١: ١٣٥_١٣٦.

أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[1]. فهذا الدور الكبير والعطاء العظيم لداود وسليمان عليهما السلام الذي تجلّى في العلم والقدرة على تسخير الإنس والجنّ والطير، وغير ذلك من المواهب التي كانت وُضعت بين أيديهما، ما جاءت لهما إلّا ليُري الله تعالى عباده سلطانه العظيم؛ لكي يعبدوه ويقرّوا بالوحدانية، ولكي يفهم الإنسان أو يتمكّن من الوصول إلى بعض الحقائق المذهلة في الكون، ولكي يخطو بعقله لأداء الشكر المتوجّب على الإنسان. أو كأنّ هناك إثارة أو إذكاء لإدراكٍ أو تذكيرٍ بجزء أو بطائفة من نعم الله التي لاتُعدّ ولاتحصى، ولكي يعرف الإنسان أنّ جبروت الله وقدرته لاحدود لهما، وأنّ ما لديه تعالى من ممالك وعوالم هائلة ينبغي للإنسان أن يتأمّل فيها، ويتساءل عن الخالق المدبّر لهذا الكون العظيم الزاخر بالعجائب....

وكأنّ الدور الإرشادي والتعليمي، أو الرسالة التي تأتي من السماء، في أوّل الأمر أو ابتدائه، وعلى ما ورد من أخبار وآيات قرآنيّة، تُنقل إلى طائفة من الملائكة، كما يفهم من قوله تعالى: **﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾**[3]. وفي حوار لإبراهيم عليه السلام مع هؤلاء الرسل قال تعالى: **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا**

١ـ النمل: ١٥ـ ١٧.

٢ـ فاطر: ١. قال السيّد محمّد حسين الطباطبائي: جاعل الملائكة رسلاً، يُشعر بل يدلّ على كون جميع الملائكة رسلاً وسائط بينه وبين خلقه في إجراء أوامره التكوينية والتشريعية. **الميزان في تفسير القرآن** ١٧: ٦.

٣ ـ هود: ٦٩ـ ٧٠.

﴿الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ * فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾[1]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[2]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[3]، وكما جاء في قصّة السامري حين سُئل عن بدعته وفريته، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[4]، وكما جاء في سرد قصّة مريم عليها السلام حيث قال تعالى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾[5]. وغيرها من الآيات التي تحكي وتبيّن الدور الأوّل أو المرحلة الأولى من الرسالة أو الخطاب السماوي. وقد نقل نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله صورة من هذا الدور الذي كان يتلقّى ويتّصل به مع السماء مِن قبل الملائكة بقوله صلى الله عليه وآله: ألا أُخبركم عنّي وعن ملائكة ربّي !البارحة حفّوا بي عند رأسي وعند رِجلي، وعن يميني وعن يساري، فقالوا: يا محمّد، تنام عينك ولا ينام قلبك، فليقل قلبك ما نقول، فقال بعضهم لبعض: اضربوا لمحمّد مثلاً، مَثلُه كمَثل رجل بنى داراً وبعث داعياً يدعو، فمَن أجاب الداعي دخل الدار وأكل ممّا فيها، ومن لم يُجِبِ الداعي لم

١ـ الحجر: ٥٧ـ٦٢.

٢ـ العنكبوت: ٣٣.

٣ـ المرسلات: ١ـ٦.

٤ـ طه: ٩٦.

٥ـ مريم: ١٧ـ١٩.

يدخل الدار ولم يأكل ممّا فيها، وسخط السيّد عليه. فالله السيّد، ومحمّد الداعي، فمن أجاب محمّداً دخل الجنّة وأكل ممّا فيها، ومن لم يُجب محمّداً لم يدخل الجنّة ولم يأكل ممّا فيها[1].

فهنا أو في موقع أو مشهد آخر تمارس الملائكة دورها المقدّر لها، فهم يؤدّون دورهم كوسائط بين الله وبين العالم المشهود، وَكَلَهم الله بأمور العالم التكوينية والتشريعية، عباد مكرمون لايعصون الله فيما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون[2]، في نظام متقن مقنّن وكأنّه المرحلة الأولى أو الخطوة الرسالية الأولى. ومن ثمّ تأتي مراحل أخرى للرسالة السماوية أو الخطاب السماوي ينقلها الأنبياء للمخاطبين المكلّفين، ومن ثمّ يأتي الدور التكميلي للرسالة والخطاب السماوي الذي يتحمّل مسؤوليته الأوصياء، وربّما كان لهذا الدور من المصاعب مالا يقل عن المصاعب التي لقيها

---

١ ـ **كنز العمّال** ١: ٢٠٣ / خ ١٠١٧.

٢ ـ **تفسير الميزان** ١٧: ٦. قال البلخي: قال قوم: هم مضطرّون إلى أفعالهم مجبورون عليها. وروي عن ابن عبّاس أنّه قال في قوله تعالى: ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ الأنبياء: ٢٠. أنّ التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس لنا. وقال آخر: هم مكلّفون مجبورون. لأنّ الله تعالى يقول: ﴿ **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ** ﴾ الأنبياء: ٢٩. ولايصحّ الوعيد على غير المقدور عليه وقد قال: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ البقرة: ٣٠، فدلّ هذا القول منهم على اختيارهم: وقال ﴿ **لايَعْصونَ اللهَ ما أَمَرهم ويَفعلُون ما يُؤمَرون** ﴾، ولو لم يكونوا قادرين على المعصية لَما كان يمدحهم بترك المعصية. ويعني قوله ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ مدح لهم على المواظبة على الطاعة، أو لايقطعهم عنها ما يقطع الناس من الحوائج والأشغال.. وقال: وروينا عن كعب أنّه قال: ركّب الله في الملائكة العقل بلا شهوة. **البدء والتاريخ**: ٧٠ ـ ٧١.

الأنبياء في دور النبوّة، وقد أشارت بعض الأخبار إلى أنّ أئمتنا عليهم السلام كان لهم اتّصال مع الملائكة شأنهم شأن الأنبياء والأوصياء، والمحقّق في أخبار المسلمين حدوث اتّصال سابق ومن زمن سحيق مع الملائكة، يقول الشيخ محمّد باقر المجلسي: وكانوا يراهم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام[1]. كما تفيد ذلك رواية الأعمش[2] أنّه قال: قال لي أبو محمّد الواقدي وزرارة بن خلج: لقيتُ الحسين بن عليّ عليه السلام قبل أن يخرج إلى العراق بثلاث، فأخبرناه ضعف الناس بالكوفة وأنّ قلوبهم معه وسيوفهم عليه، فأومأ بيده نحو السماء ففُتحت أبواب السماء ونزلت الملائكة عدداً لايحصيهم إلّا الله عزّوجلّ، فقال: لولا تقارب الأشياء وهبوط الأجر لَقاتلتُهم بهؤلاء، ولكن أعلم علماً أنّ من هناك مصعدي، وهناك مصارع أصحابي لاينجو منهم إلّا ولدي عليّ[3]. ومن هذه الأخبار أيضاً ما رُوي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: إنّ الملائكة لَتنزل علينا في رحالنا، وتتقلّب على فُرشنا، وتحضر موائدنا، وتأتينا من كلّ نبات في زمانه رطب ويابس، وتقلّب علينا أجنحتها، وتقلّب أجنحتها على صبياننا، وتمنع الدواب أن تصل إلينا، وتأتينا في كلّ وقت صلاة لتصلّيَها معنا، وما من يوم يأتي علينا ولا ليل إلّا وأخبار أهل الأرض عندنا وما يحدث فيها[4].

١ـ **بحار الأنوار** ٥٩: ٢٠٣.

٢ـ الأعمش: هو سليمان بن مهران أبو محمّد الأسديّ، مولاهم الكوفيّ، معروف بالفضل والثقة والجلالة والتشيّع والاستقامة. **سفينة البحار** ٣: ٦٩٢ (عمش).

٣ـ **الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم**، للشامي: ٥٣٠. وعليّ هنا هو الإمام المعصوم الرابع عليّ بن الحسين السجّاد عليه وعلى آبائه وأبنائه آلاف الصلوات.

٤ـ **بحار الأنوار** ٢٦: ٣٥٦/ح ١٨ـ عن: **بصائر الدرجات**: ١١٥/ ح٢١، وكما جاء في خبر مثله من رواية رواية القطب الراوندي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: نحن الذين إلينا تختلف ←

فالحلقة أو الدائرة الرسالية تبدأ بالملائكة، ثمّ الأنبياء، وتنتهي بأوصيائهم، وكأنّهم جميعهم هم المكلّفون والمأمورون بهذا الدور العظيم، والذي يؤدّي بهذه الكائنات والمخلوقات المرئيّة وغير المرئيّة ـ والبشر منهم ـ إلى مسار وطريق يوصلها إلى العلم والمعرفة الإدراكية، والعبودية والطاعة المرادة بقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[1]، أي خلقهم للأمر والنهي والتكليف، وليست خلقتهم جبراً أن يعبدوه، ولكن خلقتهم اختياراً، ليختبرهم بالأمر والنهي، ومن يطيع ويعصي[2]. والمروي عن ابن عبّاس: ليتقرّبوا إليّ بالعبودية طوعاً وكرهاً[3]. والعبادة ضرب من الشكر وغاية منه، لأنّها الخضوع بأعلى مراتب الخضوع مع التعظيم بأعلى مراتب التعظيم، ولايستحقّ إلّا بأصول النعم التي هي خلق الحياة والقدرة والشهوة، ولايقدر عليه غير الله تعالى، فلذلك اختصّ سبحانه بأن يُعبَد ولايستحقّ بعضنا على بعض العبادة، كما يستحقّ بعضنا على بعض الشكر[4]. وربّما كانت صورة من صور العبودية في أذهان بعض العارفين هي درك وشعور وإحساس، وبعبارة أخرى هي تفكّر قبل أن تكون طقساً وأداء، ولعلّ ما كتبه العارف العابد السيّد هاشم الموسوي الحدّاد في رسالة له لتلميذ من تلامذته أقرب إلى هذا الاتّجاه الذي نقوله، حيث

الملائكة. منّا مَن يسمع الصوت ولايرى الصورة، وإنّ الملائكة لَتُزاحمنا على تُكأتنا، وإنّا لنأخذ من زغبهم ونجعله سخاباً لأولادنا. **الخرائج والجرائح** ٢: ٨٥١/ ح٦٦.

١ ـ الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.

٢ ـ **تفسير القمّي** ٢: ٣٠٦.

٣ ـ **التبيان في تفسير القرآن** ٩: ٣٩٧.

٤ ـ **مجمع البيان** ١: ١٠١.

يقول في رسالته:حقيقة العبوديّة كون العبد بتمام لواحقه مِلكاً خالصاً لله تعالى، باعتبار أنّ جميع الموجودات مملوكاته بالاستحقاق لا بالإنفاق. فحقيقة العبادة انتباه النفس وتذكّرها لهذا العمل. والمعنى أنّ الإنسان لايملك حالاً، ولا مالاً، ولا موتاً ولا حياةً، ولا، ولا، ولا..[1]. وكأنّ العبادة هنا في تصوّر هذا العابد عبادة أساسها اعتقاد وإحساس بالمملوكيّة المطلقة، ولاتعني الطقوس التقليدية المتعارف عليها من صلاة وصيام ووقوف بين يدي الله تعالى في الحجّ والعمرة وحدها دون إدراك أغراضها ومعانيها، وإنّما هي عبودية العرفان والتدبّروالتفكّر، والاستعداد للصلاح والخلوص وتهذيب النفس.

وهناك من يفهم العبادة فهماً لعلّه يكون أوسع وأشمل، يقول السيّد محمّد حسين الطباطبائي:ولوكان المراد هوالصلاح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هوالعبادة، كما أنّ نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح، من قيام وركوع وسجود ونحوها، غرض مطلوب لأجل غرض آخرهوالمثول بين يدي ربّ العالمين بذِلّة العبودية وفقرالمملوكيّة المحضة قبال العزّة المطلقة والغنى المحض، كما ربّما استُفيد من قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**﴾[2]، حيث بدل العبادة دعاء. فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلّة والعبوديّة وتوجيه وجهه إلى مقام ربّه، وهذا هومراد من فسّر العبادة بالمعرفة، يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة، فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة، وهي أن ينقطع العبد عن نفسه، وعن كلّ شيء، ويذكرربّه.

---

١ ـ نقل هذه الرسالة السيّد محمّد حسين الحسيني الطهراني في كتابه **الروح المجرّد**: ٤٥٧.

٢ ـ الفرقان: ٧٧.

هذا ما يعطيه التدبّر في قوله تعالى ﴿وما خَلَقْتُ الْجِنَّ و الإنسَ إلّا لِيَعبُدونِ﴾[١]، ولعلّ تقديم الجنّ على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس، قال تعالى ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[٢]، والعبادة هي غرض الفعل، أي كمال عائد إليه لا إلى الفاعل. ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لايعبده، كما يفيده أيضاً قوله ﴿قُلْ ما يَعْبَأُبِكُم ربّى لَولا دُعاؤُكُم﴾[٣].

وربّما عنت الآية عدّة من الصالحين الذاكرين العابدين المسبّحين الداعين، الذين عرفوا الله معرفة يقينية أرادها الله لهم، فكانوا المَثَلَ والنموذج الذين بهم يُحتذى وتتمّ معرفة الله وعبادته، فالإمام عليّ بن الحسين السجّاد والملقّب بزين العابدين عليه السلام يعتبر هو خير تجسيد للآية، فهو ممّن عُرفوا بالعبادة الواعية، فكان قوله وفعله ونومه وسلوكه عليه السلام دعاءً وابتهالاً وخضوعاً إلى الله تعالى، وإن كان أهل بيت النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله من الذين عنتهم آية التطهير، معبداً ناطقاً لا نظير له، فصوت الدعاء والعبادة الصادقة لا يتجسّد ولا يتمثّل إلّا بأهل البيت عليهم السلام، وهم مع جدّهم النبي صلى الله عليه وآله كانوا أبرز أعلام العابدين العارفين الذين جسّدوا العبودية الحقيقيّة الواعية، وللإمام السجّاد عليه السلام لون ونكهة وصفة ربّما تكون جامعة معاً لصورة العبودية الخاصّة بأهل البيت عليهم السلام، والمعبّرة عن فهمهم وإدراكهم للطاعة والعبودية المرادة، يقول السيّد عبد الرزّاق الموسوي المقرّم في وصف عبادة الإمام السجّاد عليه السلام: فهو يعبد الله تعالى كأنّه يراه، ويخافه كأنّه ينظر إليه، وجلال المهيمن وعظمته متجلّية لديه في كلّ الأحوال، إذاً فلا غروَ فيما تتحدّث به الرواة عن

١ـ الذاريات (٥١): ٥٦.

٢ ـ الحجر: ٢٧.

٣ ـ **الميزان في تفسير القرآن** ١٨: ٣٨٨.

الخشية والرهبة التي تملؤه عند المثول أمام المولى عزّشأنه لأداء فرضه فتضطرب أعضاؤه، وإذا دخل في الصلاة لم يتحرّك منه شيء إلّا ما حرّكته الريح، وإذا قيل له في ذلك يقول: أتدرون إلى مَن أقوم! ومَن أريد أن أناجي !إنّي أريد أن أتأهّب للقيام بين يَدَي مَلك عظيم. فإذا دخل في الصلاة اصفرّ لونه، ويصلّي صلاة مودّع لايصلّي بعدها، وإذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يغمره العرق..[1]. يروي ابن حجر العسقلاني عن إبراهيم بن محمّد الشافعي عن ابن عُيَينة قال: حجّ عليّ بن الحسين عليه السلام، فلمّا أحرم واستوت به راحلته اصفرّ لونه وانتفض ووقع عليه الرِّعدة[2]، ولم يستطع أن يلبّي، فقيل له: ما لك لا تلبّي !فقال:أخشى أن أقول لبّيك، فيقال لي: لا لبّيك، فقيل له:لابدّ من هذا، فلمّا لبّى غُشيَ عليه وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتّى قضى حجّه. وعن مصعب الزبيري عن مالك: لقد أحرم عليّ بن الحسين عليه السلام، فلمّا أراد أن يقول: لبّيك، قالها فأُغمي عليه[3].

فهل يمتلك شخص غيره هذا الحسّ العبادي الفريد ! وكأنّه عليه السلام كان خلاصة الأديان ولوحة تجمّعت وتراءت فيها عبادات العابدين على مرّ الأعصر والأزمان، وربّما يرى المسلم وغير المسلم أيضاً في هذه الصور أنّ الإمام السجّاد عليه السلام يجسّد معالم التوحيد في محراب دعائه، وينقله إلى عالم الموحّدين الذين تتداعى صورهم في تراتيل مناجاته وتسبيحاته وابتهالاته وصحائف أدعيته التي تُبدّد سكون الليل ووحشته . . ولاشكّ أنّ الأديان السماوية بمجملها كانت تؤكّد وحدانية

١ـ **الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام** : ٣٢٤.

٢ـ الرعدة، بكسر الراء:النافض يكون من الفزع وغيره. والارتعاد: الاضطراب. **لسان العرب** (رعد).

٣ـ **تهذيب التهذيب** ٧: ٣٠٦.

الله تعالى، وتدعو إلى عبوديّته، وكأنّه عليه السلام كان يختزن أصوات الداعين في حناياه ويعيد إطلاقها من حنجرته ملوّنة بأجنحة الرياحين ومكلّلة بتلاحين الأزمان، فحين يلج الداعي في أسرار عباراته عليه السلام، ويقف على معانيها المليئة بالصور الزاخرة، يجد صور الرهبان العابدين، ويسمع صدى الداعين والساجدين في نغمات ماثلة أمامه، وكأنّها تبحر في مراكب الماضي السحيق لترسو في محاريب تراتيله، وكأنّه يسمع أصوات الأنبياء وأنفاسهم تترشّح من سطور عباراته، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، إنسان وغيره، كلّهم يشاركونه عليه السلام في ترتيلٍ واحد منسجم في التحميد والتمجيد. وقد تتناغم مع هذه الأصوات البشرية المقدّسة ألحان الأطيار والأحجار في نسق جميل متآلف مع نسمات الأسحار الملأى بعبق الذاكرين الذين أنطقهم حبّ الله بجميل اللفظ وروائع الأنغام.. فكأنّ صحائف العبادة وأسفار الأديان السماوية، بما في ذلك ختامها الإسلام، قد تجسّدت بحقيقتها وجوهرها بشخص الإمام السجّاد عليه السلام، الذي عرف معنى عبودية الله وهجران عبودية الإنسان للإنسان، بل جاهد أن يمحو معنى الرقّ والعبودية البشرية من تاريخ الإنسان، فكم كان يضايقه ويزعجه، بل يؤرّقه ويدفع عنه لذيذ النوم حين يرى الإنسان يخرج من عبودية الله الخالق، ويعيش ذليلاً خانعاً مقيّداً بأغلال أخيه الإنسان.

إنّ الإسلام جاء ليعطي الإنسان معنى الحرّية التي تعبّر عن حقيقة المبادئ العظيمة والمثل والقيم السامية التي كان يترجمها ويجسّدها آل البيت عليهم السلام، وكأنّ التاريخ البشري كان ينتظر ويتشوّق ليرى الشخص الأجدر والأولى بهذا التجسيد، فكان له عليّ بن الحسين عليه السلام الذي تراءى لنا شامخاً بهذه الصورة الرائعة، والناطقة بمعنى العبودية والعرفان. يقول الكاتب حسن الأمين: ومَن أَولى من الإمام زين العابدين بالأخذ بحقيقة الإسلام وجوهره أخذاً كاملاً! وقد عمل بهذا النهج في كلّ

شؤون حياته، لاسيّما بشأن الرقّ، بحيث يحقّ لنا أن نطلق عليه لقب محرّر العبيد، ففي الوقت الذي كانت تمتلئ قصور الحكّام بالأرقّاء نساءً ورجالاً، وكانت الدولة تُسيء تطبيق تعاليم الإسلام، كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقود حملة تحرير الرقيق، ويجعل من نفسه في ذلك قدوة للشعب، وكانت سيرته كما يلي: أوّلاً ـ كان عندما يصل الأرقّاء إلى يده يعاملهم معاملة الأندّاء، فإذا أخطؤوا لم يعاقبهم، بل يسجّل أخطاءهم في دفتر عنده وينتظر حتّى يأتي عيد الفطر، فيجمعهم ويعرض عليهم أخطاءهم، ملاطفاً لهم، فيعترفوا بتلك الأخطاء، فيقول لهم: عفوتُ عنكم، فهل عفوتم عنّي ماكان منّي إليكم ؟ فيقولون: قد عفونا عنك، وما أسأت! فيقول: قولوا: اللهمّ اعفُ عن عليّ بن الحسين كما عفا، ثمّ يحررهم ويعطيهم بعض المال ليبدؤوا حياتهم الجديدة. ثانياً ـ لم يكن يُبقي عنده عبداً سنة كاملة، بل كان يشتريهم في الشهور التي تسبق شهر رمضان ليسرع في تحريرهم وقت العيد، وكذلك كان يفعل في عيد الأضحى، فهو يشتري العبيد وليس له حاجة بهم، فإذا جاء وقت الحجّ خرج بهم إلى عرفات، فإذا انتهى الحجّ حرّرهم وزوّدهم بالمال. ولم يكن ينقص عدد المحررين في كلّ عيد عن العشرين إنساناً[1].

وكأنّه كانت يده عليه السلام مبسوطة وممدودة آناء الليل وأطراف النهار لتهب الحرّية، وتغدق بالمال والعطاء مع انبساط ظلمة الليل الداكن بظلمته، سَتراً على العباد وحفظاً لهم من أن يراق ماء وجوههم ويُستقطر بالسؤال والاستعطاف المهين. ولم يكن يعرف أحد من أهل المدينة أنّ هذا المال كان يأتيهم مِن قِبل الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام، فيروي ابن الصبّاغ المالكي عن ابن عائشة أنّه قال: سمعت

١ـ قيم خالدة في التاريخ والأدب: ١٢٩.

أهل المدينة يقولون: ما فَقَدْنا صدقة السرّ حتّى مات عليّ بن الحسين عليه السلام[١]. وكان الإمام السجّاد عليه السلام يتصدّق كلّ ليلة بما فضل عن قوته وقوت عياله، ولمّا مات وأخذوا في غُسله نظروا على حبل عاتقه[٢] إلى أثر شاخص، فقالوا لابنه أبي جعفر عليه السلام: ما هذا الأثر يا ابن رسول الله؟! قال:أما إنّه ما يعرف ما هو غيري، ولولا أنّه مات لما ذكرتُه، كان إذا جنّه الليل وقام ليصلّي نظر إلى كلّ ما فضل عن قوته وقوت عياله من الطعام، فجعله في جراب[٣] ورمى به على عاتقه[٤]، وخرج متسلّلاً لايعلم به أحد غيري، فإنّي كنت ربّما علمت به من حيث لايعلم، فيأتي دُور قوم فقراء قد عرفوا وقت مجيئه ولا يعلمون من هو، فإذا رأوه مقبلاً تباشروا به وقالوا: هذا صاحب الجراب قد أقبل! فيفرّق عليهم ما فيه وينصرف فيصلّي باقي ليلته، وهذا أثر الجراب[٥].

وعلى هذا النهج سار أولاده مجسّدين هذا السلوك الرائع والعبادة الرفيعة التي

١ـ **الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة**: ٣٠٣.

٢ـ حبل العاتق: عرق أو عصب، وقيل:عصبة بين العنق والمنكب. وقيل: الطريقة بين العنق ورأس الكتف. **لسان العرب** (حبل). ومنه حديث أبي قتادة «فضربتُه على حبل عاتقه» هو موضع الرداء من العنق. وقيل:هو عرق أو عصب هناك. ومنه قوله تعالى ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ سورة ق: الآية ١٦. الوريد:عرق في العنق. وهو الحبل أيضاً. فأضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين. **النهاية في غريب الحديث والأثر**١: ٣٢٢ (حبل).

٣ـ الجراب، بكسر الجيم: الوعاء، وقيل: هو المزود والجمع أجربة وجُرب، بسكون الراء وضمّها. وقيل: الجراب وعاء من إهاب الشاء لايوعى فيه إلا يابس. **لسان العرب** (جرب).

٤ـ العاتق:ما بين المنكب والعنق. لسان العرب (عتق). وقال ابن دريد: العاتق من الإنسان: ما وقع عليه نجاد السيف. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٤٩٥ (عتق).

٥ ـ **المناقب والمثالب**،لأبي حنيفة المغربي ٣١٠.

تعكس العلم والعرفان الذي كانوا يحملونه بين جوانحهم. يصف الإمام جعفر الصادق عليه السلام برواية الحِمْيري صورة من صور العبادة التي ورثها الإمام محمّد الباقر عليه السلام عن أبيه السجّاد عليه السلام فيقول: كان أبي رضي الله عنه يصلّي في جوف الليل فيسجد السجدة فيطيل حتّى نقول: إنّه راقد، فما نفجأ منه إلّا وهو يقول: لا إله إلّا الله حقّاً حقّاً، سجدتُ لك يا ربّ تعبُّداً ورِقّاً، و إيماناً وتصديقاً و إخلاصاً، يا عظيم ياعظيم، إنّ عملي ضعيف فضاعِفْه لي فإنّك جواد كريم، يا حنّانُ يا منّان اغفرلي ذنوبي وجرمي، وتقبّلْ منّي عملي يا حنّان ياكريم، أللهمّ إنّي أعوذ بك أن أَخيبَ أو أعمل ظلماً[1]. ونحن نتساءل: أيّ ظلم يحدّثنا التاريخ عند هؤلاء الصلحاء خلفاء الله في الأرض؟! فالسيرة العظيمة التي عُرف بها الأئمّة الأطهار عليهم السلام في سيرتهم، والتي أخذت موقعها في مصنّفات أهل السنّة والجماعة، كما أخذت موقعها لدى كتب الشيعة والخاصّة، غير هذا، يقول ابن الصبّاغ عن وَلده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: كان موسى الكاظم عليه السلام أعبدَ أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم كفّاً وأكرمهم نفساً، وكان يتفقّد فقراء المدينة ويحمل إليهم الدراهم والدنانير إلى بيوتهم، والنفقات، ولايعلمون من أيّ جهة وصلهم ذلك، ولم يعلموا بذلك إلّا بعد موته عليه السلام[2].

هكذا كانت صورة واحدة من صور عديدة ملوّنة بالعطف والرأفة والبرّ والإحسان والصلة التي كان يصل بها المدينة وأهلها، وكأنّ هذه الصور النادرة الرائعة، والتي كانت ترسم وتنقل عن حياة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ما هي إلّا لقطات من حياة العلماء العرفاء الذين عرفوا الله معرفة حقيقيّة، فاهتدوا بعقولهم النيّرة، وقلوبهم

---

١ ـ قرب الإسناد: ٥ / ح ١٥.

٢ ـ الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة: ٣٦٢.

الصافية إلى عبادته، العبادة التي أرادها الله وحبّبها لهم[١]، قال تعالى مشيراً إليهم: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٢]، وهذه المعرفة والخشية والضراعة إلى الله الخالق العظيم، لا يهدي لها إلّا العقل الذي اختصّ به الإنسان. وصور العبادة بكلّ أشكالها التي كانت تأخذ موقعاً لها في تاريخ الرسالات السماوية السابقة التي حملها الأنبياء وأكمل حملها من بعدهم جيل من الأنبياء والأوصياء ـ وكما يلاحظ في تاريخ بني إسرائيل ـ وجَدَت لها قبولاً عند الحكماء وعقلاء البشر، أو بعبارة أخرى كان الفصيل الأوّل الذي يتلقّى هذه الرسالات هم العقلاء والحكماء وأهل العلم، ولكن الذين كلّفوا تكليفاً رسالياً تشريعياً كانوا الأنبياء وحدهم، فأُمروا بحملها وإيصالها إلى خلق الله الذين لا يُعدّون ولا يُحصَون.

ولكن ما يطرح هنا من قبل الباحثين عن الرجال المكلّفين بهذا الدور ومدى استمراريّة هذا الدور، فقالوا بأنّ الرسالات الإلهيّة السابقة كانت تعتمد في إدامتها واستمرارها وبقائها على مجموعة من الأنبياء الذين يأتون بعد كلّ نبيّ من الأنبياء أولي العزم، الذين يتحمّلون مسؤوليّة هذه الرسالة على مستوى الإدامة والتطبيق والتفسير، ولكنّ الرسالة الخاتمة التي هي أعظم هذه الرسالات وأفضلها، وأراد الله لها الاستمرار والبقاء إلى آخر الحياة البشريّة، يلاحظ فيها أنّها لايوجد فيها نبيّ بعد رسول الله ﷺ، لما نصّ عليه القرآن من قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ**

١ـ وإلى هذه العبادة أشار الإمام عليّ عليه السلام بقوله: عبادَ الله، إنّ مِن أحبِّ عبادِ الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستَشْعرَ الحزن، وتَجلْبب الخوف، فزَهَر مصباحُ الهدى في قلبه، وأعدّ القِرى ليومه النازل به، فقرّب على نفسه البعيد، وهَوّن الشديد، نظر فأبصر، وذكر فاستكثر. **نهج البلاغة**: الخطبة ٨٧. وكأنّه عليه السلام أشار إلى نفسه أو إلى أولاده المعصومين عليهم السلام.

٢ـ فاطر: ٢٨.

وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ[1]، وكذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ وتواتر عنه ﷺ لدى المسلمين من قوله لعليّ عليه السلام: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي[2]. إذن فهذه الرسالة من ناحية هي أعظم الرسالات الإلهيّة، وأُريد لها الاستمرار والدوام أكثر ممّا أريد للرسالات الإلهيّة الأخرى، ومن ناحية أخرى فهل تجد أنّ هذه الرسالة لم توضع لها ضمانات للاستمرار والبقاء، كما وضعت ضمانات للرسالات السابقة التي جاء بها الأنبياء أولو العزم، حيث كانوا يقومون بمهمّة إدامة زخم تلك الرسالة ومتابعة الإشراف على تطبيقها ودعوة الناس إليها، أو أنّ الله تعالى وضع ضمانة من نوع آخر؟! لأنّ عمر الرسول بصورة عادية يبقى محدوداً بالنسبة إلى عمر الرسالة نفسها، ولايستمرّ عمره عادة باستمرار الرسالة نفسها، ولذلك كان الله تعالى يرسل الأنبياء التابعين من أجل أن يديموا حركة الرسالة ومسيرتها. هذا السؤال هو الذي يفرض الحديث عن وجود الإمامة، وموقع ودور أئمّة أهل البيت عليهم السلام منها، وأنّ الله تعالى شاء أن يكون استمرار الرسالة الخاتمة عن طريق الإمامة، وأن تكون هذه الإمامة في أهل البيت عليهم السلام[3].

ومن هذا المنطلق كانت العقائد الإماميّة ترى ضرورة الإمامة باعتبارها لطفاً إلهيّاً امتنّ به على العباد. ومفهوم الإمامة أو مصطلح الإمامة لم يكن من صنع الفكر الإمامي أبداً، بل هو مصطلح قرآني وجد تطبيقه في السنّة النبويّة، يقول أحمد حسين يعقوب:القرآن الكريم هو الذي عرّف العرب بمصطلح الإمامة، وهو الذي

---

١ ـ الأحزاب: ٤٠.

٢ ـ **المستدرك على الصحيحين** ٣: ١٠٩ و١٢٣ و٣٣٧.

٣ ـ السيّد محمّد باقر الحكيم، **الإمامة وأهل البيت** عليهم السلام، **النظرية والاستدلال**: ١٢.

قسّم الإمامة إلى نوعين، وقد جاء الرسول الكريم وبيّن هذا المصطلح بياناً تامّاً، حتّى عُرّف للخاصّة والعامّة معاً. وخلال قيادة النبيّ ﷺ للدعوة والدولة معاً مارس مهمّة الإمامة والرسالة معاً، ثمّ وطّد الأمر، وأعلن أمام أصحابه وأخبرهم أنّ الإمام من بعده هو عليّ بن أبي طالب، لأنّه المؤهّل إلهيّاً للإمامة من بعده[1] وتتابعت النصوص من بعد النبيّ ﷺ في تبيين هذا المفهوم، وتحديد مداه وبُعده، ومن هو الإمام المعني بهذه النصوص، ومجمل النصوص تنتهي إلى القول بأنّ الأرض لاتخلو من حجّة أو إمام معصوم يُكمل الدور السماوي في الأرض، وقد رويت أخبار معتبرة بهذا الخصوص أورد بعضها الشيخ محمّد بن يعقوب الكليني، منها ما رواه الحسين بن أبي العلاء قال:قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تكون الأرض ليس فيها إمام؟ قال:لا، قلت: يكون إمامان ؟قال:لا إلّا وأحدهما صامت. وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله أجلّ وأعظم من أن يترك الأرض بغيرإمام عادل. وعن أبي هراسة، عن أبي جعفرعليه السلام قال:لوأنّ الإمام رُفع من الأرض ساعةً لَماجَت بأهلها، كما يموج البحر بأهله. وعن حمزة بن الطيّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو بقيَ اثنان لكان أحدهما الحجّةَ على صاحبه.[2] وروى علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي أخباراً بهذا المعنى، منها ما رواه عن أبي حمزة، عن أبي جعفرعليه السلام قال:واللهِ ما ترك الله الأرضَ منذ قبض الله آدم إلّا وفيها إمام يُهتدى به إلى الله، وهو حجّة الله على عباده، ولاتبقى الأرض بغير إمامٍ حجّة لله تعالى على عباده. وقوله عليه السلام أيضاً:

---

١ ـ **الوجيز في الإمامة والولاية:** ٢٦.

٢ ـ **الكافي** ١: ١٧٨ و١٧٩ ـ باب أنّ الأرض لاتخلو من حجّة، وباب أنّه لولم يبقَ في الأرض إلّا رجلان لكان أحدهما الحجّة.

لاتبقى الأرض بغير إمام، ظاهرأو باطن[١]. وروى الشيخ الصدوق نحو هذه الأخبار، منها ما رواه عن إبراهيم بن أبي محمود قال:قال الرضا عليه السلام:نحن حجج الله في خَلقه، وخلفاؤه في عباده، وأمناؤه على سرّه، ونحن كلمة التقوى، والعروة الوثقى، ونحن شهداء الله وأعلامه في بريّته، بنا يُمسِك اللهُ السماواتِ والأرض أن تزولا، وبنا ينزّل الغيثَ وينشر الرحمة، ولا تخلو الأرض من قائم منّا ظاهرٍ أو خافٍ، ولو خلت يوماً بغير حجّة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله[٢].

فثبوت الحجّة واستمرارها والتي يعتقدها الشيعة، كانت مسمّاة بالأئمّة المعصومين عليهم السلام، الذين تواترت عليهم الأخبار، ولكن الأئمّة عليهم السلام الذين نصّ عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسمّاهم، لهم أعمار محدودة، ومهما امتدّت أعمارهم أو شاء الله لأعمارهم أن تغطّي مساحة كبيرة وزماناً قد يطول، فإنّ هذا التقدير ينتهي إلى أمد طال أو قصر، إلّا أنّ الإرادة الإلهيّة أرادت لآخر إمام معصوم وآخر سفير في الأرض أن يعايش الأمّة دهراً ثمّ يغيب غيبة صغرى، يمكن له الاتّصال بمجموعة من البشر تكون واسطة ووسيلة للتواصل والتفاعل مع الأمّة، لكنّ هذه المدّة قد انتهت أيضاً، ولم يكن مقدّراً لها أن تتسع لأكثر ممّا كان، فغاب هذا السفير السماوي غيبة طويلة لم يشأ الله أن يوقّتها لأحد، أو يجعل لها غاية زمانية، لذا أُطلق عليها الغيبة الكبرى، ولم تكن هذه الغيبة تعني الانقطاع والانفصال، بل هي مرحلة إعداد وتعبئة لأن تكون الأمّة مهيئةً لإدارة نفسها وتدبير شؤونها إلى حين، ولكن كلّ هذا يتمّ بالتواصل والرجوع إلى طبقة الفقهاء الصالحين. ويرى العلماء، من الذين أدركوا عصر الإمام

١ـ الإمامة والتبصرة من الحيرة: ١٦٠ و١٦٢.

٢ـ كمال الدين وتمام النعمة: ٢٠٢/ ح ٦ ـ الباب ٢١.

المهدي عليه السلام أو قاربوه، ومنهم علماء اليوم أيضاً، بأنّ العلماء والفقهاء العدول الصالحين يشكّلون الامتداد الطبيعي للفكر الإمامي، أو الوكالة الباقية عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام، والذين قُدِّرت لهم أعمار زمنيّة محدودة شأنهم شأن الأنبياء والأوصياء الذين مضوا. وقد تكون هذه المرحلة – مرحلة الغيبة ـ والمرحلة الزمنيّة المقاربة لها، والتي سبقتها بفاصلة زمنيّة ليست طويلة، من أصعب المراحل وأخطرها وأشدّها على المسلمين، وبالأخصّ الطائفة الإماميّة، كما وأنّها كانت ثقيلة وحسّاسة في الوقت نفسه على حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام الذي كان يعدّ لهذه المرحلة، وقد قام بإعداد جيل قيادي يكون قادراً على لملمة أوضاع المسلمين، وإدارة أوضاع الطائفة على وجه أخصّ، باعتبارها الطائفة الأم التي ينبغي أن يتمحور حولها ويرجع إليها كلّ العلماء والطوائف، لأنّ قيادة العالم وتطبيق الوعد الإلهي سيكون على يد إمام هذه الطائفة ومرجعها محمّد بن الحسن المهدي عليه الصلاة والسلام.

والملاحظ من عموم السيرة أنّ الإمام المعصوم، ومنهم ـعلى الخصوص ـ الإمام الحسن العسكري عليه السلام كان يحرص على تحقيق المواصلة مع جموع الأمّة، لغرض هدايتها وحفظها من الضياع والتشتت، بواسطة عدّة من الأصحاب والأتباع الذين اصطُلح عليهم تسمية النوّاب أو السفراء أو الوكلاء الذين ربّاهم الإمام تربية رسالية، وزرع في نفوسهم روح الصبر والمثابرة والإخلاص، وقد عايش هؤلاء أوضاعاً حرجة وصعبة وقلقة، وربّما كانت الفترة الزمنيّة التي أدركوها كادت أن تهدّد الوجود الديني والاجتماعي تهديداً أوشك أن يغيّر من صورة التاريخ الإسلامي وملامحه، فقد شابت هذه المرحلةَ الزمنيّة عواصفُ وزلازل سياسية قوّضت الوحدة السياسية والاجتماعية للمسلمين، وزرعت في نفوسهم الدوافع الإقليمية والقومية والإثنيّة،

وأذكت النوازع الفردية والأنانيّة، وتضخّمت نزعات شهوانية وشيطانية كانت موؤودة، رقدت في زوايا مظلمة من تاريخ المسلمين، لكنّها عادت فانطلقت مرّة أخرى بعد أن شجّعتها غفلة المسلمين وابتعادهم عن دينهم وعلمائهم الربّانيّين. وربّما كان يفكر حكّام الدول والممالك الكافرة بغزو المسلمين واقتلاع دينهم، كما جرى في الأندلس (أسبانيا) لاحقاً. وقد انعكس هذا الوضع المضطرب على الكيان السياسي للدولة الإسلامية الكبيرة، والتي كانت هيبتها تملأ العيون، وتخيف الملوك والسلاطين المجاورين لهذه الدولة، لكنّها هانت وكادت أن تتهاوى بيد الأمم الأخرى خاضعة ذليلة، وذلك لضعف حكّام المسلمين وجورهم، وكان الإمام الرضا عليه السلام أشار إلى بدء ضعفها وتزلزلها حين قال:إذا جار السلطان هانت الدولة[1].

فشهدت الغيبتان ولامست تعرّض هذه الدولة الإسلاميّة في القرن الثالث الهجري إلى الضعف والانحلال والتراجع، وقد امتدّ هذا الضعف والانحلال السياسي والاجتماعي حتّى القرن السابع الهجري، حيث تلاشت الدولة وانمحت آنذاك لتسقط بأيدي دولة وثنية همجيّة، هي دولة المغول الذين قضوا على آخر معقل وهيكل سياسي وديني، في مظهره الخارجي، يمتّ إلى الدين الإسلامي، والذي كان قائماً في بغداد، وإن كان هذا الدين العظيم الذي كانت تتحدّث باسمه الدولة العبّاسية في عصورها المتأخّرة، هو الدين الظاهري الشكلي المجرّد من مضامينه الحقيقيّة، أو الدين السلطاني، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال بأنّه الدين البروتوكولي الذي تجلّى بصلاة العيد، أو صلاة الجمعة، أو الخطب الدينيّة التي كانت مخصّصة للدعاء للسلاطين بطول العمر لهم ولأولادهم وحريمهم،

١ـ **أمالي الطوسي**: ٧٩/ الرقم ١١٨.

وإدامة سلطانهم وملكهم الذي ينبغي أن يسبّح الناس بحمدهم وشكرهم وشكر أولادهم. ولكن مع كلّ هذا لم تعدم أعصار المسلمين هناك من بعض المعالم والصور الدينية الصادقة التي كان يمثّلها جيل من المسلمين من بقايا النبوّة، ومنهم نخب من سلالة آل البيت عليهم السلام والعلماء السائرين على نهجهم، وجمع من شيعتهم، وطائفة من صالحي عموم المسلمين الذين حفظوا للأمّة هيبتها وعزّها، فتمسّكوا بما تبقّى من أهداب الفضيلة والقيم الدينية الرفيعة.

فالانتكاسة التي حصلت في مؤسسات الدولة ورجالها، والانحطاط الأخلاقي في الحاكم والمحكوم، وما لوحظ مِن بُعدٍ عن المبادئ الدينية التي عرفها المسلمون الأوائل، وكانوا عليها في أوّل نشوء دولتهم وعزّهم، ربّما كانت من أقوى العوامل التي أسهمت في انهدام الدولة وتهافتها أمام الغزاة. وربّما كانت أغلب قيادات المسلمين، قد بلغت من الضعف والانحدار والإسفاف مبلغاً لايمكن تصوّره، فصارت لاتمتلك الإرادة في أن تحفظ حدود مدنها القريبة منها، وحتّى المساحة الواقعة على أطراف قصورها وأسوارها، فانهالت صروحهم وحصونهم، وآل بهم أمرهم إلى أن تُكتسَح دورهم، وتنهدم عروشهم بأيدي العبيد والخصيان الذين جلبوهم لخدمة نسائهم وإطفاء نزواتهم. وربّما كانت هناك هجمة، أو ردّة سياسية، أو ارتداد جاهليّ كان يلوح في أفق المسلمين، أو كادت فتنة عمياء مظلمة، خرجت من أقاليم الدولة أو خارجها، أن تكتسح البلدان وتغمرها، وكأنْ لم تكن السلطة العبّاسية ـ في أواسط عمرها وشيخوختها ـ تعنيها من أمور الإسلام والمسلمين الشيء الكثير، إلّا ما كان من طقوس ومراسم دينية مظهريّة تتمثّل بصلاة الجمعة والعيد والدعاء للسلطان بطول البقاء، ولعموم الأمّة بالفناء ! وربّما كانوا مضطرّين لأداء صلاة الاستسقاء إن عضّهم الدهر بناب القحط، أو شهدوا غياب

السحاب الهاطل واحتباس القطر عنهم، فعندها يتضرّعون إلى السماء مُرغَمين مُكرَهين.

يقول السيّد حسن شبّر: والدولة إذا ضعفت انتابتها الأمراض والكوارث من كلّ طرف ومكان، شأنها في ذلك شأن الإنسان إذا لم يكن جهازه العصبيّ يعمل بصورة صحيحة، فإنّه سوف يتعرّض لأزمات حادّة تفقده اتّزانه. والخليفة الذي يفترض أنّه كان خليفة رسول الله ﷺ ـ كما يدّعي هو ـ يجب أن يتذكّر دائماً أنّ وظيفته خدمة الإسلام، وإقامة الحدود، ونشر العدل وقمع الباطل، وحمل الناس على جادّة الصواب، ورصّ الصفوف وتوحيد الكلمة.. وأن يكون في أوصافه الخاصّة في أعلى درجات العلم والتقوى والزهد والورع والصلاح. أمّا الذين وجدناهم فلم يكن فيهم مَن هذه صفاته أو تلك اهتماماته، فكلّهم اتّجه اتّجاهات أخرى لم يكن الدين منها. وإذا ما ذُكر الدين بشيءٍ فإنّما هو للدنيا والمنصب، لئلّا يفقد مبررات التسمية (خليفة رسول الله، وأمير المؤمنين). نعم ضعف الخليفة، أو فلنقل أنّه أضعف نفسه بإرادته فركبه الوزير[1] والقائد، ثمّ

١ـ لمّا انتقلت الحكومة إلى العبّاسيّين اتّخذوا نُظُم الحُكم عن الفُرس. ومنها الوزارة. وإن كانت سلطاتها لم تتحدد بصورة واضحة في عهد أبي سلمة الخلّال أوّل وزراء العبّاسيّين، ثمّ نمت وتدرّجت حتّى اتّخذت شكلها الثنائي في أواخر العصر العبّاسي الأوّل. وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن، ينوب عنه في حكم البلاد، وينصب العمّال ويشرف على الضرائب، ويجمع في شخصه السلطتين المدنيّة والحربيّة إلى جانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته. حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ٢: ٢٥٧. والمحصّل من تاريخ الوزارة العبّاسيّة أنّ أكثر وزراء الدولة العبّاسيّة كانوا بعيدين عن وظائفهم المناطة بهم في إدارة وخدمة الدولة والرعيّة، وربّما كان الوزير أشدّ سطوة وظلماً ←

للرعيّة من الحاكم العبّاسي نفسه، و يشكّل ابن الزيّات الذي وزر لثلاثة حكّام من بني العبّاس، وهم:المعتصم والواثق والمتوكّل، صورة واضحة للوزير الظالم المستبدّ. فقد كان شديد القسوة صعب العريكة، لايرقّ لأحد ولايرحمه، وكان يقول: الرحمة خَور في الطبيعة، ووقع يوماً على رقعة رجل توسّل إليه بقرب الجوار منه، فقال: الجوار للحيطان، والتعطّف للنسوان. فلمّا أراد المتوكّل قتله أحضره وأحضر تنّور خشب فيه مسامير من حديد أطرافها إلى داخل التنّور تمنع مَن يكون فيه من الحركة، كان اتّخذه ليعذّب فيه من يطالبه، فقال له المتوكّل: أجرَينا فيك حكمك في الناس، فأُجلِس فيه فمات بعد ثلاث. **وفَيات الأعيان** ٤: ٣٤٥/ الرقم ٦٩٦. ولم تكن نقمة الحاكم العبّاسي عليه انتصاراً لرعيّته، حيث يعزي ابن كثير غضب المتوكّل على ابن الزيّات لأسباب شخصيّة فيقول:كان المتوكّل يبغضه لأمور، منها أنّ أخاه الواثق غضب على المتوكّل في بعض الأوقات وكان ابن الزيّات يزيده غضباً عليه، فبقي ذلك في نفسه، ثمّ كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دُؤاد فحظي بذلك عنده في أيّام ملكه، ومنها أنّ ابن الزيّات كان قد أشار بخلافة محمّد بن الواثق بعد أبيه، ولفّ عليه الناس، وجعفر المتوكّل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه، ولم يتمّ الأمر إلّا لجعفر المتوكّل على الله رغم أنف ابن الزيّات، فلهذا أمر بالقبض عليه سريعاً، فطلبه فركب بعد غدائه، وهو يظنّ أنّ الحاكم بعث إليه، فانتهى به الرسول إلى دار إيتاخ أمير الشرطة فاحتيط به وقُيّد، وبعثوا في الحال إلى داره فأُخذ جميع ما فيها من الأموال واللآلئ والجواهر والحواصل والجواري والأثاث، ووجدوا في مجلسه الخاصّ به آلات الشرب، وبعث المتوكّل في الحال أيضاً إلى حواصله بسامراء وضياعه وما فيها فاحتاط عليها، وأمر أن يُعذَّب ومنعوه من الكلام، وجعلوا يساهرونه كلّما أراد الرقاد نخساً بالحديد، ثمّ وضعه بعد ذلك كلّه في تنّور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكّل به من يمنعه من القعود والرقاد، فمكث كذلك أيّاما حتّى مات وهو كذلك، ويقال: إنّه أخرج من التنّور وفيه رمق فضرب على بطنه ثمّ على ظهره حتّى مات تحت الضرب، ويقال: إنّه أُحرق ثمّ دفعت جثته إلى أولاده فدفنوه، فنبشت عليه الكلاب فأكلت ما بقي من لحمه وجلده. **البداية والنهاية** ١٠: ٣٤٢.

العيّارون[١] الذين يحاولون دائماً أن يجدوا لهم منفذاً لينفذوا فيه إلى مآربهم . وعادة ما يكون العيّارون واللصوص دُهاة، فإنّهم في البداية يقومون بعمل طفيف يستطلعون فيه ردّ الفعل. وهم في الدولة العبّاسيّة كانوا يصعّدون من وتائر تحرّكاتهم، فيجدون السبيل أمامهم سالكاً والأبواب مفتّحة، وأنّ الخليفة مغلوب على أمره، وأنّ السلطان غائب والوزير نائم، وقائد الشرطة يتحاشى الاصطدام، والكلّ مشغولون بأنواع متفرّقة من النهب والسلب والمصادرات. . والأمّة المسكينة في هرج ومرج من أمرها، تعيش الاضطراب، والفتن والقتال، وأطماع الأمراء، وخيانة الخلفاء..[٢]. بهذه الصور والأوضاع كانت تتقضّى أيّام وعصور الغيبة والاستتار، وربّما كانت هيبة الدولة الإسلاميّة السلطانية خلال هذه العقود والقرون متوارية عن مدن المسلمين وأمصارهم، أو كانت في غيبوبة، أو غائبة أو منزوية عن الأمّة استحياء

١ـ العيّارون: اصطلاح أطلق على مجموعات من اللصوص والبطّالين الذين شكّلوا قوّة اجتماعيّة، أو كتلة تنامت وظهرت كقوّة سياسية واجتماعيّة في عصور الدولة العبّاسية المتأخّرة، نتيجة ضعف الدولة وانحطاطها واستشراء الفساد في أوصالها ومرافقها الإدارية والأمنيّة والعسكريّة. ويعزي أهل اللغة أصل هذا اللفظ إلى الأسد لتردّده في طلب الصيد، يقول ابن دريد:رجل عيّار كثير المجيء والذهاب، وربّما سمّي الأسد عيّاراً لتردّده في طلب الصيد. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٦٢٧ (عير). وأُطلق على الرجل الذي لا عمل له، والذي يخلّي نفسه وهواها لايردعها ولايزجرها، والاسم منه العيّارة. ينظر: **الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة العرب المعوّل** ٨: ٤٧٣ (عير). وتعدّ هذ ه الطبقة خارج الطبقات الاجتماعيّة، وقد وُجدت هذه الطبقة نتيجة فساد التنظيم الاجتماعي، وربّما اتّخذت تسميات أخرى. وتشكّلت منها أو إلى جانبها طبقة أو جماعة تُسمّى بالشطّار. ينظر: **الإسلام في حضارته ونظمه**، لأنور الرفاعي ٢٤٨. وسيشار إليهم أيضاً في فصل لاحق.

٢ـ **خلفاء بني العبّاس والمغول أسقطوا بغداد:** ٣٣٦.

وخجلاً من أن تُظهر نفسها، وكأنّها تشظّت إلى دويلات وكيانات سياسية صغيرة غير متجانسة. وكانت هذه الكيانات والدويلات ذات أهداف محدودة لاتمتلك غير هوية محلّية أو إقليميّة لايمكن أن تعبّر عن نفسها أو توضّح أهدافها، وربّما كانت عاجزة عن تحقيق آمال الأقاليم التي انزوت فيها، وعاجزة حتّى عن إيصال صوتها إلى خارج المساحة الجغرافية التي تخندقت فيها. وربّما كانت الدولة الأمّ أو المركز، لها بعض الأهداف والأغراض التي تضاءلت مع تقادم الأيّام، ولم يبق لها من رصيد ديني وسياسي إلّا بريق الماضي ولمعانه. فالدولة الإسلاميّة الكبيرة تمزّقت إلى إمارات ودول وكيانات كانت تنافس الدولة الأمّ، بل كانت ترى نفسها هي البديل عن هذه الدولة، كما ظهر هذا الاتّجاه لدى الدولة الفاطميّة في مصر، حيث كانت تترقّب الفرصة للانقضاض على أقاليم الدولة المركزية ومدنها، كما حصل في تاريخ الدولة الصفّاريّة التي أرسلت جيوشها لتقترب من أطراف العاصمة بغداد.

وقد سبقت هذه الكيانات دولة في المغرب سمّيت دولة الأغالبة نشأت في أواخر القرن الثاني الهجري امتدت من عام ١٨٤ إلى عام ٢٩٦ للهجرة، وقد قامت هذه الإمارة في إقليم أفريقية أو المغرب الأوسط المعروف الآن بتونس، وتُنسَب إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الذي كان عاملاً على إقليم الزاب من قِبل محمّد بن مقاتل والي المغرب، وكان هارون الرشيد الحاكم العبّاسي قد أسند إلى إبراهيم بن الأغلب ولاية المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٨٤، واعترف به أميراً مستقلّاً استقلالاً جزئيّاً عن الخلافة العبّاسيّة، مكتفياً بتبعيّته الاسميّة لها، على أن يحمل إلى دار الخلافة مبلغ أربعين ألف دينار في كلّ عام[1]. وبذلك يكون هارون الرشيد

١ـ خاشع المعاضيدي ورشيد عبد الله الجميلي. **تاريخ الدويلات العربيّة والإسلامية في العصر** ←

نفسه هو أوّل معول ساهم في هدم الدولة، أو ساهم في إضعافها و تمريقها في حياته، وكانت قراراته بتحويل الدولة إلى مقاطعات يحكمها أولاده، ووصيّته في تقسيم الدولة كإرث يتناوبه بعد وفاته أولاده، وما جرّ ذلك على الأمّة من ويلات وحروب دامية، وتمزّقٍ في بنية الأمّة الإسلاميّة وتفكيكها، أدّى إلى بروز كتل سياسية داخل الأسرة العبّاسيّة، ثمّ امتدّت وانسحبت إلى حارات المسلمين وأحيائهم، فشجّعت قوى متعددة من خارج البيت العبّاسي ليصارع الدولة و يضربها، فكانت هذه القوى من أقوى العوامل وأمضاها في إضعاف الدولة وتهديمها.. وكانت بعض هذه الإمارات والكيانات الانفصالية تسمّت بأسماء مؤسسيها أو رجالها الأوائل، إمعاناً في تأكيد نزعتها الانفصاليّة، ومن هذه الإمارات والدول : الإمارة الطاهريّة ٢٠٥ ـ ٢٥٩، الإمارة الصفّارية ٢٥٤ ـ ٢٩٨، الإمارة السامانية ٢٦١ـ٣٨٩، الإمارة الغزنويّة ٣٥١ ـ ٥٨٢، الدولة الخوارزميّة ٤٩٠ ـ ٦٢٨.

وقد يكون القرن الثالث الهجري ـ الذي يُؤرَّخ بأنّه قرن الغَيبة ـ أكثر القرون اضطراباً واشتعالاً بأوار الفتن، وربما كانت الفتنة في أوجها أوائل زمن الغيبة، ففي سنة إحدى وستّين ومائتين حيث كانت الفتن تغلي وتستعر بخراسان بيعقوب بن الليث، وبالأهواز بقائد الزنج، وقد تمّت لهما حروب وملاحم.. وربّما كانت بداية الفتنة في سنة تسع وخمسين ومائتين حيث استفحل أمر يعقوب بن الليث الصفّار ودوّخ الممالك واستولى على إقليم خراسان وأسر محمّد بن طاهر أمير خراسان. .وفي سنة ستين ومائتين صال يعقوب بن الليث وجال، وهزم الشجعان والأبطال، وترك الناس في أسوأ حال، ثمّ قصد الحسن بن زيد العلوي صاحب

العبّاسي: ١٩٨.

طبرستان فالتقوا فانهزم العلوي، وتبعه يعقوب في تلك الجبال فنزلت على يعقوب كسرة سماوية، ونزل على أصحابه ثلج عظيم حتّى أهلكهم، ورجعوا إلى سجستان بأسوأ حال، وقد عدم من جيوشه أربعون ألفاً، وذهبت عامّة خيله وأثقاله. ولكن لم تكن هذه المعركة نهاية لأطماعه ونزعاته التوسّعية، فقد جدّد قواه وأصبح يهدّد الدولة المركزية في عقر دارها. ولم يكن أمام حاكم بغداد إلّا ملاطفته والنزول إلى بعض رغباته، ففي سنة اثنتين وستّين ومائتين لمّا عجز المعتمد على الله عن يعقوب بن الليث كتب إليه بولاية خراسان وجرجان، فلم يرضَ حتّى يوافي باب الخليفة، وأضمر في نفسه الاستيلاء على العراق والحكم على المعتمد، فتحوّل المعتمد عن سامراء إلى بغداد وجمع أطرافه فتهيّأ للملتقى، وجاء يعقوب في سبعين ألفاً فنزل واسط، فتقدّم المعتمد وقصده يعقوب، فقدّم المعتمد أخاه الموفّق بجمهرة من الجيش، فالتقيا في رجب واشتدّ القتال، فوقعت الهزيمة على الموفّق، ثمّ ثبت وأسرعت الكسرة على أصحاب يعقوب، فولّوا الأدبار واستبيح عسكرهم ..[1].

وربّما كان المنشقّون الآخرون غيّروا أفكارهم، أو عدّلوها وكيّفوا طماحهم انسجاماً مع هذه المتغيّرات القلقة والمبهمة بعد انكسار يعقوب بن الليث، ففي سنة سبع وستّين ومائتين استولى أحمد بن عبد الله الحجابي على خراسان وكرمان وسجستان، وعزم على قصد العراق، وضرب السكّة باسمه، وعلى الوجه الآخر اسم المعتمد. يقول السيوطيّ: وهذا محلّ الغرابة! ثمّ إنّه في آخر السنة قتله غلمانه[2].

---

١ ـ ينظر: **شذرات الذهب** ٢: ١٣٩ و ١٤١ ـ ١٤٥. وتأتي الإشارة إلى ذلك في فصول الكتاب أيضاً.

٢ ـ **تاريخ الخلفاء**: ٣٦٤.

وبعد هذه المنازلات التي حدثت مع السلطة المركزية لم تعد ليعقوب هذا المشار إليه آنفاً، أو لغيره من المنشقّين، في تلك الحقبة الزمنيّة ـ والتي تمثّل أوائل عصر الغيبة الصغرى ـ قوّة تقلق الدولة المركزيّة إلى أمد ليس بطويل، وربّما كان لها فترة استجمام ومراجعة حسابات التصفية والتخلّص من الخصوم والأنداد الذين كانوا يهدّدون الدولة المركزية ويزعجوها. لكنّ مظهر الضعف والانشطار والتآكل السياسي للدولة ما زال مشاهداً في التاريخ السياسي لذلك العصر، وظلّت الفتن، والضربات السياسية والعسكريّة الصاعقة، والمتمثّلة بالثورات والانشقاقات، والتصدّعات في أقاليم وجسم الدولة، تهدّد وجود وكيان الدولة العبّاسيّة من جهات وعوامل أخرى، ربّما علم بها حاكم بغداد، ولكن لم يكن بمقدوره أن يتداركها، فظلّت تنخر بها حتّى مزّقت أشلاءها وأفنتها في نهاية العمر المقدّر لها.

وكان كلّ هذا التصدّع والتمزّق الذي نال من أوصال الدولة الإسلامية، والذي كان واضحاً ومشاهداً، لم يكن غائباً عن الإمام عليّ الهادي والحسن بن عليّ العسكري عليهما السلام، اللذَينِ عاشا في سامراء عاصمة الدولة المتآكلة والصائرة للانحطاط، وقد عاصرا عليهما السلام بداية ضعف الدولة العبّاسيّة وتفككها، وكانا يحرصان على إعداد الأمّة، وبالأخصّ الشيعة الإماميّة الاثني عشرية على تقبّل فكرة الإمام الغائب المنقذ المنتظَر، والذي يترجم العدل الإلهي والحكومة الربّانية التي بشّرت بها الأديان السماوية، وكان الإمام الحسن العسكري عليه السلام في أتون المحنة وشدّتها التي عصفت بالدولة والأمّة، وخلال مدّة حياته وعمره المبارك القصير عليه وعلى آبائه التحية والسلام، كان يتحرّك في سامراء بحذر شديد، وكانت عيون السلطة تتجّه إليه وحده، لأنّه الأب المباشر للإمام المنقذ، ولأنّه شخص مسؤول ويعنيه ويهمّه ما يؤول إليه مصير هذه الأمّة. وكان الحاكم العبّاسي يعرف جيّداً أنّ الإمام

الحسن العسكري عليه السلام، خليفة وحجّة لله في أرضه، وكذا الإمام عليّ الهادي عليه السلام مِن قَبله، يعنيهما، قبل غيرهما، من مآل الدولة الإسلاميّة وأتباعها إلى هذا الوضع الوضيع المتهالك، فكانت تقلقهما همومها وويلاتها أكثر من قلق الحاكم العبّاسي الذي كان يصرف أكثر أوقاته إلى ملذّاته ومنافعه الشخصية وسلطته الدنيوية، فلابدّ من خلاص وفرج للدولة والأمّة، لكن ليس بالمقدور، وكأنّ وقت الفرج لم يحن بعد والشخص المعدّ لهذا الدور لم يُولَد بعد، ولكنّ هموم الإمام الحسن العسكري عليه السلام تزايدت وبدأت تظهر، وربّما كان يبوح بها لأصحابه وخاصّته. وربمّا أدرك حاكم الدولة العبّاسيّة أنّ الشخص الذي يراقب الأوضاع بكثب وهو سجين في سامراء، هو الإمام الحسن العسكري عليه السلام وحده، فهو الذي يتحمّل هموم المسلمين ومعاناتهم، فقد كان عليه السلام مثقلاً بهموم كثيرة، تضاعفت بعد انتقال دور الإمامة إليه من أبيه الإمام عليّ الهادي عليه السلام.

يقول الكاتب محمّد بيومي مهران: إنّ دور الإمام أبي محمّد الحسن العسكري في الإمامة لم يكن في تلقّي العلم عنه، أو الائتمام به، بقدر ما هو تمهيد لولده القائم، ذلك أنّ التشيّع وقت ذاك إنّما كان يمرّ بدور الحضانة لظهور عقيدة المهدي، ومن ثمّ فقد كان دور الإمام الحسن العسكري عليه السلام الملقّب بالصامت أن يمهّد لولادة القائم أو صاحب الزمان. ولا تمهّد الشيعة لولادة المهدي من حيث أبيه فحسب، وإنّما تمهّد كذلك من حيث أمّه، فهي مليكة بنت يسوعا بن قيصر ملك الروم، وأمّها من نسل الحواريّين، ويتّصل نسبها بشمعون وصيّ المسيح عليه السلام[1]. فالشخصيّة المتآلفة من نبيّين عظيمين كان الإمام العسكري عليه السلام مكلّفاً بإيداعه هذه الأمّة، فلم

١ـ الإمامة وأهل البيت ٣: ٢١٠.

يكن يعنيه آخرأيّامه إلّا المحافظة على حياة هذا الزعيم المنتظر، والقائد الكامل الذي يجمع شتات هذه الدول ويعيد وحدتها الدينية الغائبة عنها، وكأنّ مقدّمات وتمهيدات الإعلان عن ميلاد الزعيم الأممي، زعيم الدولة الإسلامية الكبرى قد حانت، ولذلك تعدّ الفترة الزمنيّة التي عاصرها وعايشها الإمام الحسن العسكري عليه السلام فترة مهمّة وعصيبة، أو صعبة بعض الشيء، لأنّها تتطلّب إعداداً ذهنيّاً وتمهيداً روحيّاً لعموم المسلمين، لكي تتقبّل هذ الوعد الإلهي في تحقيق الدولة الإسلامية العادلة، ولذا يمكن أن نعتبر مقدّمات وتمهيدات قيام هذه الدولة المؤمّلة، والتي بشّر بها النبيّ والأئمّة المعصومون عليهم أفضل الصلاة والسلام، قد نشأت في حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، والذي كان عصره عليه السلام امتداداً لعصر أبيه الإمام عليّ الهادي عليه السلام، والذي عكف بدوره على تهيئة الأركان والأعمدة التي كانت حلقة وسيطة بين الأمّة والقائد المنتظر، هذا القائد الذي سيغيب غيبة لا مناصّ منها، فلذا لابدّ من وجود سفير ونائب لمنصب الإمامة، قد يغطّي بهذه النيابة بعض الفراغ التشريعي الذي ستحسّ به جماهير الشيعة.

ومن هنا، فدراسة حياة وعصر الإمام العسكري عليه السلام لها أهمّية تاريخية، وارتباط كبير في الإحاطة بحيثيات بحثنا، أو عندما يراد التوسع في دراسة هذا الموضوع أو الوقوف على نقطة البداية لعصر الغيبة أوالظهور، أوفي كيفيّة وشكل التمهيدات اللازمة لظهور هذا الشخص المنقذ الذي بشّرت به الأديان السماوية السابقة، فعسى أن يكون ما كُتب في هذا الكتاب نافعاً للباحثين وعموم القرّاء للبحث في هذا الشأن، ومن الله نستمدّ العون والتوفيق.

نشوء الدولة العبّاسيّة

ربّما يكون من الضروريّ لهذا البحث الإشارة إلى الصوت العبّاسي القوي، والذي دوّى في أعصر زادت على خمسة قرون من حياة المسلمين السياسيّة والعقائديّة، وما زال هذا الصوت له تأثيره في حياة المسلمين العقائدية والفقهيّة والسياسيّة. ولعلّ الوقوف عند هذا الصوت، ودراسة جوانب من أحوال هذه العصور، والتي امتدّت مع عمر الدولة العبّاسية قد تفسّر أو توضّح، أو تساهم في تقديم إضاءة لشخصيات تلك العصور، أو تعين على فهم ما مضى من المواقف والمتغيّرات التي كانت حاصلة أو حصلت بعد ذلك في المجتمع الإسلامي والدول القائمة آنذاك. وربّما قد يجيب هذا الوقوف على بعض الأسئلة الكثيرة التي كانت بحاجة إلى أجوبة، لايمكن أن نتجاهلها أو نعبرها، لارتباطها الوثيق بالأحداث والوقائع التي أثّرت في تاريخ المسلمين، وعصفت بأحوالهم أحايين من الزمان.

وأوّل ما نبحث عنه هو الشخص المحوري، أو العنصر الأساس والمؤثّر في المعتقد والفكر العبّاسي، فهذا الشخص هو القادح لفكرة نشوء الدولة العبّاسيّة، أو بعبارة أخرى هو المهندس أو المؤسس للفكر السياسي العبّاسي، الذي مهّد لنشوء هذه الدولة الكبيرة وانبثاقها في تاريخ المسلمين، وربّما ينصرف الفكر لأوّل وهلة بأنّ الرجل الذي وقف وراء هذه الدولة، أو أوضح الطريق السياسي وعبّده

لقيامها هو الصحابي عبد الله بن عبّاس، ذلك الشخص الذي صحب عمودين عظيمين كانا قائمين، فاستظلّ بهما واستلهم الشيء الكثير منهما، هما النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، ووصيّه المختار عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فاغترف من علمهما ما مكّنه من أن يأخذ موقعاً كبيراً في قلوب المسلمين والصحابة الآخرين، وتمكّن من أن يملأ كراريس كثيرة في علم الحديث والتفسير والرواية واللغة والأدب، ولكن الذي يظهر من حديث جلّ المؤرّخين، أو عدد كبير منهم، أنّ فكرة انتقال الخلافة أو الإعداد لها قد ظهرت في وُلد العبّاس منذ ظهور شخص عليّ بن عبد الله بن عبّاس على مسرح التاريخ السياسي، والذي فارق الحجاز ـ موطنه وموطن الأجداد ـ وأقام بالحميمة التي أقامه بها بنو أميّة، وأنزله بها الوليد بن عبد الملك[1].

ومن هنا كانت هناك شرارة أفكار الدعوة وانطلاق الدعاة، أو الاتّصال بهم وتجنيدهم وتسخيرهم للفكر السياسي العبّاسي، الذي يحلم بامتلاك أمور المسلمين وتأسيس دولة لهم. وعليّ بن عبد الله بن عباس هذا رأى نور الحياة في زمن الخليفة العادل ووصيّ رسول صلى الله عليه وآله الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فشرّف أباه وشرّف مولوده عليّاً هذا صاحب الدولة المنتظرة بحضوره، وبارك له ولأبيه. وجاء في الخبر أنّه دعا الإمام عليّ عليه السلام له ولأبيه بالحسنى، كما ذكر ذلك أبو العبّاس المبرّد في روايته التي يقول فيها: أنّه افتقد عليّ عليه السلام عبد الله بن العبّاس فقال: ما بال أبي العبّاس لم يحضر؟ فقالوا: ولد له مولود، فلمّا صلّى عليّ عليه السلام قال: امضوا بنا إليه، فأتاه فهنّأه فقال له عليه السلام: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، ما سمّيته؟ قال عبد الله ابن عبّاس: أو يجوز لي أن أسمّيه حتّى تسمّيه! فأمر عليه السلام به فأخرج إليه، فأخذه

١ـ الدولة العبّاسيّة: ١٣.

وحنّكه ودعا له، ثمّ ردّه إليه وقال: خذ إليك أبا الأملاك !قد سمّيته عليّاً وكنّيته أبا الحسن[١]. فأخذت هذه الحادثة بعداً سياسياً وتاريخياً، ربّما تركت في نفس ابن عبّاس أثراً يجدد ذكراه مع نفسه، أو كان يردّد مع نفسه ويحدّثها عن ملك بني العبّاس، وكذلك الأمر في خواطر بقيّة أولاد بني العبّاس، والذين شعروا بنفس الأثر والانفعال في دواخلهم. وربّما أخذ كلام الإمام عليّ عليه السلام موقعاً لديهم فأثارهم وجعلهم يجولون بأفكارهم ويأملون، بعد أن كانوا ربّما لا يحلمون بهذا الأمر، وربّما يئسوا من أن ينالوا حظّهم من الملك الذي يتطلّع إليه القرشيون ويتجالدون عليه.

و قد يكون التخطيط العملي، أوربّما مقدّمة التخطيط السياسي تكون قد بدأت بشكل نظري من تفاعلات هذه الحادثة التي يتجدد ذكراها لديهم باستمرار، ولربّما يكون من هناك شروع الفكر العبّاسي لرسم ملامح وصورة الدولة القرشية القادمة التي يرأسها بنو العبّاس في الغد السياسي المنتظر للمسلمين. ولكن لايمكن نسيان أو إهمال تشوّق جدّهم الأكبر العبّاس بن عبد المطّلب إلى الزعامة السياسيّة التي كان يحدّث نفسه بها معظم القرشيّين، خاصّة في العهد الجاهليّ القريب لفجر الإسلام، فلا يُستبعد لدى التأمّل والبحث، وربّما نحتاج إلى مزيد من التحقيق، لأن نقول: إنّ أصول ولبنة الفكر السياسيّ العبّاسي ـ أي هذا الفكر الذي مهّد لنشأة هذه الدولة ـ يعود إلى عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله العبّاس بن عبد المطّلب نفسه، والذي كان يحلم بأن ينال نصيبه أو حظّه السياسي أسوة برجال قريش، لأنّ العبّاس في الجاهليّة كان رئيساً في قريش، و إليه عمارة المسجد الحرام، والسقاية بعد أبي طالب[٢].

١ـ **الكامل في اللغة والأدب** ١: ٣٦٧.

٢ـ قال محبّ الدين الطبريّ: أمّا السقاية فمعروفة. وأمّا عمارة المسجد الحرام فكان لايدع أحداً ←

وقد صرّح العبّاس مراراً للنبيّ ﷺ برغبته بأن ينال حظّه من دنيا السلطة والإمارة، إلّا أنّ النبي ﷺ كان يشفق عليه فيدفعه عنها، وفي هذا يروي ابن سعد أنّ العبّاس قال للنبيّ ﷺ: استعملني، فقال النبيّ ﷺ: يا عبّاس، يا عمّ النبيّ، نفس تنجيها خير من إمارة لاتحصيها[1]. وقد كان من أثر إلحاح العبّاس في طلب الملك أن يخبره النبيّ ﷺ بالعاقبة الوخيمة لهذا المُلك، وذلك عندما أخبره ﷺ بنزول جبرئيل عليه السلام عليه وتصويره ذلك الملك بالصورة التي رآها النبيّ ﷺ، وكأنّ هذا الإخبار كان متداولاً لدى المؤرّخين، قال البلخيّ: روي في بعض الأخبار أنّ النبيّ ﷺ أعلم العبّاسَ استيلاء وُلده على الخلافة، واستأذنه العبّاس في أن يختصي أو يجبّ مذاكيره، فقال ﷺ: لا، فإنّه أمر كائن، واللهُ أعلم بالحقّ والصدق[2]. وربّما كانت ذكريات ومناسبات هذه المطالبة تتجدّد لدى العبّاس بعد رحيل النبيّ ﷺ، وما لحظ من تكالب وتهافت الصحابة للإمساك بدابّة السلطة، خاصّة بعد أن شهد أحداث مؤتمر السقيفة، وما ترتّب عن هذا المؤتمر من توزيع للأدوار السياسية، وتقاسم للسلطة والغنائم بين القرشيّين، بحجّة القربى القبليّة

يشبّب فيه، ولايقول فيه هجراً، وكانت قريش قد اجتمعت وتعاقدت على ذلك، فكانوا له عوناً عليه وأسلموا ذلك إليه. **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**: ٢١٧.

١ـ **الطبقات الكبرى** ٤: ٢٧.

٢ـ **البدء والتاريخ** ٤٦٢. وقد أيّد الشيخ الصدوق هذه الرواية ورواها بهذا النحو: إنّ جبرئيل عليه السلام هبط على النبيّ ﷺ وعليه قباء أسود ومنطقة فيها خنجر، فقال له النبيّ ﷺ: ياجبرئيل، ما هذا الزي ؟ فقال جبرئيل: هذا زي وُلدعمّك العبّاس. ثمّ قال جبرئيل عليه السلام: ويل لوُلدك مِن وُلد عمّك العبّاس! فخرج النبيّ ﷺ إلى العبّاس فقال: يا عمّ، ويل لولدي من ولدك! فقال العبّاس: فأجبّ نفسي؟ فقال النبيّ ﷺ: جرى القلم بما فيه. **من لا يحضره الفقيه** ١: ١٦٣/ ح٧٦٨.

للنبيّ ﷺ! فلِمَ لايكون للعبّاس أو لأولاده سهم أو نصيب! وكان باعتقادهم أنّهم أقرب نسباً من الذين ترشّحوا للخلافة وتصدّروا قائمة القيادة القرشيّة. وقد عاش العبّاس أجواء الاضطراب السياسي، أو الفوضى السياسية التي أعقبت رحيل النبيّ ﷺ. وهذه الأجواء الصعبة والقلقة التي خرجت عن سياقها الطبيعيّ، والتي عايشها العبّاس وتأثّر بها، هي التي صرفت الأمّة عن النصوص النبويّة التي تحدّد مستقبل الأمّة وقيادتها السياسية، والقيادة السياسية كانت مشخّصة، والتي هي بالضرورة القيادة الدينية نفسها المتمثّلة بأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، بصفته الشخص المقرّب للنبيّ ﷺ، والعارف بأحكام الدين وأموره، والذابّ عنه بسيفه، والمنصوص عليه مِن قِبل الله تعالى و على لسان نبيّه ﷺ.

إنّ مبدأ واعتقاد أنّ الخلافة بعد النبيّ ﷺ كانت لعليّ عليه السلام ظلّت كامنة في نفوس الهاشميّين ـ والعبّاس في مقدّمتهم ـ ولدى عدد من الصحابة والأنصار والمهاجرين. ولم يكن العبّاس جاهلاً أو ناسياً للمقام الروحي والديني والسياسي الكبير أيضاً للإمام عليّ عليه السلام، فقد أعلن العبّاس في وقت مبكّر اصطفافه مع الإمام عليّ عليه السلام، والمبادرة إلى تأييده، وإعلان صلاحيّته المطلقة لقيادة المسلمين بعد النبيّ ﷺ، حين أبرز قناعته الدينية والسياسيّة بأنّ عليّاً عليه السلام هو الوارث الديني للخلافة، فيروى أنّ العبّاس جاء إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وقال له: انطلقْ بنا نبايعْ لك الناس..[1] وجاء في رواية ابن قتيبة الدينوري: فلمّا قُبض رسول الله ﷺ قال العبّاس لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: ابسط يدك أبايعك فيقال:عمّ رسول الله بايعَ ابنَ عمّ رسول الله ﷺ ويبايعك أهل بيتك، فإنّ هذا الأمرإذا كان لم يقل، فقال

---

١ ـ تفسير القمّي ٢: ١٢٥.

له عليّ كرّم الله وجهه:ومن يطلب هذا الأمر غيرنا!وقد كان العبّاس رضي الله عنه لقي أبا بكر فقال له: هل أوصاك رسول الله بشيء؟ قال:لا، ولقي العبّاس أيضاً عمرَ فقال له مثل ذلك، فقال له عمر:لا، فقال العبّاس لعليّ عليه السلام: ابسطْ يدك أبايعْك ويبايعك أهل بيتك[1]. وكان سؤال العبّاس للشيخين هو بمثابة إلقاء حجّة عليهما بأن لايتقدّما عليّاً عليه السلام، فإنّ فراغ أيديهما من الوصيّة النبويّة يعني انتقال القيادة الدينية والسياسيّة إلى الإمام عليه السلام بلا منازع، لكن الأمر لم يَجرِ وفقاً للإرادة الدينية التشريعية التي فهمها العبّاس، بل استقام للإرادة القرشيّة، والتي كانت لها تأثيراتها القويّة في القبائل العربيّة[2]. وكان العبّاس متفهّماً للمعادلات السياسيّة في الجزيرة

١ـ **الإمامة والسياسة** ١: ٢١.

٢ـ كان لوجود البيت العتيق بمكّة بين أطناب القرشيّين أثر كبير في التأثير على قلوب القبائل العربيّة وشدّها إلى العقل القرشي؛ إضافة إلى تحقيق منفعة مادّية منهم. حيث استثمر أغنياء قريش الحج والعمرات لتنشيط التجارة في منطقة الحجاز، إذ من غير المعقول أنّ يؤمّ مكّةَ ألوفُ العرب من جميع أنحاء الجزيرة لأداء هذه المناسك دون أن يستفيدوا منهم أقصى ما تكون الفائدة وينتفعوا أكبر منفعة. وأوّل ما فعلته قريش في هذا السبيل أن عززت أيضاً وضعها القبلي بتشريعاتها الوثنيّة وارتباطها بالبيت؛ حتّى أصبح كلّ من يتمرّد على قريش يتمرّد على قدسيّة البيت، ومن يتمرّد على قدسيّة البيت فهو يتمرّد على قريش. ينظر: **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة** ١٨٨. ومن هذا المنطلق استطاعت الزعامة القرشيّة وناطقوها المخوّلون، من الذين صحبوا النبيّ صلى الله عليه وآله، أن يمرروا إراداتهم المتمثّلة بقرارات السقيفة في نقل السلطة الدينية والسياسيّة من البيت الهاشمي إلى بيوت قرشيّة أخرى. وقد تمكّنت من الحيلولة، أو سدّ الطرق الموصلة للحصول على زعامة عربية جديدة باسم الدين، أو منعت من وقوع السلطة الدينية والسياسية مجدداً في هذا البيت. وقد استطاعت الجماعة القرشيّة أن تنفرد بالقرار السياسي والديني لاحقاً من أجل هذا السبب لحين من الزمان إلى أن تمكّن ←

العربيّة آنذاك، لذلك ظلّ محافظاً على علاقة متوازنة بين القرشيّين الذين يحاولون الإمساك بالقرار السياسي، والتحكّم بالقيادة المطلقة في الجزيرة العربيّة، بما في ذلك المسائل والأمور الدينيّة، وإرجاعها إلى القرار السياسي الذي سيمسك بالسلطة، وبين التيّار العلوي الذي يمثّل النبوّة والرسالة السماويّة، من غير أن يحدث صداماً أو أزمة في تلك الحقبة، وربّما كان أحفاده يتفهّمون موقفه التوفيقي هذا، فاهتدوا به في مواقفهم اللاحقة[1]. ولكنّ العبّاس كان يلمّح ويوحي للقرشيّين

العبّاسيون من زحزحة هذا القرار وسوق الأمور للبيت العبّاسي وحده دون بقيّة الهاشميّين.

١ـ كان العبّاسيون يمثلون تيّاراً تصالحياً أو توافقياً بين الخطوط السياسية المتضاربة في كافّة مراحل التاريخ السياسي. وربّما كان هذا من غير حساب للمبادئ والقيم السياسية التي كان يستند إليها التيّار العلوي في جهاده العقائدي الذي كان العبّاسيون يتظاهرون بالانضواء تحته. أو ينظر إليهم الطرف الآخر أو حسابات الجغرافية السياسية والعسكرية التي تضعهم وتصنّفهم في مساحاتها باعتبارهم يدخلون في تصنيف البيت الهاشميّ. وربّما كان الشعر الذي ينسب إلى المأمون خير ترجمة واختزال للفكر العبّاسي السياسي الذي يقفز على كلّ الخطوط والرؤى. فيقول فيه:

أصبح ديني الذي أَدينُ به ... ولستُ منه الغداةَ معتذرا
حبَّ عليّ بعد النبيّ ولا ... أشتم صدّيقاً ولاعُمرا
ثمّ ابن عفّان في الجنان مع الـ ... أبرار ذاك القتيل مصطبرا
ألا ولا أشتم الزبير ولا ... طلحة إن قال قائل: غَدَرا
وعائش الأمّ لست أشتمها ... من يفتريها فنحن منه بُرا

ورد هذا الشعر في **البداية والنهاية**، لابن كثير ١٠: ٣٠٣. وكان أقرب إلى مزاج وفكر الذهنية العبّاسية. والمأمون واحد من هؤلاء هو الفكر الاعتزالي الذي يزاوج بين الفكر الشيعي والفكر السنّي. فلذلك عَدّوا من أسباب نموّ الفكر الاعتزالي هو وجود أفكار شيعية لدى بني العبّاس، كونهم جزءاً من بني هاشم. ولكن مع بداية المواجهة بين بني العبّاس والزيدية، ←

وانحياز بعض المعتزلة إلى الزيدية، تخلّى بنو العبّاس عن الأفكار الشيعيّة ومالوا إلى جمهور أهل السنّة، ومن الواضح أنّ ميل بني العبّاس إلى السنّة كان من مقتضيات حفظ سلطانهم. رسول جعفريان، **المسار الثقافي بين المعتزلة والشيعة منذ البداية وحتّى عصر الشيخ المفيد**، المقالات والرسائل للمؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد ـ قمّ ١٤١٣ للهجرة / التسلسل ٦ ص٣٥. ولم يمنع ذلك العبّاسيّين أيضاً من الإقرار بفضائل أولاد عليّ المعصومين عليهم السلام ودرجتهم الرفيعة، فقد جاء في رسالة أبي جعفر المنصور إلى محمّد بن عبد الله بن الحسن ـ حين ثار على الحكومة العبّاسية وكتب إليهم كتاباً يعرّفهم بحقّه ونسبه ـ إشارة بذلك بقوله: ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عليّ بن الحسين وهو لأمّ ولد، ولهو خير من جدّك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل محمّد بن عليّ وجدّته أم ولد، ولهو خير من أبيك، ولامثل ابنه جعفر وجدّته أم ولد، وهو خير منك.. **الكامل في التاريخ** ٥: ١٥٣. وعلى العموم ظلّت مشاعر العبّاسيّين في ظاهرها مفعمة بالودّ والإخلاص للإمام عليّ عليه السلام، فأعلنوا دفاعهم عن مواقف العلويّين الأوائل، إلّا أنّ السياسة وتدبير المُلك والسلطان الذي تجالدوا من أجله أفسد عقائدهم، ولكنّهم كانوا يظهرون الودّ والتعاطف مع العلويين الأوائل. ولم يجرأ أحد من الحكّام العبّاسيّين على إظهار خلاف ذلك ـ عدا المتوكّل ـ رغم معاداتهم وملاحقتهم لأولادعلي عليه السلام. يروي جمال الدين بن عنبة قصّة انكشاف قبر أمير المؤمنين عليه السلام بعد مضيّ ما يقارب قرن على إخفائه فيقول: فلم يزل قبره عليه السلام مخفياً حتّى كان زمن الرشيد هارون بن محمّد بن عبد الله العبّاسي، فإنّه خرج ذات يوم إلى ظهر الكوفة يتصيّد، وهناك حُمرٌ وحشيّة وغزلان، فكان كلّما ألقى الصقور والكلاب عليها لجأت إلى كثيب رمل هناك فترجع عنها الصقور والكلاب، فتعجّب الرشيد من ذلك ورجع إلى الكوفة، وطلب مَن له علم بذلك، فأخبره بعض شيوخ الكوفة أنّه قبر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. فيحكى أنّه خرج ليلاً إلى هناك ومعه عليّ بن عيسى الهاشميّ، وأبعد أصحابَه عنه، وقام يصلّي عند الكثيب ويبكي ويقول: والله يا ابن عمّ، إنّي لأعرف حقّك، ولا أنكر فضلك، ولكنّ وُلدك يخرجون عليّ، ويقصدون قتلي وسلب ملكي، إلى أن قرب الفجر وعليّ بن عيسى نائم، فلمّا قرب الفجر أيقظه هارون، وقال: قم فصلّ عند قبر ابن عمّك، قال: وأيّ ابن عمّ هو؟ قال: أمير ←

وغيرهم، وأحياناً كان يشير بشكل واضح إلى ضرورة دور الإمام عليّ عليه السلام في قيادة الأمّة[1] مع مراعاة وتفهّم الجوّ القرشي القوي الضاغط، والذي لم يَدَع للهاشميّين فرصة كافية للحركة في أوساط المسلمين، لأن يتصدّروا أو يمارسوا دورهم السياسي والقيادي اللائق بهم، حتّى آل بهم الأمر إلى أن يُمنَعوا من استحصال حقوقهم من بيت المال الذي أوجب لهم سهم ذوي القربى. وربّما كان العبّاس أكثر إلحاحاً وجلادة من غيره من الهاشميّين في المطالبة بسهم ذوي القربى، لأنّ التنازل أو التهاون في تثبيت الحقوق المالية للهاشميّين سيؤدّي إلى تجاهلها لدى الحكومات القادمة، باعتقاد العبّاس، كما جاء برواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال:دخلت أنا والعبّاس وفاطمة وزيد بن حارثة على رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تولّيني حقّنا في الخمس في كتاب الله فأقسمه في حياتك، حتّى لا ينازعنا فيه أحد بعدك، ففعل ففعلت، فلمّا مات

المؤمنين عليّ بن أبي طالب، فقام عليّ بن عيسى فتوضّأ وصلّى وزار القبر ثمّ إنّ هارون أمر فبُني عليه قبّة، وأخذ الناس في زيارته، والدفن لموتاهم حوله. **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب:** ٧٠.

١ـ وكان أولاد العبّاس أيضاً يعتقدون إلى حين من الزمن أنّ قيادة الأمّة يجب أن تكون بيد واحد من أولاد الإمام عليّ عليه السلام، ويترشّح هذا من خبر رواه أبو الفرج الأصفهانيّ أسنده إلى عُمَير بن الفضل الخثعميّ قائلاً: رأيت أبا جعفر المنصور يوماً، وقد خرج محمّد بن عبد الله بن الحسن من دار ابنه ، وله فرس واقف على الباب مع عبد له أسود، وأبو جعفر ينتظره، فلمّا خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتّى ركب، ثمّ سوّى ثيابه على السرج، ومضى محمّد، فقلت، وكنت حينئذ أعرفه ولا أعرف محمّداً: مَن هذا الذي أعظمتَه هذا الإعظام حتّى أخذت بركابه وسوّيت عليه ثيابه؟! قال: أو مَا تعرفه ؟ قلت:لا. قال: هذا محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، مهديّنا أهلَ البيت. **مقاتل الطالبيّين:** ٢٣٩.

رسول الله ﷺ ولّانيه أبو بكر فقسّمته، فلمّا كان آخر سنة من سني عمر، أتاه مال كثير، فعزل حقّنا، فدعاني عمر فقلت: إنّ بني هاشم في غنى من ذلك، وإنّ بالمسلمين خَلّة[1]، فإن رأيت أن تصرفه إليهم، ففعل عمر ذلك، فقال العبّاس: لقد أحرمتنا حقّنا، إنّه لايرجع إلينا أبداً[2]. وجاء في رواية أخرى أنّ العبّاس قال لعليّ عليه السلام: لاتطمعه في حقّنا، فقال عليّ عليه السلام: ألسنا أحقَّ مَن أجاب أمير المؤمنين وسدّ خلّة المسلمين! وقال: فمات عمر قبل أن يأتيه مال فيعطينا[3].

وربّما كان العبّاس موزّع الفكر والإحساس بين الموقف المبدئي الذي تقتضيه العقيدة الدينية، وكما رآه من سلوك النبيّ ﷺ تجاه الإمام عليّ عليه السلام، وبين الوضع

١ـ قال ابن دريد: الخلّة، بفتح الخاء: الحاجة. والخليل: المحتاج، وكذلك فسّر بيت زهير بن أبي سلمة:

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ يقول: لا غائب مالي ولا حرمُ

والخليل قالوا هاهنا: فعيل من الخلّة. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٥٥٩ (خلل).

٢ـ ينظر: **سنن أبي داود** ٣: ١٤٧/ ح٢٩٨٤، و**سنن البيهقي** ٦: ٣٤٣.

٣ـ ينظر: **سنن البيهقي** ٦: ٣٤٤. كانت قضيّة فدك من أهمّ القضايا التي شغلت بال العلويّين والشيعة بشكل عام، والتي أعطى فيها الإمام عليّ عليه السلام درساً بليغا للقادة والسياسيين الذين يديرون أمور البلدان، حيث ظهر إيثار الإمام عليّ عليه السلام وتضحيته بهذا الحقّ من أجل مصالح المسلمين، يقول السيّد هاشم معروف الحسني عن فدك التي تداولتها أيادٍ عبر العصور: لقد بقيت في أيديهم يتصرّفون بها كما يشاؤون، ولمّا انتقلت الخلافة إلى عليّ عليه السلام تصرّف بها لصالح المسلمين، كما كان يتصرّف في أمواله الخاصّة في هذا السبيل.. وذكر أيضاً في معرض حديثه عن مطالبة السيّدة الكريمة فاطمة عليها آلاف التحية والسلام بهذه النِّحلة فقال: لم تكن فاطمة الزهراء تطالب ببقعة من أرض أو بإرث مادي، بل كانت تطالب بالحق الذي جعله الله لعلي في خلافة رسول الله ﷺ. **سيرة الأئمّة الاثني عشر** ١: ١٤١ و١٢٣.

السياسي الجديد الذي رتّبه القرشيون في محاولاتهم لانتزاع العبّاس من الجبهة العلويّة، وإبقاء الإمام عليّ عليه السلام وحده في الساحة. وربّما يظهر هذا من رواية أحمد عن عبيد الله بن العبّاس قوله: كان للعبّاس ميزاب على طريق عمر بن الخطّاب، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذُبح للعبّاس فرخان، فلمّا وافى الميزاب صبّ ماء بدم الفرخين فآب عمر بن الخطّاب وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه، ثمّ رجع عمر فطرح ثيابه ولبس ثياباً غير ثيابه، ثمّ جاء فصلّى بالناس، فأتاه العبّاس فقال: واللهِ، إنّه لَلموضع الذي وضعه النبي صلى الله عليه وآله، فقال عمر للعبّاس: وأنا أعزم عليك، لمّا صعدت على ظهري حتّى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله. ففعل ذلك العبّاس[1]. وربّما كانت هناك بعض الأحداث المشابهة لهذا الحدث أبرزوا للعبّاس فيها مودّتهم واحترامهم لشخصه ربّما لتحييده، أو أن يكون لديهم أمل بتغيير موقفه في قابل الأيّام. وربّما كان العبّاس يوازن بين موقفه الصارم من حقّ الإمام عليّ عليه السلام في الخلافة، وبين علاقته بالزعماء القرشيين الذين سيطروا على زمام الأمور ولانوا بعض الشيء للعبّاس، وكما يظهر من مقولة البعض بأنّ «العبّاس كان يعتقد كغيره من آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وبني هاشم أنّ عليّاً عليه السلام أحقّ الصحابة بالخلافة من غيره، وكان دائماً إلى جنب عليّ عليه السلام، وكانت له مكانة عظمى عند الخلفاء، فإذا مرّ بالخليفة عمر بن الخطّاب ترجّل عمر إجلالاً له».[2]

وكأنّ الحكّام الأوائل وبقيّة الزعماء القرشيين كانوا يأملون بأن ينسحب العبّاس من موقفه المساند للإمام عليّ عليه السلام في المطالبة بحقّه بالخلافة، أو قد يتراخى بعض

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ١: ٢١٠.

٢ ـ محمّد علي الحسني، في ظلال التشيّع ٤٠٢.

الشيء في موقفه، حين يواجهونه بهذه الممارسات الودّية والموحية والدالّة في ظاهرها بأنّ قريشاً ترعى حرمته وموقعيته القبلية الكبيرة، على أنّ العبّاس ربّما كان يدرك ذلك ويفهم هذا الوضع، ولذلك ظلّ الهاشميون وآل بيت النبي ﷺ يستهدون بموقف العبّاس في وجوب قيادة الإمام عليّ عليه السلام وصلاحيته للقيادة والإمامة الدينيّة والسياسيّة، ولكن ليس بالمقدور مواجهة الجبهة القرشيّة القويّة آنذاك، ومن هنا لابدّ من التريّث ولو إلى حين من الزمن لاحتمال بروز معادلات سياسية جديدة. وربّما حصل تباين نوعي في الفهم المبدئي والسياسي لمفهوم إمامة عليّ عليه السلام، وكأننا نرى أنّ الفوضى السياسية التي عمّت المدينة كانت غير مشجّعة للعبّاسيين في خطّهم السياسي بأن يظلّ موقفهم صامداً ووفيّاً لهذا المبدأ، دون حراك أو تغيير في الموقف، فقد فهم العبّاسيون الأوائل بأنّ الظرف الذي كان فيه العبّاس من الداعين والساندين لخلافة الإمام عليّ عليه السلام بادئ الأمر قد تبدّل، لأنّ المتغيّرات السياسية أو الانقلابات التي جرت على أرض الواقع دفعت البيت العبّاسي لأن يعيد النظر في حساباته السياسية، وعلاقاته مع القرشيين. وربّما كان قول النبيّ ﷺ: احفظوني في عمّي العبّاس، فإنّه بقيّة آبائي[1]، وقوله ﷺ: خير إخواني عليّ، وخير أعمامي حمزة، والعبّاس صنو أبي[2].

ونصوص أخرى غيرها صدرت من النبيّ ﷺ استغلّها العباسيون وجعلوها أملاً في استلام زمام القيادة وإعادة أحلام السيادة القرشيّة، وتحقيق حلم الفوز بدابّة السلطة الدينية والسياسية، من غير الاستعانة بالوسيلة العلويّة، أو بعبارة أخرى

١ـ **أمالي الطوسي** ٣٦٢/ الرقم ٧٥٤.

٢ـ **عيون أخبار الرضا** عليه السلام ٢: ٦١/ ح ٢٤٧.

استثمار الوسيلة العلويّة بدهاء، ومن ثمّ طرحها جانباً أو الغضّ منها. واستجدّ هذا لديهم بعد أن خرجت الأمور من سياقها الشرعي والديني، وصار الإمساك بزمام الأمور يستند على الحنكة والتدبير السياسي قبل المصلحة الدينية والشرعية، مع تقادم الأيّام وتناسي النصوص وتغييبها. وربّما صار العبّاسي كغيره من القرشيين يفكّر بالمصلحة الفئوية، أو يحاول أن يعيد مجده التاريخي الذي كان يتمتّع به أشراف قريش، وهاشم كان واحداً من عظماء قريش. وربّما صار العبّاسي يحاول أن يحتكر المجد الهاشمي ويصرفه له وحده، معتقداً بأنّ أجداده الذين يتّصلون بهاشم كانوا في قمّة هذا المجد وهم الأَولى بهذا! وقد لعبت الدعاية العبّاسيّة في وقت لاحق دوراً كبيراً في توجيه أنظار المسلمين إلى أنّ نصيبهم وتراثهم، من السنّة النبوية والتاريخ الإسلامي، له ما يؤيّده من بعض العلماء، في تفسير النصوص وتوجيهها، فنُسب إلى الثعلبي[1] أنّه ذهب إلى أنّ المراد من أهل البيت في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[2] جميعُ بني هاشم[3]، فقال ابن حجر الهيتمي في تأييد قول الثعلبي:ويؤيّده الحديث الحسن أنّه

١ـ الثعلبي هو أبو إسحاق أحمد بن محمّد بن إبراهيم المحدّث النيسابوريّ صاحب التفسير (**الكشف والبيان**) الذي يروي عنه صاحب (**الكشّاف**) وغيره الحديث المعروف في فضل: من مات على حبّ آل محمّد عليهم السلام، وله (**العرائس**) في قصص الأنبياء عليهم السلام، توفّي سنة ٤٢٧ أو ٤٣٧. ينظر: **وَفَيات الأعيان** ١: ٧٩/ الرقم ٣١، **سفينة البحار ومدينة الحِكم والآثار** ١: ٣٣٤ (ثعلب).

٢ـ الأحزاب: ٣٣.

٣ـ أشار العلّامة الحسن بن مطهّر الحلّي إلى هذا الرأي فقال:قال بعض الناس: آل محمّد هم بنو هاشم وبنو المطّلب لأنّهم أهل النبيّ.. وقيل: آل محمّد مَن كان على دينه لأنّه سُئل عليه السلام: من ←

صلّى الله عليه وآله اشتمل على العبّاس وبنيه بمُلاءة ثمّ قال:يا ربّ، هذا عمّي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترْهم من النار كستري إيّاهم بمُلاءتي هذه..[1].

وربّما كانت هناك أخبار وأحاديث وُضعت في هذا المضمار، ولكن لم تجد لها وعاءً يحفظها، فتساقطت مع أوراق كثيرة لم يشأ الزمن أن تأخذ حظّها في التدوين والبقاء، وكأنّ العبّاس وبنيه صاروا هم المقصودين بهذه الآية وغيرها! فلم يجد الثعلبي له مسانداً ولا نصيراً، فلم تتكاثر روايات من هذا النحو. وربّما كان كبير البيت العبّاسي يحدّث نفسه بأنّ هذا المجد مشترك بين العبّاسي والعلوي، فلم تكن، أولم تَعُد، بعد الذي جرى في أفق المسلمين السياسي الجديد، هناك ضرورة في أن ينفرد بيت الإمام عليّ عليه السلام في الاستئثار بهذا المجد والشرف، وفقاً لاعتقادهم أو وفقاً لأطماعهم. وإذا كان هناك تفكير يقود السياسي إلى مبدأ أو عقيدة مفادها أنّ استلام زمام الأمور السياسيّة يحقق، أو يؤدّي بالنتيجة إلى حصول غنائم كثيرة تشبع النهم البشري اللامتناهي، فإنّ الدولة الإسلاميّة الزاحفة والمتنامية هي بالضرورة منتهى الآمال والأحلام للفكر العبّاسي، وللفكر القرشي على العموم، الذي يطلب الدولة طلباً حثيثاً، ولذلك لم يكن أو لم يكد يفارق الخيال العبّاسي هذا الحلم الجميل، حتّى إنّ الحاكم الأموي هشام بن عبد الملك[2] حدّث جُلّاسه عن طموح عليّ بن عبد الله بن عبّاس، الذي كان يبشّر

آل محمّد؟ فقال: كلّ تقيّ. ولقوله تعالى ﴿**أَدخلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العَذاب**﴾ غافر: ٤٦. والوجه أنّ الآل هنا المعصومون من أهل بيته إذ لاتجب الصلاة على غيرهم. **تذكرة الفقهاء** ٣: ٢٣٤.

١ـ **الصواعق المحرقة** ١٤٤. والمشهور لدى العلماء أنّ هذه الآية (الآية ٣٣ من سورة الأحزاب) نزلت في الخمسة: النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. ينظر: **أسباب النزول**، للواحدي: ٢٣٩.

٢ـ هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وُلد سنة ٧٢ للهجرة، وكان حين مات أخوه يزيد ←

بدولة قادمة تكون لوُلده، وربّما كان حديث العبّاسيين شائعاً ومتداولاً إلى درجة أن يصل إلى أسماع الحاكم الأموي نفسه، ولمّا كان هناك مجلس ضمّ هشاماً مع عليّ ابن عبد الله بن عبّاس بادرهم بالقول:إنّ هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخلّط فصار يقول: إنّ هذا الأمر سينتقل إلى ولده..[1] والحقيقة لم تكن هناك رجّة أو لوثة في عقله، كما تصوّر هشام أو صَوّر، وإنّما هي أفكار وأمنيّات وأخبار كانوا يحملونها من رجال الحجاز لابدّ من أنّ وقتها سيحين، وسيُصبح الحلم واقعاً محقّقاً وفي متناول أياديهم.

بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلّم عليه بالخلافة، ووَليَ الحكم في شهر شعبان سنة ١٠٥ للهجرة. وكان أوّل أعماله أنه فرض ضريبة خراجية على الموالي لا قِبل لهم بها، وذلك لسدّ النقص الحاصل في خزينة الدولة.. شهد عهدهُ بعض الفتن والثورات، منها ما حدث في بلاد ما وراء النهر في أثناء ولاية أسد بن عبد الله القسري وقد عيّنه أخوه خالد بن عبد الله القسري، ثمّ عزله هشام وعيّن بدله يوسف بن عمر.. وفي ولاية يوسف بن عمر خرج زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام. **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ٨٩.

١ ـ ينظر: **الكامل في اللغة والأدب**، للمبرّد ١: ٣٦٨. وربّما كان الأمويون على حذر من الطمع والطماح العبّاسي، فقد كان إخبار الإمام عليّ عليه السلام بانتقال ملك بني أميّة إلى بني العبّاس متداولاً ومشهوراً حتّى ولج أسماعهم، ولذا وجد منهم من كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ بني العبّاس سينتزعون الحكم والسلطة من بني أميّة، وبأنّ دولة بني العبّاس قادمة لا محالة. يروي أبو الفرج الأصفهانيّ أنّ مروان بن محمّد ـ آخر حاكم أمويّ ـ لمّا بعث عبد الملك بن عطيّة السعدي لقتال الحروريّة، لقيه أهل المدينة سوى عبد الله بن الحسن وابنيه محمّد وإبراهيم، فكتب بذلك إلى مروان، وكتب إليه: إنّي هممت بضرب أعناقهم، فكتب إليه مروان ألّا تعرض لعبد الله ولا لابنَيه، فليسوا بأصحابنا الذين يقاتلونا أو يظهرون علينا. وأرسل مروان بن محمّد إلى عبد الله بن الحسن بعشرة آلاف دينار، وقال له:اكفُفْ عنّي ابنَيك، وكتب إلى عامله بالمدينة أن: استتر بثوب منك فلاتكشفه عنه، وإن كان جالساً على جدار فلا ترفع رأسك إليه. **مقاتل الطالبيين**: ٢٥٨ و٢٥٩.

وقد صدق الإنباء العَلوي، ولم يطل انتظارهم كثيراً، فهذه الدولة الفتية النامية التي نشأت باسم الإسلام، وأخضعت لهم البلدان في دورة من دورات الزمان، انتُزعت من أيدي الأمويين، بعد أن بغوا وطغوا[1]، ووضعها الدهر في دورة من دورات الزمان بأيدي بني العبّاس يتداولونها، كما تداولها بنو أميّة من قَبلهم برهة من الدهر، فسقطت بأيديهم طائعة ومقهورة معاً، وربّما كانت قد زهت الدنيا بهم وبفتيانهم حتّى أشبعت رغباتهم إشباعاً أتخمهم وأثقلهم، فقد تضخّمت الدولة تضخّماً طاغياً حتّى تمكنت من ضمّ أراض واسعة تحت سيطرتها اعتنقت معظم شعوبها الإسلام، وانساقت لهم طوائف من المسلمين وغير المسلمين، خوفاً أو طمعاً، كلّها

١ـ لقد درّت الدنيا على الأمويين من نعم وخيرات الشرق والغرب. في غزوات حقّقت لهم فتوحات كبيرة، باسم الإسلام والنبيّ محمّد ﷺ حتّى أطغتهم وأبطرتهم وأنستهم ذكر ربّهم ودينهم الذي استغلوه للوصول إلى كرسي الحكم والسلطان، وكان لهم قائدان نشيطان يصبّان المال في خزائن بني أميّة، هما: قتيبة بن مسلم الباهلي وموسى بن نصير. قال ابن كثير الدمشقي:كان موسى بن نصير هذا يفتح في بلاد المغرب، وقتيبة يفتح في بلاد المشرق، فكلاهما فتحا من الأقاليم والبلدان شيئاً كثيراً، ولكنّ موسى بن نصير حظيَ بأشياء لم يحظ بها قتيبة، حتّى قيل: إنّه لمّا فتح الأندلس جاءه رجل فقال له: ابعث معي رجالاً حتّى أدلّك على كنز عظيم، فبعث معه رجالاً فأتى بهم إلى مكان فقال:احفروا، فحفروا، فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهتهم، وأمّا الذهب فشيءٌ لا يعبَّر عنه، ووجدوا في ذلك الموضع الطنافس، الطنفسة منها منسوجة بقضبان الذهب، منظومة باللؤلؤ الغالي المفتخر، والطنفسة منظومة بالجوهر الثمين، واليواقيت التي ليس لها نظير في شكلها وحسنها وصفاتها. ولقد سُمع يومئذ منادٍ ينادي لايرون شخصه:أيّها الناس، إنّه قد فتح عليكم باب من أبواب جهنّم، فخذوا حِذركم! وقيل:إنّهم وجدوا في هذا الكنز مائدة سليمان بن داود التي كان يأكل عليها. **البداية والنهاية** ٩: ١٩٥.

كانت تنساق لعصى وُلد العبّاس باسم الإسلام المحمّدي. وربّما كانت بعض الشعوب والأمم صادقة في انسياقها معهم تأمل منها بالتمتّع بمبادئ الإسلام العظيمة، فنشأت مجتمعات جديدة انصهرت بها هذه الجموع الزاحفة من أطراف الدنيا، بما في ذلك الشعوب والأمم المتباينة في ثقافاتها وقومياتها وأصولها الإثنية والعرقية والتي سكنت هذه البقاع من أمد بعيد.

ولم تطل أيّام الدول وبيوتاتها في الحكم إلى هذه المدّة المديدة من عمر الإسلام، فقد سارت هذه الدولة الفتيّة الناشئة سيراً تصاعدياً امتدّ في عمرها الزمني إلى خمسة قرون، فلم تكن دولة أيّام ملوكية عابرة سرعان ما تنسى، أو ذكريات وأطلال وأحجارينساها الباحثون والمؤرّخون فيمن نُسي أو أُهمل. وربّما كانت هذه الدولة من القوّة ما لم تتمكّن ذاكرة التاريخ أن تنساها، أو تعبرها الأقلام بلاإشارة أووقوف طويل، فهذه الدولة هي التي ولّدت الفكر السياسي والنظرية السياسية التي يعتنقها أهل السنّة والجماعة وإلى الآن، كما وتوسّع وتشقق علم الكلام والفلسفة والعقائد في عصور هذه الدولة، وتنازعت عندها الرؤى والأفكار بنحوآخر غير النحو الذي عهده المسلمون من قبل، كما وإنّها عايشت فترة مهمّة ومصيرية لا زالت آثارها تتفاعل مع توالد الأزمان، وكان الزمن العبّاسي زمناً مؤثّراً وفاعلاً في كثير من الشخصيات الدينية والسياسية التي عرفت المذاهب الفقهية والسياسية، و التي ولّدتها أو أنشأتها مناخات هذه الدولة وسياساتها في ظروفها الجديدة، في حقبة زمنيّة تعدّ خطيرة من حياة المسلمين، والتي غطّت هذه الحقبة منها مساحة كبيرة من حياة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فامتدّت من حياة الإمام السادس جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام وحتّى الإمام الثاني عشر (المهدي عليه السلام) الذي كانت ولادته ونشأته في منتصف القرن الثالث الهجري.

وتُعدّ هذه الفترة فترة قلقة وتأسيسيّة في الوقت نفسه، فهي فترة مضطربة من الناحية السياسية والاجتماعية، ولكنّها أسست كثيراً من النظم التي ظلّ المسلمون يسيرون عليها ويرجعون إليها، ومع هذا التأسيس لكثير من الأفكار والنظم المدنيّة والحضارية كانت الدولة العبّاسيّة فيها مهددة بالسقوط والانقراض، ولكنّها استطاعت أن تماطل الزمن إلى أن وأدها الدهر برجال الشرق المقدّرين لها. ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الشرق، أو إقليم المشرق[1] للمسلمين كان نقطة البداية للعواصف والزلازل والهزّات التي غيّرت خارطة المسلمين السياسية وغيّرت خريطة العالم معها، وكانت الأحداث والمتغيّرات العاصفة قد عبثت بأوضاع المسلمين ومزّقتهم شرّ تمزيق. ومن هناك، أي من بلاد خراسان القديمة الواسعة ـ وربّما كان بلد مَرْو على وجه الخصوص هو من رسم الأحداث[2] ـ كانت بداية

---

١ ـ إقليم المشرق: هو إقليم ذو جانبين: الأوّل في الشرق، وهو ما كان شرقي جيحون، ويسمّى بما وراء النهر أو هيطل، والثاني في الغرب، وهو ما كان غربي جيحون ويسمّى خراسان. وأهل خراسان هم الذين أقاموا الدولة العبّاسيّة وأقاموا صرحها، وأمّا أهل ما وراء النهر فجلّهم من التركمان ولم يكن الإسلام شملهم لأوّل عهد العبّاسيين. الشيخ محمّد الخضري، **الدولة العبّاسية، محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميّة** : ٣٦. قال ياقوت الحمويّ: سُمّيت بلاد ما وراء النهر بهيطل بن عالم بن سام بن نوح عليه السلام، وعُدّ منها بخارى وسمرقند وجخند. **معجم البلدان** ٥: ٤٢٢.

٢ ـ مَرْو بلد كبير من أقاصي خراسان، وفي كتب البلدان جاءت تسمية هذا الإقليم الكبير بمرو الروذ ـ بالذال ـ ومرو الشاهجان. والمرو: المرج، والروذ: الوادي، فمعناه وادي المرج أو مرج الوادي، والشاه الملك، والجان النفس. **معجم ما استُعجم**، للبكري ٢: ٨٦، وقيل: جاءت التسمية من المرو: الحجارة البيضاء التي يقتدح بها، والروذ: النهر، فكأنّه مرو النهر، وسمّيت بالشاهجان ومعناها نفس السلطان لجلالتها عندهم. وروى بريدة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ←

العبّاسيين ونهايتهم ومقابرهم، فهذا البلد الواسع المضطرب المزاج هو الذي أطلق العنان لآمال العبّاسيين، ثمّ بددها، وكأنّ سعد العبّاسيين و بدو دولتهم معقود بنواصيهم ونواصي خيولهم الزاحفة. ولم يدر بخَلد العبّاسيين يوماً أنّ خراسان الشرق، أو من تخوم بلاد ما وراء النهر ستنهدّ جموع متوحّشة ستنهش دولتهم

قال له: يا بريدة، سيُبعث بعدي بعوث، فإذا بعثت فكن في بعث المشرق، ثمّ كن في بعث خراسان، ثمّ كن في بعث أرض يقال لها مرو، إذا أتيتها فانزل مدينتها فإنّه بناها ذو القرنين، وصلّى فيها عُزَير، أنهارها تجري بالبركة.. فقَدِمها بريدة غازياً وأقام بها إلى أن مات.. **معجم البلدان** ٥: ١١٢. وخرج منها رجال، وكان أبرزهم: بريدة بن الحصيب صاحب رسول الله ﷺ، وطائفة من الصحابة، ثمّ عبد الله بن بريدة، ويحيى بن يعمر، وعدّة من التابعين. ثمّ الحسين ابن واقد، وأبو حمزة السكّري، وابن المبارك، والفضل بن موسى، وأبو ثميلة وعلي بن الحسن بن شقيق، وعبدان بن عثمان وأصحابهم.. ينظر: **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ**، للسخاوي: ٢٩٨. وتكتسب مرو أهمّية كبيرة، لأنّ الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام والمسلمين السياسي كانت ترجع جذورها إلى مرو في القرن الثاني والثالث الهجري، فقد كانت معسكرَ الإسلام في أوّله، وبها أقام المأمون قبل الحكم، وفيها ثلاثة مساجد، لأنّ أوّل مسجد أُقيم للجمعة ضاق عن الناس، وهو المسجد الذي أقيم للجند الفاتحين لمّا كثروا، فبنى عمر بن عبد العزيز المسجد المعروف بالعتيق حوالي سنة مائة للهجرة على باب المدينة، حيث الجامع ومصلّى العيد في رأس الميدان في مربّعة أبي جهم ويطوف به من جميع نواحيه البنيان والعمارات.. وللمدينة الداخلة أربعة أبواب، وفيها دون شكّ دار إمارة كان ينزلها المأمون وأسواق عامرة. شاكر مصطفى، **المدن في الإسلام حتّى العصر العثماني** ١: ٤١٤. وحفّت البركة في المدينة من جميع جوانبها وجهاتها في أواخر القرن الثاني الهجري لأنّ إقامة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام كانت هناك، حين أرسل المأمون مَن يستقدمه من المدينة إلى مقرّ إقامته، كتدبير لتقوية سلطانه وتحسين صورته في صراعه مع أخيه الأمين، وهذا الحدث يعتبر من أهمّ الأحداث وأبرزها في تاريخ مرو على الإطلاق.

وتقطّعها، فتُبكيهم وتنزع ضحكتهم من شفاههم، كما أضحكتهم وأبطرتهم رايات خراسان المظفّرة أوّل إقبال دولتهم حين قذفت بهم في قصور لهوهم، وسرعان ما تهدّمت هذه القصور بشهوات الحرام والبغي والبطر، فتهاوت دنياهم على رؤوسهم في غفلة من غفلاتهم. وكأنّ رجال آسيا الوسطى، الذين عبّأهم وزجّ بهم هولاكو في جيش جرّار له كلب ولجب، كان على موعد مع نكبات الدهر الذي لم يدع الحلم العبّاسي أن يتمدّد ويحقق أهدافه إلى آخر الدهر، كما كانوا يعتقدون أو يتوهّمون، فالجيش الماحق الذي سحق بغداد بسنابك خيله، وأطفأ ألقها وأبطل سحرها ببريق رماحه، قدم من الشرق أيضاً، هذا الأفق الواسع الصاخب، والذي كان بالأمس معهم، انقلب عليهم، فمحقهم وأذهب عزّهم، وأراهم نحوسة الأيام ومرارتها، فكان فناء دولتهم وقطع رؤوسهم، قدرهم المقدور الذي لايمكن الفرار منه. ولم يكن فناؤهم هذا بالحسبان، بعد أن أسكرهم الزمان، ووضع في أيديهم الكؤوس الدهاق والغانيات الحسان، وصيّر لهم بغداد مسكناً لآثامهم، ووكراً لآمالهم وخطاياهم[1].

إنّ خراسان القديمة كانت حاضنة للدعوة العبّاسيّة ومنها انطلقت الجيوش ورُفعت الرايات، فقد كانت دعوة شيعة بني العبّاس في خراسان قويّة ورائجة، حيث ظهر بدو أمرهم وكثر بها هناك من يأتيهم، وجعلت الدعاية العبّاسيّة وحملتهم

١ـ لقد أشار الإمام عليّ عليه السلام في خطبة من خطبه إلى بطر بني العبّاس وغيّهم ولهوهم في بغداد، متناسين الأمّة والرعيّة البائسة بقوله: يتّخذها وُلدُ العبّاس موطناً، ولزخرفهم مسكناً، تكون لهم دارَ لهو ولعب، يكون بها الجور الجائر، والخوف المخيف، والأئمّة الفجرة، والأمراء الفسقة، والوزراء الخونة، تخدمهم أبناء فارس والروم.. **سفينة البحار** ٢: ٤٩٨ (زور) ـ عن: **المستدرك** ٣: ٤٦٣ ـ من: **كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين** عليه السلام: ١٧. وسيشار إلى هذه الخطبة في فصل لاحق أيضاً.

الإعلاميّة تستهدف أفعال بني أميّة وما نالوا من أمر رسول الله ﷺ وعترته، حتّى لم يبق بلد إلّا فشا فيه هذا الخبر، وظهر الدعاة، ورُئيت المنامات، وتدورست كتب الملاحم، وكان اختيار اللون الأسود هو الخطوة الأولى، ثمّ كانت الخطوة الثانية هي إرسال الرايات إلى خراسان، فكان أن بُعث بأبي سلمة إليها، بعد أن دفع له ثلاث رايات سود وأُمر أن يدفع واحدة إلى من بمرو من الشيعة، ويدفع واحدة إلى من بجرجان من الشيعة، ويبعث بواحدة إلى ما وراء النهر، فشخص أبو سلمة إلى خراسان، فكان أوّل من قدمها بالرايات السود. وكان وصول الرايات مترافقاً مع حال الفوضى المستشرية في خراسان، وقد أفاد من ذلك أبوسلمة وسليمان بن كثير، وكانت الفتنة التي نشبت بين نصر بن سيّار وعلي الكرماني، ثمّ ابنه جديع الكرماني، تتأجج بفعل تأثير السياسات المركزيّة. ثمّ فتحت جبهة جديدة لوالي الأمويين بخراسان بقيادة شيبان الحروري، فكانت الفترة مواتية لأبي مسلم أكثر، فدخل هذا المعترك بعد أن ضعفت قوّة نصر بن سيّار وانضمّت إلى أبي مسلم كلّ الفئات الغاضبة في خراسان[1].

ومجمل صورة العصر هناك تُظهر أنّ خراسان كانت ساخطة على الحكومة المركزية في دمشق سخطاً فاحشاً لايمكن تداركه أو الحدّ من سعيره، وربّما يعود غضب المسلمين، وحتّى بعض العرب المتوطّنين في خراسان وغيرهم من القوميات الأخرى، إلى السياسة الأموية غير المتوازنة هناك، فالأمويون قاموا بتقديم العرب في الولاية والقيادة على غير العرب[2]. وهناك طوائف من العرب أيضاً كانت

١ـ ينظر: عيسى الحسن، **الدولة العبّاسيّة تكامل البناء الحضاري**: ٢٩.

٢ـ عمر فرّوخ، **تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية**: ١٧٦. وقد تعصّب الأمويون للعرب ونظروا إلى ←

تحمل مشاعر عدائية للأمويين، للسياسة الطبقية والقبلية المنحازة في توزيع المناصب والامتيازات[1]، فالعرب الذين استوطنوا قرى مرو في خراسان كانت لهم

الموالي نظر السيّد إلى المسود ممّا أثار الروح القوميّة في نفوس هؤلاء الموالي، وثاروا على الحكم الأموي وانضمّوا إلى الخارجين على بني أميّة، وأخذوا يتحيّنون الفرص للقضاء على دولتهم، فانضمّوا إلى ثورة المختار الثقفي الذي نهض للثأر من الأمويين الذين سفكوا دم الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام ظلماً وعدواناً، ثمّ انضمّ جمع منهم إلى الخوارج، وشارك عدد كبير منهم في حركة عبد الرحمن بن الأشعث، وفتنة يزيد بن المهلّب، وغيرها من الثورات التي كانت ترمي إلى التخلّص من حكم بني أميّة. ينظر: **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ١٣٠.

١ـ في ظلّ الحكم الأموي نشأت سياسة غريبة مزقت المجتمع الإسلامي إلى مجموعة من القبائل المتنازعة، وهي سياسة انتخاب حفنة من الولاة والقادة العسكريين من قبيلة معيّنة ـ قيسية مثلاً ـ وإبعاد أفراد القبائل الأخرى. إنّ مبدأ توظيف الحسّ القبليّ لأغراض سياسية انتهجه معاوية بن أبي سفيان، حيث تزوّج ميسون أمّ يزيد التي تنتسب إلى بني كلب لغرض جذب هذه القبيلة إلى جانبه في تصفية خصومه.. وفي مطلع حكومة يزيد بن عبد الملك عاد الصراع القبلي ليطلّ برأسه من جديد، ولتبدو نصرة يزيد للقيسية في أكثر من مناسبة.. وفي حكم هشام بن عبد الملك ساء هشاماً ما كان للقيسيين من سلطان زمن أخيه يزيد ممّا حمله على أن يبدي مَيلاً لليمنية.. وقد لزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين، لأنّ أمّه كانت منهم.. ومارس الحكم الأمويّ أيضاً أسلوباً سياسياً منحرفاً، هو تقسيم أفراد المجتمع الإسلامي إلى طبقات، لكلّ منها امتيازات خاصّة، ويقف على رأس هذه الطبقة حفنة من الولاة في البلاد، ثمّ طبقة الأشراف، ثمّ طبقة عامّة الناس، وهي الطبقة السفلى. والهدف من تقسيم الناس إلى هذه الفئات هو حرمان الطبقات العامّة، وحصر السلطة والثروة في إطار المقرّبين لكسب ولائهم للحكم الأموي. وبرزت أيضاً سياسة اختيار الأشراف والخاصّة، طبقة من المجتمع تتميّز بنفوذها الواسع وثروتها العريضة، هذه الطبقة لاينحدر أفرادها من قبيلة معيّنة، وإنّما يقع الاختيار عليها بحسب عمق ولائها للحاكم، أو بسبب قوّة نفوذها، الأمر الذي يدفع الحاكم لاستغلال ذلك النفوذ لحسابه الخاصّ..
←

أسباب للتذمّر ترجع إلى حرمانهم من الامتيازات التي يتمتّع بها المقاتلة من العرب، منها حرمانهم من العطاء والمناصب السياسيّة والعسكريّة والإدارية المهمّة، وممّا زاد في تذمّرهم أنّ الوالي الأموي سلّط عليهم الدهاقين لجباية خراج الأرض منهم، ومن الطبيعي أن يستاء هؤلاء العرب المسلمون من سيطرة الأمراء المحليين الذين كان أغلبهم غير مسلمين في ذلك الوقت. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد كان للمقاتلة العرب أسباب للتذمّر تتلخّص أوّلاً بإبقائهم على خطوط النار شتاء، وهذا ما يسمّى بالتجمير[1]، وثانياً كانوا لايتسلّمون حصّتهم من الفيء والغنيمة أحياناً، أو يأخذون أقلّ من حصّتهم منها، وثالثاً كان ريع خراسان لا يُصرف على خراسان وأهلها، بل غالباً ما كان يُرسَل كلّه أو بعضه إلى دمشق، ورابعاً النزاع المستمرّ بين شيوخ القبائل والوالي للوصول إلى السلطة في خراسان.

والوضع المرتبك في بلاد الشام أوجد عند القبائل الخراسانية[2] نوعاً من القلق

وتمخّضت سياسة انتخاب الأشراف عن تميّز حفنة من المجتمع تتركّز في يديها الثروة والسلطة والنفوذ عن عامّة المجتمع الذي يتلوّى تحت سياط الظلم الاجتماعي.. ينظر: الشيخ نوري حاتم، **زيد بن عليّ في مشروعيّة الثورة عند أهل البيت** عليهم السلام: ٩٦ و٩٨.

١ـ تجمير الجيش: هو جمعهم في الثغور وحبسهم عن العَود إلى أهلهم. **الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة العرب المعوّل** ٧: ٢٢٠ (جمر).

٢ـ إنّ روح العصبيّة التي حاول الإسلام أن يقضي عليها قد بُعثت بين القبائل العربيّة على أثر موت يزيد بن معاوية، غير أنّها لم تكن من القوّة والشدّة بحيث تؤثّر في انحلال دولة الأمويين الذين ظلّوا حافظين لكيانهم كفريق سياسي.. ولمّا توفّي عمر بن عبد العزيز وولي الحكم يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) اشتعلت نيران العصبيّة من جديد بين عرب الشام وعرب الجنوب، أو بين مضر واليمن، ذلك الصراع الذي انتهى بقتل يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة، وقتل أهل بيته اليمنيين الذين كانوا غرّة في جبين الدولة الأمويّة، كما كان البرامكة بعدُ غرّة ←

وعدم الاستقرار، ولذلك كانت الدعوة العبّاسيّة بالنسبة لهم أملاً جديداً لحياة أكثر استقراراً ويسراً[١]، وكان العرب الذين استوطنوا خراسان وإقليم ما وراء النهر التابع لها إدارياً قد انقسموا قسمين: القسم الأوّل هم الأشراف والقادة العسكريون الذين تمسّكوا بتقاليدهم القديمة وأخلاقهم القبليّة وتقاليدهم الاجتماعية، والقسم الثاني هم عامّة العرب من جنود وغيرهم ممّن استقرّ على الأرض، ثمّ اختلطوا مع السكّان الأصليين، وعلى الأخصّ عندما تحوّلت معسكرات الجند (الثغور) إلى مدن زراعية، بعد أن توقّفت حركة الفتوح. والظروف التاريخية التي أحاطت القسم الأوّل الأشراف ومَن تبعهم خلقت منهم طبقة أرستقراطية ثرية، أمّا الظروف التاريخية التي أحاطت القسم الثاني، فكوّنت منهم طبقة عامّة لسكّان المدن والمناطق الزراعية، وبعد ذلك قام الصراع السياسي بين الطبقتين، وظلّ مستعراً حتّى سقوط حكم الأمويين[٢]، وهذا ما يفسّر انضمام طوائف وقوميات متباينة من عرب وفرس وترك وكرد وغيرهم إلى تيّار الثورة المناهضة للحكم الأموي، فاغتنم العبّاسيون هذه الأوضاع المشحونة بالامتعاض والتذمّر، للانطلاق بالثورة نحو الأهداف والأطماع الكبيرة المطمورة والمدفونة في صدورهم، وصدور أسلافهم في استلام السلطة واستلابها من أيدي بني أميّة، وربّما كانت الآمال التي تخامر أذهان عموم الجماهير الثائرة لاتتجاوز حلم العيش والحياة الحرّة الكريمة، كما كان يحياها ويعيشها سائر

في جبين الدولة العبّاسيّة. وقد أشعل قتل آل المهلّب نار العصبيّة في قلوب ذلك العنصر، وأثار حقده على البيت الأمويّ، وصار العنصر اليمنيّ منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان بني أميّة. ينظر: حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني** ٢: ٨.

١ـ فاروق عمر، **الخلافة العبّاسية في عصر الفوضى العسكرية**: ٩.

٢ـ عبد الله الخطيب، **الحكم الأموي في خراسان**: ٥٤.

المسلمين الذين عاصروا الدولة الإسلاميّة في عهد النبيّ ﷺ، وربّما كانت أهداف الثائرين تباين أهداف القادة والآمرين بها، أو لاتتطابق معهم في تفصيلات الأمور، أو في الكثير منها، كما وإنّ أغلب أعلام العلويين ـ كما يبدو في ظاهر الأمور ـ كانوا أقرب للجماهير الثائرة من العبّاسيين[1].

والحقّ أنّ المبادرة والمنازلة الميدانية كانت بيد جماعات من العلويين، أو من أنصارهم كما في ثورة التوّابين سنة ٦٥ للهجرة، وثورة المختار الثقفي سنة ٦٦ للهجرة، وفرق خارجيّة كانت تتحرّك هنا وهناك، ولم تحتفظ هذه الحركات في ذاكرتها، أو في سجلاتها المدوّنة بأسماء عبّاسيّة، ولو بمشاركة صوريّة مع هذه الحركات والثورات ذات الأهمّيّة السياسيّة والتاريخيّة، فمن الطبيعي أن تكون الرايات العلوية قد حققت قَدراً من التعاطف والتفاعل الجماهيري الملحوظ،

---

١ ـ يقول شمس الدين الذهبيّ: إنّ الناس كانوا يحبّون آل العبّاس وآل عليّ عليه السلام ويودّون أنّ الأمر يؤول إليهم، حبّاً لآل رسول الله ﷺ، وبغضاً لآل مروان، فبقوا يعملون على ذلك زماناً حتّى تهيّأت لهم الأسباب، وأقبلت دولتهم. **سير أعلام النبلاء** ٦: ٥٨. وربّما كان الدعاة العبّاسيون أكثر تفهّماً لمشاعر الناس وأحاسيسهم من القادة العبّاسيين الذين تواروا خلف شعاراتهم، ففي خراسان كان هناك حدث عظيم أثار عواطف الناس وهيّج مشاعرهم تجاه السلطة الأمويّة حين صُلب يحيى بن زيد، ولم يزل يحيى مصلوباً حتّى ظهرت المُسَوَّدة بخراسان ـ والسواد شعار بني العبّاس، وكان أشياعهم يرتدون به، ولذلك سمّاهم التاريخ المسوّدة، أمّا بنو أميّة فكان شعارهم البياض، وذووهم والمنتصرون لهم يُسمَّون المبيّضة ـ فأتوه فأنزلوه من خشبته وغسّلوه وحنّطوه وكفّنوه ودفنوه، وَليَ ذلك خالد بن إبراهيم بن داود البكري وحارث ابن خزيمة التميميّ وعيسى بن ماهان. وكان أبو مسلم يتتبّع قتلَةَ يحيى بن زيد، فقيل له: إن أردت ذلك فعليك بالديوان، فدعا أبو مسلم بالجرائد، فنظر مَن شهد قتل يحيى بن زيد، فلم يَدَع أحداً منهم إلّا قتله. **الدر النظيم**: ٦٠٠.

فلربّما كان الشخص العلويّ الواحد المنتسب للإمام لعليّ عليه السلام له تأثير إعلامي واضح بين جماهير المسلمين، لما للعلويين من قداسة تاريخية، ترتبط بتاريخ الدعوة الإسلامية التأسيسيّة التي قدحها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بجهاده العظيم في نفوس الناس[1]، قد لاتتوفّر للهاشميين الآخرين.

وربّما كانت مجموعات صغيرة من التيّار العلويّ، لو قُدّر لها المشاركة الحقيقيّة في الثورة العبّاسيّة، أقوى من تأثير مجمل القادة العبّاسيين الراكبين الموج باسم الإمام عليّ عليه السلام، لما للعلويين من تراث وتاريخ جهادي مشهود يُفتخَر به، لايمكن الغضّ عنه، أو محوه من ذاكرة المسلمين ونسيانه. ولذلك حين خرج أبو العبّاس السفّاح إلى قصر الإمارة بالكوفة، في أوّل سلطة بني العبّاس، قام داود بن عليّ عمّ السفّاح قبله خطيباً، وقد اجتمع القوّاد وأعيان الناس فقال: واللهِ ما قام على منبركم هذا أحد، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، أحقّ به من عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأمير المؤمنين هذا[2]. ومن الطبيعي أن الخطيب العبّاسي كان يدرك في قرارة نفسه أنّ إقران اسم أبي العبّاس السفّاح مع الإمام عليّ عليه السلام لم يكن متوافقاً مع الحقيقة، إلّا أنّه فعل هذا هنا لاعتبارات سياسية ودعائية. ومعظم بني العبّاس كانوا يقرّون بأنّ سيف الإمام عليّ عليه السلام وجهاده هو الذي بوّأهم مقعدهم من الحكومة. وعلى العموم يمكن أن

١ـ روى أبو الفرج الإصفهاني صورة من صور ولاء وتقديس الخراسانيين ليحيى بن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، والذي قُتل هناك، أنه لمّا أُطلق قبل استشهاده من السجن، وفُكّ حديده، صار جماعة من مياسير الشيعة إلى الحدّاد الذي فكّ قيده من رجله، فسألوه أن يبيعهم إيّاه، وتنافسوا فيه وتزايدوا حتّى بلغ عشرين ألف درهم، فخاف أن يشيع خبره فيؤخذ منه المال، فقال لهم: اجمعوا ثمنه بينكم، فرضوا بذلك، وأعطوه المال فقطّع القيد قطعة قطعة، وقسمه بينهم، فاتّخذوا منه فصوصاً للخواتيم يتبرّكون بها. **مقاتل الطالبيين**: ١٥٥.

٢ـ **البدء والتاريخ**، للبلخي: ٤٦٧.

نقول:إنّ الضربات التي وجهها العلويون وأنصارهم في ثوراتهم، وانتفاضاتهم المتلاحقة، منذ قيام الدولة الأمويّة وحتّى أيّامها الأخيرة، كان لها الأثر المباشر وغير المباشر والفاعل في ضعضعة البنية السياسية والعسكرية للأمويين، وربّما شجّعت الناقمين من المذاهب السياسية المختلفة على كسر حاجز الخوف والانضمام إلى الجبهة المعادية الأخرى، و التي تسعى إلى اقتلاع الأمويين و إنهاء دولتهم بأيّ وسيلة كانت . وهناك عدد كبير من الباحثين يعتقد بأنّ الدعوة العبّاسيّة كانت متستّرة بالمطلب والعنوان العلويّ الذي مهّد الطريق للدولة العبّاسيّة، تقول الباحثة سميرة مختار الليثي:استترت الدعوة العبّاسيّة وراء الدعوة للرضا من آل محمّد، فكسبت بذلك ولاء كثير من المسلمين الذين يريدون تحويل الخلافة إلى البيت الهاشمي، أي إلى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، خاصّة من الموالي الفرس. ثمّ عطفت بالقول: وقامت خلال فترة انتشار الدعوة العبّاسيّة (١٠٠ـ ١٣٢ للهجرة) ثورات شيعيّة عنيفة، قام بها زيد بن عليّ وابنه يحيى[1]، وعبد

١ـ كان سبب خروج زيد بن عليّ عليه السلام، كما في رواية الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي أنّه دخل على هشام بن عبد الملك وقد جمع له هشام أهل الشام، وأمر أن يتضايقوا في المجلس حتّى لايتمكّن من الوصول إلى قربه، فقال له زيد: إنّه ليس من عباد الله أحد فوق أن يُوصى بتقوى الله، ولا من عباده أحد دون أن يُوصي بتقوى الله، وأنا أوصيك بتقوى الله يا أمير المؤمنين، فاتّقِهْ، فقال له هشام:أنت المؤمِّل نفسك للخلافة الراجي لها ! وما أنت وذاك لا أمّ لك، و إنّما أنت ابن أَمة! فقال له زيد:إنّي لا أعلم أحداً أعظم عند الله منزلة من نبيّ بعثه الله وهو ابن أمة، فلو كان ذلك نقصاً عن منتهى غاية لم يُبعَث، وهو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فالنبوّة أعظم منزلة عند الله أم الخلافة يا هشام؟ وبعد، فما نقص برجل أبوه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن عليّ بن أبي طالب؟! فوثب هشام من مجلسه ودعا قهرمانه وقال:لايبيتنّ هذا في عسكري! فخرج زيد وهو يقول: لن يكره قوم حرّ السيوف إلّا ذلّوا. **روضة الواعظين** ٢: ٣١.

←

الله بن معاوية[1] وقد شغلت هذه الثورات الحكّام الأمويين عن التفرّغ لمواجهة الدعوة العبّاسيّة الآخذة في الاتّساع والانتشار، كما استنفدت هذه الثورات كثيراً

فحرّكت هذه السياسة الأموية الجائرة تجاه العلويين زيداً للنهوض. فخرج زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام يوم الأربعاء غرّة صفر سنة اثنتي وعشرين ومائة، وعلى العراقَين يوسف بن عمر بن أبي عقيل الثقفي من قِبل هشام بن عبد الملك، فخرج على أصحابه وهو على برذون أشهب في قباء أبيض تحته درع وبين يدي قربوسه مصحف منشور وقال:سلوني. فوالله ما تسألوني عن حلال وحرام ومتشابه وناسخ ومنسوخ وأمثال وقصص إلّا أنبأتكم به، واللهِ ما وقفتُ هذا الموقف إلّا وأنا أعلم أهل بيتي بما تحتاج إليه هذه الأمّة.. ثمّ سار حتّى انتهى إلى الكُناسة فحمل على جماعة من أهل الشام كانوا فيها، ثمّ سار إلى الجبّانة ويوسف بن عمر مع أصحابه على التلّ. فشدّ بالجمع الذي معه على زيد وأصحابه.. وانتهى أمر زيد رضوان الله عليه وتفرّق أصحابه.. وخرج يحيى بن زيد إلى خراسان في عدّة من أصحاب أبيه. فلم يزل ينتقل في كورها حتّى خرج في زمن الوليد بن يزيد. وكان أقام بمرو حيناً وسرخس حيناً. وأقام عند الجرّيش بن عمر بن داود البكري حتّى هلك هشام بن عبد الملك وولّي الوليد بن يزيد. وكتب عمر بن عمر إلى نصر بن سيّار وهو يومئذ على خراسان يخبره بمسير يحيى بن زيد إلى خراسان. فبعث نصر بن سيّار إلى عقيل بن معقل الليثي يأمره بأخذ الجرّيش فيزهق نفسه أو يدفع إليه يحيى بن زيد. وبذلك لم يستطع يحيى مقاومة الوالي الأموي طويلاً حتّى قتل يحيى بالجُوزجان في سنة خمس وعشرين ومائة.. **الدرّ النظيم**: ٥٩٥ و ٥٩٨ ـ ٦٠٠.

١ ـ ربّما كانت ثورة عبد الله بن معاوية عفوية، لأنّه قدم الكوفة زائراً لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز العامل الأموي على الكوفة يلتمس صلته، فأغراه الكوفيون بقولهم له: أُدعُ إلى نفسك، فبنو هاشم أَولى بالأمر من بني مروان. فدعا لنفسه، لكنّه مُني بهزيمة نكراء، وتفرّق أصحابه إلى فرق وجماعات مذبذبين بين صنوف الشيعة وفِرقها لايرجعون إلى أحد. ينظر: **تاريخ الطبري** ٥: ٥٩٩، و**المقالات والفرق**، للأشعري: ٤٤.

من جهود الدولة الأمويّة، ممّا دعم الدعوة العبّاسيّة وأفسح الطريق لها[1].

وبناء على هذا الاستنتاج، فالجهاد العلويّ المتداوم، وثورات الناقمين والمعارضين السياسيين للحكم الأموي، من الجبهات الأخرى، كالخوارج وغيرهم، كان له تأثير كبير ومتعاظم، في هدّ السطوة الأموية وإضعافها، وفي تعبيد طريق الثورة، و توجيه الجموع الثائرة التي نقمت على النظام الأموي لتضررها من السياسة الأمويّة، وتشجيعها وتحفيزها في السير قدماً، للقفز على معاقل السلطة الأموية والإطاحة بأصحابها. وربّما كان رجال الفكر السياسي العبّاسي، ودعاة الدولة العبّاسيّة يدركون هذا الأمر ويفهمونه، فها هم يسيرون في طريق سهل معبّد له معالمه ومسالكه الواضحة، ولم يكن خافياً على أحدٍ أنّ دماء الثائرين، ومنها الدماء العلوية التي سفكها الأمويون وأنصارهم هي التي كانت ترسم معالم طريق الثورة، ولذا كان العبّاسيون الأوائل يخشون الصوت والمدّ الجماهيري المتعاظم، والمساند والمؤيّد للتيّار العلوي، والذي تمازج مع الصوت العبّاسي في الثورة ضدّ الأمويين، أو بعبارة أخرى: التيّار العلوي الذي انضوى تحته وباسمه رجالات الدعوة العبّاسيّة والصوت العبّاسيّ. وكان أبو العبّاس السفّاح ـ أوّل حكّام بني العبّاس ـ متوجّساً وقلقاً من عواطف الناس وميلهم إلى العلويين، وربّما تجاوزت ظنونه وشكوكه إلى أنصاره وأعوانه المقرّبين فأسرع إلى تصفيتهم والتخلّص منهم[2]. وكان أبو جعفر

---

١ ـ **جهاد الشيعة في العصر العبّاسي الأوّل:** ٣٨.

٢ ـ يقول الشيخ محمّد الخضريّ: لم تكن الشدّة في المعاملة قاصرة على أعدائهم، بل نال أولياؤهم منها شيئاً عظيماً. لاننسى أنّ مِن أعظم الرجال أثراً في قيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان ـ أي أبو سلمة الخلّال ـ الذي كان يقال له: وزير آل محمّد. لمّا تمّ الأمر لبني العبّاس اتّهموه بأنّه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل عليّ بن أبي طالب. وكانوا ←

المنصور الدوانيقي ثاني حكام بني العبّاس[1] ممّن سار على هذا الطريق بحذر شديد، يتلفّت منتظراً ساعة الغفلة للانقضاض والاقتناص بأقرب فرصة على من يخشى منه نهضة، أو يشمّ رائحة الثورة من أعطافه وأردانه، ممّا أدّى به هذا الحذر إلى الانقلاب السريع على حلفائه، أو نظرائه من التيّار العلوي، فأسرع في الانقضاض والإجهاز عليهم وتصفيتهم بلا رحمة فيما بعد، وكانت هذه الجولة له في ثاني خطوة خطاها بعد الانقضاض على أبي مسلم الخراساني، هذا القائد الذي خدم دولتهم خدمة كبيرة، ووطّأ وذلّل لهم كلّ شيء، فسقاه كأس الغدر مترعاً.

ويعدّ محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس قائدَ التنظيم السرّي العبّاسي، ومؤسسه الحقيقيّ، ويطلق عليه الإمام، وكان تخطيط سير الدعوة وحركة الداعين وتشكيل نواتها يتمّ وفقاً لتوجيهه، و كانت الكوفة وخراسان نصب عينيه في بدء أمر الدعوة . ذكر المسعودي أنّ مبدأ الدعوة العبّاسيّة بالكوفة وخراسان وغيرها من الأمصار كان في سنة ١٠٠ للهجرة، وذلك أنّ أبا هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفيّة

يريدون قتله، لكنّهم أحبّوا مشاورة أبي مسلم في ذلك، فبعث السفّاح أبا جعفر أخاه إلى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك، فسار أبو جعفر حتّى جاء مرو، وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبي سلمة، فقال: أَكْفِيكُموه. ثمّ انتدب رجلاً وأمره أن ينطلق إلى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه، فقدم الرجل الكوفة وتربّص لأبي سلمة، حتّى خرج من عند السفّاح فقتله غيلة في طريقه، وأشاعوا أنّ الخوارج قتلوه، ثمّ قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عمّاله بفارس. وهكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذي الأثر الكبير في دولتهم، من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجّته، بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة. **الدولة العبّاسيّة** ٤٩.

١ـ روى الشيخ الصدوق عن أبي جعفر المنصور الدوانيقي قوله: كنت هارباً من بني أميّة، وكنت أتردّد في البلدان فأتقرّب إلى الناس بفضائل عليّ عليه السلام، وكانوا يطعمونني ويزوّدونني.. **أمالي** الصدوق: ٥٢١/ ح٢ـ المجلس السابع والستّون.

كان قَدِم على سليمان بن عبد الملك سنة٩٨ فأُعجب به وقضى حوائجه وصرفه، وضمّ إليه من سمّه في الطريق، فلمّا أحسّ بذلك غدا إلى محمّد بن علي بن عبد الله ابن العبّاس بن عبد المطّلب، وهو يومئذ بالحميمة، وقيل بكرار من جبال الشراة والبلقاء من أعمال دمشق، فأفضى إليه بسرائر الدعوة، وعرّف بينه وبين الدعاة وأعلمه أنّ الحكومة صائرة إلى ولده، وأنّ الأمر إلى ابن الحارثيّة منهم، وأمر ببثّ الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة، فلمّا حضرت محمّداً الوفاة أوصى لابنه إبراهيم، فكانت الدعوة إليه، وسُمّي الإمام، وإليه دعا أبو مسلم بخراسان. فلمّا وقف مروان بن محمّد الجعديّ [1] على ذلك كتب إلى عامله بدمشق، وهو الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم يأمره بتوجيه بعض ثقاته إلى الحُمَيمة [2] أو كرار ـ من جبال الشراة والبلقاء من أعمال دمشق ـ فيأتيه بإبراهيم الإمام، فحمله إلى مروان فحبسه في المحرّم من هذه السنة، وهي سنة ١٣٢، فقتل في محبسه بعد شهرين، وعهد بالأمر بعده إلى أخيه أبي العبّاس عبد الله بن محمّد، وهو ابن الحارثيّة [3].

---

١ ـ هو مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، وأمّه أمّ ولد كانت جارية لإبراهيم بن الأشتر أخذها محمّد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠، وكان والياً على أرمينيا، وبويع لمروان سنة ١٢٧ للهجرة، وكانت الدولة الأمويّة في عهده قد دخلت مرحلة بداية النهاية. فقد عصفت بها الفتن والانقسامات والاضطرابات حتّى وصلت البيت الحاكم نفسه. لُقّب مروان بالجعدي لأنّه تتلمذ على يدي الجعد بن درهم، وهو من المعتزلة. **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ١٠١.

٢ ـ قال الفيروز آباديّ: حُمَيمة، كجُهينة: بُليدة بالبلقاء، وبلقاء بلد بالشام. **القاموس المحيط** ٤: ٤٤ و٣: ٢٩٠.

٣ ـ **التنبيه والإشراف**: ٣٣٨. يبدو أنّ الإشارة إلى اسم الحاكم العبّاسي الأوّل الملقّب بالسفّاح والمعبّر عنه بابن الحارثية كان مثار إزعاج وقلق للسلطة الأمويّة التي كانت تنتظر نهايتها ←

وتذكر رواية تاريخية أنّ التنظيم العبّاسي تأسس في بني مسلية، وكان رئيسهم سلمة بن بجير إلّا أنه توفّي في طريقه إلى الحجاز فتولّى رئاسة التنظيم أبو رباح ميسرة النبّال، فأمرهم الإمام العبّاسي محمّد بن علي بن عبد الله بالذهاب إلى الكوفة، على أن يستروا أمرهم، وأن يكتموا اسمه ولايظهروه إلّا لمن يثقوا به، وكانت دعوتهم إلى الرضا من آل محمّد، فإذا سُئلوا عن اسمه قالوا: أُمرنا بكتمان اسمه حتّى يظهر. وكان من أوائل من انتمى إلى هذا التنظيم: سلمة بن بجير، وسالم بن بجير، وأبو هاشم بكير بن ماهان، وحفص بن سليمان (أبو سلمة الخلّال)، ومنهم زياد الهمداني، ومعن الهمداني، وأبو عمرو الأزدي، وإبراهيم الهمداني. وبعد وفاة أبي رباح النبّال تولّى رئاسة التنظيم سالم بن بجير، وتولّى أمر المراسلة بين الإمام العبّاسي في الحُميمة وبين التنظيم في الكوفة[1] أبو هاشم بكر بن ماهان، حيث

الحتمية وفقاً لقوانين التاريخ وسننه. فقد روى أبو زيد البلخي عن الواقدي قوله: كانت بنو أميّة يمنعون بني هاشم من تزويج الحارثيّة. للخبر المروي أنّ هذا الأمر يتمّ لابن الحارثيّة، فلمّا قام عمر بن عبد العزيز بالأمر، أتاه محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس فقال: إنّي أريد أن أتزوّج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب، أفتأذن لي؟ قال: تزوّج من شئت. فتزوّج ريطة بنت عبد الله بن عبد المدان فأولدها أبا العبّاس. وكان بين محمّد وأبيه عليّ أربع عشرة سنة.. فلمّا كانت سنة أربع ومائة، قدم أبو عِكرمة من خراسان على محمّد بن عليّ الإمام في جماعة من أصحابه وقد مهّدوا الأمر له. وفي هذه السنة ولد أبو العبّاس، وهو الذي انتشرت الأخبار بإفضاء الحكومة إليه. فأخرجه إليهم محمّد في خرقة وقال: إنّ الأمر يتمّ لهذا ويقوم به حتّى تدركوا آثاركم من عدوّكم. **البدء والتاريخ**: ٤٦٢ و٤٦٣ و٤٧٤.

١ـ لايخفى على الباحثين والمؤرّخين أنّ الكوفة كانت مركز التشيّع العلويّ، ومنها امتدّ إلى بقاع الدنيا، وكان العبّاسيون يحاولون الولوج إلى معاقل معارضي بني أميّة هناك عن طريق محبّي أهل البيت عليهم السلام. فالقادة للتنظيم العبّاسي هناك كانوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام أو من محبّيهم. أو ممّن كان من المتعاطفين معهم. وربّما كانت الدعاية العبّاسيّة تدرك ذلك ←

قام بزيارة الإمام العبّاسي وأعطاه بعض الأموال التي أرسلها التنظيم في الكوفة. وفي عام ١٠٠ للهجرة بدأ التنظيم يتّخذ أسلوباً جديداً، حيث أخذ يبثّ مبادئه في خراسان، بعد أن زُوّد من قبل الإمام العبّاسي بأوامر محددة هي:

١ـ أن يكسب الأتباع الثقاة من أهل خراسان.

٢ـ أن يكون الشعار الرضا من آل محمّد.

٣ـ أن يندد بجور الأمويين. ٤ـ حذّره من الانضمام إلى الثوّار العلويين[1].

ونتيجة هذا الجهد الحَذِر المبرمج، والتدبير والدهاء السياسي المتقن، تكاثر الدعاة، وامتدّت أيديهم إلى مناطق واسعة من خراسان القديمة، بعد انخراط أعداد هائلة من المسلمين، وحتّى من غيرهم، بانتظار ساعة الخلاص من سلطة دمشق، وبدأت عيون الشرق تتطلّع إلى ساعة الانقضاض على الدولة الأموية المتداعية التي مرّت أيّامها بسرعة، والمعارضون لها يعدّون عُدّتهم على أمل أن يمارسوا دوراً جديداً في تاريخ المسلمين. وهكذا مرّت الأحداث تتلاحق، وعمر الأمويين في انصرام وتقضٍّ، وآمال العبّاسيين تتسع وتقترب من الواقع، بعد أن انضمّت إليهم أفواج من المسلمين الذين سئموا من الأمويين وسياساتهم. وظلّ الأمر على هذا المنوال، والآمال المعقودة على عهد ونظام جديد بدأت تلوح في أفق الأحداث، وضرب

ولكنّها كانت تراوغ معهم أو تخدعهم، وقد شهد الإمام الصادق عليه السلام بولاء الكوفيين ومحبّتهم لأهل البيت عليهم السلام كما روى الشيخ الطوسي بإسناده إلى عبد الله بن الوليد أنّه قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام في زمن بني مروان فقال: ممّن أنتم؟ قلنا: من أهل الكوفة. قال: ما من البلدان أكثر محبّاً لنا من أهل الكوفة، لاسيّما هذه العصابة، إنّ الله هداكم لأمرٍ جَهِله الناس، فأحببتمونا وأبغَضَنا الناس، وبايعتمونا وخالَفَنا الناس، وصدّقتمونا وكذّبنا الناس، فأحياكم الله محيانا، وأماتكم مماتنا.. **الأمالي**: ١٤٤/ الرقم ٢٣٤.

١ـ خالد عزّام، العصر العبّاسي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**: ٨.

الدهر ضربته مع تزايد أعداد المناصرين للثورة العبّاسيّة، والذين قاموا بتأجيج المشاعر والأحاسيس الثورية.

وألهبوها على الحكم الأموي، لتنضاف جموع وطاقات جديدة إلى صفوف الحركة العبّاسية الناهضة، وهي تأمل رؤية حكومة ودولة جديدة قد تتحقّق بها الآمال والأحلام التي تداعب مخيلة وجفون الأكثرية المتضررة من المسلمين وغير المسلمين، إلى أن أكمل الدهر ضربته معهم، حين هيّأ لهم الرجل الحديدي الصارم أبا مسلم الخراساني[1]، الذي قلب أوضاع الدولة الأمويّة وأربكها، ودان له جمع كثير اصطفّوا خلفه، فتداعت وانثلمت أركان الدولة الأمويّة التي أرعبتهم تحت أقدام الثائرين، لتقوم على أنقاضها دولة جديدة، كان لبني العبّاس فيها حظوة كبيرة، أقرضها الزمان لهم بعد أن انتزعها من قلوب وعيون بني أميّة، فتهالك العبّاسيون عليها ليمسكوا بسنين استعاروها، أو اختلسوها من أعمار القَدَر الذي لم يتّعظوا بجولاته، فقضوا أشطراً من أعمارهم في بغداد وسامراء لاهين فرحين، ليلعب القدر معهم لعبته بمن سبقوهم من بني أميّة الذين انقلبوا عليهم ولبسوا لبوسهم.

١ـ يتحدّث أبو زيد البلخي عن بداية تعرّف دعاة الدولة العبّاسية على هذا الرجل القويّ الذي قلب الدولة الأمويّة فيقول: في سنة خمس وعشرين ومائة سار النقباء من خراسان إلى الكوفة، فأتوا يونس بن عاصم العجليّ وهو في حبس ابن هبيرة وأبو مسلم غلامه يخدمه، وقد فهم الدعوة وسارع إليها، فلمّا رأته النقباء وفيه العلامات تفرّسوا فيه ارتفاع الأمر على يديه. ثمّ سارت النقباء إلى مكّة فلقوا الإمام إبراهيم بن محمّد بن عليّ فأخبروه بخبر أبي مسلم وأعطوه مالا كانوا حملوه من خراسان، فقال لهم إبراهيم: إن كان أبو مسلم عبداً فاشتروه، وإن كان أبو مسلم حرّاً فخذوه معكم. وفي سنة ثمان وعشرين ومائة في ولاية مروان بن محمّد وجّه إبراهيم أبا مسلم إلى خراسان وكتب إلى الشيعة بتأميره عليهم.. **البدء والتاريخ**: ٤٦٤.

التحوّل الاجتماعي والثقافي في العصر العبّاسي

عُدّ النصف الثاني من القرن الهجري الأوّل بدايةَ التغيير والتحوّل في المجتمع الإسلامي، فمنذ أواخر المنتصف الأوّل للقرن الأوّل الهجري أخذت بنية المجتمع الإسلامي في التغيّر والتحوّل، إلّا أنّ هذا التغيّر كان محدوداً وبطيئاً، فلم يحدث انقلاب فجائي وسريع، وإنّما كان هناك تغيّر وتأثّر على طبقات معيّنة من المجتمع، كالعلماء وأهل المعرفة، ورجال السلطة والحكم في الدولة، ويعود هذا إلى عامل الاحتكاك الحضاري والمدني الذي حصل بفعل وتأثير الأجناس والأمم المختلفة التي دخلت الإسلام، وهي تحمل معها ألواناً من حضارتها الأصلية وطرائق تفكيرها، وأساليب جدلها الديني. وقد بلغ المجتمع الإسلامي في النصف الثاني للقرن الأوّل درجة من التطوّر حتّمت على الحكّام العناية بنقل العلوم من مختلف اللغات، وهناك من يرى حدوث ذلك لأوّل مرّة على يد خالد بن يزيد بن معاوية المتوفّى ٨٥ للهجرة، ثمّ في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ـ١٠١ للهجرة). وفي الثلث الأوّل للقرن الثاني الهجري أصبحت الترجمة على يد عبد الله بن المقفّع [1] عاملاً

١ـ هو أبو الحسن عبد الله بن المقفّع الفارسيّ، الماهر في صناعة الإنشاء، وكان عبد الله ـ واسمه الفارسيّ رُوزْبِه ـ ابن رجل يجمع الخراج للحجّاج بن يوسف الثقفي، وكان من أتباع عيسى ←

أساسيّاً لتنمية الثقافة العربيّة والنهوض بها، ومن ثمّ بدأ التحام الثقافة العربيّة الإسلاميّة بالثقافات العالمية: الفارسيّة، واليونانيّة، والهندية، حتّى إذا كان العصر العبّاسي أمر أبو جعفر المنصور (١٣٦ـ ١٥٨ للهجرة) بنقل الطبّ والمنطق من اليونانيّة إلى العربيّة، وحتّى ذلك الوقت كانت مدرسة جنديسابور تدرّس الطبّ وفنون الحكمة بواسطة الفرس، والهنود، وأحفاد النساطرة الرومان الذين فرّوا إلى بلاط كسرى أنوشروان خوفاً من اليعاقبة، كما أمر المنصور بالنقل من السنسكريتية، فأدّى كلّ هذا إلى أن تصبح بغداد مركزاً ثقافيّاً مهمّاً.

وقد بلغ الالتحام بين الثقافة العربيّة والثقافات الأخرى أوجَهُ في عهد المأمون (١٩٨ـ ٢١٨ للهجرة) إذ أحبّ الفلسفة والعلوم، وأخذ يشجّع المترجمين ويرسل الوفود إلى فارس واليونان وشبه القارّة الهندية لاقتناء الكتب بغية تعريبها..[1]. وربّما كانت خزانة الحكمة، أو بيت الحكمة الذي تأسس ببغداد مستودعاً للثقافة الدينية والقومية و العالمية، أو مجمعاً ثقافيّاً للحضارات والثقافات والأديان العالمية للشعوب آنذاك، يقول كوركيس عوّاد: لاشكّ في أنّ خزانة الحكمة ببغداد، كانت من أعظم خزائن الكتب في الإسلام، على اختلاف عصوره ودوله، لأنّها حوت من

ابن عليّ عمّ السفّاح والمنصور، وعلى يديه أسلم. ولقد نقل إلى العربيّة عن الفهلويّة تاريخ الفرس. والترجمة الفارسيّة لكتاب الأمثال الهندي الموسوم بـ(**كليلة ودمنة**). ووضع عدداً من الرسائل في الحكمة السياسيّة على ما جاء عند الإيرانيين. قيل: وكان كابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن الأعمى على طريق الزندقة. قتله سفيان بن معاوية عامل المنصور بالبصرة في سنة ١٤٣ للهجرة بأمر المنصور. ينظر: **الأعلام**، للزركلي ٤: ٢٨٣، **سفينة البحار**٤: ١١٧ (قفع)، كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلاميّة**: ١٨٣.

١ـ علي الشابي، **مباحث في علم الكلام والفلسفة**: ٢٤ و٣٢.

الأسفار العتيقة كلّ جليل ونفيس، ولم تكن كتبها إلّا نتاج ثقافات شرقيّة وغربيّة مختلفة:العربيّة والفارسيّة والسريانيّة واليونانيّة.. بواسطة النقل والتعريب في صدر الدولة العبّاسيّة[1]. وربّما كان هذا التعريب للعلوم والثقافات والآداب عاملاً مهمّاً وقويّاً في حدوث حركة ثقافية جديدة، ظهرت آثارها لاحقاً في حركة الثقافة والآداب والعلوم والفنون، والتي كانت تعدّ من مظاهر الرقي والتمدّن الخارجية في المجتمع الإسلامي. واعتُبرت هذه الحركة من العوامل المؤثّرة والقويّة في تغيير بنية المجتمع الإسلامي وحتّى في عاداته وأعرافه ومناهج وطرائق تفكيره، ومجمل سلوكه العام، وربّما كان انعكاس هذا المدّ الثقافي في العراق أكثر من أيّ قطر أو إقليم إسلامي آخر، حيث ظهرت وتأسست المدارس الكلامية والفقهية هناك بشكل مبكّر، وزحفت على أقاليم الدولة الإسلامية، وأثّرت فيها وتأثرت بها أيضاً، على مدى حقب زمنيّة. ولم تتخلّص الجماعات والأفراد من هذا التأثير المتبادل في كلّ الأقاليم والبلدان الإسلامية، بل وما زالت البقاع الإسلاميّة إلى اليوم واقعة تحت تأثير هذا الفكر أو المدّ الثقافي السابق، والذي كان تأثيره قويّاً وفاعلاً إلى قروننا الأخيرة، والذي يرجع بأصوله إلى هذا وذاك من رجال الثقافة الإسلامية الطارئة، أو الجديدة بحسب السياق التاريخي للأديان، والتي يُؤرَّخ تأسيسها أو ظهورها إلى أواخر القرن الهجري الأوّل، وامتدّ إلى القرن الثاني باعتبارها مرحلة تأسيسية، فقد نشأت المعتزلة أو القَدَرية[2] في العراق حيث تلاقح الحضارتين

١ـ خزائن الكتب القديمة في العراق: ١٠٥.

٢ـ قال الشهرستاني:ويُسمَّون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقّبون بالقَدَرية والعدلية. وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً، وقالوا:لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقَدَر خيره وشرّه من الله تعالى، احترازاً من وصمة اللقب، إذ كان الذمّ به متّفقاً عليه؛ لقول النبيّ عليه الصلاة والسلام:
←

السامية والفارسيّة، وقد سُمّوا بالقدرية لأنّهم يقولون بحرّية إرادة الإنسان، ويبنون عقيدتهم على أسسس خمسة، هي: التوحيد، والعدل، والوعيد، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمربالمعروف والنهي عن المنكر.وكانت المعتزلة في بدء تكوّنها طائفة دينية، لكنّها أصبحت تيّاراً سياسيّاً، فوضعت طروحاتها في الإمامة وشرط الإمام[1].

ويبدو أنّ المعتزلة قد استوعبوا الفلسفات القديمة السابقة للمدرسة الإسلامية في الحكمة والفلسفة استيعاباً إيجابياً، من غير أن يخلعوا ثوبهم الإسلامي، على العكس من الفرق الأخرى التي ربّما ذابت عقائدها بعض الشيء في هذه الفلسفات الوافدة، أوتسرّبت إليها الأفكار والعقائد الوافدة فطغت عليها وألغت هويتها الإسلاميّة. وهناك من يعتقد أنّ المعتزلة استفادوا من مناهج البحث الوافدة دون الإذعان للأطر الفكرية لهذه الفلسفات، يقول صائب عبد الحميد:وإذا كان المعتزلة قد تأثّروا بالفلسفة القديمة، فهم لم يأخذوا عقائد اليونان والهنود والفرس،

القدَريّة مجوس هذه الأمّة. وكانت الصفاتية ـ أي عموم أهل السنّة والجماعة الذين: يثبتون صفات خبريّة مثل اليدين والوجه ولايؤوّلون ذلك. ولمّا كانت المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون سُمّي السلف صفاتية والمعتزلة معطّلة ـ تعارضهم بالاتّفاق. على أنَ الجبريّة والقدرية متقابلتان تقابلَ التضادّ. فكيف يطلق لفظ الضدّ على الضدّ؟! وقد قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: القدريّة خصماء الله في القَدَر. والخصومة في القدر، وانقسام الخيروالشرّعلى فعل الله وفعل العبد لن يُتصوَّر على مذهب مَن يقول بالتسليم والتوكّل، وإحالة الأحوال كلّها على القدر المحتوم، والحكم المحكوم والذي يعمّ طائفة المعتزلة من الاعتقاد.. **الملل والنِحل** ١: ٤٣ و٩٣.

١ـ **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ١٤١.

وإنّما أخذوا مناهج البحث والاستنباط، فتأثّروا مثلاً بالمنطق الأرسطي[١]، والمنطق لغة نافعة في البحوث العقليّة، وليس هو لغة عقيدة، أي إنّهم أخذوا آلة البحث، ولم يأخذوا سيره ونتائجه[٢]. وربّما كان عدد من الفقهاء وأهل الأخبار والحديث، ومنهم أبو حنيفة وأتباعه، واقعاً تحت تأثير أهل الكلام والفلسفة والحكمة، أو تلقّى بعضهم شحنات من الفكر المعتزلي، أو قارب طائفة من أعلامه، أو تفاعل بعض الشيء معهم تفاعلاً متبادلاً، ولكنّه وضع مسافة بينه وبينهم فبدا مستقلاً، فنسب أتباعه إليه قولاً بلعن عمرو بن عبيد[٣]؛ لأنّه فتح

١ـ كان البحث والجدل الديني في صدر الإسلام متّكئاً على نصوص القرآن، وإذا اقتضت الحاجة والضرورة استندوا إلى أحاديث نبويّة، ولم يكن البحث والجدل في هذا العهد قد اختلط بالفلسفة والمنطق اليونانيّين بعد، لأنّ أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله والتابعين لصفاء إيمانهم وببركة مصاحبتهم للرسول صلى الله عليه وآله، وانعدام الاختلاف بينهم، وقربهم من مصدر الوحي والرسالة، وانحصار الإسلام داخل المجتمع العربيّ، لم يكونوا بحاجة إلى منطق أرسطو، ولم تكن حاجة للاستمداد من فنّ الجدل لإثبات المباحث الدينية. لذلك فإنّ العلوم الأجنبيّة والمنطق اليونانيّ لم تكن قد شقّت طريقها إلى ثغور المسلمين بعد. وعليه يجب القول بأنّ الجدل الإسلامي يختلف عن الجدل الأرسطي، ذلك أنّ الأخير عبارة عن قياس تكون مقدّماته من المسلّمات أو المشهورات، ويؤتي أُكله، ولايفرّق أن تكون المشهورات صادقة أم كاذبة، لكنّ المجادلة والجدل الإسلامي قائم على أساس الآيات والروايات والعقل السليم. ينظر: محمود يزدي مطلق، **الجدل الديني عند الشيعة**، أو **التصدّي للهجوم الثقافي الأجنبيّ منذ صدر الإسلام وحتّى عصر الشيخ المفيد**، المقالات والرسائل للمؤتمر العالمي لمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد ـ قمّ ١٤١٣هـ/ التسلسل ١١، الصفحة ٨.

٢ـ **تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي**: ٣٤.

٣ـ هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب، المتكلّم المشهور، مولى بني عقيل، كانت ولادته سنة ←

باباً إلى علم الكلام[١]، كما نسبوا له إليه قال: قاتلَ الله جهمَ بن صفوان[٢]، ومقاتل بن سليمان[٣] هذا أفرط في النفي، وهذا أفرط في التشبيه[٤]، وربّما خلط بعضهم بين ما يجول في فكره وبعض أفكارهم.

وقد يعود احتفاء بعض أعلام الفكر المعتزليّ بأبي حنيفة لنزعته العقليّة المجرّدة، وجداله المنطقي في تفسير الأمور والنظر إليها، ممّا شجّع بعض أعلامهم في السير باتجاه مدرسة الرأي والقياس، التي تفرّعت وتشابكت مع المذاهب

---

٨٠ للهجرة، وكان جدّه من سبي كابل من جبال السند. وكان عمرو شيخ المعتزلة في وقته، توفّي سنة ١٤٤ للهجرة. **وفَيات الأعيان** ٣: ٤٦٠/ الرقم ٥٠٣.

١ـ يظهر أنّ أبا حنيفة كان ضليعاً في علم الكلام. لكنّ الإيغال في هذا المنحى لم يكن يعجب أبا حنيفة، وخاصّة بعد لقائه بالإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي نهاه عن ركوب القياس واللجوء إلى العقل وحده. وقد حكى الخطيب البغدادي عن الشافعي أنّه قال: الناس كلّهم عيال على ثلاثة: على مقاتل في التفسير، وعلى زهير في الشعر العربيّ، وعلى أبي حنيفة في الكلام. **تاريخ بغداد** ١٣: ١٦٠/ الرقم ١٧١٤٣.

٢ـ جهم بن صفوان الترمذي، قالوا: هو من الجبرية الخالصة، ظهرت نحلته بترمذ، وقتله سالم بن أحوز المازنيّ بمرو في آخر مُلك بني أميّة، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزليّة ونفي الرؤية، وإثبات خلق الكلام، وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع. وزاد عليهم بأشياء. تُنسب له الجهمية الذين قالوا بنفي التشبيه، وزعموا أنّ العلم مُحدَث، وقالوا: لايجوز أن يقال: إنّ الله شيء، ولكنه منشئ الشيء، قالوا: لأنّه لم يقع اسم الشيء إلّا على مخلوق، ولايكون الله تعالى بصفة الخلق. ينظر: **الموسوعة الفلسفيّة**، للحفني: ١٥٩، **الحور العين**، للحميري: ١٤٨.

٣ـ هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشر البلخي، قدم بغداد وحدّث بها، كانت وفاته سنة ١٥٠ للهجرة. ونسب الخطيب البغدادي إلى أبي حنيفة قوله: أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطِّل، ومقاتل مشبِّه. **تاريخ بغداد** ١٣: ١٦١/ الرقم ١٧١٤٣.

٤ـ **الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة** ١: ٣١.

الفقهية، فأثّرت فيها وتأثّرت بها واستفادت منها. وقد اتّخذت مدرسة أبي حنيفة الفقهية أرض العراق ساحة لها، ونمت واتّسعت هناك، ولهذا أُطلق عليها إطلاقاً ضروريّاً مصطلح مدرسة أهل الكوفة أو أهل العراق. وأصبحت هذه المدرسة تُعرف فيما بعد بمدرسة أهل الرأي. يقول الشهرستاني: أصحاب الرأي، وهم أهل العراق: هم أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفّى عام ١٥٠للهجرة، ومن أصحابه: محمّد بن الحسن الشيباني المتوفّى ١٨٩، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن محمّد القاضي المتوفّى ١٨٢، وزفر بن الهذيل المتوفّى ١٥٨، والحسن بن زياد اللؤلؤي المتوفّى ٢٠٤، وابن سماعة، وعافية القاضي، وأبو مطيع الحكم بن عبد الله البلخي المتوفّى ١٩٩، وبشر بن غياث المريسي المتوفّى ٢١٨. وإنّما سُمّوا أصحاب الرأي، لأنّ أكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس[1]، والمعنى المستنبط من الأحكام، وبناء الحوادث عليها، وربّما يقدّمون القياس الجليّ على آحاد الأخبار. وقد قال أبو حنيفة: علمنا هذا رأي أحسن ما قدرنا عليه، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى، ولنا ما رأينا[2]. ويُعدّ إبراهيم بن يزيد النخعي المتوفّى ٩٥ أو ٩٦ للهجرة، وحمّاد بن

---

١ ـ القياس: هو أصل وقاعدة المصادر الاستنباطيّة لفقهاء أهل السنّة والجماعة. ويعرّف بأنّه استنباط حكم واقعة لم يرد فيها نصّ. وبعبارة أخرى: هو ردّ الشيء إلى نظيره. ملاكاً وعلّة. والقياس عند الحنفيّة نوعان: الأوّل القياس الجلي. وهو ما تسبق إليه الأفهام. والثاني هو القياس الخفيّ. وهو ما يكون بخلاف الأوّل. ويسمّى الاستحسان. ينظر سعدي أبو حبيب، **القاموس الفقهي**: ٣١٢. وتفاوت رأي أئمّة المذاهب في حكم واقعة لم يرد فيها نصّ، فالشافعيّ وقف موقفاً وسطاً بين تشدّد مالك وتوسّع أبي حنيفة. واشترط للأخذ به أن تكون علّته منضبطة. وألّا يكون في المسألة حديث ولو كان خبر آحاد. مصطفى إبراهيم الزلميّ، **أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعيّة**: ٤٣.

٢ ـ **الملل والنحل** ١: ٢٠٧.

أبي سليمان المتوفّى ١٢٠ للهجرة، هما من الروّاد الأوائل للمدرسة، واعتبروا أو قالوا بأنّ أبا حنيفة كان متأثراً بأستاذه حمّاد بن أبي سليمان الذي أخذ بيد أبي حنيفة ووضعه على هذا الطريق[١]. واندرجت مدرسة أهل الرأي تحت مظلّة كبيرة ضمّت أكثر مدارس أهل السنّة والجماعة، وبما عُرف لدى الباحثين والدارسين بأصحاب الرأي أو أهل القياس والاستحسان.

وكان الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يناقش ويجادل الأئمّة من أصحاب النِحل ـ من أهل الرأي والقياس وغيرهم ـ بأدلّة وحجج قويّة دامغة، أبطلت دعواهم باعتماد القياس في الوصول إلى الأحكام الشرعيّة، كما يظهر من رواية الطبرسيّ بإسناده إلى بشير بن يحيى العامري، عن ابن أبي ليلى[٢] قال: دخلت أنا والنعمان أبو حنيفة على جعفر بن محمّد، فرحّب بنا فقال: يا ابن أبي ليلى، من هذا الرجل؟ فقلت: جعلت فداك، مَن أهل الكوفة له رأي وبصيرة ونفاذ، قال: فلعلّه الذي يقيس الأشياء برأيه! ثمّ قال عليه السلام: يا نعمان! هل تحسن أن تقيس رأسك ؟ قال: لا، قال: ما أراك تحسن أن تقيس شيئاً! فهل عرفت الملوحة في العينين، والمرارة في الأُذنين، والبرودة في المنخرين، والعذوبة في الفم ؟ قال: لا، قال: فهل عرفت كلمة أوّلها كفر وآخرها إيمان ؟ قال: لا، قال ابن أبي ليلى: قلت: جُعلت فداك، لاتَدْعنا في عمياء ممّا وصفت، قال: نعم، حدّثني أبي عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله قال: إنّ الله خلق عينَي ابن آدم شحمتين، فجعل فيهما الملوحة، فلولا ذلك لذابتا ولم يقع فيهما شيء

١ـ ينظر مقدّمة: **موسوعة طبقات الفقهاء**، للشيخ جعفر السبحاني، القسم الثاني: ٥٠ ـ ٦٢.

٢ـ هو محمّد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، أبو عبد الرحمن الكوفي، الفقيه وقاضي الكوفة، وليَ القضاء لبني أميّة وبني العبّاس، كان أبوه من أكابر تابعي الكوفة، وجدّه أبو ليلى من الصحابة، صحب الإمام الصادق عليه السلام، توفّي سنة ١٤٨. **تهذيب التهذيب** ٩: ٣٠١، **رجال الطوسي**: ٢٩٣، **سفينة البحار** ٣: ٣٢٦ (ليل).

من القذى إلّا أذابه، والملوحة تلفظ ما يقع في العين من القذى. وجعل المرارة في الأذنين حجاباً للدِماغ، وليس من دابّة تقع في الأذن إلّا التمسَتِ الخروج، ولولا ذلك لوصلت إلى الدماغ فأفسدته. وجعل الله البرودة في المنخرين حجاباً للدماغ، ولولا ذلك لسال الدماغ. وجعل العذوبة في الفم منّاً من الله تعالى على ابن آدم، ليجد لذّة الطعام والشراب. وأمّا كلمة أوّلها كفر وآخرها إيمان فقول: لا إله إلّا الله. ثمّ قال: يانعمان إيّاك والقياس، فإنّ أبي حدّثني عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله قال: مَن قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله تبارك وتعالى مع إبليس، فإنّه أوّل مَن قاس حيث قال: خلقتَني من نار وخلقتَه من طين! فدعوا الرأي والقياس، فإنّ دين الله لم يُوضَع على القياس.

وجاء في رواية أخرى بهذا الشأن أنّ الصادق عليه السلام قال لأبي حنيفة لمّا دخل عليه: من أنت؟ قال: أبو حنيفة، قال عليه السلام: مفتي أهل العراق ؟ قال: نعم، قال: بما تُفتيهم ؟ قال: بكتاب الله، قال عليه السلام: وإنّك لَعالم بكتاب الله، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه ؟ قال: نعم، قال: فأخبرني عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ **وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ** ﴾[1]، أيّ موضع هو؟ قال أبو حنيفة: هو ما بين مكّة والمدينة. فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى جلسائه وقال: نشدتكم بالله، هل تسيرون بين مكّة والمدينة ولا تأمنون على دمائكم من القتل، وعلى أموالكم من السرق؟ فقالوا: اللهمّ نعم، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحك يا أبا حنيفة! إنّ الله لايقول إلّا حقّاً، أخبِرْني عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ **وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** ﴾[2]، أيّ موضع هو؟ قال: ذلك بيت الله الحرام، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى جلسائه وقال: نشدتكم بالله، هل تعلمون أنّ عبد الله بن الزبير وسعيد بن

١ـ سبأ: ١٨.

٢ـ آل عمران: ٩٧.

جبير دخلاه فلم يأمنا القتل ! قالوا:اللهمّ نعم، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحك يا أبا حنيفة !إنّ الله لايقول إلّا حقّاً، فقال أبو حنيفة: ليس لي علم بكتاب الله، إنّما أنا صاحب قياس، قال أبو عبد الله عليه السلام: فانظر في قياسك، إن كنت مقيساً! أيّما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟ قال أبو حنيفة: بل القتل، قال:فكيف رضيَ في القتل بشاهدين، ولم يرضَ في الزنا إلّا بأربعة ؟ ثمّ قال له: الصلاة أفضل أم الصيام؟ قال: بل الصلاة أفضل، قال عليه السلام: فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاة في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاة، قال له عليه السلام: البول أقذر أم المنّي؟ قال أبو حنيفة: البول أقذر، قال عليه السلام: يجب على قياسك أن يجب الغُسل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغسلَ من المني دون البول، قال:إنّما أنا صاحب رأي، قال عليه السلام:فما ترى في رجل كان له عبد فتزوّج، وزوّج عبده في ليلة واحدة، فدخلا بامرأتيهما في ليلة واحدة ثمّ سافرا، وجعلا امرأتيهما في بيت واحد، وولدتا غلامين، فسقط البيت عليهم فقتل المرأتين وبقي الغلامان، أيّهما في رأيك المالك وأيّهما المملوك، وأيّهما الوارث وأيّهما الموروث؟ قال:إنّما أنا صاحب حدود، قال: فما ترى في رجل أعمى فقأ عينَ صحيح، وأقطعَ[1] قطَعَ يد رجل، كيف يقام عليهما الحدّ؟ قال: إنّما أنا رجل عالم بمباعث الأنبياء. قال عليه السلام: فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[2]، ولعلّ منك شكّ ؟

قال:نعم، قال:وكذلك من الله شكّ إذ قال «لعلّه»؟ قال أبو حنيفة: لا علم لي.

١ـ الأقطع: المقطوع اليد، والجمع قطع وقُطعان، مثل أسود وسودان. ويد قطعاء: مقطوعة. **لسان العرب** (قطع).

٢ـ طه: ٤٤.

قال عليه السلام: تزعم أنّك تفتي بكتاب الله ولستَ ممّن وَرِثه، وتزعم أنّك صاحب قياس وأوّل من قاس إبليس لعنه الله، ولم يُبْنَ دين الإسلام على القياس، وتزعم أنّك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله صواباً، ومن دونه خطأ، لأنّ الله تعالى قال: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾[1] «فاحكم بينهم بما أراك الله» ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنّك صاحب حدود، ومَن أُنزِلَت عليه أَولى بعلمها منك، وتزعم أنّك عالم بمباعث الأنبياء، ولَخاتمُ الأنبياء أعلم بمباعثهم منك، ولولا أن يقال:دخل على ابن رسول الله فلم يسأله عن شيء ما سألتك عن شيء فقس إن كنت مقيساً. قال أبو حنيفة: لا أتكلّم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس!..[2].

وربّما كان لهذا اللقاء الذي جرى لأبي حنيفة مع الإمام الصادق عليه السلام بعض التأثير على شخصيّة أبي حنيفة، في عدم الإصرار على المضيّ في تأسيس مدرسة الرأي، ولكنّ تلميذَيه أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفّى ١٨٢ للهجرة، ومحمّد بن الحسن الشيباني المتوفّى ١٨٩ للهجرة هما مَن نشرا مذهب القياس وعزّزاه باسم أبي حنيفة، لأنّهما تمتّعا بنفوذ كبير في الدولة العبّاسيّة، وبحظّ واسع من الدعم السلطوي، والغرض منه تحجيم دور المدينة وإبعادها عن ذهن المسلمين، لأنّ مدرسة المدينة الفقهيّة تعني بالضرورة لهم تأثّرها بأهل البيت عليهم السلام، فآثروا أهل الرأي والقياس، أملاً منهم في ابتعاد الناس عن فقه المدينة، ونسيانهم لأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم هناك[3]. نُقل عن زفر بن الهذيل المتوفّى ١٥٨ للهجرة أنّه قال:كنّا نختلف

١ـ الآية في سورة المائدة ٤٩ جاءت بلفظ بما أنزل، بدل: بما أراك، ولعلّ ما ورد هو قراءة أو تفسير للآية.

٢ـ **الاحتجاج**: ٣٥٨ـ٣٦٢.

٣ـ ينظر مقدّمة: **موسوعة طبقات الفقهاء**، للشيخ جعفر السبحاني، القسم الأوّل ٤٠٤ للتعريف ←

إلى أبي حنيفة ومعنا أبو يوسف ومحمّد بن الحسن، فكنّا نكتب عنه، قال زفر: فقال يوماً أبو حنيفة لأبي يوسف: ويحك يا يعقوب ! لاتكتب كلّ ما تسمع منّي، فإنّي قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً وأتركه في غده[١]. ولكن لم يستجب أتباع هذا الاتجاه لرغبة مؤسّسه أو مروّجه لأوّل ظهور له، فتمادوا في تقوية هذا الاتجاه والتفرّع فيه، لدرجة أنّ أتباع أبي حنيفة صاروا مرجعاً دينياً لحكّام الدولة العبّاسيّة، وشغلوا مناصب القضاء لهم، فأفتى بعضهم لهم بما يناسب سياسة الدولة، وربّما جوّزوا لخلفائهم من الممنوعات بما يطيب لهم، ويتناسب مع رغباتهم الشخصيّة، اتّقاء لغضبهم أو طمعاً في جوائزهم، وإن تطلّب الأمر أحياناً الخروج على القواعد الشرعيّة، أو بعض قواعد أقيستهم التي اعتمدوا عليها في الإفتاء والقضاء[٢].

والتفصيل الذي يجده القارئ هناك في تناول هذا الموضوع.

١ ـ أحمد محمّد نور، **عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليين**: ٣٧٠.

٢ ـ روى الحافظ جلال الدين السيوطي بإسناده عن ابن المبارك أنّه قال: لمّا أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إنّ أباك قد طاف بي، فشُغف بها، فأرسل إلى أبي يوسف، فسأله:أعندك في هذا شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أو كلّما ادّعت أَمَةٌ شيئاً ينبغي أن تُصدَّق! لاتصدّقها فإنّها ليست بمأمونة ـ قال ابن المبارك:فلم أدر ممّن أعجب، من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن حرمة أبيه، أو من هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها ! ـ قال: إهتكْ حرمة أبيك، واقضِ شهوتك، وصيّره في رقبتي. **تاريخ الخلفاء**: ٢٩١. وربّما كان مالك بن أنس على علم بأوضاع القضاة والفقهاء من أهل الرأي الذين ابتُلوا بحكّام الدولة العبّاسيّة، وبتبريرات أبي يوسف تخريجاته لهم، فلم يتفاعل معه، حتّى وصل الأمر إلى عدم الإجابة على أسئلته استخفافاً به، كما ذكر الذهبيّ في خبره أنّ الرشيد حجّ ومعه أبو يوسف، فسأل أبو يوسف مالكاً مسألة فلم يجبه، ثمّ عاد في سؤاله فلم ←

وكانت سيرة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، كما كانت سيرة أبيه جعفر الصادق عليه السلام في حياته، إيقافَ هذا الاتّجاه المتنامي في القياس الشرعي، ودفعَه من أن يمتدّ على فقه المسلمين وأحكام دينهم، فلم يكن عليه السلام يرضى لأعلامهم بأن يركنوا للرأي والقياس في الفُتيا والقضاء، ويستسلموا له استسلاماً كاملاً على حساب النصوص والسنّة، كما يظهر من محاورات الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مع محمّد بن الحسن الشيباني، وكما روى الشيخ الطبرسي في احتجاجه أنّ محمّد ابن الحسن سأل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بمحضر من الرشيد وهم بمكّة، فقال له: أيجوز للمحرم أن يظلّل عليه محمله؟ فقال له موسى بن جعفر عليه السلام: لايجوز له ذلك مع الاختيار، فقال له محمّد بن الحسن: أفيجوز أن يمشي تحت الظلال مختاراً؟ فقال له عليه السلام: نعم. فتضاحك محمّد بن الحسن من ذلك، فقال له أبو الحسن موسى عليه السلام: أتعجب من سنّة النبيّ وتستهزئ بها! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كشف ظلاله في إحرامه، ومشى تحت الظلال وهو محرم، إنّ أحكام الله تعالى ـ يامحمّد ـ لاتقاس، فمن قاس بعضها على بعض فقد ضلّ عن السبيل. فسكت محمّد بن الحسن. وقد جرى لأبي يوسف مع أبي الحسن موسى عليه السلام بمحضر المهدي مايقرب من ذلك، وهو أنّ موسى بن جعفر عليه السلام سأل أبا يوسف عن مسألة ليس فيها عنده شيء، فقال لأبي الحسن موسى عليه السلام: إنّي أريد أن أسألك عن شيء، قال: هات، فقال: ما تقول في التظليل للمحرم؟ قال: لايصلح، قال: فيضرب الخباء في الأرض فيدخل فيه؟ قال: نعم، قال: فما فرق بين هذا وذلك! فقال أبو الحسن موسى عليه السلام: ماتقول

يجبه، فقال الرشيد له: هذا قاضينا يعقوب يسألك! فأقبل مالك عليه فقال: يا هذا! إذا رأيتني جلستُ لأهل الباطل، فتعالَ أُجِبْك. **تذكرة الحفّاظ** ١: ٢١٠.

في الطامث، تقضي الصلاة؟ قال:لا، قال:تقضي الصوم؟ قال:نعم، قال موسى عليه السلام: ولِم؟ قال: إنّ هذا كذا جاء، فقال أبو الحسن موسى عليه السلام: وكذلك هذا. فقال المهدي لأبي يوسف:ما أراك صنعت شيئاً! قال:يا أمير المؤمنين، رماني بحجّة[1].

وربّما كان تأثير الثقافات المعرَّبة التي التحمت بالثقافة الإسلامية كبيراً في هذا المنحى القياسي، الذي أراد أن يخضع دين الله لقوانين المنطق والفلسفات الشرقية المغرقة في القياس والمنطق العقلي الصرف، والمجرّد من أيّ حساب للإرادة الإلهية التي وضعت تشريعات الدين خارج قياسهم ومنطقهم العقلي، وكان هذا الإغراق في القياس العقلي والاستحسان سبباً لأن يُظهر الأئمّة المعصومون رأيهم به جهاراً بأسلوب مُبرهَن مقنع، لئلّا يتجاهل أهل القياس الحديث والسنّة اتّكاءً على عقولهم، ونظرهم الشخصي القاصر الذي يستند إلى الظواهر والسطوح الخارجية، والذي لايستطيع أن يدرك فلسفة التشريع ومغزاه، لذا جاء حديث الإمام الصادق عليه السلام في وصفهم بالبُعد عن إصابة الحقّ بقوله:إنّ أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحقّ إلّا بُعداً، إنّ دين الله لايصاب بالقياس[2]. وقلق الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام منه فحذّر زرارة من هذا الاتّجاه المتجاوز للسنّة بقوله له:يا زرارة، إيّاك وأصحابَ القياس في الدين، فإنّهم تركوا علمَ ما وُكّلوا به، وتكلّفوا ما قد كُفُوه، يتأوّلون الأخبار ويكذبون على الله ورسوله، وكأنّي بالرجل منهم يُنادى من بين يديه فيجيب مِن خلفه، ويُنادى من خلفه فيجيب من بين يديه، فقد تاهوا وتحيّروا في الأرض والدين[3].

---

١ ـ **الاحتجاج**: ٣٩٤.

٢ ـ **الكافي** ١: ٥٧ ـ باب البدع والرأي والمقاييس/ ح ١٤.

٣ ـ **أمالي الشيخ المفيد**: ٥٢.

ولم يكن هذا التغيير والتبدّل الذي طبع عموم المجتمعات الإسلامية مقصوراً على العقل والبحث الفقهي والفلسفي أو الكلامي، وإنّما تعرّفت المدينة والحاضرة الإسلامية على نمط من الحياة والعلاقات الاجتماعية المركّبة من ثقافات، وأعراف، وطُرز معيشة، ورؤى انحدرت من الأمم البعيدة والمجاورة للجزيرة العربيّة، فتسرّبت مع الأفواج والجماعات الوافدة مع حركة الفتوحات الإسلامية إلى وسط المجتمع وأحياء المسلمين، وحتّى إلى أسواقهم التجارية التي تلوّنت بهذا اللون والثوب الأممي العالمي الجديد، والذي أدّى بالضرورة إلى ولادة أفكار وقيم وأخلاق وأعراف جديدة لم تكن معروفة مِن قبلُ لدى العرب والمسلمين، وقد انعكست أيضاً في تفصيلات الحياة اليومية والمظاهر الخارجية للإنسان للرجل والمرأة معاً، ممّا يعكس ظهور طبقات مترفة منعّمة، وعلى الأخصّ في العصور العبّاسية، وربّما بالغت حتّى في اختيار نوع اللباس وشكله ومصدره. تقول الكاتبة واجدة مجيد الأطرقجي: ولمّا كان العصر العبّاسي عصر حضارة وترف، فممّا لاشكّ فيه أن يلحق الملابسَ الشيءُ الكثير من التفنّن والتجديد، وأن تتّسم بالذوق والإناقة والبذخ. وقد بولغ في اختيار أنواعها وألوانها، وفي تزيينها وتطريزها بالدرّ والذهب واللؤلؤ وغيرها، وصاروا يأتون بالأقمشة الثمينة النادرة، والأردية الرشيديّة والطبريّة والنيسابوريّة والخراسانيّة، ويلبسون الألوان المختلفة الزاهية. وجعلوا اللباس مظهراً لتمييز طبقة عن طبقة، وصنف عن صنف، وجنس عن جنس، فجعلوا للرجال ألواناً معيّنة، وللنساء غيرها ممّا تعارفوا عليه، فقالوا: إنّ أَولى الناس بالملابس الملوّنة والمنقوشة النساء اللاتي يتزيّنّ للرجال، ثمّ العبيد والخَوَل[1]. وأنّ الأحسن بأهل النبل والشرف

١ـ الخَوَل، بفتح الخاء والواو: الخدم، والخول: حشم الرجل الذين يستخولهم، والخول جمع لا ←

من اللباس البياض وما أشبهه[١]، ولعلّ اعتقاد جلّ الباحثين قائم على أساس أنّ البيئة العربيّة ـ التي عرفت الإسلام ـ لم تنقلب فجأة، بل بدأ التبدّل فيها منذ خرجت جيوش الفتح الإسلامي إلى أقطار العالم في الشرق والغرب، ومنذ أخذ الإسلام يسود بين غير العرب، ومنذ شرع البدو يتخلّون عن سكنى البادية وينزلون الحواضر، ومنذ شُغف الفاتحون العرب الساميّون بالجمال الآري فتزوّجوا الفارسيّات والتركيّات والروميّات، إلّا أنّ هذا التبدّل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العبّاسيّة مبلغاً لافتاً، ويُعزى هذا التحوّل إلى:

١ـ احتكاك العرب بغيرهم من الأمم واقتباسهم أموراً كثيرة، من أوجه الحضارة المادّية، ومن أساليب التفكير. ثمّ إنّ الموالي المسلمين من غير العرب الأوّلين احتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم، ومن عاداتهم في الجدال خاصّة، وأخذوا يتساءلون عن كثير ممّا في الإسلام من فروض وأحكام وعقائد، بعد الموازنة بينها وبين ما عرفوا في أديانهم القديمة، كالتفريق بين ذات الله وصفاته، والبحث في شأن الجنّة والنار. وفي أعمال الإنسان، وهل هو مخيّر يأتي أعماله حرّاً مختاراً، أم مسيّر مجبر على أعماله. وهكذا نشأت منذ أواسط العصر الأموي حركة الاعتزال، ثمّ اتّسعت في العصر العبّاسي اتّساعاً كبيراً.

٢ـ كان أبعد الأسباب أثراً في تبدّل المجتمع الإسلامي الزواج بغير العربيّات، فقد تبدّلت به الحياة البيتية في المطعم والملبس وآداب السلوك، وفي نشوء جيل له عمومة عربيّة وخَؤولة فارسيّة أو روميّة أو تركيّة. وبينما كان العرب الأوّلون خُلّصاً

واحد له من لفظه. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٥٧٩ (خول).

١ـ **المرأة في أدب العصر العبّاسي**: ٢٣٨.

لايرون للأمم على العرب فضلاً في شيء، أصبح الجيل المولَّد الجديد يتعصّب أيضاً لخؤولته، ويرى أنّ العرب ليسوا أفضل من سواهم في كلّ شيء. وهذه التسوية بين غيرالعرب وبين العرب هي التي سمّاها أهل الحميّة العربيّة شعوبيّة. وكان في البيئة العبّاسيّة طبقة أثّرت في حياة المحدثين تأثيراً كبيراً، تلك هي طبقة الجواري. على أنّ الجواري في العصرالعبّاسي لم يكنّ يُمتهنّ في خدمة البيوت، بل كان هناك أستاذون وأستاذات يعلّمون الجواري أصناف العلوم كالفقه والكلام، وأنواع الفنون كالغناء والشعر، حتّى إنّهنّ كنّ يُتّخَذن للمناظرة والمباهاة، وقد يبلغ ثمن جارية من مثل هذه مئات الألوف من الدنانير أو الدراهم. وزعموا أنّ الأمين العبّاسي أغرى ابن عمّه جعفراً بمليون دينار حتّى رضي أن يبيعه جارية اسمها بذل[1]. ورغب الناس في الزواج من الجواري فأنجبن الأولاد، وكثيراً ما كان أبناء الجواري أشهر وأقدر من أبناء الحرائر. إلّا أنّ كثرة الجواري في بيوت الخلفاء والأمراء وفي مراتع اللهو، كان أيضاً مدعاة إلى الفساد الاجتماعي، الذي عانت منه البيئة العبّاسيّة، وقد زاد في هذا الفساد نشوء طبقة الغلمان والخصيان.

٣ـ كثرالتعرّب، أي التشبّه بالعرب بين الموالي، وبلغ من إعجابهم بالعرب أنّهم

١ـ روى السيوطي عن شغف أبيه هارون الرشيد بالجواري وضعفه عن مقاومة إغرائهنّ والميل إليهنّ بالقول: أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن عبد الله بن يوسف قال: قال الرشيد لأبي يوسف:إنّي اشتريت جارية وأريد أن أطأها الآن قبل الاستبراء، فهل عندك حيلة؟ قال:نعم، تهبها لبعض ولدك، ثمّ تتزوجها! وأخرج عن إسحاق بن راهويه قال: دعا الرشيد أبا يوسف ليلاً فأفتاه، فأمرله بمائة ألف درهم، فقال أبو يوسف:إن رأى أمير المؤمنين أمَرَ بتعجيلها قبل الصبح، فقال:عجّلوها، فقال بعض مَن عنده: إنّ الخازن في بيته والأبواب مغلقة، فقال أبو يوسف:فقد كانت الأبواب مغلقة حين دعاني ففُتحت! **تاريخ الخلفاء**:٢٩١.

كانوا يلفّقون لأنفسهم أنساباً عربيّة، فالشاعر أبو تمّام الرومي أصبح حبيب بن أوس ابن الحارث بن قيس. .. بن يعرب بن قحطان. وأصبح المسلمون من الترك والفرس والروم يشعرون شعوراً قوميّاً بانتسابهم إلى العرب، فاللغة العربيّة أصبحت لغتهم، والتاريخ العربيّ تاريخهم، والحياة العربية حياتهم. حتّى إنّ الذين لم يدخلوا في الإسلام، بل ظلّوا في أهل الكتاب، من النصارى واليهود والصابئة، كانوا لايختلفون في شعورهم الظاهر عن المسلمين في شيء، وربّما تَسمَّوا بالأسماء الإسلاميّة وتكنَّوا بالكُنى العربيّة.

٤ـ وأغلب العرب في الأصل بَدْو رُحّل يحملون عصبياتهم وعداواتهم مع خيامهم، وينتقلون بها من مكان إلى آخر لايذكرون إلّا صلة النسب، أو ما هو بمعنى النسب، من الولاء والحلف، فدعاهم النزول في الحضر إلى الترف واللهو، وإلى ضياع كثير من محامدهم الأولى، من الفطرة الخيّرة والشجاعة والنجدة، ثمّ انتشر بينهم كثير من مساوئ المدنية، كالشراب والانغماس في اللذّات، وتناسي الوفاء، ومسايرة أهل السلطان حقّاً أو باطلاً.

٥ـ إنّ شكل الدولة والحكومة، الذي كان للعرب قبل الإسلام، لم يصلح للإمبراطورية الجديدة وللمجتمع الجديد، وكان للبلاد المفتوحة حكومات، فلم يستنكف العرب أن يستفيدوا من اختبار من نزل في تلك البلاد قبلهم من الدول، فاستعانوا بالأنظمة القديمة وبرجال الدولة القديمة. وبما أنّ الفرس هم الذين ساعدوا العبّاسيين على نيل الخلافة، فلم يكن مستغرباً أن يُلقي العبّاسيون قياد دولتهم إلى الفرس جملة، حتّى أصبحت الدولة العبّاسيّة فارسيّة في كلّ شيء،

وحتّى أصبح الفرس والخراسانيون خاصّة يُدعَون أبناء الدولة[١]؛ لأنّهم شكّلوا أغلبيّة ملحوظة في بناء الجيش العبّاسي. ومن الواضح للمؤرّخين أنّ قوة الدولة وعمادها الذي يحفظ كيانها السياسي هو الجيش، يقول عيسى الحسن: أهمّ ما تظهر به الدولة جيشها الذي يذود حياضها ويحمي بيضتها، وقد كان الجيش في عهد الدولة الأمويّة عربيّاً محضاً جنوده وقوّاده، فلمّا جاءت الدولة العبّاسيّة كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم الفضل في ثلّ عرش الدولة الأموية، وبالضرورة يكون لهم حظّ وافر في الدولة وحمايتها، لذلك كان جيش الديوان في أوّل عهد العبّاسيين مؤلّفاً من فريقين: الأوّل: الجيوش الخراسانيّة، والثاني: الجيوش العربيّة، وقوّادهم من الطرفين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالي، وكان التنازع شديداً بين الفريقين بداعي العصبيّة، كلٌّ يتعصّب لأبناء جنسه[٢]. وقد ترتّب على هذا التجمهر المتعصّب من قِبل العساكر الكبيرة انشدادُ كلّ طائفة لتراثها وبيئتها التي انطلقت منها، ممّا أدّى إلى ظهور وانبعاث قيم وأعراف تعتبر جديدة على العرب وغيرهم، من الذين كانوا يشكلون بنية المجتمع العراقي، وهو ما عبّر عنه المؤرّخون بالتأثير والامتداد الفارسي الخراساني، والذي سار مع مسير الخلفاء وتوجّههم إلى بغداد، فبان على مجتمع وبنية بغداد الاجتماعية والسياسية بنحو أكثر من بقيّة الأمصار والمدن الأخرى، لأنّها العاصمة السياسية والاقتصادية للدولة الإسلاميّة، والمركز الإقليمي والأممي للمسلمين وغيرهم.

وكان هذا التأثير قويّاً وفاعلاً، إلى درجة أنّه لم تَسلم حتّى معتقداتهم وأعرافهم

١ـ ينظر: عمر فرّوخ، **تاريخ الأدب العربيّ، الأعصر العبّاسيّة** ٢: ٣٧.

٢ـ **الدولة العبّاسيّة تكامل البناء الحضاري**: ٧٠.

الدينية وطقوسهم المتوارثة من الاختراق والتحوّل، بعد أن كانوا يحرصون على أدائها وعدم تغييرها، ومهما حاولوا من الحدّ من التأثّر بهذا المدّ الأممي ذي الأمواج المتلاطمة، والذي كان أقواه وأبرزه في هذا المدّ القويّ الموج الفارسي الخراساني الجارف. فقد تجمّع في المدينة حشد من الثقافات والإثنيات والألوان والعناصر المختلفة، ربّما أعادت التشكيل المهني والطبقي والقومي فيها بجغرافية سكّانية جديدة لبغداد. وقد وُزّعت المحلّات والدروب على الجنود والسكّان، حيث نزلوها جماعات حسب أصولهم العرقيّة، وخُصّ أصحاب الأسواق بمنطقة الكرخ الكبرى، فنزلوا كلٌّ حسب مهنته، وكان للرقيق سوق خاصّة تمدّ المجتمع البغدادي باستمرار بعناصر بشريّة جديدة. وأدّى تبادل الخبرات المستمرّة بين الجماعات البشريّة في المجتمع الجديد الذي ضمّ أقلّيات اجتماعية، من نصارى ويهود وصابئة ومجوس، إلى ظهور دوائر معيشية تميّزت بعاداتها وتقاليدها وأفكارها، كما قامت مجتمعات محلّية صغرى، تشكّلت اجتماعياً (سوسيولوجيا) أو انثربولوجيا بشكل ضيّق . وفي هذا المجتمع المتنامي كان النفوذ الفارسي والخراساني يمارس نوعاً من الوصاية السياسيّة والثقافية على القصر الملكيّ وحاشيته، فراح الكتّاب ينطقون بلسان النظام الإقطاعي الإيراني وقيمه التي لم تكن تتفق مع قيم الجماعة العربيّة. كذلك أدّى اتّحاد النظام الخاصّ بطبقات الموظّفين، مع الذكريات الساسانيّة وأخلاقيّات الإقطاعيين وكبار رجال العسكريين، إلى إنتاج آراء لقيت آذاناً صاغية في البلاط العبّاسي. فالمجتمع الساساني كان مقسّماً إلى أربع طبقات، هي: رجال الدين، ورجال الحرب، والكتّاب الإداريون، وطبقة الشعب من الفلّاحين والصنّاع، وأُلحق رجال التجارة بالطبقة الأخيرة. .ولم يكن من المصادفة أن تَرِد أولى الإشارات إلى مفهوم الفئات الاجتماعيّة في العصر العبّاسي على لسان

الفضل بن يحيى البرمكيّ [١] في القرن الثاني، إذ قال:الناس أربع طبقات: ملوك قدّمهم الاستحقاق، ووزراء فضّلهم الفطنة والرأي، وعليّة أنهضهم اليسار، وأوساط ألحقهم بهم التأدّب، والناس بعدهم زَبَد وجُفاء[٢]، وسيل غُثاء[٣]، لُكَع ولَكاع[٤]، وربيطة أقضاع[٥]، هَمُّ أحدهم طعمه ونومه. عبّر هذا الرأي عن موقف الخاصّة التي

١ـ كان للبرامكة تأثير واضح وقوي في المظاهر السياسية والاجتماعية للحقبة العبّاسية من تاريخ المسلمين. ذكر أبو زيد البلخي بأنّ البرامكة كانوا من أهل بيوتات بلخ ممّن يتولّون البهار وبيت النار، فقيل لهم البرامكة، على معنى أنّهم سدنة البيت وحجّابه. فأوّل ما وُلوا من الأعمال في أيّام أبي العبّاس، وَلِيَ الخراج خالد بن برمك، ثمّ صار يدور فيهم إلى أيّام الرشيد، فولي الوزارة يحيى بن خالد بن برمك، وولي خراسان وما دون باب بغداذ ممّا يليها ابنه الفضل ابن يحيى، وولي ابنه الآخر جعفر بن يحيى الخاتم. قال بعضهم: الوزارة برمكيّة، لا بقي منهم بقيّة! **البدء والتاريخ**: ٤٨١.

٢ـ الزبد، بالفتح: زبد الماء والبعير والفضّة وغيرها، وزبد الماء والجرّة واللعاب:طفاوته، بالضمّ وقذاه. **لسان العرب** (زبد). وقولهم:جفأ الوادي جفأً وأجفأ:رمى بالزبد والقذى. والقدر عند الغليان:رمت بما يجتمع على رأسها من الزبد والوسخ، وذلك المرميّ جفاء، كغراب. **الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة العرب المعوّل** ١: ٥٠ (جفأ). قال ابن دريد:ذهب الشيء جُفاء، إذا انجفأ فذهب، ومنه قول الله عزّوجلّ: ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً** ﴾ الرعد: ١٧. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٢٩٣ (جفأ).

٣ـ الغُثاء، بالمدّ والضمّ: مايحمله السيل من القمش، وكذلك الغُثاء، بالتشديد، وهو أيضاً: الزبد والقذر. **لسان العرب** (غثا).

٤ـ قال ابن دريد: اللُّكع، بضمّ اللام، قالوا:العبد، وقالوا:الأحمق. رجل لكع، وامرأة لكعاء ولَكاع ولكيعة، بفتح اللام، كلّ هذه أسماؤها إذا كانت حمقاء. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٢٩٥ (لكع).

٥ـ يقال: انقضع القوم وتقضّعوا: تفرّقوا، وتقضّع عن قومه تباعد. **لسان العرب**(قضع). وقال الفيروزآبادي: القضاعة بالضمّ: كلبة الماء، وغبار الدقيق، وما يتحتّت من أصل الحائط. ←

تبنّت الميراث الفارسي في النظرة إلى المجتمع، فلم يكن الإسلام، نظرياً في الأقلّ، يعرف تصنيفاً اجتماعيّاً تسلسليّاً للجماعات، إلّا في إطار المهامّ التي كانوا يؤدّونها في المجتمع.[1] وربّما كان الخراسانيون ينتظرون فرصة وذريعة للامتداد والانطلاق نحو بقاع الدولة الإسلاميّة الكبيرة، والتي كانت عيونهم ترنو إليها، وتأمل في التقلّب في ربوعها، لأنّ سياسة التعصّب والانغلاق على الذات قيّدتهم من التحرّك فيها والتوجّه إليها، في فترة الحكم الأموي، فكانت الدولة العبّاسيّة وحكّامها حُلماً تحقّق ففتح لهم آفاق الدنيا وأبوابها، فأقبل الخراسانيّون بموجات بشرية متتابعة على بغداد يحملون معهم عاداتهم وأخلاقهم وحتّى زيّهم الخاصّ، وصاروا يشكلون الخطّ الدفاعي الأوّل للجيش والحكم العبّاسي.

كذلك أدّى اتّحاد النظام الخاصّ بطبقات الموظّفين، مع الذكريات الساسانيّة التي أشرنا إليها إلى الاندماج في كلّ شيء، وبالأخصّ مع ساكني قصور النظام العبّاسي، وربّما وصل هذا الاندماج إلى درجة التكامل والانسجام بين الشريحة العبّاسية والشريحة الخراسانية بنحو أو بآخر، لذا كانت أكبر وأهمّ كتلة، في الإدارة والجيش العبّاسي، هم كتلة أهل خراسان. ويمكن اعتبار أهل خراسان الحرس الخاص للحاكم العبّاسي، أو ما يُسمّى في لغتنا المعاصرة بالحرس الجمهوري أو الحرس الملكي أو الإمبراطوري للدول. وهذا الانسجام والتناغم الذي حصل بين

القاموس المحيط ٣: ٩٠. والربيط: الراهب، وقيل: التمر اليابس يوضع في الجراب ثمّ يصبّ عليه الماء. والعرب تسمّي الخيل إذا ربطت بالأفنية وعلفت: ربطاً، واحدها ربيط. **لسان العرب** (ربط). وكأنّ المراد هنا عموم الناس وضعفاؤهم وفقراؤهم الذين لا أصل ولا اعتبار لهم في مجتمعاتهم.

١ ـ فهمي سعد، **العامّة في بغداد**: ١٢٣.

الفرس، أو الخراسانيين بوجه أخصّ، ورجال الدولة العبّاسيّة، وكما يعتقد بعض المؤرّخين، لأنّ الخراسانيين عُدّوا في صدر قائمة الرجال الذين مهّدوا لقيام ونشأة الحكم العبّا سي. وربّما كان المقصود بهذا المصطلح هم العرب الذين استوطنوا مدن خراسان القديمة، حيث انُتقلوا أو نقلوا لأسباب سياسية أو عسكرية، وبعضها قد يكون اقتصادياً، أو لأسباب فردية أخرى. وكان جمع كبير من العرب الذين اندفعوا إلى خراسان، مع موجات الفتوح والحروب، استوطنوا في القرى والأرياف وامتهنوا الزراعة والتجارة بدلاً من الحرب والانخراط في الجيوش، أوفي وظائف الحكومة، وهم المعارضون لسياسة الحكومة الاقتصادية والاجتماعيّة[1]، وبعبارة أخرى هم أهل العراق الذين استوطنوا خراسان في بعوث وكتائب حربيّة كبيرة[2].

وكانت السياسة القرشيّة تخشى أهل العراق منذ وقت مبكّر فتدفع بهم نحو الشرق باتجاه خراسان، لذا قال المؤرّخ محمّد عبد الحي شعبان : لم تنتظم الحملات المنظمة لمدّ السيطرة العربيّة شرقاً نحو خراسان إلّا بعد وصول عبد الله ابن عامر والياً على البصرة، فقد واجه عثمان متاعب متزايدة في العراق بسبب الضغط المستمرّ الناتج من تدفّق القبائل العربيّة إلى الثغرين الجديدين: البصرة والكوفة، وكان حلّه لهذه المشكلة هو أن يفتح جبهات قتال جديدة في هذه

١ـ عبد الله الخطيب، **الحكم الأموي في خراسان**: ٤٢.

٢ـ كانت البلاد الإسلاميّة أيّام بني أميّة مقسّمة إلى إمارات كبرى يديرها أمراء يختارهم الحاكم.. وكان العراق إمارة كبيرة يشمل الكوفة والبصرة وخراسان. ينظر: **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ١٠٨ و١٠٩. ولذا كانت خراسان امتداداً طبيعياً وإدارياً وسياسياً وسكّانياً للكوفة والبصرة، فكانت مواقف الخراسانيين ومشربهم العقائدي والسياسي لا يفترق كثيراً عن أجواء مناخ الكوفة والبصرة السياسي والاجتماعي.

البلدان يشغل بها هذه الجماعات، ويمتصّ الفائض من نشاط هذه القبائل، وعلى هذا فقد عيّن في عام ٢٩هـ/٦٤٩ م واليَينِ جديدين للكوفة والبصرة، وكلاهما قرشيّ من نفس قبيلته، وهما: سعيد بن العاص للكوفة، وعبد الله بن عامر للبصرة، وكان ابن عامر آنذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. ومع أنّ الواليين كانا من قرابة عثمان فإنّ تعيينهما لم يكن، كما هو الشائع، مجرّدَ محسوبيّة من عثمان، فقد كان مدفوعاً بالدرجة الأولى نحو تثبيت سلطته في هذه المقاطعات التي كانت تنحو باستمرار نحو الاستقلال الذاتي، وقد رأى أنّه بوصفه كبير بني أميّة، فإنّه ربّما استطاع أن يمارس على جيل الشباب، من أبناء بيته، سلطة أكبر ممّا يستطيعها مع كبار القادة ذوي الآراء المستقلّة، وبهذا فإنّه يستطيع أن ينفّذ سياسته في دفع أبناء القبائل إلى السير في خطّ سياسته[1].

ومن هنا كانت هناك مدرسة، أو رأي وفكر سياسي قرشي سابق عن أهل العراق، وقد انتهجته السياسة الأموية الجديدة، وأوصت به ولاة العراق بالسير عليه، فساق ولاة العراق أهل البصرة والكوفة وعشائرها إلى الشرق صوب خراسان ومدنها وقراها الواسعة والنائية هناك، وكأنّهم أبعدوهم، أو نَفَوهم إلى هناك بلا عودة، أو كأنّهم هجّروهم بعقاب جماعي، كما يُهجَّر الشخص الذي يصدر بحقّه حكم القضاء بالنفي، وكان هؤلاء المهجّرون أو المبعدون يحملون معهم روح الثورة والنقمة المتراكمة على السلطات الجائرة التي تكيد لهم وتدفعهم خارج أوطانهم وقراهم، فكانوا على استعداد كبير لإعلان التمرّد السياسي، أو تفجير شرارة الانتفاضة والمقاومة عند توفّر الظرف والمناخ السياسي والاجتماعي المناسب، فكانت هذه الجيوش والبعوث كتائب ثائرة مبعدة عن أرض الشام ومرمية على أطراف الدولة

---

١ ـ الثورة العبّاسيّة: ٥٦.

الإسلاميّة، وكانت باعتقادهم ـ والأمر كذلك في الواقع ـ تهدّد أمن واستقرار السلطة الأموية لعقود من الزمن، فتعامل القادة والولاة، من الذين نصبهم حكّام دمشق لأهل العراق، بلغة أقلّ مايقال فيها أنّها لغة العصا الغليظة، أو النفي والإبعاد والطرد والدفع بهم بعيداً عن أوطانهم القلقة والمضطربة، لكبح وإطفاء الحسّ الثوري الناقم المتعاظم عندهم. وكان الوالي الأموي يخاطبهم بلغة الجهاد ونشر الإسلام، وقمع الكفّار وأعداء الدين ودحر الكفر والشرك ومهاجمته في عقر داره، فدفعهم إلى هناك بحجّة البعوث والجهاد الديني، فكان لهم عقاب سياسي جماعي باسم الدين والإسلام[1]. ولا يخفى أنّ السبب الكامن وراء هذا الإبعاد والتهجير والطرد القسري،

١ـ كان العراقيون يفهمون نوايا الحجّاج الذي أسرف في إرسال البعوث للتخلّص منهم، أو تحقيق نصر عسكري بأيديهم في فتوحات تصبّ في صالح الخزينة الأموية، فتضامنوا مكرهين، أو مضطرّين مع ثورة ابن الأشعث الذي دعاهم إلى الثورة ضدّ الحجّاج والقضاء عليه بدل التوجّه إلى تخوم خراسان في حروب لا جدوى لهم فيها. ولم يكن خروج عبد الرحمن بن قيس بن محمّد بن الأشعث عن وعي وإدراك لمعاناة العراقيين من ظلامات الحجّاج، ولكنّه استثمر أجواء النقمة والامتعاض الذي أحسّه ابن الأشعث آنذاك. ويذكر أبوحنيفة الدينوريّ صورة من التباغض الذي كان بين الحجّاج وابن الأشعث أدّت إلى استياء ابن الأشعث وخروجه عليه، فيقول: كان سبب خروجه أنّه دخل على الحجّاج يوماً، فقال له الحجّاج: إنّك لمنظرانيّ، فقال عبد الرحمن:إي والله، ومخبرانيّ، وقام عبد الرحمن فخرج، فقال الحجّاج لمن كان عنده: ما نظرتُ إلى هذا قطّ، إلّا اشتهيت أنّ أضرب عنقه. وكان عامر الشعبيّ حاضراً، وإنّ عبد الرحمن لمّا خرج قعد بالباب حتّى خرج الشعبيّ، فقام عبد الرحمن إليه فقال له:هل ذكرني الأمير بعد خروجي من عنده بشيء؟ فقال الشعبي: أَعطِني عهداً وثيقاً ألّا يسمعه منك أحد، فأعطاه ذلك، فأخبره بما كان الحجّاج قال فيه. فقال عبد الرحمن: والله لأجهدنّ في قطع خيط رقبته. ثمّ إنّ عبد الرحمن دبّ في عُبّاد أهل الكوفة وقرّائهم فقال: أيّها الناس، ألا ترون هذا الجبّار ـ يعني الحجّاج ـ وما يصنع بالناس ؟ألا ←

كما يفسّر ذلك أهل الدراية والمعرفة بفلسفة التاريخ وسننه، هو تحريك لهذه القبائل من موطنها لإضعافها وبعثرتها، وقطعها عن الاتّصال بالحجاز الذي يمثّل خطراً لهم باعتباره مركز إشعاع علوي يمدّ العراق بالرجال إن تطلّب الأمر، كما وأنّه موطن الصحابة والتابعين الذين يزعجون السلطة على الدوام، فالعراق بالضرورة أقرب البلدان إلى الحجاز. وربّما كان إبعاد القبائل العراقية يساعد في إخماد شعلة الثورة التي يمكن أن تثار وتثير، وربّما تؤثّر حتّى على الشاميين أنفسهم، لوجود امتدادات قبلية لهم هناك قد تثيرها رابطة وحميّة العصبة والدم. وربّما كانت ظروف ومناخات التيقّظ الثوري ضدّ الحكومة الأمويّة مهيّأة في أرض العراق قبل غيرها، وخاصّة بعد نشوب الثورة الحسينية الرائدة، والتي ظلّ وهجها وشعاعها متّقداً ينير الدرب لكلّ الثائرين ضدّ الظلم، وظلّت مخاوف انطلاق ثورة أخرى على أثر الثورة

تغضبون لله؟ ألا ترون أنّ السنّة قد أُميتت، والأحكام قد عُطّلت، والمنكر قد أُعلن، والقتل قد فشا! اغضبوا لله واخرجوا معي، فمايحلّ لكم السكوت. **الأخبار الطوال:** ٣١٦. والذي يبدو من دراسة سير الأحداث التاريخية أنّه قد تفاعل العراقيون مع نداء ابن الأشعث وخطاباته، واستجابوا له نظراً للظلم المتزايد الذي كان يحسّه عموم أهل العراق، بما في ذلك الشيعة الذين كانوا يشكّلون أغلبية نسبية من سكّان العراق. يتحدّث محمّد بن جرير الطبري عن أحداث وظروف ثورة ابن الأشعث في سنة ٨١ للهجرة، ومشاعر أهل العراق في ذلك الظرف، وبرواية أبي مخنف الذي يقول: فحدّثني مطرف بن عامر بن واثلة الكناني أنّ أباه كان أوّل متكلّم يومئذ، وكان شاعراً وخطيباً، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أمّا بعد، فإنّ الحجّاج ـ والله ـ ما يرى بكم إلّا ما رأى القائل الأوّل إذ قال لأخيه: احمل عبدك على الفَرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فَلَك. إنّ الحجّاج ـ والله ـ ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب واللصوب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوّكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لايبالي عَنَتهم ولا يبقي عليهم.. **تاريخ الأمم والملوك** ٥: ١٤٦.

الحسينيّة الكبرى، والتي ربّما قد تتقد في أرض العراق بين آونة أوأخرى قبل غيرها من البلدان والأقاليم[١]، فكانت تؤرّق وتزعج الحاكمين بدمشق.

وربّما يُفسَّر هذا القرار ـ أي الطرد والإبعاد السكّاني الجماعي ـ لديهم بأنّه قرار وقائي، وإجراء استباقي لهم، أوكان هناك فكر تخريبي أموي يمنع العراقيين من الوصول إلى الهدف، وهو التلاحم والاتّصال مع الإمام المعصوم الذي كانت النصوص المعتبرة لديهم تشير إليه بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، والذي كان يريده أهل العراق أو يحاولون الاتّصال به. ومن هنا كان لابدّ من الحدّ من انتشار أفكار الشيعة وفلسفتهم الثورية، التي لاتنسجم مع منطق الطغاة والجبابرة، ولذا لا بدّ من إبعاد الجماهير الغفيرة عن قادتها ورجالها، بأيّ وسيلة وصورة كانت متاحة لديهم، فلذا كان الولاة وعمّال العاصمة دمشق في العراق والشرق، يسعون إلى إخماد الحسّ الثوري المناهض للاستبداد الأموي هناك. يميل البعض إلى هذا الرأي لأنّ أغلبية القبائل العربية الخراسانيّة تعود في الأصل إلى البصرة والكوفة، باعتبار أنّ العراق كان قاعدة الفتوحات العربيّة الإسلاميّة في بلاد إيران[٢]، وربّما كان هذا الرأي موافقاً للحقيقة بعض الشيء. ومهما كانت أصول هذه القبائل العربية المتوطّنة في خراسان، أو دُفعت هناك للاستيطان، فهي متباعدة عن الهوى والولاء الأموي، وربّما كانوا يتقاربون مع أيّ حركة أوأيّ نهضة تسعى لشطب الأمويين

١ـ كان القادة الأمويون وكبارهم يتوجّسون الخوف من أهل العراق في بدء دولتهم، وكما ظهر من اقتراح مروان بن الحكم على معاوية بإبعاد الإمام الحسين عليه السلام عن يثرب وفرض الإقامة الجبريّة عليه في الشام، ليقطعه عن الاتّصال بأهل العراق، ولم يرتضِ معاوية بذلك فردّ عليه: أردتَ ـ والله ـ أن تستريح منه وتبتليَني به! ينظر: **سفينة البحار** ٤: ٣٧١ (مرا)، **حياة الإمام الحسين** عليه السلام، للقرشي ٢: ٢٢٣.

٢ـ فاروق عمر، **الخلافة العبّاسيّة في عصر الفوضى العسكريّة**: ٧.

وإخراجهم من الساحة السياسية، فكان دعاة بني العبّاس أقرب إلى قلوبهم من الأمويين، في تلك المرحلة. وهذا التقريب والانسجام السياسي للخراسانيين، مع دعاة ورجال السلطة العبّاسية آنذاك، له ما يبرره في التاريخ السياسي، فقد اضطرّوا لأن يتحرّكوا مع حركة الدولة العبّاسية الناشئة ويتوطّنوا معها حيث توطّنت.

وربّما كان هذا التلاقي، والانسجام النفسي والعاطفي والسياسي معاً، والمعقود بين الطرفين، يعود إلى بدايات التاريخ السياسي السلطوي للعبّاسيين الذين بثّوا رجالهم في إقليم خراسان، والذي شهد واستقبل بواكير الدعوة العبّاسية الداعية إلى إسقاط الحكم الأموي. وقد ساهم الإقليم الخراساني بشكل كبير ومؤثّر في اندلاع الثورة والحركة الانقلابية الجديدة التي انطلقت بداياتها من بين صفوف الخراسانيين، أو ترعرعت لديهم، ومن ثمّ انتقلت شرارتها إلى بقاع أُخر، حيث كانت القوّة الضاربة للمعارضة تتركّز في بقاع خراسان دون غيرها من الأقاليم، على ما يبدو من قراءة التاريخ السياسي لإيران أو فارس القديمة، حسب تسميات المؤرّخين. وهناك من فسّر ذلك للتغيير الذي حصل في بنية القبائل التي هاجرت إليها، حيث إنّ العرب هناك انقسموا قسمين كبيرين: قسم امتهن الحرب والسياسة، وعاش على العطاء والغنائم، وسجّل اسمه في ديوان الجند الرسمي، والآخر امتهن الزراعة والتجارة وأعمال أخرى. وبمرور الزمن ابتعد الطرفان، وتعذّر بينهما التفاهم، وتوتّرت العلاقات بينهما شأن العلاقات بين كلّ حاكم ومحكوم، بين فارض الضرائب ودافعها، وعلى ذلك تكوّنت لكلّ فريق فيهما فلسفة سياسيّة خاصّة وقواعد أخلاقيّة متباينة، وكان التذمّر شديداً ممّا دفع إلى ظهور تكتّلات وأحلاف جديدة حسب بنائها الاجتماعي وأهدافها الاقتصادية، ولم تكن العصبيّة القبليّة هي الأساس في هذه الأحلاف الجديدة، كما كانت في الأحلاف القديمة،

بل كانت الظروف الاجتماعية والغايات الاقتصادية هي الأساس فيها، لذلك كانت قويّة جدّاً، وكانت تضمّ أفراداً ينتمون إلى مختلف القبائل، وربّما كانت تضمّ تلك الأحلاف الجديدة كتلاً أو أفراداً من الموالي الذين يلتقون معهم في المصير الاجتماعي والاقتصادي.

ولقوّة هذه الأحلاف في خراسان اضطُرّ يزيد بن المهلّب ـ الذي يميل إلى طبيعة وتركيب الأحلاف القديمة، بعد أن جمع له سليمان بن عبد الملك[1] العراقَ وخراسان، وقلّده الحرب والصلاة والخراج ـ أن يجدّد سياسته ويغيّر موقفه من تلك الأحلاف الجديدة، ويطبّق سياسة سليمان الإصلاحية، لذا اتّبع سياسة اللين والإنصاف الضعفاء، والتقرّب إلى المظلومين، وأكّد على عدم إرجاع سجون الحجّاج..[2]. ولم تكن مظالم الحجّاج التي امتدّت من العراق إلى خراسان،

١ـ كانت السياسة الأموية التي رسمها كبراء بني أميّة من حكّام وزعماء قبليّين، على العموم، وفي وفي مختلف مراحل هيمنتهم السياسية، تنظر بعين الشكّ والريبة إلى العراقيين باعتبارهم يشكلون مصدر قلق وإزعاج للحكومة الأموية المركزية، فضاعفت من سطوتها وشدّدت من إجراءاتها الاحترازية عليهم، ويبدو أنّ الحاكم الأموي سليمان بن عبد الملك قد تفطّن إلى هذا العسف والجور الذي وضعته السياسة السلطانية الأموية في تعاملها مع أهل العراق في الحقب السابقة، فسعى للتخفيف من هذه الإجراءات التعسفيّة، لذا عدّه المؤرخون مصلحا، وقد بويع لسليمان بعد أخيه الوليد سنة ستّ وتسعين للهجرة، ومات سنة ثمان وتسعين للهجرة. قال ابن قتيبة: كانت ولايته سنة ستّ وتسعين فافتتح بخير وختم بخير، لأنّه ردّ المظالم إلى أهلها، وردّ المسيّرين، وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة، واستخلف عمر ابن عبد العزيز، وأغزى مسلمة أخاه الصائفة حتّى بلغ القسطنطينية. واستعمل يزيد بن المهلّب على حرب العراق. **المعارف**: ٣٦٠.

٢ـ **الحكم الأموي في خراسان**: ٣٥.

والأحلاف والعصبيات القبلية والأسرية الجائرة، وحدها هي العامل الأساس في الانقسام والتباين الاجتماعي والسياسي، والذي أدّى إلى تذمّر طوائف كبيرة من المجتمع الإسلامي في الشرق بكامله، وعموم جماعات أهل العراق، وكذلك طائفة ليست بالقليلة من القاطنين في خراسان المتأثرة بالمناخ العراقي، باعتبارها مجموعة مدن وقرى تشكّلت أو تغذّت من امتدادات قبائل عراقية، كانت تندفع باستمرار إلى هناك مع البعوث التي يدفعها الولاة من العراق نحوها. وهناك مظالم كثيرة ومتعددة تراكمت هناك وتفاحشت، إلى جانب سياسة عامّة رتّبت تراتيب اجتماعية وسياسية واقتصادية للبعض دون عموم المسلمين، فكانت هناك جماعات تستأثر بالثروة والنفوذ، تقابلها أكثرية تعاني الفقر والحرمان، وممّا زاد أوضاعهم بأساً وسوءاً الولاة الذين تختارهم دمشق لهم، والذين أشعلوا الفتن والاضطرابات في خراسان بسياسة طائشة وغير عادلة، امتدّت إلى أزمنة ليست بقصيرة، وظلّ أثرها باقياً في بنية وتركيبة المجتمع هناك حتّى إلى ما بعد سقوط الحكم الأموي.

وربّما امتدّ هذا التمايز والتراتب الطبقي والاجتماعي إلى المجتمع العبّاسي الجديد المؤمَّل، والذي لم يحصل فيه تغيير جذري ملحوظ، فترتفع فيه ظلامات كانت واقعة على طائفة من الأمّة، أو يعيد الحاكم الجديد الحقّ المنتزع إلى أهله وأصحابه، أو تتوارى ـ في الأقلّ من الطماح ـ فيه القيم والاعتبارات القبليّة والجاهلية، أو يشعر فيه المسلمون أنّهم متساوون في الحقوق والواجبات، كما جاء بهذا المبدأ نبيّ الإسلام محمّد ﷺ. ولذا لم تكن حياة المسلمين وأوضاعهم العامّة، في انتقالهم من الحقبة الأموية إلى الحقبة العبّاسيّة، أفضل بكثير ممّا كانوا عليه، فقد كانت الصورة العامّة للناس في أعصر الدولة العبّاسيّة مشابهة إلى كبير

للأعصر السابقة لها، وربّما ساءت أوضاعهم أكثر في مواطن وأحقاب من العصور العبّاسيّة. فالمسلمون بطبقاتهم وصنوفهم ومهنهم كانوا يشعرون بأنّهم متفاوتون في تراتبهم ضمن السلّم الاجتماعي بشكل فاحش وكبير، والمتباعد حتّى في الطبقة الواحدة نفسها، فلم يكن المسلمون في مستوى واحد، أو طبقة اجتماعيّة واحدة يتجانسون في معيشتهم وأفكارهم أو مواقفهم السياسيّة والاجتماعيّة، في حين أنّ الوضع العام الذي يلاحظ عليه الناس في المجتمع العربي الإسلامي الأوّل، والذي رافق وتشكّل مع عصور الدولة الإسلاميّة الأولى هو التماثل والانسجام الاجتماعي، ولو بشكل نسبي، وحتّى في المستوى الاقتصادي حيث يظهر هناك نوع من التقارب في المعيشة، ربّما بشكل مساواة ظاهرية بين المسلمين الذين يعملون في أجهزة الدولة ومؤسساتها، وبين من لم يكونوا قد أخذوا موقعاً لهم فيها. فلم تكن هناك فروقات كبيرة، أو امتيازات فاحشة تظهر لهذا وذاك، سواء كان هذا بين الصحابة أو التابعين، أو بين العاملين في دواوين الدولة، أو رجال الدولة الذين تُعهَد إليهم وظائف أو مهمّات خاصّة، كالقضاء ونحوه، وربّما كان رجل الدولة يتعرّض للمساءلة والمعاتبة لأبسط تصرّف مباح له، كشراء دار أو دابّة[1]، فلا تشكّل هذه

١ـ روى محمّد بن الفتّال النيسابوري عن شريح القاضي، الذي مارس وظيفة رئيس السلطة القضائية في حكومة الإمام عليّ عليه السلام، قوله: اشتريت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فبعث إليّ مولاه قنبر، فأتيته، فلمّا دخلت عليه قال: يا شريح، اشتريتَ داراً وكتبت كتاباً، وأشهدتَ عدولاً، ووزنت مالاً؟! قال: قلت: نعم، قال: ياشريح اتّقِ الله، فإنّه سيأتيك من لاينظر في كتابك، ولايسأل عن بيتك، حتّى يُخرجك من دارك شاخصاً، ويسلّمك إلى قبرك خالصاً، فانظر أن لاتكون اشتريت هذه الدار من غير مالكها، ووزنت المال من غير حِلّه، فإذاً أنت قد خسرت الدارين ←

الطبقات والفئات طبقة قويّة مقتدرة بمفهومها الطبقي المتميّز، فهذه الجماعات والفئات لها قيمة اعتبارية وأدبية فقط، فلم تتشكّل منها جماعات ثرية متعالية ومتباعدة عن عموم الناس. ولم تتجه هذه الجماعات وجهة أخرى غير منسجمة ومتمازجة مع عامّة الأمّة، فالنبيّ ﷺ الذي أسس هذه الدولة الإسلامية العظيمة كان يجالس الناس كواحد منهم[١]، ويقوم بتوزيع الغنائم بنفسه، ولم يكن سهمه وفيراً بحيث يُشبع نفسه وعياله[٢]، وكانت غنائم الحروب والغزوات التي تشكّل واردات الدولة الإسلامية آنذاك، تُصَبّ بين يدي النبيّ ﷺ فلم تعلق يده بشيءٍ منها[٣]،

جميعاً الدنيا والآخرة. **روضة الواعظين** ٢: ٤١٢.

١ـ روى الحسن بن الفضل الطبرسيّ عن أبي ذرّ قوله: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهرانَي أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو حتّى يسأل، فطلبنا إلى النبيّ ﷺ أن يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فَبَنينا له دكّاناً من طين، فكان يجلس عليها ـ وفي رواية: عليه ـ ونجلس بجانبيه. **مكارم الأخلاق:** ١٦. والدكّة: بناء يسطح أعلاه، والدّكّان من البناء مشتقّ من ذلك. قال الليث: اختلفوا في الدكّان، فقال بعضهم: هو فعلان من الدكّ، وقال بعضهم: هو فعّال من الدكن، وقال الجوهري: الدكّة والدكّان الذي يُقعَد عليه. **لسان العرب** (دكك).

٢ـ روى محمّد بن الفتّال النيسابوري عن عائشة قولها: ما شَبِع رسول الله من خبز الشعير حتّى مات. وقالت أيضاً: ما زالت الدنيا علينا عسيرة كَدِرةً حتّى قُبض النبيّ ﷺ، فلمّا قبض النبيّ ﷺ صبّت الدنيا علينا صبّاً. **روضة الواعظين** ٢: ٤٣٣ ـ ٤٣٤. وروى الغزالي عن عائشة أنّها قالت: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يُوقَد في بيت رسول الله ﷺ نار ولا مصباح، قيل لها: فبمَ كنتم تعيشون؟ فقالت: بالأسودين: التمر والماء. **إحياء علوم الدين** ٤: ٢٣١.

٣ـ روى الشيخ أبو محمّد الحسن بن سليمان الحلّي أنّ محمّد بن الريّان كتب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: جُعلت فداك، رُويَ لنا أن ليس لرسول الله ﷺ من الدنيا إلّا الخمس. فجاء الجواب: إنّ الدنيا وما عليها لرسول الله ﷺ. **تفضيل الأئمّة على الأنبياء والملائكة:** ٤٥٩.

فتذهب إلى نصيب المسلمين، وربّما كانت أيدي المسلمين أكثر امتلاءً من يد نبيّهم . وكانت الحقوق والغنائم تُقسّم بينهم بالتساوي، فلم يكن هناك تشكّل طبقي منفرد عن الأمّة والعامّة، أو تفضيل للبعض في تقسيم الأموال، أو في المسافة أو القرب والبعد من رئيس الدولة، ولم يكن الأمير أو الوالي سوى واحد من جنود الدولة الذين يُخصَّص لهم عطاء كباقي الجماعة الإسلاميّة التي يتشكّل منها المجتمع. وجرى هذا النهج لأزمنة بعد رحيل النبيّ ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى، فلم تتشكّل الظاهرة الارستقراطية أو الإقطاعية أو الطبقيّة التي عُرفت فيما بعد بين صفوف المسلمين، إلّا بعد قيام الدولة الأموية أو بدء ظهورها، ولذلك حين برزت وبدأت ظاهرة الثراء على حساب عموم المسلمين، لدى بعض الوجوه الأموية، كانت باعثاً لانزعاج الصحابة و إثارة غضبهم وسخطهم، فرفعوا أصواتهم مستنكرين، ونبّهوا إلى ضرورة تدارك هذه الظاهرة، ومراعاة العدالة والإنصاف في توزيع ثروات المسلمين المستحصلة من الفتوحات والغنائم وغيرها التي كانت تنهال على المسلمين، بدلاً من استحواذ واستئثار فئة قليلة على المال العام والمراكز الحيوية للدولة آنذاك، وقد لحظ الصحابة أنّ الأمر بدأ يتغيّر في حكومة عثمان عمّا كان عليه المسلمون سابقاً من التساوي في العطاء، وبدأ نوع من الثراء غير المشروع، أو التطاول على المال العام والاستئثار به دون المسلمين، فسعى الإمام عليّ عليه السلام في القضاء على هذه الظاهرة، أي ظاهرة استئثار وتلاعب جماعة صغيرة بأموال المسلمين، وحاول الإمام عليّ عليه السلام جاهداً لاقتلاعها في حكومة عثمان، بعد تقديم النصح والمشورة له مع عدّة من الصحابة. وقام عليه السلام بهذا الدور بشكل عملي وتطبيقي مدّة خلافته ـ وإن كانت مدّة خلافته عليه السلام لم تتسع لأفكاره ومساعيه الكبيرة في تحقيق العدالة ـ ولكن سنين خلافة الإمام علي عليه السلام تعتبر سنين مثالية

وأنموذجيّة في تحقيق الإصلاح السياسي والإداري والمالي للدولة التي عصفت بها المشاكل والفتن، والتي حرّكها وأثارها الأثرياء على حساب المال العام، أو بعبارة أخرى أثرياء الغنائم والفتوحات التي حققها المسلمون بسيوفهم ورماحهم[1]، لكن لم تتيسّر لرجل الدولة الإسلاميّة، ورجل العدالة والحقّ ـ عليّ عليه السلام ـ سواعد جماهيرية

١ـ يقول باقر شريف القرشيّ: ليس في تاريخ الشرق ولا في غيره حاكم كالإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عدله ونزاهته، وإيثاره للحقّ على كلّ شيء، فقد كان ـ فيما أجمع عليه المؤرّخون ـ لم يخضع لأيّة نزعة عاطفيّة، ولم يستجب لأيّ هوى مطاع، وإنّما سار على الطريق الواضح، والمنهج السليم الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يُحابِ ولم يداهن في دينه، وتبنّى النصح الخالص لجميع المسلمين، وقد حاول جاهداً أيّام حكومته أن يرفع راية الإسلام ويحقق مبادئه التي كان منها رفع الحيف والضيم، ومنع الاستغلال، وإزالة الفوارق بين أبناء المسلمين، وكان من أعظم ما عنى به وضع أموال الدولة في مواضعها، فلم ينفق أيّ شيء منها إلّا على مرافقها التي عيّنها الإسلام.. لقد احتاط في أموال الدولة كأشدّ ما يكون الاحتياط، وأجهد نفسه وحملها من أمره رهقاً من أجل أن يبسط العدل الاقتصادي بين الناس. **حياة الإمام الحسين بن عليّ** عليهما السلام ٢: ١٠١. فلم تكن المسؤولية والإمارة في نظر الخليفة الديني والحاكم المدني العادل عليّ عليه السلام غنيمة يتقاسمها الأمير أو الحاكم مع قومه وعشيرته، وإنّما هي تكليف وأداء واجب، وفرض يؤدّى، وما على الحاكم والأمير إلّا أن يكون أميناً على أمانته التي بحوزته، صادقاً جادّاً في عمله الذي قُلّد به، فدراهم معدودات صبّها عامل الإمام عليّ عليه السلام في حِجر واحد من أعراب قومه أثارت غضبه عليه السلام وأقلقته، لأنّ المال العام قد تعرّض لغارة من قِبل واحد من ولاته وعمّاله المحسوبين على جهازه الإداري في الدولة الإسلامية العظيمة التي كان يقودها. وكان عليه السلام قد كتب إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني، وهو عامله على أردشير خرّة: بلغني عنك أمر إن كنتَ فعلتَه فقد أسخطتَ إلهَك، وعصيتَ إمامك، أنّك تَقْسم فَيءَ المسلمين الذي حازته رماحُهم وخيولهم، وأُريقت عليه دماؤهم، فيمنِ اعتامك من أعراب قومك. **نهج البلاغة**: الكتاب ٤٣.

قوية لها القدرة على المواصلة، والصبر والجلد على الأمور في تحقيق أهدافه الإصلاحية الكبيرة التي نادى بها عليه السلام، كما لم تكن له عليه السلام بسطة من العمر، وفرصة زمنيّة كافية لإعداد نخب سياسية لها نَفَس طويل ورؤية سياسية إصلاحية واضحة، ربّما تتعاضد معه في تحقيق برنامجه الديني العادل، فإنّ الطرف الآخر المناوئ له عليه السلام، كان يمتلك العُدد والمال الوفير الكافي، والذي تمكّن من تأجيج الفتن والاضطرابات والحروب التي كانت تقف مانعاً وحاجزاً في وجه مشروعه وبرنامجه الإصلاحي الكبير، هذا البرنامج الذي سبّب له مشاكل سياسية كبيرة مع قومه، أدّت إلى اتساع هوّة الشقاق والخلاف بينه وبين الوجوه القرشيّة التي استاءت من عدالته.

وربّما كانت رواية أبي جعفر الإسكافي المعتزلي التي نقلها تكشف عن هذا الأمر، حيث يقول: وذكروا أنّ عليّاً رضي الله عنه لمّا قسم بينهم بالسويّة، وأعطى الأسود والأحمر عطيّة واحدة، أنكر ذلك من فعله قوم، ووجدوا[1] من ذلك، ومشى بعضهم إلى بعض بالعتب والطعن، فبلغ ذلك أصحابَه من المهاجرين والأنصار، فاجتمع: أبو الهيثم ابن التيّهان، وخُزَيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وعمّار بن ياسر، ورفاعة بن رافع، وأبو حيّة، وخالد بن زيد، وسهل بن حنيف، فتشاوروا، فاجتمع رأيهم على أن يركبوا إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويخبروه أنّ طلحة والزبير[2] ومن كان من بني أميّة بالحجاز،

١ـ يقال: وجد الرجل على صاحبه وجداً وموجدة ووجداناً: غَضِب عليه، فهو واجد. **الطراز الأوّل**، لابن معصوم المدني ٦: ٣٠٣.

٢ـ كانت مشكلة بعض الصحابة من القرشيين، ومنهم طلحة والزبير، مع الإمام علي عليه السلام هو المطالبة بالسلطان والمُلك، من غير مراعاة للمبادئ والقيم التي يحملها وينادي بها الإمام علي عليه السلام، وكأنّ الخلافة، والعمل السياسي الذي ينهض بإدارة الدولة، وتدبير أمور المسلمين، ←

قد اجتمع رأيهم، واشتملت عداوتهم، وهم مصرّون على أمرٍ لا نأمنهم عليه. فركبوا إلى عليّ بن أبي طالب فقالوا:يا أمير المؤمنين، انظر في أمرك، وعاتب قومك، هذا الحيّ من قريش، فإنّهم قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، وقد دعونا في السرّ إلى رفضك، هداك الله لرشدك، وذلك لأنّهم فقدوا الأَثَرة، وكرهوا الأسوة، فلمّا استتبّ بينهم وبين الأعاجم، أنكروا واستشاروا عدوّك، فاجتمع رأيهم على أن يطلبوا بدم عثمان، فُرقةً للجماعة، وائتلافاً لأهل الجهالة، فرأيك ! فأقبل عليّ عليه السلام راكباً بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء ـ فدخل المسجد، فركب المنبر مغضَباً وعليه عمامة خزّ سوداء، مرتدياً بطاق، متّزراً ببُرد قطري، متوشّحاً سيفاً، متوكّئاً على قوس، فقال:أمّا بعد، أيّها الناس، فإنّا نحمد الله ربّنا وإلهنا، ووليّ النعمة علينا، الذي أصبحت نِعمُه علينا ظاهرة وباطنة، بغير حول منّا ولاقوّة إلّا امتناناً علينا وفضلاً، ليبلونا أنشكر أم نكفر، فمن شكر زاده، ومن كفر عذّبه. وأشهد أنّ لاإله إلّا الله وحده لاشريك

وفقاً لحساباتهم ورؤيتهم، هي غنيمة قابلة للقسمة، من غير فهم وإدراك للفكر السياسي العظيم الذي يحمله الإمام علي عليه السلام، فقد روى ابن قتيبة الدينوري أنّ الزبير وطلحة أتيا عليّاً عليه السلام بعد فراغ البيعة فقالا:هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ قال علي عليه السلام: نعم، على السمع والطاعة، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان، فقالا:لا، ولكنّا بايعناك على أنّا شريكاك في الأمر. قال عليّ عليه السلام:لا، ولكنّكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد. قال: وكان الزبير لايشكّ في ولاية العراق، وطلحة في اليمن، فلمّا استبان لهما أنّ عليّاً عليه السلام غير مُولّيهما شيئاً، أظهرا الشَّكاة، فتكلّم الزبير في ملأ من قريش فقال:هذا جزاؤنا من عليّ! قمنا له في أمر عثمان، حتّى أثبتنا عليه الذنب، وسبّبنا له القتل وهو جالس في بيته، وكُفي الأمر، فلمّا نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا، فقال طلحة:ما اللوم إلّا أنّا كنّا ثلاثة من أهل الشورى، كرهه أحدنا وبايعناه، وأعطيناه ما في أيدينا ومنَعْنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا. **الإمامة والسياسة** ١: ٧٠.

لـه، أحـداً صـمداً. وأشـهد أنّ محمّـداً عبـده ورسـوله، بعثـه رحمـة للعبـاد والـبلاد، والبهـائم والأنعـام، نعمـةً أنعـم به علينـا، ومنّـاً وفضـلاً صـلّى الله عليـه [وآلـه] وسلّم. فأفضل الناس ـ أيّها الناس ـ عند الله منزلة، وأعظمهم عنـد الله خطراً، أطوعُهم لأمر الله، وأعلمهـم بطاعـة الله، أعملهـم وأتـبعهم لسـنّة رسـول الله صـلّى الله عليـه [وآلـه] وسلّم، وأحياهم لكتاب الله، فليس لأحد، ممّن خلق الله عندنا فضل إلّا بطاعة الله وطاعة رسوله، واتّباع كتابه وسنّة نبيّه ﷺ، هـذا كتـاب الله بين أظهـركم، وعهـد نبيّ الله وسيرته فينا، لايجهلها إلّا جاهل معانـد عن الحقّ، يقـول الله في كتابه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾[1]، فمَنِ اتّقى فهو الشريف المكرَّم المحبّ، وكذلك أهل طاعة الله وطاعة رسوله، لقـول الله في كتابـه ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ** ﴾[2]، ويقـول الله: ﴿ **أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾[3]، فإنّ تولّيتم فإنّ الله لايحبّ الكافرين. ثمّ صاح بأعلى صوته: يا معشر المهاجرين، يا معشر الأنصار، يا معشر المسلمين، أتَمُنّون على الله ورسوله بإسلامكم؟! ولله ولرسوله المنّ عليكم إن كنتم صادقين. ثمّ نادى: ألا إنّه من استقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، وشهد أن لاإله إلّا الله وحده لاشريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أجرَينا عليه أحكام القرآن، وأقسام الإسلام، ليس لأحد على أحد فضل إلّا بتقوى الله وطاعته، جعَلَنا الله وإيّاكم من المتّقين، وأوليائه وأحبّائه الذين

---

١ ـ الحجرات: ١٣.

٢ ـ آل عمران: ٣١. يقول الشيخ فخر الدين الطريحي في معنى الآية: محبّة الله ورسوله الطاعة لهما. ومحبّة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران. **تفسير غريب القرآن**: ٩٣.

٣ ـ النساء: ٥٩.

لاخوف عليهم ولاهم يحزنون[١].

وروى الشيخ الطوسي بإسناده إلى مالك بن أوس بن الحدثان قال: لمّا وَلِي عليّ ابن أبي طالب عليه السلام خطب الناس وقال: «فأنتم ـ أيّها الناس ـ عبادُ الله المسلمون، والمال مال الله يقسم بينكم بالسويّة، وليس لأحد على أحد فضل إلّا بالتقوى، وللمتّقين عند الله خير الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتّقين جزاء، وما عند الله خير للأبرار، إذا كان غدٌ فاغدوا، فإنّ عندنا مالاً اجتمع، فلا يتخلّفن أحد كان في عطاء، أو لم يكن، إذا كان مسلماً حرّاً، احضروا رحمكم الله». فاجتمعوا من الغد، ولم يتخلّف عنه أحد، فقسم بينهم ثلاثة دنانير لكلّ إنسان: الشريف والوضيع، والأحمر والأسود، لم يفضّل أحداً..[٢]. هكذا كان منهج أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وهكذا كان بيانه الأوّل والأخير في حكومته الإسلاميّة العادلة، فليس للفرد من حقّ إلّا ما جاء في كتاب الله وسنّة رسول الله، فالقرآن يقول: ﴿**مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[٣].

ولكنّ أكثر هذه الطبقات القرشيّة التي تكوّنت في فترات سياسيّة سابقة لخلافته عليه السلام، والتي عُرفت بالثراء الفاحش الطارئ، وفي أوّل بدء لهذا الثراء في تاريخ الإسلام ـ والذي لم يكن يسمح بنشوء هذه الطبقات ـ كانت ممّن تتضايق من منهج الإمام عليّ عليه السلام الإصلاحي الكامل، الذي يقوم على مبدأ: من استقبل

١ـ **المعيار والموازنة:** ١٠٩.

٢ـ **الأمالي:** ٧٢٩/ الرقم ١٥٣٠.

٣ـ الحشر: ٧.

قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، وشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أجرَينا عليه أحكام القرآن. هذه الأحكام التي ترفض الثراء على حساب عناء وجهد الآخرين، أوتتشكّل طبقة، أو فئة، أو جماعة سياسية، أوعصبة تتنامى في وجودها من الاستئثار بالنفوذ السياسي، أوسرقة أقوات الناس، أو مصادرة غنائم رماحهم. وهذه المبادئ القرآنية التي يسير بهداها عليّ عليه السلام، لاترضى بالفوارق القومية والطبقية والإثنية والعنصرية، فالكلّ متساوون في حقوقهم وواجباتهم، فهم أسرة عليّ وبيته وشعبه. ولكن لم يرق لهم هذا البيان القرآني، والمنهج الربّاني الذي أراده الإمام عليّ عليه السلام وترجمه إلى الأمة بنظامه العادل، فتآمر المنافقون والمتشبّثون بالمال الحرام، والتفّ جماعة من أهل المصالح على عمود الباطل والشقاق، ممّن متّ إلى عثمان بصلة القرابة، ومعهم نفرضالّ لم يكن من قرابة عثمان، فأحدثت هذه الجماعة بتحرّكها رجّة بين صفوف المسلمين، أدّت إلى التمرّد وظهور ثورة باغية مضادّة، لا مبرّر لها، تناهت إلى موجة جديدة من الاضطراب السياسي على السلطة الشرعيّة العادلة، وحاولت أن تعيد الفتنة إلى وسط المسلمين، هذه الفتنة الماحقة الصاعقة التي حدثت في حكومة عثمان، وبالتالي دفع عثمان ثمنها، فُقتل في داره من قبل الثائرين الذين لم يَرُق لهم ما كان هناك من التفاوت الطبقي الذي أحسّوه، والذي بدأ يتبلور ويتشّكل في هذه الحقبة من حياة المسلمين، فعثمان لم يكن يحسب أو يأخذ بنظر الاعتبار، بعطائه الانتقائي، الاستحقاق الشرعي أوالوظيفي الذي ينبغي أن يناله الفرد المسلم، والذي يتساوى فيه القرشي أو الأموي أو الهاشمي مع بقيّة الأفراد من القبائل الأخرى، أو بقيّة الأمم التي دخلت في الإسلام توقاً لعدالته، فتصرّف بالأموال العامّة على الخاصّة والمقرّبين، وفقاً لاجتهاده، وبدون نظرإلى عاقبة هذا التصرّف.

وقد نقل عبد الله بن مسلم بن قتيبة صورة من هذا التصرّف والاجتهاد في منح الأموال بالقول: تصدّق رسول الله ﷺ بمهزور ـ موضع سوق المدينة ـ على المسلمين، فأقطعها عثمان الحارثَ بن الحكم أخا مروان بن الحكم. وأقطع مروانَ فدكاً، وهي صدقة رسول الله. وافتتح أفريقية، فأخذ الخُمس فوهبه كلَّه لمروان، فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، وكان عثمان سيّره:

وأحلِفُ بالله ربِّ الأنام ... ما ترك اللهُ شيئاً سُدى
ولكن خُلقتَ لنا فتنةً ... لكي نُبتلى بك أو تُبتلى
فإنّ الأمينَينِ قد بيّنا ... منارَ الطريق عليه الهدى
فما أخذا درهماً غِيلةً ... وما جعلا درهماً في الهوى
وأعطيتَ مروان خُمسَ العباد ... فهيهاتَ شَأْوُك ممّن سعى

وطلب إليه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم[1]، ومثل هذا العطاء الفاحش الذي كان يعطيه عثمان، والذي حرّك الجماهير للثورة والانقضاض على السلطة، لم يكن مُبرَّراً أو مقبولاً عند الإمام عليّ عليه السلام الذي استلم زمام الأمور بأغلبية ساحقة من المسلمين، وورثت الأمّة هذه المعاناة التي كان الصحابة وعامّة المسلمين يتألّمون منها، ولكن ما كان بالإمكان ترويض الناس على البرنامج العلوي في فترة قصيرة مضطربة تعجّ بالفتن والمحن: فأوّل برنامج للدولة العلوية هو تقسيم العطاء بالتساوي بين الأحمر والأسود[2] والعبد والحرّ، ومن هنا

---

١ ـ **المعارف:** ١٩٥.

٢ ـ يراد باصطلاح الأحمر والأسود: العرب والعجم الذين دخلوا في الدين الإسلامي. لأنّ الأَدمة أغلب على ألوان العرب، والحمرة والشقرة أغلب على ألوان العجم. ينظر: **ترتيب جمهرة اللغة** ←

بدأت المشكلة وتفرّعت إلى مشاكل وقضايا تشابكت مع مشكلات أخرى، ربّما كان بعضها شخصيّاً صِرفاً لاعلاقة له بأيّ موضوع من مواضيع الدولة أو السياسة، لكنّها تضخّمت فارتجّت الدولة الإسلامية لهذه العلّة أو تلك، وتضعضعت أطرافها، فبدأت الأصوات ترتفع من الشام تعلن تضامنها مع عصيان والي الشام معاوية بن سفيان، وتؤيّده وتبارك له انشقاقه عن السلطة المركزية الأم، هذا الوالي الذي مرق بتعضيد وجوه قرشيّة ظالمة، كان ينبغي له أن يضع يده بيد المسلمين لإعلان بيعته للخليفة الشرعي أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، لكنّه رفع راية الضلالة وجمع من حوله جمعاً مِن المنافقين والطلقاء وعبيد الدنيا والعتاة والمنشقّين، مُوعِداً إيّاهم بعطائه الأموي الذي يسيل له لعاب الضعاف وأبناء الطلقاء وعبيدهم.

فالعطاء الذي كان يريده الإمام عليّ عليه السلام للأمّة هو العطاء العادل الذي يتساوى فيه المسلمون، وكما كان فيما مضى من عصر الإسلام الأوّل، والذي كان يستلمه المسلمون من ديوان الدولة المركزي، الذي كان بيد النبي صلى الله عليه وآله، أو ديوان الجند الذي تسمّى فيما بعد[1] أو بيت المال في اصطلاح المؤرّخين القدامى، والذي لم يكن يسمح بظهور قوىً، أو طبقة، أو وحدة اجتماعية مترهّلة و متميّزة عن الأمّة، تقضم المال قضماً وتستأثر به، فالمال الذي كان يصل بيت المال، في حكومة

١: ٤٤٧ (حمر).

١ـ يعدّ ديوان الجند الديوان الأوّل والرئيس للدولة الإسلاميّة، أو الخطوة الأولى لتأسيس المؤسسات الإدارية للدولة الإسلاميّة، وقد عرّف الطريحي الديوان بأنّه الكتاب الذي يُكتَب فيه أهل الجيش وأهل العطيّة وفقاً للنسب والسابقة في الإسلام. **مجمع البحرين** ٦: ٢٤٩ (دين)، وعرّفه الماوردي بأنّه موضع لحفظ ما يتعلّق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمّال. **الأحكام السلطانية**: ١٩٩.

الإمام عليّ عليه السلام، يوزّع وفقاً للاستحقاق، و وفق مقدار العطاء الذي كان يقدّمه كلّ مقاتل من المسلمين الذين شاركوا في غزوات الجهاد والفتح الإسلامي. وكان منهج الإمام عليّ عليه السلام في سياسته هو ما أعلنه في بياناته السياسية وخطبه الوعظية، فلم يسمح المنهج العلوي بظهور طبقات، أو كتل سياسية تتعالى على الرعيّة، أو فئات فاسدة ثرية، تكون عِبئاً على الأمّة تقضم الأموال العائدة لها، أو تتضخّم ثروتها من عطاء المسلمين، أو من مغانم الأفراد وجهادهم الذي بذلوه في جبهات القتال، فلم يفرّق الخليفة العادل السائر على منهج القرآن، والوصيّ الحازم، أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، مدّة خلافته، بين أخيه عقيل بن أبي طالب وبين عموم الرعيّة ـ وهم في ضمير عليّ عليه السلام أولادُه وإخوانه أيضاً ـ فالرعيّة عنده سواء، حتّى الذين لم يكن لهم إسهام في الغزوات، وحتّى النصارى واليهود ممّن ليس لهم مشاركة في حروب المسلمين، فهم وإن لم يكن لهم سهم من بيت المال، إلّا أنّ علياً عليه السلام كان ينيلهم من رحمته وبرّه، ولم يعاملهم معاملة قاسية تشعرهم بأنّهم غرباء عن المجتمع الإسلامي، إلّا إذا أخلّوا بقانون العهد والذمّة[1]. وقد اشتهرت قصّة عقيل الذي جاء بأطفاله، حين مسّته نار الضيق ولأْواء الفقر، ملتمساً من أخيه الخليفة أن ينيله من بيت المال الذي كان تحت يده، فقال الإمام عليّ عليه السلام واصفاً أخاه وحاله: واللهِ لقد رأيتُ عقيلاً وقد أملق! حتّى استماحَني من بُرّكم[2] صاعاً، و رأيت صبيانه شُعْثَ

---

١ ـ ولم يكن الإمام عليّ عليه السلام يرى وجود فوارق بين المسلم وغير المسلم في حقوق المواطنة، أو في الوقائع القانونية التي كانت تخصّ الذمّي أو غيره، فقد نقل ابن خلّكان أنّ علياً عليه السلام دخل مع خصم له ذمّي إلى القاضي شريح، فقام لعليّ عليه السلام فقال له علي عليه السلام ـ معبّراً عن استيائه من قيامه له دون خصمه ـ: هذا أوّل جَورك! **وفيات الأعيان** ٢: ٤٦٢/ الرقم ٢٩٠.

٢ ـ البُرّ، بالضمّ: القمح، الواحدة بُرّة. **المصباح المنير** ٤٣. قال ابن معصوم المدنيّ: ويُجمَع على ←

الشعور، غُبرَ الألوان مِن فقرهم، كأنّما سُوِّدَت وجوههم بالعظلم[١]، وعاودني مؤكّداً، وكرّر علَيَّ القول مردِّداً، فأصغيتُ إليه سمعي، فظنّ أنّي أبيعُه دِيني، وأتّبعُ قياده، مفارِقاً طريقتي، فأحميتُ له حديدة، ثمّ أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضجّ ضجيجَ ذي دَنَفٍ[٢] من ألمها، وكاد أن يحترق من مِيسَمِها، فقلت له: ثكلَتْك الثواكل[٣] يا عقيل! أتئنُّ مِن حديدة أحماها إنسانها لِلَعِبِه، وتجرّني إلى نارٍ سجّرها[٤] جبّارها لغضبِه، أتئنّ من الأذى ولا أئِنُّ مِن لَظى؟»[٥].

هكذا كان خليفة المسلمين، وصيّ رسول الله، وقائدهم المنتخب، فلم تكن هناك محاباة أو مفاضلة لبني هاشم، أو البيت العلوي نفسه الذي يضمّه بين جناحيه، على بقيّة المسلمين، وبدا وكأنّ المجتمع الإسلاميّ كلّه قطعة من شأن الإمام عليّ عليه السلام وقلبه المتحرّق والملتاع الذي امتلأ بهموم الرعيّة وأحزانها، فكأنّهم كانوا يشكّلون لديه أسرة كبيرة، أو عيالاً يعيش همومهم وآلامهم. ومن المؤكّد أنّ الوقوف على رسالة الإمام عليّ عليه السلام، التي أرسلها إلى عامله على البصرة سهل بن

أبرار وبرور إذا كان أنواعاً مختلفة. **الطراز الأول** ٧: ٧٥. قال ابن دريد: والبرّ المعروف أفصح من قولهم: القمح والحنطة. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ١١٩ (برر).

١ـ العظلم: صبغ، قالوا: أسود، وقال قوم: بل هو البقّم. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٥٦٧ (عظلم). والبقّم: صبغ أحمر. **المعرَّب**، للجواليقي: ٥٩.

٢ـ رجل دَنِف وامرأة دَنِف: إذا أصابها ضنىً من مرض أو حزن. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٦٥٢ (دنف).

٣ـ الثُّكْل: الموت والهلاك، وفقدان الحبيب. **لسان العرب** (ثكل).

٤ـ السَّجْر: من قولهم: سجرت التنّور وغيره، إذا ملأته حطباً ونار، وكلّ شيءٍ ملأته من شيءٍ فقد سجرته. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ١٦٩ (سجر).

٥ـ **نهج البلاغة**: الرقم ٢٢٤. **ربيع الأبرار** ١: ١٩٢. واللَّظى، كالفتى: النار أو لهبها، ولظى، معرفة: جهنّم. **القاموس المحيط** ٤: ٤٤٢.

حُنَيف حين استجاب إلى مأدبة واحد من أهالي البصرة، يعكس صورة صادقة للخليفة الملتزم الممتلئ من المهموم والأحزان من أجل رعيّته، حيث يقول له فيها: أمّا بعد، يا ابن حُنيف، فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعتَ إليها تُستطاب لك الألوان، وتُنقَل إليك الجفان[١]، وما ظننتُ أنّك تُجيب إلى طعامِ قومٍ عائلُهم[٢] مَجْفوّ، وغنيُّهم مَدْعوّ. فانظرْ إلى ما تَقضَمُه مِن هذا المَقضَم، فما اشتَبَه عليك علمُه فالفِظْه، وما أيقنتَ بِطِيب وجوهه فَنَلْ منه. ألا وإنّ لكلِّ مأمومٍ إماماً يقتدي به ويَستضيء بنورعلمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بِطِمرَيه[٣] ومن طُعمِه بقُرصَيه.. ثمّ قال عليه السلام: ولَوشئتُ لَاهتديتُ الطريقَ إلى مُصفّى هذا العسل، ولُبابِ هذا القَمح، ونسائجِ هذا القزّ، ولكنْ هيهاتَ أن يغلبَني هَواي، ويقودَني جَشَعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحِجاز أو اليمامة مَن لا طمعَ له في القُرص، ولاعهدَ له في الشِّبَع، أوَ أبيتُ مِبطاناً[٤] وحولي بطونٌ غَرثى وأكباد حَرّى.. [٥].

١ـ الجَفنة، كالقَصعة: أعظم ما يكون من القصاع. **لسان العرب** (جفن).

٢ـ العائل: الفقير، والعَيلة: الفقر، يقال: عال يعيل عيلة، إذا افتقر، وعال يعول، إذا جار، وأعال يعيل، إذا كثر عياله. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٦٣٠ (عيل). ومنه جاء قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾ الضحى: ٨.

٣ـ الطِّمر: الثوب الخَلِق، وخصّ ابن الأعرابي به الكساء البالي من غير الصوف، والجمع أطمار. **لسان العرب** (طمر). وجاء لفظ المثنّى في حديثه عليه السلام لأنّ طمريه كانا عمامة ومدرعة. وقرصاه كانا من شعير غير منخول: واحد بالغَداة، وواحد بالعَشيّ. ينظر: **شرح نهج البلاغة**، لابن ميثم البحراني ٥: ١٠٤.

٤ـ المِبطان: الكثير الأكل والعظيم البطن. **لسان العرب** (بطن).

٥ـ الغَرَث: الجوع، يقال: غَرِث يغرث غَرَثاً، فهو غَرثان من قوم غرثى وغَراثى. والحَرّة: حرارة العطش والتهابه. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٦٤٣ (غرث) و١: ٣٨٣ (حرر). وقال الراغب الأصفهاني: الحرر: ←

أَأَقنَعُ مِن نفسي بأن يقال:هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكونَ أُسوةً لهم في جُشوبة[1] العيش..»[2]. وهكذا كان خليفة المسلمين وزعيمهم، لاينفرد عن عموم الأمّة في طرز عيشه، ولا يتعالى عليهم بقصر منيف شامخ، بل هو واحد منهم يعيش بينهم، لايجد الفرد نفسه واقعاً في مسافة بعيدة نأى عن خليفته، أو كأنّ هناك مساحة معدومة بينه وبين حاكمه، فلم تكن هناك فاصلة كبيرة يمكن أن يجدها أوتمنعه من التواصل مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فالإمام عليّ عليه السلام معهم وبينهم، لا يفرّق بين أحد من أفراد هذه الأسرة الكبيرة التي ينتمي إليها في عطفه وبرّه وحنانه، بل عاش عليه السلام أفقرَ منهم، وهو القائل: «إنّ الله تعالى فَرَض على أئمّةِ العدلِ أن يُقدّروا نفسَهم بِضَعَفةِ الناس، كي لا يَتَبيَّغَ بالفقير فَقرُه».[3]

ولكن بعد حين من شهادته عليه السلام تغيّر الأمر، وتغيّرت صورة المجتمع الإسلامي الذي أراده النبيّ صلى الله عليه وآله ووصيّه الإمام عليّ عليه السلام، فانشطر هذا المجتمع إلى طبقات متناحرة متنافسة، وبدأ يتمايز ويتّجه نحو مجتمع تَراتُبيٍّ ظالم، معياره الأسس الطبقيّة والفوقيّة المتصاعدة التي لاترحم الإنسان الفقير والضعيف، والتي بدأت في عصور بني أميّة و ممهّداتها، وتصاعدت الطبقات الاجتماعية وتصارعت، وربّما

يَبَس عارض في الكَبِد من العطش. **مفردات غريب القرآن:** ١١١ (حر).

١ـ الجشيب:البشع من كلّ شيء والجشيب من الثياب: الغليظ، ورجل جشيب: سيّئ المأكل. ورجل مجشّب: خشن المعيشة. **لسان العرب** (جشب).

٢ـ **نهج البلاغة:** الكتاب ٤٥.

٣ـ **نهج البلاغة:** من كلامه عليه السلام / الرقم ٢٠٩. قيل: يقدّروا أنفسهم: أي يقيسوا أنفسهم بضَعَفة الناس؛ ليكونوا قدوةً للغنيّ في الاقتصاد و الكفّ عن التبذير والبذخ المضرّ، وسلوى للفقير المحروم الذي يرى إمامه مثلَه في حاله أو أقلّ منه.

كان هذا التصاعد والتصارع على نحو وبشكل كبير وملحوظ في العصور العبّاسية، خصوصاً في العصور العبّاسية المتأخّرة، فأسقطت الدولة والمجتمع تحت سيطرة الغزاة المغول أعداء الإسلام و المسلمين.

وربّما تؤشّر ملامح التشكّل الطبقي والإرستقراطي والإقطاعي في العصر العبّاسي الأوّل، حين ظهر الاستقرار النسبي والرفاه الاقتصادي للدولة، وما نتج عنه من ترف مادّي على عهدي المهديّ والرشيد، فأدّى إلى تغيّرات مهمّة. وربّما يؤرّخ ذلك حين حلّ محلّ طبقة المحاربين ـ أي المجاهدين والمقاتلين الذين كانوا عماد الدولة الإسلامية الأولى ـ طبقة متنفذّة جديدة من أصحاب الأراضي والموظّفين والتجّار والكتّاب[1] الذين شكّلوا الطبقة العليا من السلّم الاجتماعي والسياسي. وقد يلاحظ اتساع الفجوة بين طبقات المجتمع الإسلامي في العصور العبّاسيّة اللاحقة بشكل واضح، حيث أدّى التوسّع والتطوّر السياسي والاقتصادي الكبير للدولة العبّاسيّة إلى أن يقوم التمايز الطبقي والاجتماعي فيه على أساس المال من جهة، وسلطة الحكم من جهة أخرى، وهكذا ظهرت بصورة خاصّة في الشرق طبقتان رئيستان: الخاصّة: وهم الحاكم، أفراد البيت المالك، وكبار القوّاد ورجال الدولة، وكبار التجّار، والقضاة، والإقطاعيون والموسرون، وأتباع هذه الطبقة من جند وخدم وعبيد وخصيان وشعراء. العامّة:وهم بقيّة أفراد المجتمع وطبقاته، من التجّار الصغار، والصنّاع، والمزارعين والباعة، والفنّانين والأحداث. وقد وُجدت نتيجة فساد التنظيم الاجتماعي طبقة، خارج الطبقات الاجتماعية من الفقراء، منها: الشطّار والعيّارون، ونجد صدى هؤلاء واضحاً في التاريخ العبّاسي، وفي قصص

---

١ ـ الخلافة العبّاسيّة في عصر الفوضى العسكريّة: ٢١.

«ألف ليلة وليلة». ويضاف بالطبع إلى هذه الطبقات طبقات الذمّيين، وقد كانت ذات حرّية وتقدّم في شؤون العلم والاقتصاد، وقد اتّسع مفهومها في هذا العصر، فشملت إلى جانب النصارى واليهود والمجوس: الصابئة[١].

يقول صاعد الأندلسي في الإشارة إلى هذه الطبقة: وكان في الدولة العبّاسيّة من ملك الإسلام جماعة من النصارى والصابئين علماء بفنون العلم، لا أعلم من اليونانيين هم أو من الروم، أم من غيرهم من الأمم المجاورة لهم، فمن النصارى منهم بختيشوعُ وابنه جبريل بن بختيشوع كانا طبيبين نبيلين، وخدم بختيشوع أبا العبّاس السفّاح وصحبه وعالجه، ثمّ خدم أبا جعفر المنصور بعده، فلمّا توفّي حلّ ابنه بعده محلّه عند ملوك بني العبّاس. . ومنهم يوحنّا بن ماسويه، خدم في صناعة الطبّ هارونَ والأمين والمأمون وبقي إلى أيّام المتوكّل. . ومنهم حنين بن إسحاق. ومن الصابئين أبو الحسن بن ثابت بن قرّة الحرّاني، فيلسوف متوسّع في العلوم متفنن في ضروب الحكمة، متقلّد لجوامع الفلسفة، وله تواليف حسنة في المنطق والعدد والهندسة والنجوم وغير ذلك، وكان معاصراً ليعقوب بن إسحاق الكندي، وقسطا بن لوقا، وكانوا ثلاثتهم أعلم مَن كان في مملكة الإسلام بعلم الفلسفة في وقتهم. ولثابت أرصادٌ حسَنة للشمس تولّاها ببغداد في خلافة المأمون، جمعها في كتاب بيّن فيه مذهبه، في سنة الشمس، وما أدركه بالرصد في مواضع أوجها، ومقدار سنيّها، وكمّيّة حركتها، أو صورة تعديلها. وكان له ابن يسمّى سنان بن ثابت عالم بالعدد والهندسة والطبّ، وابنه ثابت بن سنان بن ثابت أحد المتحققين بصناعة الطبّ، كان في أيّام المطيع لله في إمارة أحمد بن بويه الديلمي الأقطع المعروف

١ـ الإسلام في حضارته ونظمه، لأنور الرفاعي: ٢٤٨.

بمعزّ الدولة[1].

وربّما كان هذا التواصل والعطف والتفهّم من قبل الحكّام ورجال الدولة الإسلاميّة، والذي تلقّاه أهل الكتاب، أن مكّنهم من الولوج في دواوين الدولة الإسلامية، والتأثير في توجّه وسير الحركة العلميّة الإسلاميّة سلباً وإيجاباً. وهذا التشكّل المهني أو الاجتماعي، الملحوظ لغير المسلمين في تاريخ الدولة الإسلاميّة، يعني ظهوراً مبكّراً لمبدأ احترام الإنسان والمعتقدات الدينية من قبل المسلمين لغيرهم، فالمسلمون هم أوّل من مارس عملية احترام الحقوق المدنية، واحترام حقوق الإنسان، واحترام ثقافات الشعوب والأمم. وكان الحكّام وعلماء الدين والفقهاء يتركون لأهل الكتاب حرّية واسعة ومساحة كبيرة يتحرّكون بها بينهم، وقد اتّضح ذلك من خلال عدم إجبارهم على الانصهار والذوبان الديني في المعتقدات الغالبة والشائعة في مجتمع المسلمين. ونظراً لتمتّع أهل الذمّة والمعاهدين كلّهم، والمسيحيين منهم بنحو لافت، في كافّة عصور الحكم الإسلامي بالحرّية الواسعة والطمأنينة الاجتماعية المشهودة، ممّا هيّأ لهم أجواء إيجابية وعادلة في إتاحة فرص العمل الواسعة لهم، و حسب طاقاتهم ومؤهلاتهم، مكّنهم من المشاركة الواسعة في إدارة الدولة الإسلاميّة، شأنهم شأن المسلمين بلا تمييز، أو حسّاسيّة دينية، أو إقصاء عمدي . وقد ذكر كاتبان غربيان هما سير توماس وأرنولد في كتابهما الدعوة الإسلامية تحت فصل: المسيحيون في ظلّ الحكم الإسلامي، بعد استقراء تاريخيّ دقيق، فقالا:ولمّا كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم، ناعمين بمثل هذا التسامح الذي

١ـ طبقات الأمم: ١٠١ـ١٠٤.

منحهم حرّية التفكير الديني، تمتّعوا ـ وخاصّة في المدن ـ بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة. وقد توسّع معاوية (٦٦١ ـ ٦٨٠ م) في إلحاق المسيحيين بخدمته، وحذا حذوه في ذلك أفراد آخرون من البيت المالك. وطالما شغل المسيحيّون مناصب عالية في بلاط الخليفة، مثل الأخطل وهو عربيّ نصراني كان شاعراً للبلاط، ومثل أبي القدّيس يوحنّا الدمشقي مستشار الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥)، وكان في خدمة الخليفة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) أخوان مسيحيّان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين، أحدهما يدعى سلمويه [١]، ويظهر أنّه كان يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكيّة لاتتّخذ صفة التنفيذ إلّا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة، كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر أن يوكّل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم أنّه عاده في مرضه الأخير، وغمره الحزن عند وفاته، وأنّه أمر بإحضار جثمانه إلى القصر، حيث أقيمت له الطقوس المسيحيّة في خشوع مهيب [٢].

---

١ ـ قال ابن النديم في تعريفه ضمن الأطباء: سلمويه بن بنان خدم المعتصم وخُصَّ به، حتّى إنّه لمّا مات قال المعتصم: سألحق به، لأنّه كان يمسك حياتي ويدبّر جسمي. **الفهرست** ٢: القسم الأوّل: ٢٩٨.

٢ ـ **الدعوة إلى الإسلام**: ٨١. وعلى العموم كان وضع المعاهدين في كافة العصور الإسلاميّة مرضيّاً لهم إلّا في فترة حكومة المتوكّل العبّاسي الذي كان منزعجاً لِما آل إليه الوضع الاجتماعي لهم، أو الانفلات الذي ظهر في المجتمع الإسلامي في العقائد والسلوك، ممّا اضطرّه إلى التشدد عليهم، وربّما كان يدرك أنّ سياسة من سبقوه من حكّام بني العبّاس كانت متراخية في ضبط الظواهر الدينية للمعاهدين، ممّا يهدد الصفة والصبغة الدينية للدولة. لا غَيرةً ←

ومع هذه الرعاية والحنوّ والعطف الذي تلقّاه غير المسلمين في ظلّ وأجواء الدولة الإسلامية المتعاظمة، لكنّه ـ على ما يبدو ـ لم تكن الحكومات المتعاقبة تفكّر في فرض حصار أو منع، أوتحجيم أو تحديد للموج الإلحادي والتشكيكي، وربّما صار التهاون والإهمال في متابعة الآثار السلبيّة ـ والتي لاتنسجم مع الفطرة والعقل التوحيدي ـ للثقافات المحرّفة لأهل الكتاب، إلى السير في منحى ارتداديّ في الفكر والثقافة الإسلاميّة بعض الشيء، والذي بدا وظهر في صفوف طائفة من

عليها. ولكن لادّعائهم أنّ دولتهم دولةٌ دينية قامت ـ بحسب ادعائهم ـ على وراثة النبيّ ﷺ على أساس أنّ جدّهم العبّاس كان عمّ النبيّ ﷺ. وأشاعوا مدّة حكومتهم نظرية وراثة الأعمام والتعصيب في فقه أهل السنّة والجماعة. والتي كانت بعض الفرق الدينية متشبّثة بهم بصفتهم أقرباء النبيّ ﷺ وأهل بيته. يصف ابن كثير هذا الانقلاب عليهم فيقول حول أحداث سنة خمس وثلاثين ومائتين: وفيه أمر المتوكّل أهل الذمّة أن يتميّزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالقلى، وأن يكون على عمائمهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم، وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلّاحين اليوم، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة، وأن لا يركبوا خيلاً، ولتكن ركبهم من خشب.. إلى غير ذلك من الأمور المذلّة لهم المهينة لنفوسهم، وأن لا يُستعمَلوا في شيءٍ من الدواوين التي يكون فيها حكم على مسلم، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة، وبتضييق منازلهم المتّسعة، فيؤخذ منها العُشر، وأن يعمل ممّا كان متّسعاً من منازلهم مسجد، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض. وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق وإلى كلّ بلد ورستاق. **البداية والنهاية** ١٠: ٣٤٥. وربّما أحسّ الحاكم القاهر بالله العبّاسي أنّ هناك بعض التراخي تجاه الأديان الأخرى التي تعايشت مع المسلمين، فاستفتى القاضي الشافعي أبا سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد الإصطخري في الصابئة الذين كانوا يعيشون في أرض العراق فأفتى بقتلهم، لأنّه تبيّن له بأنّهم يعبدون الكواكب، فعزم القاهر على قتلهم حتّى جمعوا له مالاً كثيراً فكفّ عنهم. **تاريخ بغداد** ٧: ٢٦٨ـ٢٦٩/ رقم الترجمة ٣٧٥٣.

المسلمين، والذي حمله بعض المعاهدين من أهل الكتاب ـ كالنسطورية[١] وغيرها ـ من الأمم القريبة أو البعيدة، أو من الوافدين من غير المعاهدين[٢]، على مجتمع المسلمين، بحجج وذريعة العلم والترجمة أو نحو ذلك ـ سواء كان هذا التشكيك والارتداد باسم الفلسفة أو الحكمة كالغنوصيّة[٣] أو غيرها ـ فقد أحدث هذا الوضع

١ـ النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وهم فرقة مسيحيّة، قالوا: إنّ الله واحد ولكنه ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة، وهي ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، وإنّ الكلمة اتّحدت بجسد المسيح، لا على طريق الامتزاج، ولا على طريق الظهور به، ولكن كإشراق الشمس في كوّة على بلّورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. وفسّر نسطور واحدية الله بأنّها بالجوهر، أي أنّه ليس مركّباً بل بسيط وواحد، وفسّر الحياة والعلم بأنّهما أقنومان جوهران، أي أنّهما أصلان ومبدآن للعالم، وفسّر العلم بالنطق والكلمة، ويعني من ذلك أنّ الله موجود وحيّ وناطق كما تقول الفلاسفة في حدّ الإنسان، إلّا أنّ هذه المعاني تتغاير في الإنسان لكونه جوهراً مركّباً، وهو جوهر بسيط غير مركّب. وزعم بعض النسطوريين أنّ كلّ واحد من الأقانيم الثلاثة حيّ ناطق إله، وأنّ الابن لم يزل متولّداً من الأب، وإنّما تجسّد واتّحد بجسد المسيح حين وُلد، والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت، فهو إله وإنسان اتّحدا، وهما جوهران أقنومان طبيعيّان: جوهر قديم، وجوهر محدث، إله تامّ وإنسان تامّ، ولم يبطل الاتّحاد قِدم القديم، ولا حدوث المحدث، لكنّهما صارا مسيحاً واحداً، وطبيعة واحدة، وأنّ القتل والصلب وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، لأنّ الإله لا تحلّه الآلام! **الموسوعة الفلسفيّة**، للحفني: ٤٨٢.

٢ـ أهل العهد: أهل الذمّة، فإذا أسلموا سقط عنهم اسم العهد. **الطراز الأوّل** ٦: ١٢١ (عهد).

٣ـ يتحدّث أهل الحكمة والفلسفة عن هذه العقيدة الفلسفية المضطربة والمسمّاة بالغنوصيّة والغنوسية أيضاً أو الغنوسطيّة، فيصفونها بأنّها: فلسفة صوفيّة، واسم علَم على المذاهب الباطنية، غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجد لا بالاستدلال، فهي المعرفة بالله التي يتناقلها المريدون سرّاً، وهي الوحي المتجدد ـ باعتقادهم وتصوّرهم ـ الذي لا يتوقّف أبداً.

←

ضرراً وإرباكاً بعقائد المسلمين وفطرتهم، ربّما أدّى إلى ظهور فِرق وجماعات لها مقولات غريبة وقلقة، وربّما زعزعت البنية الفكرية والعقائدية للمسلمين، كما في

وتقول بإلهين أحدهما كبير، خير، مفارق، لايدركه العقل ولايحيط به العلم، تفيض منه أيونات تتدرّج مراتبها وألوهيتها بتدرّج بعدها عن مصدرها، غير أنّ إحداها، واسمها الحكمة (صوفيا)، فاض بها الشوق إلى الله، وامتلأت بالتفكير فيه، فتجرّأت فتجاوزت حدودها ومرتبتها، فكان خروجها من مملكة السماء وسقوطها، ومن خطيئتها فاض روح الشرّ أو إلهه، الملقّب أركون، ومنه خرج العالم السفلي، واستطاع أركون أن يحبس النفوس في أجسامها، ولهذا تهفو للخلاص، لكنّها مراتب بطبيعتها، فالإلهيّ منها أو الغنوصيّ يصعد للسماء، والأرضي أو المادي يثبت على الأرض، ويتوسطها الحيواني، وهذه تتنازعها السماء والأرض، وصعودها إلى السماء مشروط بانتصارها على شهواتها. ولقد ظهرالغنوص أوّل ما ظهر في الأديان الفارسيّة التي جمعها الإسلاميّون تحت اسم المجوسيّة. ويبدو أنّ أوّل من نُسبت إليه الغنوصيّة في الأساطير الفارسيّة هو كيومرث، وقيل:إنّه اسم آدم، وأنّه أوّل من قال بأصلين للوجود، هما يزدان وأهرمن، ثمّ ظهرت طائفة الدهريين أو الزروانية نسبة إلى زروان وهو الدهر، أو الزمن الذي لايفنى. والزردشتية من الديانات الغنوصية، وقالت كذلك بإلهين للنور والظلام، أو للخير والشرّ. والديصانية ـ نسبة إلى ديصان ـ من الديانات الغنوصية الثنائية، وكان ظهور ديصان قبل ماني ومهّد له. وتعتبر المانوية ـ نسبة إلى ماني بن فاتك ـ أهمّ الفرق الغنوصيّة، ورغم أنّه ولد في أذربيجان ، إلّا أنّه نظم المانوية تنظيماً كنسيّاً، وجعل مقرّ البابا بابل، وانتشرت المانوية من القرن الثالث الميلادي حتّى القرن الثالث عشر، وكانت أقوى البدع المسيحيّة. وكان مزدك الذي تُنسب إليه المزدكية مانوياً أوّل الأمر، ولكنّه اختلف مع المانوية وقال بأصول ثلاثة بدلاً من اثنين، هي الماء والنار والأرض. وقد قُتل مزدك سنة ٥٢٣م. وعندما توجّه المسلمون إلى العراق، وخاصّة الجنوب، كانت المندائية هي أولى الفرق الغنوصية التي واجهتهم، وكانت تقول بعالم نوراني يترتّبه الإله وملائكته، وأنّ آدم اشتُقّ من عالم النور، وكانت بالعراق مدرسة الحرنانية الغنوصية، والصابئة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. **الموسوعة الفلسفية:** ٢٩٦.

مقولات المرجئة والحشوية والقَدَرية[١] ونحوها، حيث دفعت بأفكارها وفلسفاتها في أوساط المسلمين، فأحدثت جدلاً وتشكيكاً في أفكار الموحّدين وفطرتهم السليمة، وتوهين المقدّسات والثوابت الدينيّة أحياناً في نظر بعض الفرق الإسلاميّة، وقد بلغ توهين المقدّسات أوجه على أيدي العجاردة[٢] الذين رفضوا أن

١ـ سُمّيت المُرجِئة مرجئة لأنّهم يُرجون أمر أهل الكبائر من أهل محمّد ﷺ إلى الله تعالى. ولايقطعون على العفو عنهم ولا على تعذيبهم، ويحتجّون بقوله تعالى: ﴿**وآخَرونَ مُرجَونَ لأمرِ اللهِ إمّا يُعذّبُهم وإمّا يتوبُ علَيهم**﴾، ويقولون: إخلاف الوعد كذب، وإخلاف الوعيد عفو وتفضّل وتكرّم. ولو تهدد رجل عبداً من عبيده قد أساء إليه وعصى وخالف أمره، وتوعّده بالجلد أو القتل أو الصلب، أو غير ذلك من العذاب، ثمّ عفا عنه ماكان يسمّى كاذباً عند العرب، واحتجّوا بقول الشاعر:

ولا يرهب ابن العمّ منّي صولتي ولا إحنتي من قوله المتهدّدِ
وإنّي إذا أوعدتُه ووعدتُه لَمُخْلِفُ ميعادي ومنجز موعدي

قالوا: فجائز أن يُخلِف الله وعيده في القرآن، ولايعذّب أحداً من أهل الكبائر من المسلمين، ويجوز أن يعذّبهم بقدر ذنوبهم، وأرجَوُا الأمر في ذلك إلى الله تعالى. يقال: أرجَوا وأرجأوا بالهمزة والتخفيف فسُمّوا المُرْجية. والمرجية على ضربين: منهم يقولون بالعدل والتوحيد، مثل الغيلانية والشمَرية، وضرب منهم يقولون بالجبر والتشبيه.

وسُمّيت الحشوية حشوية لأنّهم كانوا يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، أي يدخلونها فيها وليست منها، وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه.

وسمّيت القدرية قدرية لكثرة ذكرهم القَدَر، وقولهم في كلّ ما يفعلونه قدّره الله عليهم. **الحور العين**: ٢٠٣ و٢٠٤.

٢ـ العجاردة: هم أصحاب عبد الكريم بن عجرد، والعجاردة أصلهم من أصحاب عطيّة بن الأسود، وعطيّة أصلاً كان من أصحاب نجدة لكن خرج عليه، ولهذا فإنّ فكر العجاردة قريب ←

تكون سورة يوسف من القرآن، لأنّ الله في زعمهم لايتغزّل[١]، والشهرستاني نقل عنهم أنّهم يزعمون أنّها قصّة من القصص[٢].

وربّما كانت الحكومات تجهل أو تتجاهل السموم القاتلة للكتب والفلسفات التي تتحدّث عن أفكار وثقافات لم تنسجم حتّى مع عقائد وأفكار الديانات السماوية الأخرى السابقة للإسلام، فلذلك ظلّت كتب وأفكار مختلف الثقافات والعقائد، سماوية أو غير سماوية، شائعة ومتداولة ومعروفة بين صفوف المسلمين. وربّما كانت الحريّة الدينية الطاغية والمتجاوزة لحدود الحريّة، والتي كانت محسوسة في تاريخ الحكومات للدولة الإسلاميّة في كافة أدوارها أو مراحلها، سبباً لظهور الزندقة، أو نشوء أفكار ضالة وتحريفيّة للعقائد الدينية، واستهدفت طائفةً من الشيعة أيضاً، أو تأثّرت بها طائفة أو أكثر من فرق الشيعة، أسوة بفرق العامّة التي تأثّرت بهذه الأجواء، فظهر انشعاب فِرَقي في الطائفة الإماميّة ظهر في المغالين من الشيعة: كالخطّابية[٣]،

من فكر النجدات، لأنّ النجدات هي الأصل. ولكن ممّا انفردت به العجاردة عن غيرهم قولهم: يجب البراءة من الطفل حتّى يُدعى إلى الإسلام، ويجب دعاؤه إذا بلغ، وأطفال المشركين مع آبائهم في النار. والعجاردة تساهلوا في أمر الجهاد، مخالفين أسلافهم من الخوارج، ولهذا فإنّ العجاردة لم يكفّروا القَعَدة منهم عن القتال، كما أنّهم لم يفرضوا الهجرة، كما فرضها أسلافهم. **الملل والنحل** ١: ١٢٨، **الخوارج**، لعامر النجّار: ١٤٥ و١٤٦.

١ـ علي الشابي، **مباحث في علم الكلام والفلسفة**: ١٣٤.

٢ـ **الملل والنحل** ١: ١٢٨.

٣ـ الخطّابية أصحاب أبي الخطّاب محمّد بن مقلاص الكوفي الأسدي الأجدع، وكان أبو الخطّاب في عصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ومن أجلّ دعاته فكفر وادّعى النبوّة، وزعم أنّ جعفراً عليه السلام إله ـ تعالى الله عزّوجلّ عن قوله – واستحلّ المحارم كلّها ورخص لأصحابه فيها. ←

والكيسانية[١]، والإسماعيلية[٢]، وغيرهم. وربّما شمل هذا المدّ الضال حتّى أطراف

وكان أصحابه كلّما ثقل عليهم أداء فرض أتوه فقالوا: يا أبا الخطّاب، خفّف عنّا، فيأمرهم بتركه حتّى تركوا جميع الفرائض، واستحلّوا جميع المحارم، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور وقال:من عرف الإمام حَلّ له كلّ شيء كان حُرّم عليه. فبلغ أمره الصادق عليه السلام فلعنه وتبرّأ منه. **سفينة البحار**٢: ٧٣ (خطب). وللخطابية مقالات غريبة وفرق متعددة، ولهم تسمية أخرى باسم المخمّسة، وإنّماسمّوا بذلك لأنّهم زعموا أنّ الله عزّوجلّ هومحمّد صلى الله عليه وآله، وأنّه ظهر في خمسة أشباح وصور مختلفة، ظهر في صورة محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين. **مذاهب الإسلاميين**، لبدوي ٢:٥١. وتناهت جماعات من الخطّابية بعد مقتل أبي الخطّاب إلى فرق لها مقالات وآراء غريبة مختلفة فيما بينها، يقول النوبختي: فقالت فرقة منهم بأنّ روح جعفر بن محمّد عليه السلام جُعلت في أبي الخطّاب ثمّ تحوّلت بعد غيبة أبي الخطّاب في محمّد بن إسماعيل بن جعفر، ثمّ ساقوا الإمامة في ولد محمّد بن إسماعيل، وتشعّبت منهم فرقة من المباركية ممّن قال بهذه المقالة تسمّى القرامطة، وإنّما سُمّيت بهذا برئيس لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقّب قرمَطَوَيه، كانوا في الأصل على مقالة المباركية ثمّ خالفوهم فقالوا:لايكون بعد محمّد النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا سبعة أئمّة: عليّ بن أبي طالب، وهوإمام رسول، والحسن والحسين، وعليّ بن الحسين، ومحمّد بن عليّ، وجعفربن محمّد، ومحمّد بن إسماعيل بن جعفر، وهوالإمام القائم المهدي، وهورسول. **فِرق الشيعة**:٧١، ٧٢.

١ـ اختلفت الآراء في المراد بالكيسانية، فذهب الشهرستاني إلى أنّهم أصحاب كيسان مولى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقال:قيل: تلمّذ للسيّد محمّد بن الحنفيّة رضي الله عنه، يعتقدون فيه اعتقاداً فوق حدّه ودرجته.. **الملل والنحل**١: ١٤٧. وذهب الشيخ جعفر السبحاني إلى أنّهم القائلون بإمامة محمّد بن الحنفيّة. **أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية**: ٢٠٥. وذهب البعض إلى أنّ المراد بهم من هذا الإطلاق أصحاب الغدر والخيانة والمكر الذين ينسبون أنفسهم إلى الشيعة وليسوا منهم. ينظر: **بحار الأنوار**٧٥: ٧٥. ووصفهم الشهرستاني بأنّهم يجمعهم القول بأنّ الدين طاعة رجل، حتّى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعيّة من الصلاة والصيام والزكاة والحجّ، وغير ذلك على رجال، فحمل بعضهم على ترك القضايا ←

الدولة الإسلاميّة التي كانت بعيدة عن مراكز العلم والثقافة والترجمة التي كانت تزدهر بها العاصمة والمراكز الكبرى، ففي حكومة المهدي العبّاسي خرج حكيم المقنّع[1] وقال بتناسخ الأرواح وتَبِعه ناس كثير، وكان حكيم هذا رجلاً قصيراً أعور من قرية من قرى مرو يقال لها كاره، وكان لا يُسفر عن وجهه لأصحابه، لذلك قيل له المقنّع. وزعم أنّ روح الله التي كانت في آدم تحوّلت إلى شيت ثمّ إلى نوح ثمّ إلى إبراهيم ثمّ إلى موسى ثمّ إلى عيسى ثمّ إلى محمّد عليهم الصلاة والسلام، ثمّ إلى عليّ عليه السلام ثمّ إلى محمّد بن الحنفيّة ثمّ إليه. وكان يحسن شيئاً من الشعبذة والنيرنجات[2] فاستغوى أهل العقول الضعيفة فاستمالهم..[3].

ولكن الأئمّة عليهم السلام، والذين شهدوا ولمسوا ظهور بذور أو بوادر تنطلق من معدن الكفر والتشكيك التي زرعها روّاد الضلالة الأوائل، فتبرعمت أو وجدت لها التربة والوقت المناسب في العصور العبّاسية، كانوا يحذّرون من ظهور أشخاص أو تيّارات

الشرعيّة بعد الوصول إلى طاعة الرجل، وحمل بعضهم على ضعف الاعتقاد بالقيامة، وحمل بعضهم على القول بالتناسخ والحلول.. **الملل والنحل** ١: ١٤٧.

٢ـ الإسماعيلية: فرقة زعمت أنّ الإمام بعد جعفر الصادق عليه السلام ابنُه إسماعيل، وأنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه عليه السلام، وزعموا أنّ إسماعيل لا يموت حتّى يملك الأرض ويقوم بأمور الناس. **المقالات والفرق**، للأشعريّ: ٧٩.

١ـ قال ابن خلّكان: المقنّع الخراساني من أهل مَرْو، قيل: اسمه عطاء، وقيل: حكيم.. كان يعرف السحر والنيرجات فادّعى الربوبيّة من طريق المناسخة.. **وفيات الأعيان** ٣: ٢٦٣/ الرقم ٤٢٠.

٢ـ قال السيّد علي خان المدني: النيرنج، كنيلج: أخذٌ كالسحر وليس بسحر، إنّما هو تشبيه وتلبيس، أو هو الغرائب المُحدَثة بمعونة الخواصّ العنصريّة، معرّب نيرنك، الجمع نيرجات. **الطراز الأوّل** ٤: ٢٣١ (نرج).

٣ـ **البدء والتاريخ**: ٤٧٨.

تتناغم مع المدّ الإلحادي المارق الذي يهدّد البنية الروحيّة والفكريّة للأمّة الإسلاميّة. والإمام جعفر الصادق عليه السلام، بصفته الحاكم السماوي الشرعي، والذي عايش هذه الأجواء والمناخات الضالّة التائهة، كان يدرك خطورة هذه الثقافات والأفكار التي اقتحمت ساحة المسلمين وحتّى بعض الفرق المنتسبة إلى الشيعة، فانبرى في منهج رسالي علمي على مواجهة هذا المدّ الجاحد، وكان عليه السلام يحاور ويناقش أعلام هذا المد بمناقشات علمية مفتوحة، ويقوم بإعداد صحابته وتلاميذه للقيام بمنازلة ومحاججة أعلام الشكّ والزندقة والكفر الذين يمتلكون ثقافات فلسفيّة وكلاميّة يمكنهم بها زعزعة الإيمان والاعتقاد الفطري للمسلمين، فيروي الطبرسيّ عن هشام بن الحكم صوراً من هذه المناقشات التي كانت تدور بين الإمام الصادق عليه السلام وبين من كان يروّج لأفكار الزنادقة والمنحرفين، فروى أنّ زنديقاً سأل: ما الدليل على صانع العالم؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: وجود الأفاعيل التي دلّت على أنّ صانعها صنَعَها، ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناء مشيد مبني، علمتَ أنّ له بانياً وإن كنت لم تَرَ الباني ولم تشاهده. قال: فما هو؟ قال: هو شيء بخلاف الأشياء، ارجع بقولي شيء إلى إثباته، وأنّه شيء بحقيقة الشيئيّة، غير أنّه لا جسم ولا صورة، ولا يُحَسّ ولا يُجَسّ، ولا يُدرَك بالحواسّ الخمس، لا تدركه الأوهام، ولا تنقصه الدهور، ولا يغيّره الزمان، قال السائل: فإنّا لم نجد موهوماً إلّا مخلوقاً. قال أبو عبد الله عليه السلام: لو كان ذلك كما تقول، لكان التوحيد منّا مرتفعاً لأنّا لم نكلّف أن نعتقد غير موهوم، لكنّا نقول: كلّ موهوم بالحواسّ مُدرَك بها تحدّه الحواسّ ممثّلاً، فهو مخلوق، ولابدّ من إثبات كون صانع الأشياء خارجاً من الجهتين المذمومتين، إحداهما النفي إذا كان النفي هو الإبطال والعدم. والجهة الثانية التشبيه بصفة المخلوق الظاهر التركيب والتأليف، فلم يكن بدّ من إثبات الصانع لوجود

المصنوعين، والاضطرار منهم إليه أنّهم مصنوعون، وأنّ صانعهم غيرهم وليس مثلهم، إن كان مثلهم شبيهاً بهم في ظاهر التركيب والتأليف وفيما يجري عليهم من حدوثهم بعد أن لم يكونوا، وتنقّلهم من صغر إلى كبر، وسواد إلى بياض وقوّة إلى ضعف، وأحوال موجودة لاحاجة بنا إلى تفسيرها لثباتها ووجودها. قال السائل: فأنت قد حدّدتَه إذ أثبتّ وجوده ! قال أبو عبد الله عليه السلام: لم أحدده ولكنّي أثبتّه، إذ لم يكن بين الإثبات والنفي منزلة. قال السائل: فقوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[1] ؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: بذلك وصَفَ نفسه، وكذلك هو مستولٍ على العرش بائن من خلقه، من غير أن يكون العرش محلّاً له، لكنّا نقول: هو حامل، وممسك للعرش، ونقول في ذلك ماقال: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾[2]، فثبّتنا من العرش والكرسيّ ما ثبّته، ونفينا أن يكون العرش والكرسيّ حاوياً له، وأن يكون عزّوجلّ محتاجاً إلى مكان أو إلى شيءٍ ممّا خلق، بل خَلقُه محتاجون إليه. قال السائل:فما الفرق بين أن ترفعوا أيديكم إلى السماء وبين أن تُخفضوها نحو الأرض؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: في علمه وإحاطته وقدرته سواء، ولكنّه عزّوجلّ أمر أولياءه وعباده برفع أيديهم إلى السماء نحو العرش، لأنّه جعله معدن الرزق فثبّتنا ما ثبّته القرآن والأخبار عن الرسول صلى الله عليه وآله حين قال: «ارفعوا أيديكم إلى الله عزّوجلّ»، وهذا تُجْمع عليه فِرق الأمّة كلّها. ومن سؤاله أن قال: ألا يجوز أن يكون صانع العالم أكثر من واحد ؟قال أبو عبد الله عليه السلام: لايخلو قولك إنّهما اثنان من أن يكونا: قديمَين قويَّين، أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويّا والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويَّين فلِمَ لايدفع كلّ واحد منهما

١ـ طه: ٥.

٢ـ البقرة: ٢٥٥.

صاحبه ويتفرّد بالربوبيّة ؟ وإن زعمت أنّ أحدهما قويّ والآخر ضعيف ثبت أنّه واحد كما نقول، للعجز الظاهر في الثاني، وإن قلتَ: إنّهما اثنان، لم يَخْلُ من أن يكونا متّفقَين من كلّ جهة، أو مفترقين من كلّ جهة، فلمّا رأينا الخلق منتظمة، والفَلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلّ ذلك على صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر، وأنّ المدبّر واحد[1].

١ـ الاحتجاج: ٣٣٢ـ٣٣٣.

ضعف الدولة العبّاسية وظهور الدويلات

للدول آجال ونهايات، كما يحصل للكائنات الحيّة التي يخلقها الله تعالى، وكما هو الحال للأفراد من الجنس البشريّ الذين يقضون ما قدّر الله لهم من أعمار قد تطول أو تقصر، ولكنّ بعض الدول والكيانات تنمو وتظهر على مسرح التاريخ والأحداث بقوّة وفاعليّة، فتترك أثراً واضحاً وبيّناً في ذاكرة التاريخ، كدولة قويّة وكيان سياسي له ثقله وتأثيره الحضاري والاجتماعي على مرّ الأزمان، وربّما كانت بعض الدول شاخصة في آثارها ومعطياتها التي تتفاعل مع الزمن، وكأنّها تجدد حضورها. يقول الفيلسوف الألماني راتزل: إنّ الدولة كائن إقليمي حيّ ينتج عن اتّحاد وثيق بين الوطن والسكّان، وإنّ نمو الدولة يتوقّف على نموّ السكّان ونشاطهم التجاري والثقافي، كما أكّد الفيلسوف اشبنجلر رأي ابن خلدون القائل بأنّ جميع الحضارات تمرّ بالأدوار التي يمرّ بها الكائن، فلكلّ طفولته وشبابه ونضجه وشيخوخته، وعندما تنحلّ حضارة ما، فسبب ذلك يعود إمّا إلى تأثير روح حضارية أخرى أقوى منها أو لأنّها حققت صورتها النهائيّة. والتاريخ في نظر اشبنجلر لم يعطِ حقّ الوجود إلّا للحياة الحضارية القويّة الكاملة المنبثقة من ذاتها حتّى وإن لم يكن هذا الحقّ واقعيّاً، ولذلك نجد في التاريخ أنّ الحقيقة والعدالة تُطمَسان بتأثير القوّة، ويقضي التاريخ بالانهيار والنكسات على الشعوب التي تتمسّك بالحقائق

دون أن تعمل وتنادي بالعدالة وتضعها فوق القوّة. ولذلك يرى اشبنجلر أنّ بين الحضارات نضالاً عنيفاً من أجل السيادة والغلبة.

ولكنّ المؤرّخ توينبي يرى أنّ المجتمعات ليست كائنات عضوية، ولذلك فهي لاتخضع إلى نواميسها، وينفي أثر ما يسمّى بمبدأ الحركة الدورية المتشابهة في التاريخ، ويرى أنّ التكرار ظاهرة تقع في مجرى الحوادث، ولكنّ الدولاب الذي يحمل عربة التاريخ ويدور على نفسه دورة رتيبة لايستبقي العربة في إطاره الثابت، بل يدفعها نحو غايتها في حركة مستمرّة إلى الأمام، ولذلك يرى بأنّ فقدان السيطرة من الداخل مِن قِبل السلطة المركزية ليست سبباً في الضعف والتفكك، بل ظاهرة ونتيجة له. أمّا أسباب الانهيار فيعزوها إلى عوامل ثلاثة:١ـ ضعف القوّة المبدعة في الأقلّية الحاكمة الموجّهة بحيث تنقلب إلى سلطة تعسّفية. ٢ـ تخلّي الأغلبيّة المحكومة عن موالاة الفئة الحاكمة. ٣ـ الانشقاق وفقدان رابطة الوحدة بين فئات الشعب المختلفة. أمّا الأستاذ ماكندر فقد استحوذت عليه نظرية قلب العالم في تفسيره لانهيار الحضارات وتفكك الإمبراطوريات.. وإذا أردنا أن نطبّق نظريات الفلاسفة هذه في تفسير انهيار وتفكّك الدولة العبّاسيّة، وتجزئتها إلى إمارات أو دويلات إقليميّة، نلاحظ من جهة أنّ ماكندر على حقّ حين نظر إلى منطقة تركستان على أنّها ذلك الخزّان البشري الذي ما فتئ يدفع الموجة البشريّة تلو الموجة البشريّة، فالأتراك الفراغنة وغيرهم دخلوا الدولة العبّاسيّة زرافات ووحداناً من بلاد ما وراء النهر وتركستان، كما وأن توينبي على صواب حين شخّص أسباب ضعف الإمبراطوريات وانهيارها بضعف القوّة المبدعة لدى الأقليّة الحاكمة.. من جهة ثالثة يتّفق بعض المؤرّخين مع راتزل ويرون بأنّ الدول تشبه الكائن الحيّ في

خضوعه لقانون الحياة والموت[١]. وهناك من يرى بأنّ نقاط الضعف الأساسيّة موجودة في الدولة منذ تأسيسها، إلّا أنّ نواحي القوّة فيها كانت توقف تأثيرها، وما أن تضعف هذه النواحي حتّى تستفحل تلك وتلعب دورها المنتظر[٢].

ومن مجمل هذه النظريات يصل الباحث إلى نتيجة حتميّة إلى أنّ الدول والإمبراطوريات لابدّ لها من أن تزول في يوم مقدّر لها، ودولة بني العبّاس لابدّ أن تدخل ضمن هذه القوانين. ولو قارنا ماجرى لبني أميّة وبني العبّاس ربّما نرى أنّ ضعف الدولة الأموية لم يظهر في بدء أمرها بالشكل الذي عرفت به الدولة العبّاسية اللاحقة لها في عصورها المختلفة، فالضعف الذي بان على دولة بني أميّة كان في سنين متأخّرة من قيامها وتسلّطها على زمام الأمور، وقد كانت هناك عوامل عديدة تظافرت على إضعافها وهيّأت الأجواء لتهتّك هذه الدولة وتمزيقها، ممّا أدّى إلى انقراضها وسقوطها، وانمحاقها من تاريخ المسلمين السياسي، إلّا أنّ الدولة الأموية لم تشهد انشقاقاً وتشرذماً في أقاليمها، كالذي حصل في الدولة العبّاسيّة، ذلك الانشقاق الذي حوّل هذه الأ قاليم إلى دول لها قدرة وقوّة قد تنافس العاصمة، وربّما تضخّمت هذه الأقاليم المنشقة فسعت إلى أن تبسط نفوذها على العاصمة، أو إلى الانقضاض على الدولة المركزية و الدولة الأم التي صنعتهم، أو رعتهم حيناً من الدهر، وربّما كانت هناك فائدة حصلت للمسلمين في هذا التشقق الإقليمي للدولة العبّاسيّة، باعتقاد البعض[٣]، إلّا أنّ الجانب السلبي والمعتم لهذه الكيانات

١ـ **الخلافة العبّاسيّة في عصر الفوضى العسكريّة**: ٢١٣.

٢ـ خاشع المعاضيدي ورشيد عبد الله الجميلي، **تاريخ الدويلات العربيّة والإسلاميّة في العصر العبّاسي (في المشرق والمغرب)**: ٥.

٣ـ هناك من يعتقد أنّ الانخرام الذي حصل وأصاب السلطة العبّاسيّة، بتفكك الإمبراطورية ←

الإقليمية المتمرّدة، ربّما كان أكثر وضوحاً، حيث تُنوسي العنوان الكبير الديني الذي جمع هذه الأمم والقوميّات والثقافات في عنوان قوي واحد مشرّف، وصار البحث عن الهويّة القوميّة والإقليمية الضيقة محطّ اهتمامهم وغاية آمالهم، ومهما قيل عن بدء ضعف هذه الدولة، والتي نشأت ونمت باسم الإسلام، ولكنّ الانشطار والتهافت لهذه الدولة العظيمة، قد حصل نتيجة ضعف حكّام بني العبّاس، وفي مدّة سلطتهم، وأمّا أن ندفع تاريخ تمزّق الدولة الإسلاميّة إلى فترة زمنيّة لما قبل دولة بني العبّاس فلا يوجد مؤشّر تاريخي يساعد على قبول هذه الفكرة. ولكن قد تعرّف المسلمون في الحقبة الأمويّة على مشهد من مشاهد الضعف تجلّى بظهور حركات ثورية، أو حركات مناهضة لها مبادئها ورؤيتها التي لاتنسجم معها، ولها من العقل والرؤية السياسية التي كانت تتمكّن من أن تشعل فتيل حركة أو أخرى، وربّما كانت قادرة على أن توقد شرارة ثورة تندلع بين حين أوآخر، ولكنّها لاتتمكّن من الصمود طويلاً. وإذا كان هناك لبعض الحركات والانتفاضات من القوّة والقدرة في مقاومة السلطة الأمويّة، أو إدامة هذه المقاومة لها إلى حين، فإنّها لم تتمكّن من أن تقيم سلطاناً لها، أو تؤسس كياناً إقليمياً مستقلاً يمكن تسميته دولة، كما جرى في العصور العبّاسية المتأخّرة.

ولكنّ المُشاهَد في العصور العبّاسية الأخيرة تآكُل الدولة الكبيرة من أطرافها الواسعة، حتّى من نقطة البداية والانطلاقة لها، وربّما انقلب الأمر الذي كان لها عليها. فقد لوحظ نموّ الحركات والثورات المناهضة للعبّاسيين ودولتهم بشكل مؤثّر

الإسلامية إلى دويلات مستقلّة، أو شبه مستقلّة هنا وهناك أدّى إلى نهضات علمية بارعة، وتحقيق مكاسب حربية وغيرها أنجزتها هذه الدويلات التي كانت تتخذ من كلّ ذلك الهالة التي يسبح فيها استقلالها القومي. علي الشابي، **مباحث في علم الكلام والفلسفة:** ١٥٥.

وكبير، أشر حالة الضعف والتراخي المتصاعد في أقاليم ومدن الدولة الإسلامية الكبيرة، ممّا أدّى إلى ظهور انفصال وتشرذم في الكيان السياسي والجغرافي الواحد الذي عُرفت به الدولة الإسلامية في سالف أيّامها. ولم تعد هناك قوّة أو دولة تمثّل الإسلام والمسلمين حتّى ظاهراً كما سبق، بل صارت هناك دول وأسر وقوميات وطبقات تعبر وتنطق عن الإسلام والمسلمين، أو بعبارة أخرى تنطق عن نفسها، وربّما طرأ ذكر الإسلام والمسلمين في أقوالها ومناسباتها الدينية على مضض، وكأنّ الدولةالإسلامية التي اتّخذت صوراً متعددة لم تعد دولة ذات كيان حتّى بالاسم، بل وصفت بالطابع والهوية القطرية والأسرية، حتّى وصلت أمور الدولة العبّاسية أن انحصرت في حدود جغرافية بغداد دون المدن العراقية الأخرى. ففقدت هذه الدولة هيبتها وصفتها في العصر البويهي والسلجوقي، وكأنّها إمارة تبدو وكأنّها تريد أن تتشكّل لتوّها، فلم تعد بغداد، كما كانت في بدء أمرها، عاصمة أو دائرة القرار المركزي للدولة الإسلامية حتّى بمعناها السياسي المصطلح عليه. يقول مصطفى الشكعة:كانت الدولة الإسلاميّة طوال القرن الثاني وفترة من القرن الثالث الهجري متماسكة الأطراف مترابطة الأمصار، إلّا في القليل النادر حين تقوم ثورة هنا أوفتنة هناك ثمّ لاتلبث أن تنتهي أو تخمد، وتعود الأمور إلى نصابها. فلمّا كان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري والسنوات الأولى من القرن الرابع، وهي الفترة التي وُلد فيها عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان الذي عُرف فيما بعد باسم سيف الدولة، كانت الدولة العبّاسيّة الكبرى قد بدأت أركانها تتصدّع، وأمصارها تستقلّ، وولاياتها تنفصل عنها، وأصبحت العاصمة بغداد وكراً للدسائس والمؤامرات، فتقلّص ظلّ الخلافة وذابت سطوتها، وأصبح الحاكم أسير قصوره وقوّاده، لايكاد يملك من أمر نفسه شيئاً، وهو بعد ذلك مهدّد بأخطار كثيرة أهونها وأيسرها الخلع، والمألوف منها

أن تُسمَل عيناه، أو أن يهان ويضرب لكي يطاح برأسه بعد حين.

فهذه الدولة الإسلاميّة العبّاسيّة الكبرى التي كانت تبسط يديها على العراق وبلاد فارس وما وراء النهر حتّى حدود الهند شرقاً، وبلاد الشام والجزيرة ومصر وجزء من شمال أفريقيا غرباً، هذه الدولة الكبرى المكوّنة من أمصار عديدة وأجناس شتّى، بدأت تتشعّب وتظهر فيها الدويلات المستقلّة والإمارات الثائرة القويّة.. ففي منطقة سجستان ينهض رجل من عامّة الشعب، كان يشتغل نحّاساً ويشقّ عصا الطاعة على الخلافة، وينتهز فرصة اختلال الأمن في بلده فيخضعها ويولّي نفسه عليها حاكماً مستقلاً، ثمّ يلتفت هذا النحّاس المغامر إلى جيرانه فيجد إمارة الطاهريين التي كان أنشأها عبد الله بن طاهر بن الحسين، وما هي إلّا جولة أو أخرى حتّى تسقط هراة وينهزم الطاهريون، وترتعد فرائص الحكومة في بغداد، وتحاول إسكات هذا المغامر الشجاع، فتُقْطِعه ولايات كرمان وبلخ والسند. وتتسع آمال هذا القائد الظافر، وقد أحسّ بضعف الخلافة وخوفها منه، فيستولي على شيراز وطبرستان، ثمّ يمتدّ حكمه إلى خراسان وفارس والمقاطعات المجاورة[1]، وبالتالي سقوط أطراف عديدة من الدولة العبّاسية بيد هذا القائد بسرعة لاتصدّق. وقد وُصفت وأُدخلت الفترة العبّاسية المتقدّمة في ضمن عصر العالم الإسلامي الموحّد، وأُدخلت الفترة الثانية أو ما يسمّى العصر العبّاسي الثاني وما بعدها، من عصور ضمن عصر الخلافات الثلاث، ووصفت ما بعد هذه العصور بعصر ما بعد الخلافات، فيصفها أنور الرفاعي بالقول: عصر العالم الإسلامي الموحّد: ويمتدّ من أواسط القرن السابع الميلادي حتّى نهاية القرن التاسع الميلادي، أي فترة الفتح

١ـ سيف الدولة الحمداني: ١٧ و١٨.

وانتشار الإسلام في العالم القديم. عصر الخلافات الثلاث: ويمتدّ بين القرن العاشر حتّى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وفي هذه الفترة التي امتدّت قرنين ونصف القرن تفككت الإمبراطوريّة العربيّة بوضوح وظهر فيها ثلاثة مراكز كبرى: الخلافة العبّاسيّة في بغداد والشرق. والخلافة الفاطميّة في الوسط، وتحكم من القاهرة ما بين ليبيا إلى الشام. والخلافة الأمويّة في الغرب الأندلس. عصر ما بعد الخلافات: ويمتدّ ثلاثة قرون، منذ نهاية القرن الثاني عشر حتّى نهاية القرن الخامس عشر ميلادي. انهارت منذ مطلعها الخلافات الثلاث وحلّ محلّها حكومات الأتابكة والمماليك المغتصبين الذي تعرّض العالم الإسلامي في عهدهم إلى أخطار خارجية هائلة، ففي الشرق غزوات المغول (جنكيز خان)، ثمّ التتر (تيمور)، عدا الخطر الصليبي الفرنجي، وفي الغرب كان الحكم العربي يخسر الأندلس قطعة قطعة[1]، فهنا في العصور الثانية والثالثة يلاحظ حلول الهزائم والنكسات والتشتت والانقسام، ولايمكن تفسير ذلك إلا بتغييب الإسلام الحقيقي، والتمسّك بالصور والمشاهد الدينية الاعتبارية الفاقدة لمصداقيتها، وكذلك سريان الظلم والتعسّف، وغياب العدل وانحساره عن المجتمع، وتفشّي الفساد في مفاصل الدولة والمجتمع معاً، فلم يعد الإسلام بينهم إلّا مراسم باهتة لا معنى حقيقي لها.

ويتحدّث أبو الحسين هلال بن محسّن الصابئ، وهو من أعلام العصر العبّاسي، عن هذه الرسوم فيقول عن آداب الخدمة والدخول على حكّام وسلاطين بني العبّاس: إذا دخل الداخل إلى حضرة الخليفة، من أمير أو وزير، أو ذي قدر كبير، فلم يكن من العادة القديمة أن يقبّل الأرض، لكنّه إذا دخل ورأى الخليفة قال: السلام

١ـ الإسلام في حضارته ونظمه: ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، بكاف الخطاب، فإنّه أشفى وأبلغ وأولى وأوقع. ومتى سلّم بالكناية، جاز أن يكني في قوله، فمن هاهنا وجبت الكاف، وربّما تقدّم الوزير أو الأمير فأعطاه الخليفة يده مغشّاة بكُمّه إكراماً له بتقبيلها واختصاصاً بهذه الحال الكبير محلّها. والعلّة في أن يغشيها بكمّه لئلّا يباشرها فم أو شفة، وقد عدل عن ذاك إلى تقبيل الأرض، واشترك فيه كلّ الناس. فأمّا ولاة العهود من أولاد الخلفاء والأهل من بني هاشم والقضاة والفقهاء والزهّاد والقرّاء، فما كانوا يقبّلون يداً ولا أرضاً، لكنّهم يقتصرون على السلام. وربّما خطب قوم منهم بثناء ودعاء، وقد اختلطوا الآن بالطائفة التي تقبّل الأرض إلّا الأقلّ ممّن أقام على التورّع عن هذا الفعل. وأمّا أوساط الجند ومن دونهم، وعوام الناس ومن لا رتبة له منهم، فمنكر منهم تقبيل الأرض، لأنّ منزلتهم تقصر عن ذاك. ومن أُولى الأفعال بالوزراء، ومن هو في طبقتهم، أن يدخل إلى حضرة الخليفة نظيفاً في بزّته وهيئته، وقوراً في خطوه ومشيه، متبخّراً بالبخور الذي تفوح روائحه منه، وينفح طيبه من أردانه وأعطافه، وأن يتجنّب منه مايعلم أنّ السلطان يكرهه ويأبى شمّه.[1]

وكأنّ الرسالات السماوية قد وضعت لهم هذه الاعتبارات، فلم ينفكّوا عنها أو يتركوها! ولمّا كانت البلاد الإسلامية الكبيرة تدار بهذا النفس من الخنوع، وبهذه الروح الميّتة الباهتة، فلا يمكن لها أن تحتفظ بقوّتها ومركزيتها التي أمّنت لها خضوع الأقاليم والبلدان بجماهيرها، حين كانت قيادتها بعيدة عن الترف والمظاهر البرّاقة التي كانت مَعْلماً واضحاً من معالم الحكومة العبّاسيّة المتداعية، وقد كانت هناك دراسات كثيرة تبحث عن منشأ هذه الأعراف والقيم التي صبغت

١ـ رسوم دار الخلافة: ٣١.

الحكم العبّاسي بهذا اللون الباهت الذي أفقده هويّته العربية والإسلامية، وكأنّ هذا الحكم الذي لم يكن امتداداً للحكم السابق والمتعارف عليه. ولكن هذه الدراسات التقت عند فكرة واحدة ترى أنّ أسلوب الحكم العبّاسي كان امتداداً للأسلوب الفارسيّ في الحكم.. ويرى جيب أنّ السلطة العبّاسيّة كانت أكثر تأثّراً من السلطة الأمويّة بالمفاهيم الساسانيّة في الحكم. وتذهب لاميتون إلى أبعد من ذلك، فتقرر أنّه كان تحت حكم العبّاسيين تقليد واع ومقصود للممارسات الساسانيّة، ولم يكن هذا التقليد على كلّ حال للميول الإقطاعيّة للإمبراطورية الساسانيّة، بل لمركزيتها البيروقراطيّة. وفي الخطّ نفسه كتب سورديل محلِّلاً نظام العبّاسيين السياسي قائلاً: إنّه لا خلاف على أنّ المثال الساساني ظل في الشرق كامناً في روحية الحكّام المسلمين. وفي هذا الاتّجاه أيضا ركّز هدسون انتباهه على الاستبداد العبّاسي ناظراً إليه على أنّه امتداد للملكيّة الإيرانية، حيث كان الحاكم الشخصية الرئيسة في النظام، ووارث ملوك الإمبراطورية الإيرانية العظام، ومحاطاً بهالة دينيّة، وإن كانت غريبة عن روح الشريعة، كما رآها العلماء الأتقياء، فهي مشابهة لتلك التي أحاط الساسانيون القدماء أنفسهم بها، وامتداداً لذلك نسجت تقاليد البلاط العبّاسي على منوال تقاليد الساسانيين، وكانت مضامينها مماثلة لذلك[1]، وربّما افتُتنت العائلة العبّاسية المالكة بالتقاليد الساسانية القديمة السابقة للإسلام، بل فاقتها واجتهدت فيها، أوتفننت في التأثّر بها وامتثالها، فدبّ الضعف والانحلال، لأجل هذا وغيره من العوامل، في كيانها السلطوي الضعيف، وتقطّعت أوصالها.

وكأنّ حال دولة بني العبّاس تردّى بعد أن انقطع الحاكم ظاهريّاً عن الدين

١ـ عصام سخنيني، **العبّاسيون في سنوات التأسيس**: ١٧٣.

والأمّة، وصار مشغولاً بنفسه وشهواته، ولايعنيه إلّا أمر أولاده وحظاياه من الجواري والغلمان، وفقد مدلوله الشرعي الذي كان يتقمّصه و يتسمّى به: خليفة المسلمين، معناه وحقيقته، فأصبح عنوانه ملوكيّاً سلطانياً، وإنّما صار في واقعه الجديد الحقيقي الحاكم أو السلطان العبّاسي، الذي نأى عن تقاليد الدين في البساطة والتواضع، وحتّى عن تقاليد البيئة العربية البسيطة، والتي كانت تخاطب الرئيس والسيّد بصفته الأب والأخ الذي لا يتعالى على إخوته وأبنائه، وصار فرعوناً متعالياً لايكلّم ولايمكن الوصول إليه إلّا بعد جهد جهيد، فصار بلاط السلطان جداراً عالياً لايمكن عبوره أو الوصول إليه، وتحكّمت الصبيان والنساء بأمور الناس، ففي حكومة المقتدرالعبّاسي الذي وُصف عهده بالانحلال تقلّد الحاكم وهو صبي بعمر ثلاث عشرة سنة. يقول الطبري: بويع جعفربن المعتضد بالله، ولمّا بويع لقّب بالمقتدر بالله، وهو يومئذ ابن ثلاثة عشر سنة وشهرواحد وأحد وعشرين يوماً[1] قلّده الوزيرالعبّاسي ابن الحسن ليكون طوع بنانه، وبعد مضيّ أربعة أشهر اجتمع القوّاد والقضاة والكتّاب فخلعوه، وبايعوا عبد الله بن المعتزّ سنة ٢٩٦[2]، غيرأنّ حزب

١ـ تاريخ الأمم والملوك ٨: ٢٥٠.

٢ـ قال المؤرّخ إسماعيل أبو الفدا: خلع القوّاد والقضاة المقتدر وبايعوا عبد الله بن المعتزّ ولقّبوه الراضي بالله. وجرت بين غلمان الدار المريدين للمقتدر وبين المريدين لابن المعتزّ حروب، وآخر ذلك أنّ عبد الله بن المعتزّ انهزم واختفى وتفرّق أصحابه. ثم أُمسك عبد الله بن المعتزّ وحُبس ليلتين، وقُتل خنقاً، وأظهروا أنّه مات حتف أنفه.. تولّى الخلافة يوماً واحداً. وكان عبد الله بن المعتزّ آمنا في سربه، منعكفاً على طلب العلم والشِّعر، قد اشتهر عند الخلفاء أنّه لم يؤهّل نفسه للخلافة فكان مستريحاً، إلى أن حمله على تولّي الخلافة القوم الذين خذلوه بعد بيعته. وقد روي عنه أنّه كان يقول: إن ولّاني الله لأفنينّ جميع بني أبي طالب! فبلغ ذلك وُلدَ ←

المقتدر الذي تزعّمه مؤنس الخادم أحبط المؤامرة، وأعيد المقتدر مرّة أخرى إلى الحكم بعد أن هرب ابن المعتزّ. وضعفت السلطة في أيّام المقتدر إلى حدّ أصبحت أمّه صاحبة الأمر والنهي، ترسل قهرمانتها تنظر في القصص والمظالم بحضرة القضاة. ورُزق المقتدر ولد صغير فولّاه على إمرة الديار المصرية وله أربع سنين، فصارت الحكومة حكومة نساء وصبيان، وانصرف المقتدر إلى ملذّاته وشهواته، وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة[1]، عندها خُلع المقتدر مرّة أخرى، وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة للهجرة، من الحاكم بسبب ما أنكره الجند والقوّاد عليه من استيلاء النساء والخدّام على الأمور، وكثرة ما أخذوا من الأموال والضياع، وانضمّ إلى ذلك وحشة مؤنس الخادم من المقتدر، فاجتمعت العساكر إلى مؤنس وقصدوا دار الخلافة وأخرجوا المقتدر ووالدته وخالته وخواصّ جواريه وأولاده من دار الخلافة، وحُملوا إلى دار مؤنس واعتُقلوا بها، وأحضروا أخاه محمّد بن المعتضد وبايعوه.. فلمّا كان ثالث يوم خلع المقتدر بكر الناس إلى دار الخلافة ليعيدوه إلى سلطنته.. واستقرّ المقتدر في الحكومة وسكنت الفتنة[2] إلى أن جاء يومه المقدّر له فيه أن يترك سلطنته.

ويصف ابن كثير الدمشقيّ المقتدر بالقول: كان مُؤْثراً لشهواته، مطيعاً لخصاياه، كثير العزل والولاية والتلوّن. وما زال ذلك دأبه حتّى كان هلاكه على يدَي غلمان مؤنس الخادم، فُقتل عند باب الشمّاسية لليلتين بقيتا من شوّال من هذه السنة ـ أعني سنة ثلاثمائة وعشرين ـ وله من العمر ثمان وثلاثون سنة.. ولمّا قتل المقتدر

علي ـ عليه السلام ـ فكانوا يَدْعون عليه. **المختصر في أخبار البشر** ٢: ٦٢.

١ ـ مسعود أحمد مصطفى. **أقاليم الدولة الإسلامية**: ١٩٧.

٢ ـ **المختصر في أخبار البشر** ٢: ٧٤.

بالله عزم مؤنس على تولية أبي العبّاس بن المقتدر بعد أبيه، ليطيب قلب أمّ المقتدر، فعدل عن ذلك جمهور مَن حضر من الأمراء، فقال أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي: بعد التعب والنكد نبايع لخليفة صبيّ له أمّ وخالات يطيعهنّ ويشاورهنّ! ثمّ أحضروا محمّد بن المعتضد ـ وهو أخو المقتدر ـ فبايعه القضاة والأمراء والوزراء، ولقّبوه بالقاهر بالله.. وشرع القاهر في مصادرة أصحاب المقتدر وتتبّع أولاده، واستدعى بأمّ المقتدر، وهي مريضة بالاستسقاء، وقد تزايد بها الوجع من شدّة جزعها على ولدها حين بلغها قتله، وكيف بقي مكشوف العورة.. ومع هذا كلّه استدعى بها القاهر فقرّرها على أموالها، فذكرت له ما يكون للنساء من الحليّ والمصاغ والثياب، ولم تقرّ بشيء من الأموال والجواهر..فأمر بضربها وعلّقت برجليها ومسّها بعذاب شديد من العقوبة، فأشهدت على نفسها ببيع أملاكها[1]. ثمّ استدعى

١ـ ويتحدّث ابن كثير أيضاً عن شغب الملقّبة بالسيّدة أمّ المقتدر بتفصيل أكثر فيقول:لمّا استقرّ أمر القاهر في الخلافة، وهو ابن زوجها المعتضد وأخو ابنها المقتدر، وقد كانت حضنته حين تُوفّيت أمّه، وخلّصته من ابنها لمّا أخذت البيعة بالخلافة له، ثمّ رجع ابنها إلى الخلافة، فشفعت في القاهر وأخذته عندها، فكانت تكرمه وتشتري له الجواري، فلمّا قتل ابنها وتولّى مكانه طلبها وهي مريضة، فعاقبها عقوبة عظيمة جدّاً، حتّى كان يعلّقها برجليها ورأسها منكوس، فربّما بالت ويسيل البول على وجهها، ليقررها على الأموال، فلم يجد لها شيئاً سوى ثيابها ومصاغها وحليّها في صناديقها، قيمة ذلك مائة ألف دينار، وثلاثون ألف دينار، وكان لها غير ذلك أملاك أمر ببيعها، وأتي بالشهود ليشهدوا عليها بالتوكيل في بيعها، فامتنع الشهود من الشهادة حتّى ينظروا إليها ويحلوها، فرُفع الستر بإذن الخليفة، فقالوا لها:أنت شغب جارية المعتضد أمّ جعفر المقتدر؟ فبكت بكاء طويلاً، ثمّ قالت:نعم. فكتبوا حليتها:عجوز سمراء اللون دقيقة الجبين، وبكى الشهود، وتفكّروا كيف يتقلّب الزمان بأهله، وتنقل الحدثان ! وأنّ الدنيا دار بلاء لا يفي مرجوّها بمخوفها، ولايسلم طلوعها من كسوفها، مَن ←

القاهر بجماعة من أولاد المقتدر، منهم:أبو العبّاس، وهارون، والعبّاس، وعليّ، والفضل، وإبراهيم، فأمر بمصادرتهم وحبسهم.. ثمّ يتحدّث ابن كثير عن أحداث سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة فيقول:ثمّ إنّ الوزير ومؤنساً الخادم وعليّ بن بليق وجماعة من الأمراء اشتوَروا فيما بينهم على خلع القاهر وتولية أبي أحمد المكتفي، وبايعوه سرّاً فيما بينهم، وضيّقوا على القاهر بالله في رزقه، وعلى من يجتمع به، وأرادوا القبض عليه سريعاً، فبلغ ذلك القاهر ـ بلّغه طريف اليشكري ـ فسعى في القبض عليهم، فوقع في مخالبه الأمير المظفّر مؤنس الخادم، فأمر بحبسه قبل أن يراه، والاحتياط على دوره وأملاكه ـ وكانت فيه عجلة وجرأة وطيش وهوج وخرق شديد ـ وجعل في منزلته طريفاً اليشكريّ، وقد كان أحد الأعداء لمؤنس الخادم قبل ذلك، وقبض على بليق، واختفى ولده عليّ بن بليق، وهرب الوزير ابن مقلة [1]،

ركن إليها أحرقته بنارها. **البداية والنهاية** ١١: ٩ ١٩.

١ ـ قالوا: كانت لأبي علي بن مقلة يد ماهرة في الكتابة حتّى ضُرب بها المثل، وكانت ماهرة في أخذ الرشاء على التولية والعزل، وكان بينه وبين أكبر القوّاد مؤنس المظفّر مودّة، فلذلك كان يثبت قدمه كلّما قاربه الزلل، حتّى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فعزله المقتدر، ولمّا قبض القاهر على مؤنس اختفى الوزير ابن مقلة خوفاً من بطش القاهر. عيسى الحسن، **الدولة العبّاسية تكامل البناء الحضاري**: ٣٠٤ و٣١٥ ، فاستتر وراح يدبّر الأمور من وراء الستار، وكذلك الحسن بن هارون، وراحا يكاتبان قوّاد الساجية والحجرية ـ وهما جماعة من الشباب يقيمون في حجرة منفردة، وهم فرقة من الحرس الخاصّ في قصور الحكّام ـ ويخوّفونهم من شرّ القاهر، وكان ابن مقلة يجتمع بالقوّاد ليلاً وهو متنكّر في زي امرأة، أو أعمى، أو متسوّل، ويغريهم حتّى استطاع أن يؤلّبهم ضدّ القاهر، وأن يجلبهم إلى صفّه، فاتّفقوا على خلعه، وزحفوا إلى الدار وهجموا عليها، وسدّوا المنافذ والمخارج في وجه القاهر، الذي صحا على الجَلَبة صباحاً وهو ما يزال مخموراً منذ البارحة، فحاول الهرب فلم يتمكّن، وقبضوا عليه ←

فاستوزر مكانه أبا جعفر محمّد بن القاسم بن عبيد الله في مستهلّ شعبان، وخلع عليه، وأمر بتحريق دار ابن مقلة. ووقع النهب ببغداد، وهاجت الفتنة، وأمر القاهر بأن يُجعَل أبو أحمد المكتفي بين حائطين، ويُسدّ عليه بالآجرّ والكلس وهو حيّ، فمات. وأرسل منادياً على المختفين: إنّ من أخفاهم قُتل وخُرّبت داره، فوقع بعلي ابن بليق فذُبح بين يديه كما تذبح الشاة، فأخذ رأسه في طست ودخل به القاهر على أبيه بنفسه، فوضع رأس ابنه بين يديه، فلمّا رآه بكى وأخذ يقبّله ويترشّفه، فأمر بذبحه أيضاً فذُبح، ثم أخذ الرأسين في طستين فدخل بهما على مؤنس الخادم، فلمّا رآهما تشهّد ولعن قاتلهما، فقال القاهر:جرّوا برجل الكلب، فأُخذ وذُبح أيضاً، وأخذ رأسه فوضع في طست وطيف بالرؤوس في بغداد، ونودي عليهم:هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في الدولة فساداً. ثمّ أُعيدت الرؤوس إلى خزائن السلاح. وفي ذي القعدة منها قبض القاهر على الوزير أبي جعفر محمّد بن القاسم وسجنه، وكان مريضاً بالقولنج، فبقي ثمانية عشر يوماً ومات، وكانت وزارته ثلاثة أشهر واثني عشر يوماً، واستوزر مكانه أبا العبّاس أحمد بن عبيد الله بن سليمان الخصيبي، ثمّ قبض على طريف اليشكري، الذي تعاون على مؤنس وابن بليق، وسجنه ـ ولهذا قيل: من أعان ظالماً سلّطه الله عليه ـ فلم يزل اليشكري في الحبس حتّى خُلع القاهر[1].

وبهذه الانقلابات والمؤامرات التي تنتهي بهذه المشاهد المروّعة والقاسية والعجيبة، كانت قصور بني العبّاس تتناسخها وتتوارثها الأيدي العابثة اللاهية، والتي كانت تجري أحداثها وتتكرّر بين الحين والآخر، فتنتهي إلى قصص

وسملوا عينيه وأنهوا حكمه الذي دام سنة وستّة أشهر وستّة أيّام. وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٢٢ للهجرة. الروضان. **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ٤٠٢.

١ـ **البداية والنهاية** ١١: ١٩٣ ـ ١٩٦.

وحكايات يتناقلها العامّة ويسمرون بها، فتغيّرت قلوب الرعيّة على الدولة ومالت إلى أعدائها، وصارت العاصمة بغداد موطن ذلّ ومركز رياء وفتنة، أدمعت عيون أبنائها وأشقتهم وأتعستهم . وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام إلى بغداد وفتنتها وجورها في خطبة له بقوله:الزوراء وما أدراك ما الزوراء ! أرض ذات أثل، يُشيَّد فيها البنيان، ويكثر فيها السكّان، ويكون فيها مخادم وخزّان، يتّخذها وُلدُ العبّاس موطناً ولزخرفهم مسكناً، تكون لهم دارَ لهو ولعب، يكون بها الجور الجائر، والخوف المخيف، والأئمّة الفجرة، والأمراء الفسقة، والوزراء الخونة، تخدمهم أبناء فارس والروم، لا يأتمرون بمعروف إذا عرفوه، ولايتناهَون عن منكرإذا نكروه، تكتفي الرجال منهم بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك الغمّ العميم، والبكاء الطويل، والويل والعويل لأهل الزوراء من سطوات الترك، وهم قوم صغار الحَدَق، وجوههم كالمجانّ المطرّقة، لباسهم الحديد، جَرد مرد، يَقْدمهم ملك يأتي من حيث بدا مُلكهم، جهوريّ الصوت، قويّ الصولة، عالي الهمّة، لايمرّ بمدينة إلّا فتحها، ولاتُرفع عليه راية إلّا نكسها، الويل الويل لمن ناوأه، فلا يزال كذلك حتّى يظفر[1]. وهو هنا عليه السلام ربّما كان يشيرإلى هجوم المغول الذين اندفعوا من آسيا الوسطى ويتقدّمهم هولاكو القائد القوي الذي سحق بغداد وقادتها تحت سنابك خيول جيشه الصائل.

وربّما كانت الجموع المضطهدة، والأفواه الجائعة، من رعيّة الدولة العبّاسية، معولاً ضرب على هذه الدولة اللاهية، أوكان ممّن يعين على احتلالها وإسقاطها، أو ممّن كان يسعى إلى تمزيقها ومحقها.

واختلف الباحثون في تأشير تاريخ بداية هذا الضعف، فمنهم من وزّع هذا

١ـ **مستدرك الوسائل**، للنوري ٣: ٤٦٣، **كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين**، لابن طاووس: ١٧.

الضعف والانحلال إلى عهود هارون العبّاسي، وذلك حين تمزّقت الدولة في عهد الرشيد بين أبناء الرشيد، وانشطرت بشكل عملي بين ابنيه الأمين والمأمون[١]، ومنهم من أرجعه إلى علّة التغيير الجغرافي للعاصمة، وذلك بعد هجر بغداد والنأي عنها وإهمالها، وانتقال القدرة والسيادة والعاصمة إلى سامراء، التي استبدّ بها الأتراك والموالي الذين اندفعوا من دول الشرق القديم إلى العاصمة الناشئة سامراء، فأسسوا سلطانهم وسطوتهم هناك، إلى جانب سلطة الحاكم، والذي صار ألعوبة بأيديهم فيما بعد. وقد يكون قرار المتوكّل في تقسيم الدولة بين بنيه بولاية العهد له الأثر الفاعل والكبير في تفكيك الدولة وإضعافها، فيصف ابن الأثير أحداث سنة ٢٣٥ بالقول:في هذه السنة عقد المتوكّل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد، وهم: محمّد ولقبه المنتصر بالله، وأبو عبد الله محمّد، وقيل:طلحة، وقيل:الزبير ولقبه المعتزّ بالله، وإبراهيم ولقبه المؤيّد بالله، وعقد لكلّ واحد منهم لواءين، أحدهما

١ـ قسّم الرشيد الدولة الكبيرة بين ثلاثة من أولاده وهو حي في شبابه، وكأنّها مُلك شخصي يوزّع منها ما يشاء، ممّا قدح في نفوس أولاده روح التنافس والأنانية. فكما آثر الرشيد أولاده على الآخرين من البيت العبّاسي، كذلك كان سعي كلّ واحد من أولاده في أن يستأثر بالملك هو وأولاده دون الآخرين. ممّا أرسى روح الأنانية والاستئثار بالسلطة دون شيء آخر من القيم والأهداف التي ينبغي أن يفكر بها الحاكم. وهذا من أقوى العوامل في شبوب نار العداوة والبغضاء والفتن. كما أنّه يعدّ هذا التقسيم للسلطة من المحفّزات التي أذكت روح الانفصال والتمرّد لدى جهات عديدة. فقد ذكر المسعودي أنّ الرشيد بايع لابنه محمّد بن زبيدة بالعهد بعده ثمّ لعبد الله المأمون بعد محمّد وولّاه الري وخراسان وما اتّصل بذلك وأخذ عليهما العهود والمواثيق بالوفاء، وكتب عليهما بذلك كتابين علّقهما في الكعبة، ثمّ بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون وجعل أمر القاسم للمأمون إذا صار الأمر إليه، فإن رأى إقراره أقرّه، وإن رأى خلعه خلعه.. **التنبيه والإشراف:** ٣٤٥.

أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأعطى كلّ واحد منهم ما نذكره. فأمّا المنتصر فأقطعه أفريقية، والمغرب كلّه، والعواصم، وقنسرين، والثغور جميعها الشامية، والجزرية وديار مضر، وديار ربيعة، والموصل، وهيت وعانة، والأنبار، والخابور، وكور باجرمي، وكور دجلة، وطساسيج السواد جميعها، والحرمين، واليمن، وحضرموت، واليمامة، والبحرين، والسند، ومكران، وقنديل، وفرج بيت الذهب، وكور الأهواز، والمستغلّات بسامراء، وماه الكوفة، وماه البصرة، وماه سبذان، ومهرجانقذق، وشهرزور، والصامغان، وأصبهان، وقمّ، وقاشان، والجبل جميعه، وصدقات العرب بالبصرة. وأمّا المعتزّ فأقطعه خراسان وما يضاف إليها، وطبرستان والري، وأرمينية، وأذربيجان، وكور فارس، ثمّ أضاف إليه في سنة أربعين خزن الأموال في جميع الآفاق ودور الضرب، وأمر أن يضرب اسمه على الدراهم. وأمّا المؤيّد فأقطعه جند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين[1]، فمزّق الدولة وشطّرها، فبدت وكأنّها أوراق متناثرة يعبث بها صبيانه الذين تربّوا في أحضان الأتراك، وراهن القوّاد وأزلام السلطة الكبار على اللعب بهذه الأوراق وتمزيقها متى أرادوا، فلم تعد هذه الدولة الكبيرة والعظيمة قادرة على إدارة أقاليمها ولمّ شتاتها، بعد أن عصفت بها الأهواء والفتن، ففقدت تماسكها وهيبتها التي كانت عليها.

ومن المؤكّد أنّ المتوكّل قد بدأ بشكل عمليّ في هدم دولة بني العبّاس وتحطيمها، وذلك حين أمر بهدم قبر الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام في سنة ستّ وثلاثين ومائتين. يقول ابن الأثير عن حوادث هذه السنة: أمر المتوكّل بهدم قبر الحسين بن عليّ عليه السلام، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقى موضع

١ـ الكامل في التاريخ ٦: ١٠٥.

قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فنادى بالناس في تلك الناحية: مَن وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المِطبَق! فهرب الناس وتركوا زيارته، وخُرب وزُرع[1]. وكان المتوكّل شديد البغض لعليّ بن أبي طالب عليه السلام ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنّه يتولّى عليّاً وأهله بأخذ المال والدم. وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث، وكان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدّة، ويكشف رأسه وهو أصلع ويرقص بين يدي المتوكّل والمغنّون يغنّون: قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين، يحكي بذلك عليّاً عليه السلام، والمتوكّل يشرب ويضحك، ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر، فأومأ إلى عبادة يتهدّده، فسكت خوفاً منه، فقال المتوكّل: ما حالك؟ فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، إنّ الذي يحكيه هذا الكلب، ويضحك منه الناس، هو

١ـ روى الشيخ الطوسي بإسناده إلى القاسم بن أحمد بن معمّر الأسديّ الكوفيّ، وكان له علم بالسيرة وأيّام الناس قال: بلغ المتوكّل جعفر بن المعتصم أنّ أهل السواد يجتمعون بأرض نينوى لزيارة قبر الحسين عليه السلام فيصير إلى قبره منهم خلق كثير، فأنفذ قائداً من قوّاده، وضمّ إليه كتفاً من الجند كثيراً ليشعب قبر الحسين عليه السلام، ويمنع الناس من زيارته والاجتماع إلى قبره، فخرج القائد إلى الطفّ، وعمل بما أمر، وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين، فثار أهل السواد به واجتمعوا عليه، وقالوا: لو قُتلنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منّا عن زيارته، ورأوا من الدلائل ما حملهم على ما صنعوا، فكتب بالأمر إلى الحضرة، فورد كتاب المتوكّل إلى القائد بالكفّ عنهم والمسير إلى الكوفة، مُظهراً أنّ مسيره إليها في مصالح أهلها والانكفاء إلى المصر، فمضى الأمر على ذلك، حتّى كانت سنة سبع وأربعين، فبلغ المتوكّل أيضاً مسير الناس من أهل السواد والكوفة إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين عليه السلام، وأنّه قد كثر جمعهم كذلك، وصار لهم سوق كبير، فأنفذ قائداً في جمع كثير من الجند، وأمر منادياً ينادي ببراءة الذمّة ممّن زار قبر الحسين عليه السلام، ونبش القبر وحرث أرضه، وانقطع الناس عن الزيارة. **الأمالي**: ٣٢٨/ الرقم ٦٥٦.

ابن عمّك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك ! فكُلْ أنت لحمه إذا شئت، ولاتُطعم هذا الكلب وأمثاله منه، فقال المتوكّل للمغنّين:غنّوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمّه رأس الفتى في حرّ أمّه

فكان هذا من الأسباب التي استحلّ بها المنتصر قتل المتوكّل، وقيل: إنّ المتوكّل كان يبغض مَن تقدّمه من الحكّام: المأمون، والمعتصم، والواثق في محبّة عليّ وأهل بيته، وإنّما كان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعليّ، منهم: عليّ بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة بن لؤي، وعمرو بن فرج الرخّجي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة، من موالي بني أميّة، وعبد الله ابن محمّد بن داود الهاشميّ المعروف بابن أترجّة، وكانوا يخوّفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثمّ حسّنوا له الوقيعة في أسلافهم، الذين يعتقد الناس علوّ منزلتهم في الدين، ولم يبرحوا به حتّى ظهر منه ما كان، فغطّت هذه السيّئة جميع حسناته[1]. وكانت بيعة المتوكّل، التي كانت سنة اثنتينِ وثلاثين ومائتين، شؤماً على المسلمين، قد تلتها بعد عامين من حكومته ويلات ومصائب، يصفها جلال الدين السيوطي بالقول: ومن عجائب هذه السنة أنّه هبّت ريح بالعراق شديدة السموم، ولم يُعهَد مثلها، أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد، وقتلت المسافرين، ودامت خمسين يوماً، واتّصلت بهمذان وأحرقت الزرع والمواشي، واتّصلت بالموصل وسنجار، ومنعت الناس من المعاش في الأسواق، ومن المشي في الطرقات، وأهلكت خلقاً عظيماً. وفي السنة التي قبلها جاءت زلزلة مهولة بدمشق سقطت منها دور، وهلك تحتها خلق، وامتدّ ت إلى أنطاكية

١ـ الكامل في التاريخ ٦: ١٠٨.

فهدمتها، وإلى الجزيرة فأحرقتها، وإلى الموصل، فيقال: هلك خمسون ألفاً. وفي سنة ستّ وثلاثين أمر بهدم قبر الحسين ـ عليه السلام ـ وهدم ما حوله من الدور، وأن يعمل مزارع، ومنع الناس من زيارته، وخرّب وبقي صحراء. وكان المتوكّل معروفاً بالتعصّب، فتألّم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء، فِممّا قيل في ذلك:

بالله إن كانت أميّةُ قد أتَتْ ... قتلَ ابن بنت نبيّها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لَعَمري قبرُه مهدوما

أسِفُوا على أن لايكونوا شاركوا ... في قتله، فتتبّعوه رميما [1]

فالمتوكل في سلوكه هذا هدم تراث المسلمين وتاريخهم ودولتهم، ووصل به الأمر أن انقضّ على دولة آبائه فمزّقها شرّ تمزيق حين تطاول على رمز النبوّة والرسالة الإمام الحسين عليه السلام. ولكنّ المؤرّخ ابن العماد الحنبلي له رأي غريب يخالف به نظر المورّخين، حين يؤشّر هذا الضعف ويعزيه إلى أوّل حاكم عبّاسي، وهو أبو العبّاس السفّاح فيقول: وفي أيّامه تفرّقت الكلمة وخرج عن طاعته الناحية الغربيّة إلى بلاد السودان وإقليم الأندلس، وتغلّب على هذه الممالك خوارج[2]. وكأنّ الصورة العامّة لدى هذا المؤرّخ هو التداعي المبكّر للدولة، ولكنّ الصورة الأخرى للدولة العبّاسية في بدء أمرها، وحسب رؤية الباحثين والمؤرّخين، وعلى الظاهر من الروايات التاريخية، أنّها كانت مهيمنة ومشرفة على ولاياتها وولاتها، يقول أنور الرفاعي: في العصر العبّاسي الأوّل كان نظام الحكم مركزيّاً، وبذلك تقلّص نفوذ العمّال. وكان

---

١ ـ تاريخ الخلفاء: ٣٤٦.

٢ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١: ١٩٥.

يوجد إلى جانب الوالي موظّفون كلّ حسب اختصاصه، فهناك صاحب المال وصاحب البريد والقاضي، واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند.. وكان الخليفة يختار عمّال الأقاليم بنفسه. ولم يكن المنصور يحتفظ بخدمات أيّ أمير في ولاية واحدة لمدّة طويلة، فكان دائب الإشراف على عمّاله يعزلهم إذا لاحظ منهم ضعفاً أو تهاوناً.. ثمّ دبّ الضعف في الدولة في العصر العبّاسي الثاني، واستبدّ الولاة وابتكروا الأساليب لجمع المال والإسراف في إنفاقه، وكان الوالي يقيم في ولايته كأنّه ملك مستقلّ إلّا فيما يتعلّق بإرسال فضلات الخراج إلى الخليفة والخطبة له وضرب النقود باسمه[١].

وربّما كانت أوّل خيوط الوهن التي حيكت على الدولة العبّاسيّة هي خيوط عبّاسية خالصة، ففي سنة ستّ وثلاثين ومائة خلع عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس ودعا إلى نفسه. وكان أبو العبّاس كتب إلى عبد الله بن عليّ بغزو بلاد الروم والسياحة فيها، فأتى عبد الله دابقاً فعسكر بها، وتوافت إليه الجنود وأتته وفاة أبي العبّاس[٢]. وبذلك انفرط عقد القيادة العبّاسيّة، وبدأت الضربات الارتداديّة، وشوهدت الانشقاقات الداخليّة تلوح من داخل البيت العبّاسي، الذي يبدو كأنّه كان متماسكاً في بدء دولته. وربّما كانت الدولة العبّاسية تواجه خطراً قويّاً، لم يكن محسوباً، من بين أنصارها أيضاً، وممّن صنعتهم وأعدّتهم لتأسيس مجدها، ففي سنة إحدى وأربعين ومائة ظهرت الراوندية، وهم قوم خراسانيون على رأي أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة، كانوا يقولون بتناسخ الأرواح، وأنّ ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم المنصور، وأنّ الهيثم بن معاوية جبريل، فأتوا قصر المنصور وطافوا به،

١ـ الإسلام في حضارته ونظمه: ١٢٥.

٢ـ تاريخ خليفة بن خيّاط: ٣٣٣.

فقبض على مائتين من كبارهم، فغضب الباقون وحفّوا بنعش وحملوا هيئة جنازة، ثمّ مرّوا بالسجن فشدّوا على الناس وفتحوا السجن وأخرجوا أصحابهم، وقصدوا المنصور في ستّ‌مائة مقاتل، فأغلق البلد وحاربهم العسكر مع معن بن زائدة ثمّ وضعوا فيهم السيف[١]، حتّى انكسرت شوكتهم. وما زالت الدولة العبّاسيّة في بدء ظهورها وأوّل أمرها تحمل معها أحلام البقاء، وأمل السلطة الدينية التي كانوا ينادون بها، بعد نشوة النصر على أعدائهم الأمويين، حتّى ظهر شرخ كبير أقلقها وأزعج رجالها من عدوّ لدود، ربّما لم يَدُر بخَلدهم أنّ عدوّاً يترصّد لهم من جانب الدولة الأمويّة المتداعية، والتي تصوّر العبّاسيون أنّ بقاياهم قد انتهت، وقد لاح منهم ضوء شاحب جديد، ربّما ينذر ببناء دولة مغربيّة منافسة لهم، وذلك في سنة ستّ وثلاثين ومائة حين قدم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أرض المغرب[٢]، وما آل وضعه هناك، وقد تجلّى الخطر الأمويّ بشكّل عمليّ حين هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، فبايعه أهلها في سنة تسع وثلاثين ومائة، فأقام والياً ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر. ثمّ ولي ابنه هشام سبع سنين وتسعة أشهر. ثمّ ولي الحَكم بن هشام سبعاً وعشرين سنة وشهراً وخمسة وعشرين يوماً.. وتوالى الأمويون حكم الأندلس إلى حكم المؤيّد بالله فأقام تسعاً وثلاثين سنة إلى أن قتله ابن عمّه سليمان في سنة ثلاث وأربعمائة وانحلّ نظام بني أميّة، وغلب على كلّ ناحية من الأندلس أميرها[٣]، والعبّاسيون يراقبون ويلحظون من قلعة الشرق هذا المارد الذي ربّما يتمدّد ويزحف في يوم ما، لكنّ

١ـ العبر في خبر من غبر ١: ١٤٧.

٢ـ تاريخ خليفة بن خيّاط: ٣٣٦.

٣ـ تاريخ القضاعي: ٢٥٠.

لياليهم الصاخبة وغفلتهم أنسَتْهم الأندلس التي وقعت بأيدي بني أميّة، ولكنّ خطر الأمويين الأندلسيين ظلّ كهاجس يلاحق رجال وزعماء دولة المشرق العبّاسيّة لقرون، والظاهر للباحثين والمؤرّخين غياب الحسّ الإمبراطوري والتوسعي لقادة الأندلس، فلم يفكّر الأندلسيون، أو لم يحاولوا التفكير مرّة أخرى لاستعادة أمجاد الدولة المتهالكة، أو انتزاعها من مخالب العبّاسيين، فأمن العبّاسيون منهم، و من غزو المشرق واقتلاعهم، كما كان يفكّر منافسوهم الفاطميون.

وكان لامتناع محمّد وأخيه إبراهيم ـ ابنَي عبد الله بن الحسن بن الحسن ـ عن مبايعة الحكّام الأوائل لدولة بني العبّاس الفتيّة، وما جرى من الإعداد والتخطيط للانقضاض على هذه الدولة الجديدة وعلى قادتها، الأثر الكبير في إذكاء الثورات والحركات المناهضة لها، والتي أرْخَت وكسرت الهيبة والهيمنة العبّاسيّة على السلطة السياسية، هذه السلطة التي كانت ترفع إلى حين قريب شعار الرضا من آل محمّد ـ وهم في حقيقة الأمر آل علي عليه السلام، وليسوا آل العبّاس[1] ـ ويظهر من أخبار حركة إبراهيم ومحمّد أنّ عموم الأمّة كانت تؤيّدهما، باعتبار أنّهما كانا من آل عليّ عليه السلام، ويمتدّون إليه بنسب قريب. يتحدّث المؤرّخ محمّد بن أحمد الذهبي عن أحداث سنة خمس و أربعين ومائة فيقول: ظهر محمّد بن عبد الله بن الحسن،

---

١ ـ وهذا ما يكاد أن يتفق عليه جلّ الباحثين والمؤرّخين في التاريخ الإسلامي. يقول عمر فرّوخ: كان المقصود من الدعوة إلى آل محمّد أن يتولّى العلويون الخلافة. ولكنّ العبّاسيين، وهم أيضاً من نسل العبّاس عمّ الرسول، كما كان العلويون من نسل أبي طالب عمّ الرسول، استطاعوا أن يستبدّوا بالأمر، وأن يبايعوا واحداً منهم، هو أبو العبّاس عبد الله بن محمّد بن عليّ ابن عبد الله بن عبّاس المشهور بأبي العبّاس السفّاح. **تاريخ الأدب العربي، الأعصر العبّاسيّة** ٢: ٣٥.

فخرج في مائتين وخمسين نفساً بالمدينة وهو على حمار، وذلك في أوّل رجب، فوثب على متولّي المدينة رباح وسجنه وتتبّع أصحاب رباح، ثمّ خطب الناس، وبايعه بالخلافة أهل المدينة قاطبة طوعاً وكرهاً[1]. و في رواية إسماعيل أبي الفداء: استولى محمّد بن عبد الله بن الحسن على المدينة وتبعه أهلها فأرسل المنصور ابنَ أخيه عيسى بن موسى إليه فوصل إلى المدينة وخندق محمّد بن عبد الله على نفسه موضع خندق رسول الله ﷺ للأحزاب، وجرى بينهما قتال، آخره أنّ محمّد ابن عبد الله قُتل هو وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وانهزم من بقي من أصحابه.. وفي هذه السنة أيضاً في رمضان ظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخو محمّد ذي النفس الزكيّة، وكان مستخفياً هارباً من بلد إلى بلد والمنصور مجتهد على الظفر به، فقدم البصرة ودعا الناس إلى بيعة أخيه محمّد بن عبد الله، وذلك قبل أن يبلغه قتلُه بالمدينة، فبايعه جماعة، منهم: مرّة العبشي، وعبد الواحد بن زياد، وعمرو بن سلمة الهجيمي، وعبد الله بن يحيى الرقاشي، وأجابه جماعة كثيرة من الفقهاء وأهل العلم، حتّى أحصى ديوانه أربعة آلاف، وكان أمير البصرة سفيان بن معاوية، فلمّا رأى اجتماع الناس على إبراهيم تحصّن في دار الإمارة بجماعة، فقصده إبراهيم وحصره، فطلب سفيان منه الأمان، فآمنه إبراهيم، ودخل إبراهيم القصر، فجاء يجلس على حصير فُرشت له هناك، فقلبتها الريح، فتطيّر الناس بذلك، فقال إبراهيم: إنّا لا نتطيّر، وجلس عليها مقلوبة. ووجد إبراهيم في بيت المال ألفي ألف درهم فاستعان بها، وفرض لأصحابه خمسين خمسين، ومضى إبراهيم بنفسه إلى دار زينب بنت سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس فنادى هناك

١ـ العبر١: ١٥٢.

لأهل البصرة بالأمان، وأن لايتعرّض إليهم أحد.

ولمّا استقرّت البصرة لإبراهيم أرسل جماعة فاستولوا على الأهواز، ثم أرسل هارون بن سعد العجليّ في سبعة عشر ألفاً إلى واسط فملكها العجلي. ولم يزل إبراهيم بالبصرة يفرّق العمّال والجيوش، حتّى أتاه خبر مقتل أخيه محمّد بن عبد الله قبل عيد الفطر بثلاثة أيّام، ثمّ إنّ إبراهيم أجمع على المسير إلى الكوفة، وسار من البصرة، وقد أحصى ديوانه مائة ألف حتّى نزل باخمرا ـ وهي من الكوفة على ستّة عشر فرسخاً ـ وكان المنصور قد استدعى عيسى بن موسى من الحجاز، فحضر وجعله في قبالة إبراهيم بن عبد الله، وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه غالب عسكر عيسى بن موسى، ثمّ تراجعوا، ثمّ وقعت الهزيمة على أصحاب إبراهيم، وثبت هو في نفر قليل من أصحابه يبلغون ستمائة، فجاء سهم في حلق إبراهيم فتنحّى عن موقفه فقال: أردنا أمراً وأراد الله غيره! واجتمع عليه أصحابه وأنزلوه، فحمل عليهم عسكر عيسى بن موسى وفرّقوهم عنه، واحتزّوا رأس إبراهيم وأتوا به إلى عيسى، فسجد شكراً لله تعالى، وبعث به إلى المنصور. وكان قتل إبراهيم لخمس بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة[1].

وقد يكون اندلاع ثورة محمّد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، والطريقة القمعيّة الفظّة والقاسية، والتي تعامل بها المنصور مع العلويين الذين يمتّون بصلة قرابة إلى محمّد وإبراهيم، بداية النهاية للدولة الإسلامية التي عرّفوها أو اعتبروها وفقاً لمعاييرهم، أو الإنذار الذي قد يؤشّر ابتعاد رجال الدولة العبّاسيّة من أوّل أيّامها عن الدين، وانكفائها على نفسها، معبّرة عن نفسها كسلطة من أجل الحكم والسلطنة

---

١ ـ المختصر في أخبار البشر ٢: ٣ ـ ٤.

والاستئثار بالملك. وربّما أدّى هذا الوضع القمعي الجديد إلى حصول هذا التصدّع والثلم الذي حدث في أقاليمها ونال من أطرافها، والمؤشّر بسنة مائة وأربع وأربعين للهجرة أو ما يقاربها، وذلك حين سار إدريس بن عبد الله بن الحسن ـ أخو إبراهيم ومحمّد ابني عبد الله ـ إلى الأندلس والبربر، وغلب عليها في زمان المنصور العبّاسي.. على قول بعض المؤرّخين[1]. وذكروا أيضاً خبراً عن تاريخ هذه الحقبة العبّاسيّة يفيد أنّ أبا جعفر ـ أي المنصور العبّاسي ـ لمّا قتل أبا مسلم واستولى على ملك العراقين والشام والحجاز وخراسان ومصر واليمن، ثار عليه عيسى بن زيد ابن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، فقاتله فيما بين الكوفة وبغداد، ولقيه في جموع كثيرة نحو من عشرين ومئة ألف، فأقام أيّاماً يقاتله في كلّ يوم، حتّى همّ أبو جعفر بالمدينة، وركب فرسه ليهرب.[2] ويتحدّث ابن عماد الحنبلي عن ظهور الفتن وحصول الاضطرابات السياسيّة آنذاك، والتي كانت تهدّد حكومة ودولة المنصور العبّاسي الفتيّة فيقول: في سنة خمسين ومائة خرجت خراسان على المنصور مع الأمير استاديس، حتّى اجتمع له ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس

---

١ ـ هكذا جاء في رواية **شذرات الذهب** ١: ٢١٥. و ذكر مؤرّخون آخرون أنّ الحاكم العبّاسي موسى الهادي لمّا علم بخبر خروج الحسين ـ صاحب فخّ ـ أمر بتولية محمّد بن سليمان بن علي على الحرب، وكان منصرفاً لتوّه من الحجّ. فسار محمّد بن سليمان حتّى لقي الحسين بن عليّ بفخّ فدارت بين الطرفين موقعة قُتل فيها الحسين الثائر وجماعة ممّن معه. وأفلت من الموقعة رجلان كان لهما دورهما التاريخي، هما: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي أخو محمّد ذي النفس الزكيّة، وهو مؤسس دولة الأدارسة في شمال أفريقيا، والثاني أخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الديلم، كما نقل الروضان في **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ٢٠٦.

٢ ـ **الإمامة والسياسة** ٢: ١٨٥.

وراجل، سائرهم من أهل هرات وسجستان، واستولى على أكثر خراسان..[١]. ومن هنا فالحديث عن قوّة الدولة العبّاسيّة واستقرارها في بدء ظهورها لم يكن واقعياً، أو لم يكن دقيقاً، فلم تكن الأقاليم البعيدة عن شرق البلاد الإسلاميّة مستقرّة وسهلة القياد للدولة، وكانت تبدو كأنّها دابّة منفلتة على صاحبها لايستطيع تطويعها بسهولة، وكما يظهر ممّا ذكرابن عماد الحنبلي في تاريخه بالقول: في سنة ثلاث وخمسين ومائة غلبت الخوارج الإبا ضية[٢] على أفريقيا وهزموا عسكرها، وقتلوا متولّيها عمر بن حفص الأزدي، وكان رأسهم ثلاثة: أبو حاتم الإباضي، وأبو عاد، وأبو قرّة الصفري[٣] وكان أبو قرّة في أربعين ألفاً من الصفريّة قد بايعوه بالخلافة، وكان أبو

١ـ **شذرات الذهب** ١: ٢٢٥.

٢ـ الإباضية: هي فرقة من فرق الخوارج نسبت إلى إمامهم عبد الله بن إباض التميمي، من تيم الحارث بن عمر بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري. وهم أقرب فرق الخوارج إلى الجماعة الإسلاميّة. ومذهبهم أكثر تسامحاً من كلّ فرق الخوارج. ولهذا كتب لهذه الفرقة البقاء دون سائر الفرق الخارجية، فيوجد فيهم حتّى الآن جماعات في المغرب العربي وعمان. وجمهور الإباضية يقولون: إنّ مخالفيهم من أهل القبلة كفّار، وليسوا بمشركين، حلال مناكحتهم، وحلال غنيمة أموالهم عند الحرب من السلاح والكراع، حرام ما وراء ذلك من سبيهم وقتلهم في السرّ إلّا من دعا إلى شرك في دار تقيّة وادّعى الإسلام ولا ذمّة له. وقالوا:إنّ الدار دار مخالفيهم دار توحيد إلّا عسكر السلطان فإنّه دار بغي. ينظر: **الحور العين**، للحميري: ١٧٣. **الخوارج**، لعامر النجّار: ١٦٥.

٣ـ يبدو أنّ أبا قرّة كان من زعماء الخوارج الذين أحسّوا بخسارة حركتهم، وعدم وجود جماهير وساحة مناسبة لهم في المشرق، فاندفع صوب المغرب العربي على أمل تحقيق أحلام الخوارج هناك. والصفرية: فرقة من الخوارج نُسبوا إلى إمامهم زياد بن الأصفر، ويقال:نسبوا إلى ←

حاتم وصاحبه في ثمانين ألف فارس، وأمم لايحصون من الرجالة[١].

وربّما كانت الأعداد التي نهضت هناك أكثر، أو تزايدت بعد سيطرتهم على زمام الأمور، يقول الطبريّ في تاريخه:وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً، ومعهم أبو قرّة الصفري في أربعين ألفاً، وكان يُسلَّم عليه قبل ذلك بالخلافة أربعين يوماً. وظلّت أفريقية خارج قبضة العبّاسيين حتّى دخول سنة خمس وخمسين ومائة فافتتحها يزيد بن حاتم، وقتل أبا عاد وأبا حاتم ومن كان معهما، واستقامت بلاد المغرب، ودخل يزيد بن حاتم القيروان[٢]. وهناك تطوّر خطير حصل في تاريخ الدولة العبّاسيّة، حين امتزجت الدعوة السياسية الانفصالية، بعد ثلاث عقود من قيام الدولة، بمبدأ فكري غريب على البيئة الإسلامية والعربيّة، وهو ادّعاء الربوبيّة، وذلك في سنة إحدى وستّين ومائة، وقيل: في ثلاث وستّين ومائة، حين ظهر عطاء المقنّع الساحر الذي ادّعى الربوبيّة في ناحية مرو، واستغوى خلائق لايحصون. وكان مبدأ أمره قصّاراً من أهل مرو، وكان يعرف شيئاً من السحر فادّعى الربوبيّة من طريق المناسخة[٣]. وكان لأشياعه والذين اتّبعوه مقالة تقول بأنّ الله تعالى

رجل يقال له:عبيدة. وقيل: نسبوا إلى عبد الله بن الصفّار. وهم يقولون: كلّ ذنب مغلّظ كفر وشرك. والصفرية يجيزون مناكحة المشركين والمشركات، وأكل ذبائحهم وقبول شهادتهم ومواريثهم، ويحتجّون بالفرية التي تقول بأنّ النبيّ ﷺ زوّج بناته من المشركين في دار التقيّة! والصفرية يذهبون إلى أنّ الشرك شركان، شرك يكون بطاعة الشيطان، وشرك يكون بعبادة الأوثان، وكذلك الكفر كفران، كفر يكون بإنكار النعمة، وكفر يكون بإنكار الربوبيّة. ينظر: **الحور العين**: ١٧٧، **الخوارج**، للنجّار: ١٦٣ـ١٦٤.

١ـ **شذرات الذهب** ١: ٢٣٤.

٢ ـ **تاريخ الأمم والملوك** ٦: ٢٩٦ و٢٩٧.

٣ـ يقع النسخ في الكلام على وجهين، أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، ويقال للأصل ←

تحوّل إلى صورة آدم، فلذلك قال للملائكة: اسجدوا، ثمّ تحوّل من صورة آدم إلى صورة نوح!! إلى أن حصل في صورة أبي مسلم الخراساني[1]! ومع غرابة هذه الأفكار وعدم استساغتها من قِبل عموم المسلمين، إلّا أنّها وجدت لها تربة تستنبت فيها، في الأماكن التي دخل أهلها الإسلام في زمن قريب، وكانت من العوامل المساعدة والمشجّعة على تهديد أمن وسلامة حياة المسلمين وتمزيق وحدتهم، فسجّلت هشاشة البناء العقائدي الذي كان عليه المسلمون آنذاك، فتمكّن هذا وغيره من

نسخة وللفرع نسخة. أي نقل صورته المجرّدة إلى كتاب آخر. وذلك لايقتضي إزالة الصورة الأولى، بل يقتضي إثبات مثلها في مادّة أخرى. والثاني:الإبطال والإزالة. وهو منقسم في اللغة على ضربين:أحدهما:إبطال الشيء وزواله، وإقامة آخر مقامه، ومنه نسَخَت الشمس الظلّ، إذا أذهبته وحلّت محلّه. وكلّ شيء خلّف شيئاً فقد انتسخه، يقال:انتسخت الشمس الظلّ، والشيب الشباب، وتناسخ الورثة، وهو أن تموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم لم يقسم، وكذلك تناسخ الأزمنة والقرون. والثاني إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه، كقولهم: نسخت الريح الأثر. ينظر: **لسان العرب** (نسخ)، **مفردات الراغب الأصفهاني**: ٤٩٠ (نسخ)، **تفسير القرطبي** ١: ٥٥٩. وأصحاب التناسخ قالوا بإثبات الصانع ونفي التشبيه، ودوام الدنيا على الأبد، لأنّ الصانع الحكيم لايوصف بالبداوات، ولايهدم بنيان الحكمة، ولايفعل ذلك إلّا عابث. وقالوا بدوام التعبّد، وهو معرفة الله تعالى، وترك المظالم، وبدوام الثواب والعقاب، فالثواب انتقال أرواح المحسنين إلى الأبدان الإنسية، والعقاب انتقال أرواح المسيئين إلى أبدان البهائم والسباع والهوامّ. ومن مقولاتهم: إنّ النبوّة مكتسبة بالطاعة. **الحور العين**: ١٤٦، ٢٦٤. وقد نبذ المسلمون وعلماؤهم مقولات هذه الفرقة. فُروي أنّه سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن التناسخ، فقال: فمن نَسَخ الأوّل! **رجال الكشّي**: ٢٦١ / الرقم ٥١٤. وسأل المأمون العبّاسي الإمام الرضا عليه السلام فقال له:يا أبا الحسن، ما تقول في القائلين بالتناسخ؟ فقال الرضا عليه السلام: من قال بالتناسخ فهو كافر بالله العظيم، مكذِّبٌ بالجنّة والنار. **عيون أخبار الرضا** عليه السلام ٢: ٢٠٢.

١ـ **شذرات الذهب** ١: ٢٤٨.

نشر أفكاره بين صفوف المسلمين أو غيرهم من أهل الأديان الأخرى، من الذين لا وعي لهم ولا إدراك، أو من الذين كانت معتقداتهم الدينيّة فاسدة بعض الشيء، أو أنّ هناك بقايا وثنيّة تحرّكت مع قيام هذا الساحر الدجّال.

وأراد عليّ بن العبّاس بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يزلزل بناء وكيان حكومة المهدي العبّاسي، فقدم بغداد ودعا إلى نفسه سرّاً، فاستجاب له جماعة من الزيديّة، وبلغ المهديَّ خبره فأخذه، فلم يزل في حبسه، حتّى قدم الحسين بن عليّ صاحب فخّ فكلّمه فيه، واستوهبه منه فوهبه له. فلمّا أراد إخراجه من حبسه دسّ إليه شربة سمّ فعملت فيه، فلم يزل ينتقض عليه في الأيّام، حتّى قدم المدينة فتفسّخ لحمه، وتباينت أعضاؤه، فمات بعد دخوله المدينة بثلاثة أيّام[1]. ولو قُدّر لحركة هذا العلوي أن تنجح في نهضتها، مع تأييد جماعات الزيدية لها ـ نظراً لقوّة الحركة الزيدية وتماسك أعضائها، إلّا أنّها لم تجد قائداً فاطمياً لها يأخذ بأيديها ويستثمر طاقاتها ـ لَألحق بحكومة المهدي ضرراً كبيراً، وربّما سبّب لها وهناً وشرخاً كبيراً كان من الصعب على الحكومة العبّاسيّة تداركه آنذاك.

وكانت ثورة الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن عليّ عليه السلام، في سنة تسع وستّين ومائة، من حكومة موسى الهادي العبّاسي، مؤشّراً على افتقار السلطة العبّاسيّة لهويتها الدينية، ولمركزيتها الدينية القويّة التي كانت ترفعها في شعاراتها من الرضا لآل محمّد[2].

---

١ ـ **مقاتل الطالبيّين**: ٤٠٣.

٢ ـ يقول الشيخ محمّد هادي الأميني: تعدّ ثورة الحسين بن عليّ صاحب فخّ إحدى تلك الثورات الدامية التي تحلّت فيها الشجاعة المنبعثة من صميم العقيدة، فضحّى بنفسه وأهله وماله في سبيل إعزاز دينه. **بطل فخّ الحسين بن عليّ بن الحسن أمير مكّة وفاتحها** ٥٣. وينظر تفصيل ←

وربّما كان بعض مظاهر الضعف والوهن والانحلال، والتي كان سببها هيجان الفتن واضطراب البلدان، قد طفحت على سطح الأحداث في حكومة الرشيد، على الرغم ممّا وُصف عصره بأنّه العصر الذهبي للدولة والأمّة، وربّما أحسّ ولمس الروم، الذين كانوا يخشون قوّة المسلمين وسطوتهم فيما مضى، ما أصاب الدولة من وهن وضَعة، وقد تكون رسالة نقفور ملك الروم أشارت إلى هذا الضعف والانحلال حين كتب إلى هارون الرشيد رسالته المشهورة فقال: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أمّا بعد، فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخ[1]، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحمَلَت إليك من أموالها، وذلك لضعف النساء وجُبنهنّ، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل قِبلَك، وافتدِ نفسك وإلّا فالسيف بيننا[2]. إلّا أنّ الإرادة الإلهيّة لم تشأ للمسلمين أن يروا هذا الذلّ والضعف والخسف في ذلك الزمان، فردّ كيد الروم، وأذاقهم طعم الهزيمة والخذلان، وكفى الله المسلمين شرّهم.

ولم تندثر العصبيات القبلية، أو تختفي من ساحات المسلمين، والتي وأدتها الرسالة المحمديّة الكاملة وأماتتها، بل انبعثت من جديد طيلة مدّة تسلّط الأمويين على رقاب المسلمين، وكان لها حضور جديد أيضاً بعد سقوط الدولة الأمويّة، ففي سنة ١٧٦ من حكم الرشيد أيضاً هاجت العصبيّة بالشام بين النِّزاريّة واليمانيّة، ورأس النزارية يومئذ أبو الهيذام، وكانت هذه الفتنة من الفتن الثقيلة

هذه الثورة العلوية في: **تاريخ الطبري** ٦: ٤١٠ ـ أحداث سنة ١٦٩هـ.

١ـ الرخ: من أدوات الشطرنج، والجمع رخاخ. قال الليث: الرخ معرّب من كلام العجم من أدوات لعبة لهم. **لسان العرب** (رخخ).

٢ـ **العبر** ١: ٢٢٨.

على أهل الشام، وقد تركت أثراً في وجدان الشعراء، فحرّكت قرائحهم، يقول أحدهم مشيراً في قصيدة مطلعها:

قد هاجت الشام هيجاً يُشيب رأسَ وليـــده

وقد أشار إليها الطبري بالقول: ذُكر أنّ هذه الفتنة هاجت بالشام، وعامل السلطان بها موسى بن عيسى، فقُتل بين النزارية واليمانية على العصبيّة بشر كثير، فولّى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام، وضمّ إليه القوّاد والأجناد ومشايخ الكتّاب وجماعة. . فأقام موسى بها حتّى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة[1]. ولكنّها بعد أن خبت هناك، كانت تظهر هنا وهناك، من حين لآخر، وفي أماكن أخرى، وكأنّ الملوك والأمراء كانوا يوقظوها حين يجدون فيها فائدة لهم لعلّها كانت تشغل الناس عن ملاهيهم وملاذّهم التي كانوا عليها عاكفين، أو أنّها كانت تضعف القوّة المعارضة للسلطة العبّاسيّة إن حاولت تهديد سلطتهم.

ولم تكن حقبة المأمون، والذي اتّسمت سياسته على العموم بالدهاء الممزوج بالمكر، هادئة وبدون عواصف سياسية وفتن، ففي سنة تسع وتسعين ومائة حصلت ثورة ابن طباطبا العلوي، وهو محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي ظهر بالكوفة، وقام بأمره أبو السرايا السريّ بن منصور الشيباني، فأسرع الناس إلى ابن طباطبا، وغلب على الكوفة، وكثر جيشه، فسار لحربه زهير بن المسيّب في عشرة آلاف فالتقوا فهُزم زهير واستبيح عسكره، وذلك في جمادى الآخرة[2]. وربّما كان لهذه الحركة، ولأوضاع

١ـ تاريخ الأمم والملوك ٦: ٤٥٧.

٢ـ العبر١: ٢٥٦.

الدولـة العبّاسـية المضـطربة والقلقـة آنـذاك السـبب الأكبـر فـي اسـتدعاء الإمـام الرضاعليه السلام من المدينـة، وتوطينـه في خراسان مُكرهـاً، ووضـعه تحـت رقابـة المأمون، وإجباره على قبول ولاية العهد الصورية، ووضعه في قبضة الإقامة الجبرية في جوار المأمون، ومن ثمّ تدبير قتله للتخلّص من عواقب هذا الأمر.

ولم يكن استقرار أقاليم الدولة العبّاسية الكبيرة مضموناً للحكّام الضعفاء الذين تعاقبوا على الحكم في بغداد وسامراء، ففي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كانت خراسان مصدر تهديد وخطر جدّي للدولة العبّاسية، بعد أن كانت المصدر والمعين الذي يمدّ الدولة بالأنصار والأعوان الطائعين، والموقع الذي تنهدّ وتنطلق منه رجالات وكتائب الدولة العبّاسية وجيوشها، فاستطاع الليث بن الصفّار أن يقتطع أجزاء من خراسان ليجعلها قاعدة الدولة الصفّارية، والتي حاولت أن تزحف على بغداد وتبتلعها. وربّما كان هدف الدولة الصفّارية محو الوجود العبّاسي من الخارطة الإسلامية. ورغم المصاعب التي كانت تواجه جيش الدولة الصفّارية الطامحة، وبعض الإخفاقات العسكرية في ساحات الحرب، إلّا أنّ حزم قائدهم، وعناده وإصراره على بلوغ الأهداف التي يؤمن بها، ويروم تحقيقها بأيّ ثمن، دفعته إلى التقدّم ومواصلة توسيع سلطته، وكأنّه بدا أكثر عزماً وإرادة بعد أن رأى ضعف المركز الذي تربّع عليه حكّام ضعفاء أحاط بهم حاشية من الخصيان والغلمان، لا همّ لهم إلّا إشباع شهواتهم، فأنساهم الشيطان ذكر الله، فأذاقهم الله الخوف والذعر على يد هذا القائد، وذلك حين أسكرهم غرورهم الشيطاني، وتمادى صبيانهم في لهوهم وغيّهم، فسلّط الله عليهم واحداً من عبدان خراسان، التي كانت تبتهل لهم من قبلُ بالطاعة والعبوديّة، وإذا بهم يفزعون من الدار التي كانت منشأ دولتهم. وقد استفحل أمر يعقوب بن الليث، في سنة تسع ومائتين، ودوّخ الممالك واستولى

على إقليم خراسان، وأسر محمّد بن طاهر أمير خراسان. وفي سنة ستّين ومائتين صال يعقوب وجال، وهزم الشجعان والأبطال، وترك الناس بأسوأ حال. ثمّ قصد الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان، فالتقوا فانهزم العلوي، وتبعه يعقوب في تلك الجبال، فنزلت على يعقوب كسرة سماوية، ونزل على أصحابه ثلج عظيم حتّى أهلكهم، ورجعوا إلى سجستان بأسوأ حال، وقد عدم من جيوشه أربعون ألفاً، وذهبت عامّة خيله وأثقاله. ولكن لم تكد هذه الانتكاسات أن تضعف أو تحدّ من سطوة يعقوب بن الليث، وربّما كان يلملم نفسه وجيشه لأهداف أكبر وأخطر، كفى الله البلاد والعباد أمره.

وعلى العموم، كانت أوضاع الدولة العبّاسية في حياة الإمامين العسكريين عليهما السلام سيّئة، وبغياب الإمام الحادي عشر الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام عن هذه الدولة المتداعية ـ والتي طغت واستبدّت، وتمادت في اللهاث وراء شهواتها وملاذها التي لا حدود ولا ضوابط لها ـ ربّما كادت أو كانت الفتن والمحن الضاربة أن تطبق على أطراف الدولة. وزاد الأمر سوءًا تفكك الأسرة العبّاسيّة، وصراع الحكّام الدامي وأولادهم على التشبّث بالحكم بشتّى الوسائل والأساليب اللاأخلاقيّة، فكادت أو أوشكت أيدي القدر أن تعصف بها، وتذهب بكيانها و تقضي عليها، لولا الأجل المضروب لها. ففي سنة إحدى وستّين ومائتين كانت الفتن تغلي وتستعر بخراسان بيعقوب بن الليث، وبالأهواز بقائد الزنج[1]، وتمّت لهما حروب وملاحم..

---

١ ـ قال الطبريّ في تاريخه في ضمن حديثه عن صاحب الزنج: للنصف من شوّال من هذه السنة ـ أي سنة ٢٥٥ للهجرة ـ ظهر في فرات البصرة رجل زعم أنّه عليّ بن محمّد بن أحمد بن عليّ ابن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وجمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ، ثمّ عبر دجلة فنزل الدينار يّ. وكان اسمه ونسبه فيما ذكر: عليّ بن ←

وفي سنة اثنين وستّين واثنتين، لمّا عجز المعتمد على الله عن يعقوب بن الليث كتب إليه بولاية خراسان و جرجان، فلم يرض يعقوب بن الليث بهذا حتّى يوافي باب الحكّام العبّاسي، وأضمر في نفسه الاستيلاء على العراق والحكم على المعتمد. فتحوّل المعتمد عن سامراء إلى بغداد، وجمع أطرافه وتهيّأ للملتقى،

محمّد بن عبد الرحيم، ونسبه في عبد القيس. وأمّه قرّة ابنة عليّ بن رحيب بن محمّد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة، من ساكني قرية من قرى الري يقال لها:ورزنين بها مولده ومنشؤه. **تاريخ الأمم والملوك** ٧: ٥٤٣. وقد شاع بين الناس أنّ هذا الثائر هو من دعاة الرضا من آل محمّد، كما كان معروفاً أو متداولاً في اصطلاح لغة ذلك الزمان، لمن قام بالسيف غضباً للعلويين وانتصاراً لهم، فنفى الإمام الحسن العسكري عليه السلام انتسابه إلى أهل البيت عليهم السلام في كتاب له عليه السلام إلى أحد أصحابه فقال:صاحب الزنج ليس منّا أهل البيت. **مناقب آل أبي طالب** ٤: ٤٢٨. وكان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري قد شهد أوج انتشار الدعوة الشيعية ورواجها. فيصل السامر، **ثورة الزنج**: ٧٠. فادّعى أنّه علويّ النسب لكسب القلوب، واستثمار المناخ السياسي المتعاطف مع الشيعة، وتوجيهه لتحقيق أهدافه وطموحاته، مع ما كان من جور واستبداد للقادة والأمراء العبّاسيين، الذين استأثروا بالأموال والضياع ووضعوا حولهم الخَوَل والعبيد ينهبون ما وقعت عليه أعينهم، ويتطاولون على أملاك وأعراض الخلائق، وشطّروا المجتمع الإسلامي إلى طبقات متناحرة متباعدة، فأججوا أوار الفتن والحروب، و لذلك حين قام صاحب الزنج نهض معه عدد كبير من المسحوقين والفقراء، وانضمّ إليهم السرّاق والشطّار وغيرهم من مختلف الشرائح، وكان عماد جيشه والقوّة الضاربة له هم العبيد، أو الزنوج كما وُصفت حركته، وقد تحدّث ويتحدّث المؤرّخون عنه بأنّه كان جمّاعاً لأهل الفتن والمساءة والحروب فحقق بهم انتصارات عسكريّة مهمّة أزعجت الدولة وأقلقتها. يقول الذهبيّ: التفّ إليه كلّ صاحب فتنة، حتّى استفحل أمره وهزم جيوش الخليفة، واستباح البصرة وغيرها، وفعل الأفاعيل، وامتدّت أيّامه إلى أن قُتل في سنة مائتين وسبعين. **العبر في أخبار من غبر** ١: ٣٦٤.

وجاء يعقوب في سبعين ألفاً، فنزل واسط، فتقدّم المعتمد وقصده يعقوب، فقدّم المعتمد الموفّق بجمهرة من الجيش فالتقيا في رجب واشتدّ القتال فوقعت الهزيمة على الموفّق، ثمّ ثبت وأسرعت الكسرة على أصحاب يعقوب، فولّوا الأدبار واستُبيح عسكرهم. . فعاد يعقوب بن الليث صفر اليدين من الآمال التي كان يحلم بها ويمنّي نفسه من حركته هذه[١]. ولكنّ دولته التي ليست بالدولة الصغيرة، المقتطعة من جسم الدولة العبّاسية، ظلّت قائمة وحاكمة في كرمان وسجستان، ولمّا مات يعقوب بن الليث قام بالأمر بعده أخوه عمرو بن الليث، فكتب بطاعته إلى الحاكم العبّاسي، فولّاه الموفّق خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان[٢]. فالشرق الإسلامي كان جلّه موزّعاً بين الدولة الصفّارية، والدولة السامانية التي تنسب إلى الأسرة السامانية[٣] ببلاد ما وراء النهر، وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية والعلوية[٤] التي أسسها أو عرف من أعلامها البارزين في هذه الدولة

١ـ ينظر: **شذرات الذهب** ٢: ١٣٩ ـ ١٤١.

٢ـ **الكامل في التاريخ** ٦: ٢٨٤.

٣ـ تنسب هذه الأسرة إلى بهرام جور صاحب كسرى هرمز، فهي أسرة عريقة في بلاد فارس، وكان في عهد المأمون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامان، فقرّبهم المأمون ورفع من أقدارهم، وكانت بلاد ما وراء النهر مقسّمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان. محمّد الخضري، **الدولة العبّاسية**: ٢٦٦.

٤ـ ذكر المسعودي أنّ الحسن بن عليّ الأطروش ظهر ببلاد طبرستان والديلم، وأخرج عنها المسوّدة ـ أي أنصار بني العبّاس ـ سنة إحدى وثلاثمائة، وكان ذا علم بالآراء والنِّحل، وقد كان أقام في الديلم سنين، وهم أكافر على دين المجوسيّة، ومنهم جاهليّة، وكذلك الجيل، فدعاهم إلى الله تعالى فاستجابوا وأسلموا، إلّا قليلاً منهم في مواضع من بلاد الجيل والديلم في جبال شاهقة وقلاع وأودية ومواضع خشنة. وقد كان بين الأطروش والحسن بن القاسم الحسني ←

الداعي إلى الحق[١]، وهؤلاء كانوا يَدعون لأنفسهم بالخلافة، ولايدينون لبني العبّاس بالطاعة.

أمّا ما حصل بالمغرب من اقتطاع لأجزاء مهمّة وحيوية، من ممالك وأقاليم الدولة العبّاسيّة، فهو لا يختلف هنا عن وضع الأقاليم الأخرى التي ظهرت في شرق الدولة، إلّا أنّ الشخص الذي ظهر هنا كان من صنائع دولتهم، وممّن أكل من فتات موائدهم، وولد في معاقل حصونهم، وتغذّى بالتسبيح في موالاتهم، وهو أحمد بن طولون. وكان أبوه طولون مملوكاً تركيّاً أهداه نوح بن أسد السامانيّ إلى المأمون سنة ٢٠٠ للهجرة، فكان من عداد الجنود الكفاة، وولد له أحمد ابنه بسامراء سنة ٢٢٠، فرُبّي في حلبة أولئك الجنود، وأفصح بالعربيّة، وحفظ القرآن الكريم، ولمّا بلغت سنّه العشرين توفّي أبوه طولون، فكان بعده في ضمن جنود بايكباك. وكانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك، وهو الذي يختار أميرها، ففي سنة ٢٥٤ اختار لها أحمد ابن طولون لِما رأى من كفايته وشجاعته، فعقد له عليها، ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان. ولمّا توفّي المعتزّ سنة ٢٥٥ وتولّى المهتدي عظمت منزلة أحمد، وكان يُدعى له على منابر مصر، فاستقلّ أحمد بمصر ودُعي له بها[٢]. ولم يكن وضع ابن طولون في مصر مريحاً لحكّام الدولة العبّاسيّة، الذي استبد بالوضع هناك وأقلقهم،

الداعي حروب على بلاد طبرستان، فكانت بينهم سجالاً. **مروج الذهب** ٥: ٢٦٠ـ٢٦١.

١ـ الداعي إلى الحق هو الحسن بن زيد بن محمّد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عليه السلام صاحب طبرستان، ظهر بها سنة خمسين ومائتين، ومات بطبرستان مملّكاً عليها سنة سبعين ومائتين، وقام مكانه الداعي إلى الحقّ أخوه محمّد بن زيد. وله من الكتب الحجّة في الإمامة. **الفهرست**، لابن النديم ١: القسم الثاني ٦٨٢. ويشار إليه أيضاً في ص١٥٠.

٢ـ الشيخ محمّد الخضري، **الدولة العبّاسية**: ٢٦٧.

ولكن لم يكن لحكّام بني العبّاس القدرة على انتزاعه من هناك، فحين تنافرأبو أحمد الموفّق[1] مع ابن طولون وصار بينهما وحشة مستحكمة، طلب الموفّق مَن يتولّى الديار المصرية، فلم يجد أحداً؛ لأنّ ابن طولون كانت خدماته وهداياه متّصلة إلى القوّاد بالعراق وأرباب المناصب، فلهذا لم يجد من يتولّاها، فكتب إلى ابن طولون يهدّده بالعزل، فأجابه ابن طولون جواباً فيه بعض الغلظة[2] استخفافاً بالسلطة المركزيّة وبحكّامها الذين صنعوه وأجلسوه على عرش مصر.

ومن خلال هذا الاستعراض التاريخي، الذي يرسم ويؤشّر حالات تداعي الدولة العبّاسية وإشرافها على السقوط والاندثار، والذي كان ينتظره أعداؤها والمنافسون لها، فلم يمكّنهم الدهر من رؤية هذا المشهد المنتظر لها ولرجالها، لأنّ الهلاك والنهاية المحتومة لها ولقادتها وأمرائها لم يحن في الوقت الذي أراده الأعداء والناقمون لها، حيث إنّ الأجل المحتوم لهذه الدولة لم يكن يتجاوز يومه الموعود والمقدّر له، وهو دخول هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة، وتقويضه لآخر صرح عبّاسي فيها، وعندها انتهى هذا الحلم العبّاسي الكبير، الذي كان يراود الآباء، وأغمضوا

١ـ كان الموفّق مشغولاً بحرب صاحب الزنج، فكان ذلك فرصة عظيمة لأحمد بن طولون بأن يقوّي أمر ملكه، وكان يعلم ما بين المعتمد العبّاسي وبين أخيه الموفّق من الفتور، فأراد أن ينتفع من ذلك، وصادف أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو إليه ممّا هو فيه من استبداد الموفّق عليه، وأنّه ليس له من الخلافة إلّا الاسم، فأشار عليه ابن طولون أن يلحق به في مصر، فلمّا بارح المعتمد سامراء ووصل عمل الموصل، منعه العامل من المسير، فعاد ثانية إلى سامراء، وبسبب ذلك اتّسعت مسافة الخلاف بين الموفّق وابن طولون. عيسى الحسن، **الدولة العبّاسية تكامل البناء الحضاري**: ٢٧٣.

٢ـ **الكامل في التاريخ** ٦: ٢٦٩.

أعينهم، في إغفاءة من الزمن، على أمل أن لا تتجاهل قريش الحقّ المزعوم لهم، فتضعهم في مقامهم الذي تجالدوا عليه، وتختم الدنيا أيّامها ولياليها بمهديّهم المدّعى، وإذا بهولاكو وجيشه العرمرم يوقظهم من حلمهم، وينتزعهم من سباتهم العميق الذي استغرق خمسة قرون من عمر الزمن.

والملاحظ على هذه الحقب العبّاسية المتأخّرة، والتي غاب فيها آخر وصي، وزخرت وماجت بالاضطرابات والفتن، أنّها لم تسمح بظهور قائد ربّاني، أو رجل ناصح للأمّة قادر على أن يأخذ بيدها للعودة بها نحو الدين الحقيقي الذي تنعدم فيه الفوارق بين الناس، وتتساوى الأمم والشعوب فيه تحت عنوان ديني حقيقي، فأكثر القادة والثورات التي أشعلوها كانت ذات أهداف ضيّقة ومصالح محصورة، أو إنّها تائهة في مبادئها لاتعلم ولاتفهم إلى أيّ جهة تنتمي، كما في ثورة الزنج التي لم تكن واضحة الأهداف والمبادئ، وكذا الحال بالنسبة إلى الحركات الانفصالية التي انعزلت في جغرافية إقليمية لم تبرز لها رؤية عقائدية هادفة تتطلع إليها عيون المظلومين والمضطهدين، فماتت في ترابها الذي تحرّكت عليه، وخفت بريقها حتّى داخل البيئة التي انطلقت ونمت فيها، كما تقدّم في الفصول التي أشرنا لها. على الرغم ممّا كانت تعانيه عموم الأمّة، في شرق الدولة وغربها، من مرارات السلطة العبّاسيّة التي كانت تتجرّعها على مضض من سنينها السوداء، والتي أشار إليها الإمام عليّ عليه السلام بقوله: مُلك بني العبّاس عُسرٌ عسر، ليس فيه يُسر، تمتدّ فيه دولتهم، لو اجتمع عليهم ملوك الترك والديلم والسند والهند لم يزيلوهم، ولايزالون يتمرّغون ويتنعّمون في غضارة مِن مُلكهم، حتّى يشذّ عنهم مواليهم وأصحاب ألويتهم، ويسلّط الله عليهم عِلجاً يخرج من حيث بدأ ملكهم، لا يمرّ بمدينة إلّا فتحها، ولا

تُرفع له راية إلّا هدّها، ولا نعمة إلّا أزالها، الويل لمن ناوأه[١].

وقد يمكن لنا رسم صورة صادقة للقرن الثالث الهجري، أو القرن الذي تلاه أو سبقه، من عصور بني العبّاس، من خلال الدعاء الذي دعا به الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وأمر أهلَ قم بذلك لمَا شَكَوا من موسى بن بغا[٢]، باعتباره وثيقة سياسيّة واجتماعيّة تؤرّخ للأوضاع التي كانت تهيمن على العصر العبّاسي، والذي جاء فيه: «الحمد لله شكراً» لنعمائه، واستدعاءً لمزيده، واستخلاصاً له، وبه دون غيره، وعياذاً به من كفرانه، والإلحاد في عظمته وكبريائه، حمدَ مَن يعلم أنّ ما به من نعمائه فمِن عند ربّه، وما مسّه من عقوبته فبسوءِ جناية يده. وصلّى الله على محمّد عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وذريعة المؤمنين إلى رحمته، وآله الطاهرين ولاة أمره. أللهمّ إنّك ندبتَ إلى فضلك، وأمرتَ بدعائك، وضَمِنتَ الإجابة لعبادك، ولم تُخيِّب مَن فَزَع إليك برغبته، وقصد إليك بحاجته، ولم تَرجِع يدٌ طالبة صفراً من

١ـ **الغيبة**، للنعماني: ٢٤٩.

٢ـ كان بغا ـ وربّما كان المقصود بموسى بن بغا هنا هو بغا نفسه ـ ذا قدرة وقوّة في زمن المستعين العبّاسي، فلم يكن المستعين هو الحاكم الفعلي، بل كان يحمل لقب الخليفة حسب، وهو لقب شرفيّ لا أكثر، وكان الحاكم الحقيقيّ هما وصيف وبغا وغيرهما. **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ٣٢٦. وقد أشار ابن الأثير في حوادث سنة ٢٦٢ للهجرة إلى أنّ الموفّق العبّاسي سيّر موسى ابن بغا للقضاء على دولة ابن طولون في جيش كثيف فسار إلى الرقّة، وبلغ الخبر ابنَ طولون فحصّن الديار المصرية، وأقام ابن بغا عشرة أشهر بالرقة، لم يمكنه المسير لقلّة الأموال معه، وطالبه الأجناد بالعطاء، فلم يكن معه ما يعطيهم، فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره عبد الله بن سليمان فاستتر، واضطُرّ للعودة إلى العراق. **الكامل في التاريخ** ٦: ٢٦٩. وكأنّ دعاء الإمام العسكري عليه السلام قد فرّق جمعه، وفلّ حدّه، فلم يكن منصوراً، وعاد إلى جحره الذي خرج منه مخذولاً!

عطائك، ولاخائبةً من نَحْل[١] هباتك، وأيّ راحل رحل إليك فلم يجدك قريباً، أو وافد وفد عليك فاقتطَعَتْه عوائقُ الردّ دونك، بل أيّ محتفز[٢] من فضلك لم يُمهِه[٣] فيض جودك، وأيّ مستنبِط[٤] لمزيدك أكدى[٥] دون استماحة سِجال[٦] عطيّتك. اللهمّ وقد قصدتُ إليك برغبتي، وقرَعَتْ بابَ فضلك يد مسألتي، وناجاك بخشوع الاستكانة قلبي، ووجدتك خير شفيع لي إليك، وقد علمتَ ما يحدث من طلبتي قبل أن يخطر بفكري، أو يقع في خَلَدي، فصِلِ اللهمّ دعائي إيّاك بإجابتي، واشفع مسألتي بنُجح طلِبتي. اللهمّ وقد شَمَلنَا زيغ الفتن، واستولت علينا غشوة الحيرة، وقارعَنا الذلّ والصَّغار، وحَكَم علينا غير المأمونين في دينك، وابتزّ أمورَنا معادنُ الأبَن[٧] ممّن عطّل حكمك، وسعى في إتلاف عبادك، وإفساد بلادك. اللهمّ وقد عاد

١ـ يقال: نَحَله: أعطاه، والاسم النِحلة، بالكسر ويُضَمّ: العطيّة. **القاموس المحيط** ٣: ٦٢٢.

٢ـ الحفز: الإعجال، حفزني عن كذا وكذا يحفزني حفزاً، أي أعجلني وأزعجني. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٤٢٢ (حفز).

٣ـ المَهْو، من قولهم: سيف مهو، إذا كان كثير الماء، ولبن مهو: كثير المزاج، يقال: مهيت الشيء أمهاه مَهْياً وأمهوه مهياً، مثل أمهيه سواء. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٣٧٦ (مها).

٤ـ يقال: نبطت البئر وأنبطتُها، إذا استخرجت ماءها. وكلّ شيءٍ أظهرته بعد خفائه فقد أنبطته واستنبطته. واستنبطت من فلان علماً أو خبراً أو مالاً، إذا استخرجته منه. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٣٩١ (نبط).

٥ـ الكدي، مصدر من قولهم: كدي الرجل وأكدى، إذا بخل. وكدي المعدن وأكدى، إذا لم يخرج منه شيء. وأعطى فلان فأكدى، إذا أعطى فأقلّ. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٢٠٩ (كدا).

٦ـ السَّجل، بفتح السين: الدلو، ولا يكون سَجَلاً حتى يكون فيه ماء، والجمع سجال وسجول. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ١٧١ (سجل).

٧ـ الأُبنة، بالضمّ: العقدة في العود، والعيب. **القاموس المحيط** ٤: ١٧٤ فصل الهمزة.

فيئنا دُولةً بعد القسمة، وإمارتنا غلبة بعد المشورة، وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمّة، فاشتُرِيت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة، وحَكَم في أبشار[١] المؤمنين أهلُ الذمّة، ووليَ القيامَ بأمورهم فاسق كلّ قبيلة، فلا ذائد يذودهم عن هلكة، ولا راعٍ ينظرإليهم بعين الرحمة، ولا ذو شفقة يُشبع الكَبِدَ الحرّى[٢] من مَسغبةٍ[٣]، فَهم أولوضرع[٤] بدارٍ مَضيعة، وأُسراء مسكنة، وخلفاء كآبة وذلّة. أللهمّ وقد استحصد زرعُ الباطل، وبلغ نهايتَه، واستحكم عمودُه، واستجمع طريده[٥]، وخَذْرف[٦] وليدُه،

١ـ البشَر: اسم يقع على الناس، أسودهم وأحمرهم، يقال:هذا بشرللرجل، وهما بشران للرجلين. ترتيب **جمهرة اللغة** ١: ذ٣٨ (بشر)، وحكى بعضهم جمعه على أبشار. **الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة العرب المعوّل** ٧: ٨٦ (بشر).

٢ـ كبد حرّى: يقال:حرّت كبده، والمصدر الحرر، وهويبس الكبد من العطش أو الحزن. **العين** ٣: ٢٣ باب الحاء مع الراء.

٣ـ سغب الرجل يسغب سغباً: إذا جاع، وقال بعض أهل اللغة: لايكون السغب إلّا الجوع من التعب، وربّما سُمّي العطش سغباً. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٢٠٣ (سغب).

٤ـ الضرع، بفتح الضاد والراء:يقال:ضرع الرجل يضرع ضرعاً وضراعة، إذا استكان وذلّ، فهو ضارع بيّن الضراعة. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٤١١ (ضرع).

٥ـ الطريد: العرجون. **القاموس المحيط** ١: ٤٣٠. وقال الأصمعيّ: الطريدة: أصل العذق. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٤٤٣ (طرد). والطرد: الشلّ والإبعاد. والطريد: المطرود من الناس، وناقة طريد، بغيرهاء، طردت فذهب بها كذلك. **لسان العرب** (طرد).

٦ـ الخذروف: شيءٌ يدوّره الصبي بخيط في يده فيسمع له دويّ، يلعب به الصبيان ويوصف به الفرس لسرعته، تقول: هويخذرف بقوائمه. وقال بعضهم:الخذرفة ما ترمي الإبل بأخفافها من الحصى إذا أسرَعَت، وكلّ شيء منتشرمن شيء فهوخذروف. وخذرف الإناء:ملأه، وتخذرف الثوب: تقطع. **لسان العرب** (خذرف).

وبَسَق[١] فرعه، وضُرِب بُجرانُه[٢]. أللهمّ فأَتِحْ له من الحقّ يداً حاصدة تصدع[٣] قائمَه، وتهشم سُوقَه، وتَجُبّ سَنامه[٤]، وتجدع مَراغمه[٥]، ليستخفي الباطلُ بقبح صورته، ويَظهر الحقّ بحسن حُلْيته. أللهمّ ولاتَدع للجور دعامةً إلّا قصمتها، ولا جُنّةً[٦] إلّا هتكتها، ولاكلمة مجتمعة إلّا فرّقتها، ولا سريّةَ ثقلٍ إلّا خفّفتها، ولا قائمة علوٍّ إلّا حططتها، ولا رافعة عَلَم إلّا نكّستها، ولا خضراء إلّا أبَرْتها[٧]. أللهمّ

١ـ بسق النبت يُسوقاً: إذا ارتفع وتمّ، وكلّ شيء تمّ طوله فقد بسق. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ١٣٧ (بسق).

٢ـ جران الدابة: باطن عنقه، والجمع جُرن. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٢٧٧ (جرن)، وفيه جاء الحديث أنّ ناقته ﷺ تلحلحت عند بيت أبي أيوب، وأرزمت، ووضعت جرانها. الجران: باطن العنق. ومنه حديث عائشة: حتّى ضرب الحقّ بجرانه. أي قرّ قراره واستقام. كما أنّ البعير إذا برك واستراح مدّ عنقه على الأرض. **النهاية في غريب الحديث والأثر** ١: ٢٥٥ (جرن).

٣ـ الصدع: مصدر صدعتُ الشيء أصدعه صدعاً، إذا شققته باثنين. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٣٤٦ (صدع).

٤ـ جبّ السنام يجبّه جبّاً، إذا قطعه. وكلّ شيء إذا قطعته فقد جببته. وناقةٌ جبّاء، وبعير أجبّ. وجبّ الخصيّ يجبّه جبّاً، إذا استأصل مذاكيره من أصلها. وكلّ شيء مقطوع فهو مجبوب. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٢٤٠ (جبب).

٥ـ المُرغَم، بفتح الغين وكسرها: الأنف، وهو المرسن والمخطم والمعطس. **لسان العرب** (رغم). والجدع: قطع الأنف، والأذن، والشفة، وهو بالأنف أخصّ فإذا أُطلق غلب عليه. **النهاية في غريب الحديث والأثر** ١: ٢٣٩ (جدع).

٦ـ الجُنّة، بضمّ الجيم: ما واراك من السلاح. وجنّ كلّ شيءٍ أوّله. والجنن جمع جنّة: وهو ما استترت به، وربّما سُمّيت الروح جناناً. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٣٢٤ (جنن).

٧ـ أبره، كقتله وضربه: اغتابه، وآذاه، وأهلكه. **الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة العرب المعوّل** ٧: ٨. ومنه حديث عليّ: والذي فلق الحبّة وبرأ النَسمة، لَتُخضبنّ هذه من هذه ـ وأشار إلى ←

فكوّرْ[١] شمسه، وحطّ نوره، وأطمس ذِكرَه، وارمِ بالحقّ رأسه، وفُضّ جيوشه، وأرعب قلوب أهله. أللهمّ ولا تَدَع منه بقيّة إلّا أفنيت، ولا بُنية[٢] إلّا سوّيت، ولا حلقة[٣] إلّا قصمت، ولا سلاحاً إلّا أكللت[٤]، ولا حدّاً إلّا فللت[٥]، ولا كُراعاً[٦] إلّا اجتحت، ولا حاملة عَلَم إلّا نكست. أللهمّ وأرنا أنصاره عباديد[٧] بعد الألفة، وشتّى بعد اجتماع

لحيته ورأسه. فقال الناس: لو عرفناه أبرنا عترته:أي أهلكناه. وهو من أبرت الكلب، إذا أطعمته الإبرة في الخبز. ومنه حديث أسماء: في ثقيف كذّاب ومبير. أي مهلك يسرف في إهلاك الناس. يقال:بار الرجل يبور بوراً فهو بائر، وأبار غيره فهو مبير. **النهاية في غريب الحديث والأثر**١: ١٨ و١٥٨ (أبر) و(بور).

١ـ التكوير:اللفّ واللي. قال ابن دريد: كوّرت الشيءَ، إذا لففته وجمعته. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٢٥٤ (كور)، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ التكوير: ١، أي ذهب ضوؤها ونورها فأظلمت واضمحلّت. **مجمع البيان**، للطبرسيّ ٥: ٤٤٣.

٢ـ البُنية، بالضمّ والكسر:ما بَنيتَه، والجمع البنى. والبنيّة، كغنيّة:الكعبة لشرفها. **القاموس المحيط** ٤: ٣٢٧.

٣ـ الحَلْقة، بسكون اللام: الدرع والحبل، ومن الإناء ما بقي خالياً بعد أن جُعل فيه شيء. **القاموس المحيط** ٣: ٣٠١. قال ابن الأثير: وفي حديث صلح خيبر: ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة. الحلقة بسكون اللام: السلاح عامّاً، وقيل: هي الدروع خاصّة. **النهاية** ١: ٤١٠ (حلق).

٤ـ كَلَّ البصرُ والسيف وغيرهما يكلّ كلّة وكلّاً، وكلالة وكلولة وكلولاً، وكلل، فهو كليل وكلّ: لم يقطع. **القاموس المحيط** ٣: ٦٠٩.

٥ـ سيف فليل ومفلول وأفلّ ومنفلّ: منثلم. **القاموس المحيط** ٣: ٥٩٢. وقال ابن دريد: وكلّ شيء رددتَ حدّه أو ثلمته فقد فللته. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٦٧ (فلل).

٦ـ الكراع: اسم يجمع الخيل، والكراع: السلاح، وقيل:هو اسم يجمع الخيل والسلاح. **لسان العرب** (كرع).

٧ـ العبابيد والعباديد، بلا واحد من لفظهما: الفِرَق من الناس، والخيل الذاهبون في كلّ وجه.

الكلمة، ومقنعي الرؤوس[١] بعد الظهور على الأمّة، وأسفِرْ لنا عن نهار العدل، وأرناه سرمداً[٢] لا ظُلمة فيه، ونوراً لا شَوب[٣] معه، وأهطل علينا ناشئته[٤]، وأنزل علينا بركته، وأدِلْ لنا ممّن ناواه، وانصره على من عاداه. اللهمّ وأظهر الحقّ، وأصبِحْ به في غسق[٥] الظُّلَم، وبُهَمِ[٦] الحيرة. اللهمّ وأحْي به القلوب الميّتة، واجمعْ به الأهواء المتفرّقة،

القاموس المحيط ١: ٤٣١، قال أبو بكر: وكان الأصمعيّ يقول: لم تتكلّم العرب أو لم تعرف العرب واحداً لقولهم: تفرّق القوم عباديد وعبابيد، ولاتعرف واحدَ الشماطيط، وهي القِطع من الخيل. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٤٨٦ (عبد).

١ـ المُقنَع: الذي يرفع رأسه ينظر في ذلّ. والإقناع: رفع الرأس والنظر في ذلّ وخشوع. **لسان العرب** (قنع)، ومنه جاء قوله تعالى: ﴿**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾ إبراهيم: ٤٣. أي رافعي رؤوسهم إلى السماء حتّى لايرى الرجل مكان قدمه من شدّة رفع الرأس، وذلك مِن هول يوم القيامة. **مجمع البيان**، للطبرسي ٣: ٣٢١.

٢ـ السرمد: الدائم، والطويل من الليالي. **القاموس المحيط** ١: ٤١٧.

٣ـ الشوب: مصدر شبتُّ الشيء أشوبه شَوباً، إذا خلطته. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٣٢١ (شوب).

٤ـ النشء: السحاب المرتفع، أو أوّل ما ينشأ منه. **القاموس المحيط** ١: ٣٩.

٥ـ يقال: غَسَقَ الليلُ يغسَق غسقاً، إذا اشتدّت ظُلمته. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٦٥٢ (غسق)، والغسّاق: ما يقطر من جلود أهل النار. **مفردات الراغب الأصفهاني**: ٣٦٠ (غسق)، والغاسق: القمر أو الليل إذا غاب الشفق. **القاموس المحيط** ٣: ٣٦٨. ومنه جاء قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**﴾ الفلق: ٣. وهو هنا الليل، أي: ومن شرّ الليل إذا دخل بظلامه، وإنّما اختصّ الليل بالذكر، لأنّ الغالب أنّ الفسّاق يَقْدمون على الفساد بالليل، وكذلك الهوامّ والسباع تؤذي فيه أكثر. **مجمع البيان** ٥: ٥٦٨.

٦ـ البهم، من قولهم: استبهم عليهم الأمر، لم يدروا كيف يأتون له، وطريق مبهم، إذا كان خفيّاً لا يستبين. **لسان العرب** (بهم).

والآراء المختلفة، وأقم به الحدود المعطّلة، والأحكام المهملة، وأشبع به الخِماص[١] الساغبة، وأرِح به الأبدان اللاغبة[٢] المتعبة، كما ألهجتَنا بذِكره، واختطرت ببالنا دعاءك له، ووفّقتنا للدعاء إليه، وحياشةِ أهل الغفلة عنه، وأسكنت في قلوبنا محبّته، والطمع فيه، وحسن الظنّ بك لإقامة مراسمه. أللهمّ فأْتِ لنا منه على أحسن يقين، يا محقّق الظنون الحسنة، ويا مصدّق الآمال المُبطِنة. أللهمّ وأكذب به المتألّين[٣] عليك فيه، وأخلف به ظنون القانطين من رحمتك والآيسين منه. أللهمّ اجعلنا سبباً من أسبابه، وعَلَماً من أعلامه، ومَعقلاً[٤] من معاقله، ونضّرْ وجوهنا بتحليته، وأكرمنا بنصرته، واجعل فينا خيراً تظهرنا له به، ولا تُشمت بنا حاسدي النِّعم، والمتربّصين بنا حلول الندم، ونزولَ المُثَل[٥]، فقد ترى يا ربِّ براءةَ ساحتنا،

١ـ الخميص: الجائع، ورجل خميص، إذا كان ضامر البطن. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٥٦٤.

٢ـ اللغب: التعب والإعياء. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٢٨٧ (لغب).

٣ـ الائتلاء:الحلف، يقال: تألّى يتألّى تألّياً وأتلى يأتلي ائتلاء. **لسان العرب** (ألا)، وقال الفيروزآبادي: والألية والألية: اليمين، وآلى وائتلى وتألّى: أقسم. **القاموس المحيط** ٤: ٣٢٠. ومنه جاء قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ النور: ٢٢. ولايأتل:هو يفتعل من أليت، أي حلفت.

٤ـ معاقل الجبال: المواضع المنيعة فيها، والمعاقل: الحصون تشبيهاً بمعاقل الجبال. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٥٨١ (عقل).

٥ـ المُثلة، بضمّ الثاء وسكونها: هو التنكيل، ومثّلت بالرجل، إذا نكّلت به. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٣١٥ (مثل). ومنه جاء قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ الرعد: ٦. أي العقوبات التي يقع بها الاعتبار، وهو ما حلّ بهم من الخسف والغرق. وقيل:هي العقوبة الفاضحة التي تسير بها الأمثال. **مجمع البيان** ٣: ٢٧٨.

وخلوَّ ذرعنا[١]، من الإضمار لهم على إحنة[٢]، والتمنّي لهم وقوع جائحة[٣]، وما تنازل من تحصينهم بالعافية، وما أضبؤوا[٤] لنا من انتهاز الفرصة، وطلبِ الوثوب بنا عند الغفلة. أللهمّ وقد عرّفتَنا من أنفسنا، وبصّرتَنا من عيوبنا، خلالاً نخشى أن تَقعُد بنا عن اشتهار إجابتك، وأنت المتفضّل على غير المستحقّين، والمبتدئ بالإحسان غيرَ السائلين، فأْتِ لنا من أمرنا على حسب كرمك وجودك وفضلك وامتنانك، إنّك تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، إنّا إليك راغبون، ومن جميع ذنوبنا تائبون. أللهمّ والداعي إليك، والقائم بالقسط من عبادك، الفقيرإلى رحمتك، المحتاج إلى معونتك على طاعتك، إذ ابتدأتَه بنعمتك، وألبسته أثواب كرامتك، وألقيت عليه محبّة طاعتك، وثبّتَّ وطأتَه في القلوب من محبّتك، ووفّقته للقيام بما أغمض فيه أهلُ زمانه من أمرك، وجعلته مفزعاً لمظلوم عبادك، وناصراً لمن لا يجد ناصراً غيرك، ومجدّداً لما عُطّل من أحكام كتابك، ومشيّداً لما دُثر من أعلام دينك وسُنن نبيّك، عليه وآله سلامك وصلواتك، ورحمتك وبركاتك، فاجعله اللهمّ في حصانةٍ من بأس

١ـ الذرع، بسكون الراء: من قولهم: ضاق ذرعي عن كذا وكذا، إذا لم أُطقه. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٦٧٧ (ذرع). والذرع: الطاقة، وأصل الذرع إنّما هو بسط اليد، فكأنّك تريد: مددت يدي إليه فلم تنله. وأذرَعَ في الكلام وتذرّع:أكثر وأفرط. والإذراع: كثرة الكلام والإفراط فيه. وكذلك التذرّع. والذرع، بكسر الراء: الطويل اللسان بالشرّ. وهو السيّار الليل والنهار. والذرع، بالتحريك:الطمع. **لسان العرب** (ذرع).

٢ـ الإحنة، بالكسر:الحقد والغضب، وقد أَحِن، كسمع، والمؤاحنة:المعاداة. **القاموس المحيط** ٤: ١٧٥.

٣ـ يقال:جاحه الله يجوحه جوحاً، وجاح الشيءَ يجوحه جوحاً، إذا استأصله. ومنه اشتقاق الجائحة، وهي المصيبة العظمى. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٣٣٠ (جوح).

٤ـ ضبأ كجمع، :اختبأ واستتر ليختل، وأضبأ:كتم، وعلى الشيء سكت. **القاموس المحيط** ١: ٢٥.

المعتدين، وأشرِقْ به القلوب المختلفةَ مِن بغاة الدِّين، وبلّغ به أفضل مابلَغتَ به القائمين بقسطك من أتْباع النبيّين. اللهمّ، وأذْلِلْ به مَن لم تُسهم له في الرجوع إلى محبّتك، ومن نصب له العداوة، وارْمِ بحجرك الدامغ من أراد التأليب على دينك، بإذلاله وتشتيت أمره، واغضَبْ لمن لا تِرةَ[1] له ولا طائلة، وعادى الأقربين والأبعدين فيك مَنّاً منك عليه، لا منّاً منه عليك. أللهمّ فكما نصب نفسه غرَضاً فيك للأبعدين، وجاد ببذل مهجته لك في الذبّ عن حريم المؤمنين، وردّ شرّ بغاة المرتدّين المريبين، حتّى أُخفي ماكان جُهر به من المعاصي، وأبدى ماكان نَبذَه العلماء وراء ظهورهم، ممّا أخذتَ ميثاقهم على أن يبيّنوه للناس ولايكتموه، ودعا إلى إفرادك بالطاعة، وألّا يجعلَ لك شريكاً من خلقك، يعلوه أمره على أمرك، مع ما يتجرّعه فيك من مرارات الغيظ الجارحة بحواسّ القلوب، وما يعتوِره من الغموم، ويفزع عليه من أحداث الخطوب، ويشرق به من الغصص التي لاتبتلعها الحلوق، ولاتحنو عليها الضلوع من نظرة إلى أمرٍ من أمرك، ولاتناله يده بتغييره وردّه إلى محبّتك، فاشْدُدِ اللهمّ أزرهَ بنصرك، وأطِلْ باعه[2] فيما قَصُر عنه من إطراد

١ـ الوتر، بفتح الواو وكسرها، والترة، والوتيرة:الظُّلم في الذَّحْل، وقيل:هو الذحل ـ والذحل مثل الثأر سواء ـ عامّة، وقد وترتُه وتراً وترة، وكلّ من أدركته بمكروه فقد وترته. والموتور الذي قُتل له قتيل فلم يدرك بدمه. ، تقول منه:وتره يتره وتراً وترة. والهاء فيه عوض من الواو المحذوفة مثل وعدته عدة. وقيل:أراد بالترة هنا التبعة. **لسان العرب** (وتر). ومنه جاء قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ محمّد: ٣٥. أي لن ينقصكم شيئاً من ثوابها، بل يثيبكم عليها ويزيدكم من فضله. وقيل: معناه لن يظلمكم. **مجمع البيان** ٥: ١٠٧.

٢ـ الباع والبوع: هو قدر مدّ اليدين وما بينهما من البدن، وهو هنا مَثَل لقرب ألطاف الله من العبد إذا تقرّب إليه بالإخلاص والطاعة. وباع يبوع بوعاً: بسط باعه. **لسان العرب** (بوع).

الـراتعين[١] فـي حمـاك، وزده فـي قوّتـه بَسـطةً مـن تأييـدك، ولا تُوحِشْـنا مـن أُنسـه، ولاتخترمه[٢] دون أمله من الصلاح الفاشي في أهل ملّته، والعدل الظاهر في أمّته. أللهمّ وشرّف بما استقبل به من القيام بأمرك لدى موقف الحساب مُقامَه، وسُرّ نبيّك محمّداً صلوات الله عليه وآله برؤيته، ومَن تَبِعه على دعوته، وأجزل له على ما وَأَيتَه قائماً به من أمرك ثوابَه، وأبِنْ قرب دنوّه منك في حياته، وارحم استكانتنا من بعده، واستخذاءنا[٣] لمن كنّا نقمعه[٤] به إذ أفقدتنا وجهه، وبسطت أيدي من كنّا نبسط أيدِيَنا عليه لنردّه عن معصيته، وافتراقَنا بعد الألفة والاجتماع تحت ظلّ كنفه، وتلهّفنا عند الفوت على ما أقعدتَنا عنه من نصرته، وطلَبْنا من القيام بحقّ ما لاسبيل لنا إلى رجعته، واجعله اللهمّ في أمن ممّا نُشفق عليه منه، وُردَّ عنه من سهام المكائد ما يوجّهه أهل الشَّنَآن[٥] إليه وإلى شركائه في أمره، ومعاونيه على

١ـ يقال: رتعت الماشية ترتع رتوعا ورتعا، إذا جاءت وذهبت في المرعى. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٢٠ (رتع). ومنه جاء قوله تعالى: ﴿**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ**﴾ يوسف: ١٢. والرتع: الأكل والشرب رغداً في الريف، رتع يرتع رتعاً ورتوعاً ورتاعاً، والاسم الرتعة والرتعة، بفتح التاء وتسكينها، يقال: خرجنا نرتع ونلعب، أي ننعم ونلهو. **لسان العرب** (رتع).

٢ـ يقال: اخترم فلان عنّا، مبنياً للمفعول: مات، واخترمَتْه المنيّة: أخذته. **القاموس المحيط** ٤: ٤٨.

٣ـ خذا الشيء يخذو خذواً: استرخى، وخذي، بالكسر مثله. واستخذيت: خضعت، وقد يهمز فيقال: خذئ له وخذأ له يخذأ خذأ وخذءاً وخذوءاً: خضع وانقاد له، وترك الهمز فيه لغة. **لسان العرب** (خذأ) و (خذا).

٤ـ يقال: انقمع: دخل البيت مستخفياً، والمقموع: المقهور. **القاموس المحيط** ٣: ٩٨. ويقال: قمعت الرجل أقمعه قمعاً، إذا ضربت رأسه فانقمع، أي فذلّ. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ١٧٤ (قمع).

٥ـ الشنء والشنآن، بفتح النون وسكونها، والشناء: البغض. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٣١٤ (شنأ).

←

طاعة ربّه، الذين جعلتَهم سلاحَه وحصنه ومَفزعه وأُنسه الذين سَلَوا[١] عن الأهل والأولاد، وجَفَوُا[٢] الوطن، وعطّلوا الوثير[٣] من المِهاد، ورفضوا تجاراتِهم، وأضرّوا بمعايشهم، وفُقدوا في أنديتهم بغيرغَيبةٍ عن مِصرهم، وخاللوا البعيد ممّن عاضدهم على أمرهم، وقَلَوُا[٤] القريب ممّن صدّ عن وجهتهم، فائتلفوا بعد التدابر والتقاطع في دهرهم، وقطعوا الأسباب المتّصلة بعاجل حُطام الدنيا، فاجعَلْهمُ اللهمّ في أمنِ حِرزك، وظِلّ كنَفِك، ورُدَّ عنهم بأس مَن قصد إليهم بالعداوة من عبادك، وأجزِلْ لهم على دعوتهم من كفايتك ومعونتك، وأمِدَّهم بتأييدك ونصرك، وأزهِقْ بحقّهم باطلَ مَن أراد إطفاء نورك. اللهمّ، واملأْ بهم كلّ أُفُقٍ من الآفاق، وقُطْرٍ من الأقطار، قسطاً وعدلاً، ومرحمةً وفضلاً، واشكرهم على حسب كرمك وجودك، وما مننتَ به على القائمين بالقسط[٥] من عبادك، وادّخرتَ لهم من ثوابك، ما ترفع

ومنه جاء قوله تعالى: ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ المائدة: ٢.

١ـ يقال: سلاه عنه سلواً وسلوَاً وسلاناً وسليّاً: نسيه، وأسلاه عنه فتسلّى، والاسم السلوة. **القاموس المحيط** ٤: ٣٨١.

٢ـ يقال: جفا جفاء وتجافى: لم يلزم مكانه. وأجفيته: أزلته من مكانه. **القاموس المحيط** ٤: ٣٣٨.

٣ـ الوثير: الفراش الوطيء، وكذلك الوثر، بكسر الواو، وكلّ شيء جلست عليه أو نمت عليه فوجدته وطيئاً، فهو وثير. لسان العرب (وثر). قال ابن دريد: الوثر أصل بناء الوثير، وهو الكثيف من كلّ شيء، فراش وثير، والمصدر الوثارة. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٥٦٢ (وثر).

٤ـ القِلى، بكسر القاف: البغض، قليته أقليه قلى شديداً. **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ١٦٩ (قلا). ومنه جاء قوله تعالى: ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** ﴾ الضحى: ٣. ومن جعله من الواو فهو من القلوّ أي الرمي، من قولهم: قلت الناقة براكبها قلواً، فكأنّ المقلوّ هو الذي يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله. **المفردات**، للراغب الأصفهاني: ٤١٢ (قلى).

٥ـ القسط: العدل، رجل مقسط: أي عادل. والقسط: الجور، رجل قاسط: أي جائر. وكذا فتسرفي ←

لهم به من الدرجات، إنّك تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد[١].

فهذه القطعة الأدبية الرائعة، والوثيقة التاريخيّة المتقنة، التي نسجها الإمام العسكري بسبيكة من الدعاء والمناجاة الصادقة مع الله تعالى والتي رحلت عبر قرون من الأزمان لتصل إلى أيدينا، تمثّل قمّة الإبداع الذي يصل إليه الإنسان بهذه الألفاظ الرشيقة الفصيحة القوية الرصينة، والتي تعبّر وترسم صورة العصر الذي شهده الإمام الحسن العسكري عليه السلام بكلّ أمانة وصدق، وبدون أيّ مبالغة أو تهوين لحقائق العصر في تلك الحقبة الزمنيّة، ومعاناة الأمّة، في محنة من محنها التي عايشتها مع عصور بني العبّاس آنذاك، وهي وثيقة دامغة لايمكن للباحث في التاريخ السياسي العبّاسي أن يتجاوزها، أو يقلّل من أهميّتها وضرورتها في البحوث والدراسات التاريخيّة.

التنزيل قوله جلّ وعزّ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المائدة: ٤٢. يعني العادلين. وقال جلّ اسمه في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ الجنّ: ١٥. يعني الجائرين. ترتيب جمهرة اللغة ٣: ١٣٢ (قسط).

١ـ مهج الدعوات: ٦٣.

الشطّار والغوغاء في العصور العبّاسية

تنامت قوى اجتماعية لم تكن ذات طابع سياسي في أوّل ظهورها، ثمّ اصطبغت بصبغة أخرى ربّما كانت ذات طابع سياسي فيما بعد، وامتدّ حضورها مع عصور الدولة العبّاسيّة، فنخرت كيان الدولة العبّاسية وولجت في مؤسساتها، ومزّقت مجتمع المسلمين، أطلق عليها مصطلح الشطّار والعيّارين في وثائق التاريخ، وربّما كانت لها مسمّيات كثيرة أطلق عليها الناس، أو أطلقت جماعات العيّارين لها بعض التسميات، أو أنّ السلطات العبّاسيّة كانت تصفهم بأوصاف متعددة وفقاً لنشاطهم وتحرّكهم في ضمن حقبتهم وبيئتهم التي أوجدتهم، وقد وُصفت بمصطلح طبقة قاع المدينة، ويقصد بها الباحث شاكر مصطفى ماكان يسمّى في ذلك العهد بالعيّارين أو الشطّار أو الغوغاء أو الدهماء والسفلة. وإنّما تعددت أسماؤها احتقاراً لها من جهة، ولأنّها كانت تبرز على وجه الأحداث بين الفترة والفترة من جهة أخرى وتفرض وجودها. كانوا يعيشون على هامش المدينة في بغداد والبصرة والموصل، وفي مدن الشام ومصر، في منازل كالأعشاش، لكنّهم يبرزون في الأزمات وأيّام الفوضى والنكبات، وقد ظهروا لأوّل مرّة يوم الدفاع عن بغداد ضدّ جيوش المأمون، ولعلّهم من لوازم المدن الكبرى، والنتيجة الحتمية لاستئجار العمران والثروة في المدينة، والثروة تجذبهم، كما أنّهم يكونون وقودها والجامعين لها

من الفئات، وعلى حسابهم وحساب طبقة العامّة يصنع الأثرياء ثرواتهم المتراكمة.

وكان لهذه الطبقة ثوراتها التي لاتنقطع، كالدفاع الثاني عن بغداد سنة ٢٥٠ بين المستعين والمعتزّ، وثورتهم سنة ٣٠٧، ومهاجمتها دار الوزير حامد بن عبّاس، ونهبها دار الخلافة سنة ٣٢٧[1]. ويؤشّر ظهور هذه الطبقة على سطح الأحداث ضعف الدولة وغيابها عن تدبير وإدارة حياة الناس، كما يظهر من تنامي حجم هذه الطبقة، وقيامها بتنظيم تشكيلات قتالية خاصّة بها إلى جانب تشكيلات الجيش والشرطة التي تقوم بتأسيسها الدولة، وكأنّها صارت بديلاً وموازياً لها، أو منافساً لها في عصور الفوضى السياسيّة وغياب الدولة واضمحلالها. يشير الكاتب مصطفى

١ـ كانت وزارة حامد بن العبّاس للدولة العبّاسيّة غير موفّقة وضعيفة، ولم يكن قادراً على ضبط الأوضاع، فتكررت الاضطرابات والفوضى في الفترة التي كان وزيراً للدولة، وهاجت العامّة عليه حين ارتفعت الأسعار وأضرّت بمعيشتهم. يتحدّث عريب بن سعد القرطبيّ في صلة تاريخ الطبريّ الملحق في الجزء الثامن من تاريخ الأمم والملوك للمؤرّخ محمّد بن جرير الطبري، عن أحداث سنة ٣٠٩ قائلاً: فيها زاد شغب الناس ببغداد على حامد بن العبّاس الوزير بسبب غلاء الأسعار، حتّى صاروا إلى حدّ الخلعان، وحاربهم السلطان عند باب الطاق، وركب هارون بن غريب الخال ونازوك وياقوت وغيرهم، بعد أن فتحت العامّة السجون، ووثبوا على ابن درهم خليفة صاحب المعونة، وأرادوا قتله حتّى حماه بعضهم، فلمّا رأى ذلك حامد بن العبّاس دخل إلى المقتدر فقال له:لعبدك حوائج، إن رأيت قضاءها له، أكّدتَ بذلك إنعامك عليه، قال:أفعل، فما هي؟ قال:أوّلها فسخ ضماني، فقد جاء من العامّة ما ترى، وظنّوا أنّ هذا الغلاء من جهتي ! فأجابه المقتدر إلى ذلك، وسأله أن يأذن له في الشخوص إلى واسط لينفذ عمّاله بما فيها من الأطعمة إلى بغداد، فأجابه إلى ذلك، وسأله أن يعفيه من الوزارة، فلم يجبه إلى ذلك، فشخص حامد إلى واسط، ولم يبق غاية في حمل الأطعمة حتّى صلح أمر الأسعار في بغداد.. صلة **تاريخ الأمم والملوك** ٨: ٥٩.

سليم إلى ذلك بالقول: كانت لها تنظيماتها العسكرية، فلكلّ عشرة عريف، ولكلّ عشرة عرفاء نقيب، ولكلّ عشرة نقباء قائد، ولكلّ عشرة قوّاد أمير، وقد صارت لهم بزّة خاصّة من خوذ الخوص، ودروع محشوّة بالحصى والرمل، ولهم تنظيمهم المدنيّ، فَلا يدخَل في فئاتهم إلّا بمراسيم تطوّرت حتّى ظهرت منها الفتوّة [1]. ولقد خمدت حركة هؤلاء القوم بعد أن سحقها عضد الدولة البويهي سنة ٣٦٤، ولكنّها ما لبثت أن ظهرت بأشكال أخرى [2]. وكانت هناك حركة قويّة للغوغاء في مطلع القرن الرابع الهجري، تتصاعد مع نزول قوّة الدولة وتدنّيها في السيطرة على الأوضاع، كما أشار المؤرّخ الذهبي في أحداث سنة ثمان وثلاثمائة بالقول:فيها ظهر اختلال الدولة

١ـ يقال للبكرة من الإبل فتيّة، وبكر فتيّ، كما يقال للجارية فتاة وللغلام فتى. وقيل هو الشابّ من كلّ شيء، والجمع فتاء. والاسم من جميع ذلك الفتوّة. والفتى والفتاة: العبد والأمة. والفتى:السخيّ الكريم. يقال:هو فتى بيّن الفتوّة. قال القتيبي: ليس الفتى بمعنى الشابّ والحدث، وإنّما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال. ويدلّك على ذلك قول الشاعر:

إنّ الفتى حمّال كلّ ملمّة ليس الفتى بمنعَّمِ الشبّان.

لسان العرب (فتى).

ومن هذه المعاني جاء اصطلاح الفتوّة، أو ما برز في تاريخ المسلمين من جماعات تقوم بأعمال مخالفة للقانون العام، أو تناهض السلطة في ظروف خاصّة نتيجة استشراء الفوضى، أو تخرج على القانون الاجتماعي. وربّما تَجاوزَ اصطلاح الفتوّة في معناه إلى معنى آخر من السرقة والانفلات الأخلاقي، كما نبّه الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى ذلك في رواية الشيخ الصدوق عنه عليه السلام بقوله عليه السلام: أتظنّون أنّ الفتوّة بالفسق والفجور! إنّما المروءةُ والفتوّة طعام موضوع، ونائل مبذول، وبِرٌّ معروف، وأذىً مكفوف، فأمّا تلك فشطارة وفسق. **معاني الأخبار:** ١١٩.

٢ـ شاكر مصطفى، **المدن في الإسلام** ٢: ٢٠ ـ ٢١.

العبّاسيّة، وجيّشت الغوغاء ببغداد، فركبت الجند. وسبب ذلك كثرة الظلم من الوزير حامد بن العبّاس، فقصدت العامّة داره فحاربتهم غلمانه، وكان له مماليك كثيرة فدام القتال أيّاماً، وقُتل عدد كثير، ثمّ استفحل البلاء ووقع النهب في بغداد. وجرت فيها فتن وحروب بمصر، وملك العبيديون جيزة الفسطاط فجزعت الخلق وشرعوا في الهرب[1].

وكانت ضرباتها مؤثّرة تأثيراً نسبيّاً، وربّما كانت بليغة في فترات معيّنة من العصور العبّاسية، وربّما ساهمت بالتفاعل مع عوامل الانحلال والضعف التي تفاقمت وتضاعفت في إسقاط الدولة العبّاسية وانمحاقها وأفولها، أو التعجيل بفنائها وانفكاكها وعزلتها عن المجتمع الإسلامي الذي كانت تحكم باسمه وباسم الدين والإسلام الذي كانوا يرددون اسمه في خطب الجمع والأعياد، وربّما كانت السلطة العبّاسيّة تتفرّج على هذه الطبقة، أو كأنّها لم تكترث لها، فلم تدرك خطورتها، أو أنّ عدّة من أركانها وقادتها وأمرائها كانت تجد ديمومة مصالحها في الإبقاء على مثل هذه الفوضى السياسية والاجتماعية، لتحقيق بعض أهدافها في جني الثروة وابتزاز الناس، أو نحو ذلك من الغايات والمصالح التي تجد لها موطئاً في مناخات من الاضطرابات والفوضى الاجتماعية والسياسية. والظاهر أنّ هذه الطبقة لعبت دوراً ملحوظاً في تاريخ العبّاسيين في القرن الرابع وما بعده، وكأنّ دورها قد تعاظم بعد تفاقم الفساد والانحلال السياسي والاجتماعي الذي عمّ البلاد والعباد، والذي كان سببَه الأمراء والقوّاد الفاسدون والطبقات الثريّة من الذين لا وازع لهم، ولم تكن لهم روادع دينية تمنعهم من تحصيل الأموال الحرام. ولهذا ربّما كانت ثرواتهم تتضخّم

١ـ العبر ١: ٤٥٣.

وتنمو في ظلّ الأوضاع المضطربة والسيّئة في العصور العبّاسية الأخيرة . ومن المؤكّد أنّ غياب العدل الاجتماعي، وانصراف الناس عن القيم الدينية والإنسانيّة كان له الأثر الكبير في امتداد هذه الطبقة وزحفها إلى قصور بعض الأمراء والقادة، من الذين وجدوا في هذه الطبقة قوّة لهم لعلّها تقف معهم في شدائد وانقلابات السياسة، أو تكون لهم وسيلة ضغط، أو ورقة ابتزاز للتأثير على الملوك وأصحاب السلطة والقدرة في الدولة العباسيّة، الذين تقلّبوا على حكم المسلمين في العصور العبّاسية المختلفة. يتحدّث ابن العماد الحنبليّ عن بلائهم الذي عمّ البلاد، ودورهم في تعطيل الأحكام الشرعيّة، في النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري، فيقول:في سنة ستّ وعشرين وأربعمائة زاد بلاء الحرامية، وجاهروا بالفسق والفجور والفطر في رمضان حتّى تملّكوا بغداد[1].

---

١ ـ شذرات الذهب ٣: ٢٢٩.

سامراء في التاريخ والأثر

لم تكن سامراء مدينة عادية كسائر المدن التي يمرّ بها الباحث عند الإشارة لها، فيمرّ بها مروراً سريعاً، وربّما كان نصيبها من الذكر الإشارة العابرة أو وقفة بعجالة، وإنّما هي مدينة لها عراقة وأبعاد حضارية وتاريخية مهمّة، ولعلّ الزمن قد عطف وحدب عليها، في القرن الثالث الهجري من التاريخ الإسلامي المجيد، فجدّد ثوبها بعد أن كاد أن يبلى، لذا لايمكن للباحث المتخصص أو حتّى القارئ غير المتخصص أن يغادر ذكراها من غير وقوف طويل عندها، أو التأمّل الواعي في تاريخها الذي امتدّ إلى عصور من الزمان ليست بالقصيرة، فهي مدينة لها لمسات وبصمات حضارية وسياسية وتاريخية ملحوظة تركت أثرها على خارطة العالم القديم، كما أنّ لها قداسة كبيرة، شأنها شأن المدن الإسلاميّة الأخرى المقدّسة، والتي اكتسبت قداسة و طهارة برمز كبير، وعلم عظيم، من رموز وأعلام آخر ديانة سماوية شرّفت الأرض، وهي الديانة الإسلامية المحمّدية السامية.

وربّما تمايزت سامراء عن بقيّة الأمصار والمدن الإسلاميّة الأخرى، وفي العراق على وجه الخصوص، حتّى في طراز بنائها، ومساجدها، ودورها، وحاراتها، وشوارعها، ومعالمها المهمّة، فالكوفة عند تمصيرها أُسِّس مسجدها في وسطها حيث تفرّعت منه الطرق والشوارع، وأقيمت دار سعد بن أبي وقّاص في نهاية هذا

الطريق، وتبعد عن المسجد مِئَتي ذراع، وأُتّخذ فيها بيت المال، كما شُيّدت مساجد كلّ من الموصل وواسط وبغداد في مراكزها، ولكن شذّت عن هذا التقليد سامراء، حيث يقع مسجدها في الجنوب، ملحق به مئذنة معزولة عنه، تقع بالقرب من الضلع الشمالي للمسجد، وهي من أغرب المآذن التي بُنيت في الطرق، عُرفت بمأذنة الملويّة، وهي على شكل مخروط صلب مدوّر يقوم على قاعدة مربّعة، والمظهر بكامله يكون على ارتفاع ١٢٠ قدماً مبنيّاً بالآجرّ، ويرتفع بواسطة ممرّ ملتوٍ من خمس دورات تترك اليد اليسرى إلى الحائط، وفي القمّة برج صغير في داخله بضع درجات من سلّم. وقيل: إنّ هذا مكان المؤذّن ينادي للصلاة منه في يوم الجمعة[1]. وقد نالت سامرّاء حظّاً كبيراً من البحث التاريخي والجغرافي والحضاري، وحتّى في البحوث والدراسات الحديثة، وربّما يفسّر ما حصل لها من اهتمام أهل البلدان والجغرافيا وغيرهم، بأنّه ناشئ من اعتبار ومكانة سياسية كانت لها في سالف الدهر، لكونها كانت، في عصر ذهبيّ لها، مركز الحكومة الإسلاميّة، وعاصمة الدنيا وقبلتها، وعززها وأكمل عزّها وسلطانها في القلوب والنفوس سبب ديني أضفى عليها قداسة عظيمة، ربّما كان أعظم ممّا تحدّثوا عنها. فهذا المكان، لدى الشيعة الإماميّة الاثني عشرية، لايختلف عن مكان كربلاء، أو الكاظمية، أو النجف، أو الكوفة، أو بقاع أخرى في ديار المسلمين التي تقدّست وشرفت بأعلام ثووا فيها. وعموم الشيعة يعتبرون سامراء روضة من رياض الجنّة، لأنّ الإمام العاشر عليّ بن محمّد الهادي، عليه وعلى آبائه آلاف التحية و السلام، وخليفته الإمام الحسن العسكري عليهما السلام كانا مستوطنين فيها، فأضفيا عليها هالة من القداسة والبهاء

١ـ ينظر: مصطفى عبّاس الموسوي، **العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربيّة الإسلاميّة**: ٢٢٤.

والجمال. وربّما سيكون في قادم الأيّام لسامرّاء شأن أعظم ممّا كان لها، وسيزداد رونقها وضياؤها، فتكون إشراقتها أكثر، لأنّها كانت محطّة بداية ووقفة سلطان كبير ادّخرته السماء ليوم موعود منتظر، ولأنّ تاريخ البشرية سيتغيّر على يد هذا المنقذ الذي شرّف سامرّاء بولادته الميمونة، وهو الإمام الغائب محمّد بن الحسن المهدي عليه السلام الذي ينتظر العالم إطلالته المباركة التي ستملأ الكون هدى ورحمة وعدلاً.

وسامراء كانت وما زالت مدينة توحي بالبشارة والسؤدد والسرور، فيفيض مملوء اسمها على المدينة من موحياته الزاخرة بالبهجة والانشراح والارتياح. وربّما زاد المدينة روعة وجمالاً نهر دجلة الدافق بالخير، هذا النهر الخالد المعطاء الذي يتبختر في الربيع بين ربوعها، ويداعب جدائلها الخضراء الزاحفة على رمال المدينة، فتمتلئ رياضها وقيعانها بفاكهة وثمار الجنّة المعطّرة، والمطيّبة بطين دجلة ومائها العذب الرقراق، وريحانها الذي يفترش على سهولها بخضرة يانعة طيّبة فوّاحة بشذاها، طيّبها عبيق أنفاس الإمامين العسكريين عليهما السلام، وشعاع جسديهما الطاهرين، ومن ثمّ زادها بهاء ورونقاً طيف الأمل المنتظر والقائد المظفّر الإمام محمّد المهدي عليه السلام، الذي طيّبها وزيّنها بطلعته الميمونة المباركة حين وُلد على ربوعها، وخالطت أنفاسه وتسبيحاته هواءها النقيّ بنقاء أبيه وجدّه عليهما السلام.

وسامراء التي تبعد عن بغداد مسافة ١٢٠ كم شمالاً، ما زال فيها قائماً مرقدا الإمامين عليّ الهادي والحسن العسكري عليهما السلام، فيقصدهما الزوّار من كلّ حدب وصوب. وقد عُمّرت مدينة سامراء منذ سنة ٢٢١ للهجرة، ولكنّها خُرّبت سنة ٢٧٩

للهجرة، حين تركها المعتضد[١] واستبدل بها بغداد، فتُركت وخربت، بعد أن كانت تضارع بغداد، بل لم يكن في الأرض كلّها أحسن منها، ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع مُلكاً منها. ولمّا تُركت مدينة سامرّاء جعلت تحمل أنقاضها إلى بغداد، وفي ذلك يقول ابن المعتزّ:

قد أقفرت سامرّا ... وما لشيء دوامُ
فالنقضُ يحمل منها ... كأنّها آجامُ
ماتت كما مات فيلٌ ... تُسلّ منه العظامُ[٢]

ولكن ظلّ الزوّار يتوافدون عليها حتّى عُمِّرت من جديد. ومن المؤكّد أنّ سامراء حين دبّت إليها مظاهر العمارة من جديد كان ذلك ببركة توافد الزوّار على قبر الإمامين العسكريين عليهما السلام، ولعلّه إلى هذا يشير كلام الإمام الحسن العسكري عليه السلام بقوله: قبري أمان لأهل الجانبين[٣]. فالمدينة الواقعة على ضفّتَي نهر دجلة المعطاء الذي يغمرها من فيض نعمه، ما زالت ومنذ زمن آمنةً من الفقر والحرب والعدوان، وتشهد الوقائع المرّة التي جرت على مدن وقرى العراق، أنّ سامراء كانت في منأى

١ـ هو أبو العبّاس أحمد بن طلحة المعتضد بالله، بُويع له في اليوم الذي مات فيه المعتمد على الله، وهو يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة تسع وسبعين ومائتين، وأمّه أمّ ولد رومية يقال لها ضرار. وكانت وفاته يوم الأحد لتسع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين. **مروج الذهب** ٥: ١٣٧.

٢ـ الشيخ محمّد الخضري، **الدولة العبّاسيّة**: ٢٧٩.

٣ـ **تهذيب الأحكام** ٦: ٩٣/ح ١٧٦. والأمان الذي أشار له الإمام العسكري عليه السلام كان من أكبر بواعث العمارة والبناء، فلولاه لأقفرت المدينة وصارت قاعاً صفصفاً تُصفر به رياح الدهر، وتعبث به أنامل الأقدار، ويهجرها سكّانها.

ومنجى من أكثر العواصف والأهوال والفتن التي مرّت على أهل العراق، حتّى سرى الأمر إلى تاريخها الحديث الذي سجّل اطمئنان أهل سامراء ونأيهم عن حدثان الدهر وويلات الحروب. وربّما نجد في هذا الحديث إشارة إلى دوام المدينة وعدم خلوّها من القاطنين والزائرين الذين يتواصلون مع المدينة.

وقد ظهر التشيّع جليّاً في سامراء بعد أن أقام الإمامان العسكريان فيها، وشاهد الناس ما لهما من علم وخصال حميدة ومزايا دلّت على أنّهما فرعان من شجرة النبوّة، وارثان لذلك العلم الإلهي، على الرغم من مناوأة العبّاسيين لهما واجتهادهم في منع الناس من الاجتماع بهما واجتماعهما بالناس، ولكنّ الشمس تشرق على القاصي والداني أجمع، وإن حالت السحب دون ذلك الشعاع[1]. ولم يكد يفكّر العبّاسيون في الانتقال من بغداد إلى سامراء، أو استبدال العاصمة بغداد بمكان آخر، بعد أن استطابت لهم واستقامت أمورهم هناك، إلّا أنّ المؤرّخين يذكرون بأنّ المعتصم بالغ في ضمّ عدد كبير من الغلمان الأتراك، ووضعهم في جيشه وحرسه الخاصّ، فاستاء البغداديون من ممارساتهم الفظّة الغليظة، مع تزايد في أعدادهم. يقول المسعودي: كان المعتصم يحبّ جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليه، فاجتمع له منهم أربعة آلاف، فألبسهم أنواع الديباج، والمناطق المذهّبة، والحلية المذهّبة، وأبانهم بالزي عن سائر جنوده، وقد كان اصطنع قوماً من حوف اليمن وحوف قيس فسمّاهم المغاربة..[2].

وهذا العدد الكثير من الجند كان يسبب المتاعب والمشاكل للبغداديين،

١ـ ينظر: محمّد حسين الحسيني الجلالي، **مزارات أهل البيت عليهم السلام وتاريخها**: ١٣٦.

٢ـ **مروج الذهب** ٤: ٣٥٠.

فاستجدّت في ذهن المعتصم فكرة الانتقال إلى مكان آخر بدلاً عن بغداد لتجنّب ثورة البغداديين، فوقعت في ذهنه سامراء. يقول ابن الأثير: كان سبب ذلك أنّه قال: إنّي أتخوّف هؤلاء الحربيّة أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلماني، فأريد أن أكون فوقهم، فإن رابني منهم شيءٌ أتيتهم في البرّ والماء حتّى آتي عليهم، فخرج إليها فأعجبه مكانها. وقيل: كان سبب ذلك أنّ المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك، فكانوا لايزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلاً، وذلك أنّهم كانوا جفاة يركبون الدوابّ فيُركضونها إلى الشوارع فيصدمون الرجل والمرأة والصبيّ، فيأخذهم الأبناء عن دوابّهم ويضربونهم، وربّما هلك أحدهم فتأذّى بهم الناس. ثمّ إنّ المعتصم ركب يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: يا أبا إسحاق ! فأراد الجند ضربه فمنعهم، فقال: يا شيخ ما لك ما لك ؟قال: لاجزاك الله عن الجوار خيراً! جاورتنا، وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فسكّنتهم بيننا فأيتمت صبياننا، وأرملت بهم نسواننا، وقتلت رجالنا ! والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم يرراكبا إلى مثل ذلك اليوم، فخرج فصلّى بالناس العيد ولم يدخل بغداد، بل سار إلى ناحية القاطول[1] ولكنّ بعض الباحثين أشار إلى أنّ المعتصم قبل أن يتّجه إلى القاطول خرج إلى الشماسية، فعزم أن يبني بالشماسية خارج مدينة بغداد، فضاقت عليه أرض ذلك الموضع وكره قربها من بغداد، فمضى إلى البردان، وأقام بالبردان أيّاماً،

---

١ ـ **الكامل في التاريخ** ٦: ٢٢. وجاء في رواية ياقوت الحموي أنّ المعتصم إذا ركب يموت جماعة من الصبيان والعميان والضعفاء، لازدحام الخيل وضغطها. فاجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا: إمّا أن تخرج من بغداد فإنّ الناس قد تأذّوا بعسكرك، أو نحاربك بسهام السَحَر. قال: وما سهام السحر؟ قالوا: ندعو عليك، فقال المعتصم: لا طاقة لي بذلك، وخرج من بغداد ونزل سامراء وسكنها. **معجم البلدان** ٣: ١٧٤.

ثمّ لم يرض الموضع، فصار إلى موضع يقال له: باحمشا، من الجانب الشرقي من دجلة. وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً، فلم يجده، فنفذ إلى القرية المعروفة بالمطيرة، فأقام بها مدّة، ثمّ مدّ إلى القاطول وابتدأ البناء[1] وهذا الموضع الذي يقال له: القاطول: وهو اسم نهر كان الرشيد حفره وسمّاه القاطول، وأتى الجند وبنى عنده قصراً[2].

وربّما كان اسم سامراء وإيحاءاته له دلالات في عمق تاريخ العراق الحضاري القديم، كما وأنّ المنطقة قد شهدت استيطاناً بشرياً متعاقباً، ربّما كان يتّصل بحضارات العراق القديمة، ولم ينسَ الباحثون الغور في تسمية المدينة بهذا الاسم الذي كان يتقدّم كثيراً عن تاريخ بغداد وغيرها من مدن العراق التي تأسست بعد فتوحات المسلمين لأرض العراق وتمصير عدد من المدن في أرض السواد. يقول البكري: سُرّ مَن رأى بضمّ أوّله وثانيه، قال محمّد بن بشّار: حدّثني أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابي أنّ السرّ عند العرب السرور بعينه، فمعنى الاسم سرور من رأى، قال: ويجوز لك في بنائه وإعرابه من الوجوه ما جاء في حضرموت، وبعلبك ونظرائهما، فإن جعلتَ سرّ فعلاً ماضياً ألزمت الفتح، وكذلك إن قلت: سَرّ من رأى بفتح السين، ويجوز إعراب سرّ على الوجهين. وقول العامّة: سامري، صواب[3]. وقال ياقوت الحموي: سامرّاء لغة في سرّ مَن رأى: مدينة كانت بين بغداد وتكريت، على شرقي دجلة وقد خربت، وفيها لغات: سامرّاء ممدود، وسامرّا مقصور، وسرّ من رأ

---

١ ـ طالب علي الشرقي، **قصور العراق العربيّة والإسلاميّة حتّى نهاية العصر العبّاسي ٦٥٦ للهجرة**: ٢٤٩.

٢ ـ معجم البلدان ٣: ١٧٤.

٣ ـ معجم ما استُعجم ٣: ٢٤.

مهموز الآخر، وسرّمن را مقصور الآخر، أمّا سامرّاء فشاهده قول البحتري:

وأرى المطايا لاقصورَ بها عن ليل سامرّاءَ تَذرعُهُ

وسرّمن را مقصور غير مهموز في قول الحسين بن الضحّاك:

وسُـــرّمن را أسرُّمن بغدادِ فَالْهُ عن بعض ذكرها المعتادِ

وسرّمن راء ممدود الآخر في قول البحتري:

لأرحـــلنّ وآمـالي مطرّحةٌ بسُرّمن راء مستبطي لها القدَرُ

وسـامرّا مقصـور، وسـرّمـن رأى ـ بفـتح السـين وضـمّها ـ وسـاء مـن رأى، عـن الجوهريّ [1] وسرّاء. وكتب المنتصر إلى المتوكّل وهو بالشام:

إلـــى الله أشكـــو عَبـــرةً تتـــحيّرُ ولو قد حدا الحادي لظلّت تَحدَّرُ

فياحَسْرتا إن كنتَ في سُرَ من رأى مقيماً، وبـالشام الخليفة جـعفرُ

وقال أبو سعد: سامرّاء بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً يقال لها: سُرّ من رأى، فخففها الناس وقالوا سامراء. . قيل: إنّها مدينة بُنيت لسام، فنُسبت إليه بالفارسيّة سام راه، وقيل: بل هو موضع عليه الخراج، فقالوا بالفارسيّة: ساء مرّة، أي هو موضع الحساب. وقال حمزة: كانت سامراء مدينة عتيقة من مدن الفرس، تُحمَل إليها الإتاوة التي كانت موظّفة لملك الفرس على ملك الروم، ودليل ذلك في اسم المدينة لأنّ سا اسم الإتاوة، ومرّة اسم العدد. والمعنى أنّه مكانُ قَبض عدد جزية الروم. وقال الشعبي: وكان سام بن نوح له جمال ورواء ومنظر، وكان يصيف بالقرية التي ابتناها نوح عليه السلام، عند خروجه من السفينة ببازبدى، وسمّاها ثمانين، ويشتو بأرض جوخى، وكان ممرّه من أرض جوخى إلى بازبدى، على شاطئ دجلة من

---

١ ـ **الصحاح** ٦: ٢٣٤٩ ـ فصل الراء (رأى).

الجانب الشرقيّ، ويسمّى ذلك المكان الآن سام راه، يعني طريق سام. وقال إبراهيم الجنيدي: سمعتهم يقولون: إنّ سامراء بناها سام بن نوح عليه السلام، ودعا أن لايصيب أهلَها سوء، فأراد السفّاح أن يبنيها فبنى مدينة الأنبار بحذائها، وأراد المنصور ـ بعدما أسس بغداد ـ بناءها، وسمع في الرواية ببركة هذه المدينة، فابتدأ في البناء في البردان، ثمّ بدا له وبنى بغداد، وأراد الرشيد أيضاً بناءها، فبنى بحذائها قصراً، وهو بإزاء أثر عظيم قديم كان للأكاسرة، ثمّ بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١. وذكر محمّد بن أحمد البشّاريّ نكتة حسنة فيها، قال:لمّا عُمِّرت سامراء، وكملت واتّسق خيرها، واحتفت سُمّيت سرور من رأى، ثمّ اختُصرت فقيل: سرّ من رأى، فلمّا خربت وتشوّهت خلقتها، واستوحشت، سُمّيت ساء من رأى، ثمّ اختُصرت فقيل سامرّاء. وكان الرشيد حفر نهراً عندها سمّاه القاطول، وأتى الجند وبنى عنده قصراً، ثمّ بنى المعتصم أيضاً هناك قصراً، ووهبه لمولاه أشناس، فلمّا ضاقت بغداد عن عساكره، وأراد استحداث مدينة، كان هذا الموضع على خاطره، فجاءه وبنى عنده سرّ من رأى[1].

ومن هذا يتّضح عناية حكّام بني العبّاس بهذا المكان، وربّما كانت هناك أخبار يتناقلوها عن ابن عبّاس من جملة ما وعى من أخبار سمعها من النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، أو من وصيّه الإمام عليّ عليه السلام أشارت إلى سامراء وبركاتها وما سيكون لها من مقام لثلاثةٍ من أولياء الله.. وقد تناول الباحثون المحدثون تاريخ سامراء بشيءٍ من التفصيل في موسوعة العتبات المقدّسة، شارك فيها المرحوم الدكتور مصطفى جواد في بحث بهذا الخصوص جاء فيه:

سامراء اسم آرامي، وهو في أصله مقصور كسائر الأسماء الآرامية بالعراق، مثل

١ـ معجم البلدان ٣: ١٧٣.

كربلا وعكبرا وحرورا وباعقوبا وتامرّا، وقد مدّ العرب كثيراً من هذه الأسماء الآراميّة المقصورة في استعمالهم إيّاها، خصوصاً ذكرها في الشعرإلحاقاً لها بالأسماء العربيّة أوتوهّماً منهم أنّها عربيّة تجمع بين المدّ والقصر، مثل كثيرمن الأسماء التي انضمّت عليها اللغة العربيّة ذات الأصول العربيّة. وإذا كانت الآرامية فرعاً من فروع اللغة الساميّة الأم، وكان الغالب على سينها أن تُبدل شيئاً في العربيّة، جاز أن يكون بين مادّة شمر وسامرا الآرامية صلة لفظية وصلة معنوية. قال الأصمعيّ: التشمير كالإرسال، من قولهم: شمّرت السفينة، أرسلتها، وشمّرت السهم، أرسلته. وقال ابن سيده: شمّر الشيءَ، أرسله، وخصّ ابن الأعرابي به السفينة والسهم.[1] وقال أبو عبيدة في التسمير بالسين الوارد في الحديث: وسمعت الأصمعي يقول: أعرفه بالشين، وهو الإرسال، قال:وأراه من قول الناس:شمّرت السفينة: أرسلتها، فحُوّلت الشين إلى السين[2]. فغير بعيد أن كانت سامرا عند الآراميين فرضة كبيرة لإرسال السفن في دجلة، أو دار صناعة لها، ولدجلة عندها خليج لايزال على حاله القديمة ينبطح فيه الماء عند الزيادة. وقال الأب أنستاس ماري الكرمليّ: لا جرم أنّ الذي أسس المدينة وبناها هو الخليفة العبّاسي المعتصم بالله. أمّا اسم المدينة فليس من وضع المعتصم نفسه، بل هو قديم في التاريخ، فقد ذكره المؤرّخ الروماني أميانس مرقلينس الشهير الذي ولد سنة ٣٢٠ م وتوفّي سنة ٣٩٠م بصورة سومرا sumera ونوّه به زوسيس المؤرّخ اليوناني من أبناء المائة الخامسة للمسيح

---

١ ـ **المحكم والمحيط الأعظم** ٨: ٦٣ و٤٩٢ (سمر) و(شمر).

٢ ـ **لسان العرب** ٤: ٤٢٨ (شمر) و**الصحاح** ٢: ٥٩١ (سمر). والمراد بالحديث هنا قول عمر:لايقرّأحد أنه كان يطأ وليدته إلّا ألحقت به ولدها. فمن شاء فليمسكها ومن شاء فليسمّرها. **النهاية في غريب الحديث والأثر**٢: ٣٩٩ (سمر)

صاحب التاريخ الروماني بصورة souma ، ويظنّ أهل النقد من أبناء هذا العصر أنّه سقط من آخر الاسم حرفان، والأصل سومرا soumara، وورد في مصنّفات السريان شومرا بالشين المنقوطة، وعرّفها ابن العبري باسم السامرة. . وزعم الأستاذ هرزفيلد أنّ اسم هذه البلدة قد جاء في الكتابات الآشوريّة بصورة سرمارتا suur-mar-ta وأنّها كان لها في أيّام الفرس شأن كبير في محارباتهم الرومان[1] وقد أثبتت حفريات هذا الأثري ـ هرزفيلد أو هورتزفيلد ـ أنّ هذا المكان ـ أي أرض سامرّاء ـ مأهول منذ العصر الحجري الحديث (٤ ـ ٥) آلاف قبل الميلاد، ويظهر أنّه ظلّ مأهولاً بعد ذلك، وكان له شأنه في العصر الروماني. وقِدم البناء في الموضع، ووجود حصن قديم فيه ودير، يعلّل لنا سبب اختيار المعتصم له، فالواقع أنّ المكان المختار مرتفع عن دجلة فهو آمن من الفيضان، وارتفاعه هذا مع إحاطة الماء به يجعله مكاناً حصيناً من الناحية العسكرية، كما أنّه ليس بالبعيد عن بغداد، فميّزات موقع بغداد موجودة فيه، من توسّط، ومركز استراتيجي، ومناخ ملائم جيّد، بالإضافة إلى عدم إخراج مركز الخلافة من بغداد [2].

---

١ ـ **موسوعة العتبات المقدّسة:** ١٢ ـ الجزء الأوّل من قسم سامراء ٧.

٢ ـ شاكر مصطفى، **المدن في الإسلام** ١: ٣٣٣.

عقائد الشيعة في الإمامة والإمام المعصوم

من المؤكّد أنّ الشيعة يختلفون عن غيرهم في المباني والاعتقادات الدينية مع الفرق الإسلاميّة الأخرى في بعض المسائل، نظير قولهم: إنّ الإمام يتعيّن بالنصّ من النبيّ ﷺ، ولايجوز لنبيّ إغفال النصّ على خليفته وتفويض الأمر إلى اختيار الأمّة، وينبغي أن يكون الإمام معصوماً عن الكبائر والصغائر، وأنّ النبيّ قد نصّ بالخلافة على الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام دون سواه، وأنّه أفضل الأصحاب على الإطلاق[1]، ونحو هذه المعتقدات هي التي حددت هويّة الشيعة على مرّ التاريخ. وربّ قائل يقول: إنّ تميّز الشيعة الإماميّة في الأصول والفروع ناشئ من اعتقادهم أنّ أصل الإمامة بمعناها الخاص المنصوص عليه هو الأساس الثاني بعد النبوّة، أو هو الامتداد الشرعي المنطقي المكمِّل للنبوّة، ولا شكّ أنّ الذي قالته الشيعة أو في الحقيقة أبرزته وبيّنته هنا هو نابع من ماهيّة وسنخ الشريعة وتكوينها، فالنبيّ له عمرٌ محدود مهما طال وامتدّ، ولذا لابدّ من إدامة ومواصلة للشريعة لئلّا تتعرّض للتحريف أو الاندثار، ومن هذا الأساس تمسّك الشيعة بأهل بيت النبيّ ﷺ، ولم تكن لديهم محبّة أهل البيت عليهم السلام كافية وحدها دون الولاء والنصرة، لذا اصطبغ

١ـ محمّد جواد مغنية، **الشيعة والحاكمون:** ١٢.

الولاء الشيعي لأهل البيت عليهم السلام بطابع عقيدي وسياسي .

ومن نافلة القول هنا في هذا الفصل أنّ نبيّن أنّ المعنى اللغوي لكلمة الشيعة هي الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج، فشيعة الرجل في اللغة هم:مريدوه وأصحابه الذين اتّبعوا رأيه وسلّموا أمورهم إليه، وأمّا المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة فهي الفرقة المتميّزة بعقائدها، وتوجّهاتها الخاصّة والمعروفة عند الفقهاء والمتكلّمين ومؤرّخي الفرق. وللبعض اعتقاد، أو نظر تاريخيّ يرى بأنّ الشيعة في بدء ظهور الإسلام كانت فكرة نظرية، ولكنّها أصبحت حزباً سياسيّاً منظّماً لعليّ بن أبي طالب عليه السلام وبنيه من بعده. على أنّ هذا الحزب لم يبرز إلى الوجود وإلى مجال الواقع العلني إلّا في وقت متأخّر. وأوّل بذرة وُضعت في بناء الشيعة نظريّة القول بإمامة وأفضليّة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام والتمسّك بولاية آل بيت الرسول الكريم[1]، والانحياز إليهم في كلّ نازلة تنزل، وفي كلّ خطب يلمّ[2].

١ـ هناك رأي عرفائي في معنى الآل نقله السيّد عبد الله شبّر قائلاً: قال بعض أرباب الكمال في تحقيق معرفة الآل ما ملخّصه أنّ آل النبيّ صلى الله عليه وآله كلّ مَن يؤول إليه، وهم قسمان: الأوّل: من يؤول إليه مآلاً صوريّاً جسمانيّاً، كأولاده ومن يحذو حذوهم من أقاربه الصوريين الذين يحرم عليهم الصدقة في الشريعة المحمّدية. والثاني: من يؤول إليه مآلاً معنوياً روحانياً، وهم أولاده الروحانيون من الأولياء الراسخين والعلماء الكاملين والحكماء المتألّهين المقتبسين للعلوم من مشكاة أنوار خاتم النبيّين. ولا ريب أنّ النسبة الثانية آكد من الأولى، وإذا اجتمعت النسبتان كان نوراً على نور، كما في الأئمّة المشهورين من العترة الطاهرين، وكما حرّم على الأولاد الصوريين الصدقة الصوريّة، كذلك حرّم على الأولاد المعنويين الصدقة المعنويّة، أعني تقليد الغير في العلوم الإلهيّة والمعارف الربّانيّة والأحكام الشرعيّة. **الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة**: ٣٨.

٢ـ عارف تامر، **الإمامة في الإسلام**: ٦٢.

وكان للشيعة وما زال اعتقادهم الخاصّ ظهر في مباحثهم الكلامية والاعتقادية، فميّزهم عن بقيّة الفرق الإسلاميّة، في علوم و مفاهيم عديدة، منها: مفهوم الإمامة، ومن هو الإمام؟ ووجوب عصمة الإمام الذي عُيِّن للخلافة، وعن مواصفات إمام المسلمين، وموضوع الخلافة الإسلامية، ومن الذي أَولى بها، ومن هو الخليفة الحقيقيّ الذي ينبغي أن يخلف المسلمين بعد النبيّ ﷺ. وإن كان جمع كبير من أهل السنّة والجماعة يتّفقون مع الشيعة الإماميّة في أنّ الخلافة لابدّ منها، وأنّها في قريش دون غيرهم، وأنّ عدد الأئمّة اثنا عشر إماماً، ويختلفون معهم في أمرين: الأوّل في حصر الخلافة بالهاشميين، وبصورة أخصّ في الإمام عليّ وبنيه عليهم السلام الثاني في تعيين الأئمّة الاثني عشر بأسمائهم وأنسابهم، يختلفون في هذين. أمّا أصل فكرة الاثني عشريّة فمحلّ وفاق بين السنّة والشيعة الاثني عشريّة. يقول الشيخ جواد مغنية: وعلى هذا تكون فكرة إسلاميّة تعمّ الطرفين، لا سنّية فقط، ولا شيعيّة فقط، تماماً كفكرة العصمة، وفكرة الخلافة من حيث المبدأ. وفكرة العصمة لم يقل بها الشيعة وحدهم، فإنّ السنّة يقولون بها أيضاً، والاختلاف بينهم في التطبيق، فالسنّة يجعلونها للجماعة، والشيعة للإمام المنصوص عليه، فنسبة الفكرة من حيث هي إلى الشيعة دون السنّة خطأ واشتباه[1].

ومن هنا قد يبدو اختلاف الشيعة مع أهل السنّة والجماعة في المدى الزماني لسلطة الإمام، وفي مفهوم الولاية ومعناها وحدودها، وما يتعلّق بذلك من مسائل تتفرّع في علم الكلام والعقائد، ومن المؤكّد لم يأت هذا الاعتقاد لديهم عن ابتداع واجتهاد شخصي، و إنّما جاء اعتقادهم وفقاً لنصوص معتبرة، فالإمامة لديهم

١ـ الشيعة في الميزان: ٤٣٠ و٤٣٢.

مخصوصة، أومحصورة، وهي من المناصب المنصصة، أوالمنصوص عليها، وقد انبرى عدد من علماء الشيعة لبيان ذلك. وبحث الخلافة الذي هومن الأبحاث الكلاميّة المهمّة التي يتناولها علماؤنا، ويستدلّون فيها على تشخيص من يتولّى الخلافة بعد رسول الله ﷺ ويقوم بإدارة هذه الدولة، هذا البحث فيه بُعدان: بُعدٌ يرتبط بالجانب العقائدي، وهواستمرارالرسالة في الإمامة وعصمة هذه الإمامة كعصمة الرسالة، وبُعدٌ آخر يرتبط بالجانب التاريخيّ والسياسي والنصوص التي وردت في ذلك، والتحولات الاجتماعيّة والظروف السياسيّة التي اقترنت بهذا الموضوع[1]. والإمامة عند الإماميّة هي المنصب الإلهيّ الذي لاينالـه الظالمون، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2]، وبهذا تكون الإمامة أعلى درجات الاستخلاف في الأرض بنصّ القرآن.قال الشيخ الصدوق: فبدأ [الله] عزّوجلّ بالخليفة قبل الخليقة، فدلّ ذلك على أنّ الحكمة في الخليفة أبلغ من الحكمة في الخليقة، فلذلك ابتدأ به، لأنّه سبحانه حكيم، والحكيم من يبدأ بالأهمّ دون الأعمّ، وذلك تصديق قول الصادق جعفربن محمّد عليهما السلام حيث يقول: الحجّة قبل الخَلق، ومع الخلق، وبعدَ الخَلق. ولوخلق الله عزّوجلّ الخليقة خلواً من الخليفة لكان قد عرّضهم للتلف، ولم يردع السفيه عن سفهه بالنوع الذي توجب حكمته من إقامة الحدود وتقويم المفسد[3].

١ـ الإمامة وأهل البيت: ٤٠.

٢ـ البقرة: ١٢٤.

٣ـ كمال الدين وتمام النعمة: ١٦.

والوجه الرسمي للخلافة والسلطان والحكم شيء، وقيادة الأمّة في ضوء الفكر الإمامي شيءٌ آخر، وليس شرطاً أن يحكم الإمام حكماً ظاهريّاً، أو يمسك بالسلطان في الدولة، فالإمام إمامٌ حَكَم أو لم يحكم، ولقد حكم الإمام عليّ عليه السلام حقبة من الزمان، وحكم الإمام الحسن عليه السلام فترة قصيرة، ولم يحكم بقيّة الأئمّة عليهم السلام، ولم تنقطع سلسلة الإمامة، وإن انقطع الحكم. والإمامة عند الإماميّة امتداد للنبوّة، فكما كانت النبوّة منصباً إلهيّاً لا حول للبشر فيه ولا طَول، فكذلك الإمامة، والنبيّ هو الذي ينصّ على خلفائه في الدين، والمتقدّم من الأئمّة ينصّ على من يليه في المنصب. ولم تفرض الإماميّة على أحد عقيدتها بالجبر والإكراه، ولم تمارس الضغط والقسر في إقرارها، وإنّما هو اعتقاد، مَن آمن به فلنفسه، ومن لم يؤمن به فلنفسه أيضاً[1]. وكما تقدّم أنّ استناد علماء الشيعة إلى هذا الاعتقاد يرجع إلى النصوص المروية، وليس فيها اجتهاد شخصي أو تأويل أهوائي. قال الشيخ الصدوق: والإمامة إنّما تصحّ عندنا: بالنصّ، وظهور الفضل والعلم بالدين، مع الإعراض عن القياس والاجتهاد في الفرائض السمعيّة وفي فروعها، ومن هذا الوجه عرفنا إمامة الإمام[2]. وقال العلّامة ابن المطهّر الحلّي: اتّفقت الشيعة على أنّ طريق معرفة الإمام هو: النصّ من الله تعالى عليه، أو ممّن نصّ الله تعالى عليه. واختلفوا، فقالت الإماميّة والكيسانيّة: إنّه إنّما يحصل بالنصّ الجليّ، لا غير، وقالت الزيديّة: إنّه قد يحصل بالنصّ الخفيّ أيضاً. فقالوا بإمامة عليّ والحسن والحسين عليهم السلام، وأثبتوها بالنصّ الجليّ، وأثبتوا باقي أئمّتهم بالنصّ الخفيّ، وذلك

١ـ محمّد حسين الصغير، **من النصّ حتّى المرجعيّة**: ١٥.

٢ـ **كمال الدين وتمام النعمة** : ١١١.

أنّ شرائط الإمامة عندهم كون الإمام عالماً بشريعة الإسلام ليهدي الناسَ إليها ولا يضلّهم، وزاهداً لكي لا يطمع في أموال المسلمين، وشجاعاً لئلّا يفرّ في الجهاد مع المخالفين فيَظهروا على أهل الحقّ، وكونه من وُلد فاطمة، أعني من أولاد الحسن والحسين عليهما السلام، لقوله صلى الله عليه وآله: المهدي مِن وُلد فاطمة. وكونه داعياً إلى الله تعالى وإلى دين الحقّ ظاهراً، ويشهر سيفه في نصرة دينه. قالوا: وقد نصّ النبيّ والأئمّة بعده أنّ كلّ من استجمع هذه الشرائط الخمسة فهو إمام مفترض الطاعة، وذلك هو النصّ الخفي[1].

والأئمّة الذين حظوا بالولاء والاتّباع من قِبل أغلبية الشيعة هم الأئمّة الاثنا عشر إماماً، أوّلهم عليّ عليه السلام وآخرهم المهدي عليه السلام الغائب عن الأبصار، وقد نصّ عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله في أكثر من نصّ، وقد أجمعت الأمّة على صحّة النصّ الشرعي القائل بأنّ الأئمّة من بعد النبيّ اثنا عشر إماماً، ولكن مَن هؤلاء الذين عناهم النبيّ صلى الله عليه وآله في حديثه؟ يقول الكاتب أحمد حسين يعقوب: وقد فشلت كلّ محاولات علماء الخلافة التاريخية لتفصيل هذا العدد على واقع الخلافة التاريخي، لمجموعة أسباب، منها: أنّ العدد ١٢ لايستغرق تاريخ الخلافة، وأنّ الخلفاء لم يكونوا قدوة، ولا كانوا مراجع، وأنّهم جميعاً ـ وبلا استثناء ـ قد حصلوا على منصب الخلافة بالقوّة والتغلّب والقهر أو بعهد من خليفة متغلّب قاهر، فسلطتُهم جميعاً أساسها الغصب والقهر[2]. والمعتقدات التي يتوارثها الشيعة ترى بأنّ الخليفة والقائد السياسي يجب أن يكون معصوماً عادلاً شجاعاً كاملاً لاتأخذه في الله لومة لائم، وأنّ العدل والحكم

١ـ كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد: ٢٩٧ و ٣٠٩.

٢ـ الوجيز في الإمامة والولاية: ١٧٨

بالكتاب والتقيّد بالسنّة والاهتداء بها هي من أهم مرتكزات الاعتقاد المذهبي لديهم . ومن هذه المنطلقات العقائدية والفكرية صمد الفكر الشيعي مع ما واجه من تحدّيات وصعوبات الزمن الذي عايشته هذه الطائفة.

والحقائق التاريخية تؤكّد أنّ مقالات علماء الشيعة ومتكلّميهم انبثقت من استقراء الوضع التاريخي والاجتماعي لِما كان عليه العرب قبل الإسلام، فجاءت مطابقة للأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والتشريعيّة التي كان عليها العرب والمسلمون الأوائل، فلم يكن للعرب وحدة سياسيّة قبل الإسلام، فكلّ قبيلة تحكم نفسها، وكلّ مدينة لاتعرف لغيرها سلطاناً عليها، وبعد الإسلام أوجد النبيّ سلطة عامّة خضع لها جميع العرب، ومارس هو السلطة بكافّة معانيها: التشريعيّة، والتنفيذيّة، والقضائيّة، فكان يبيّن الأحكام والحلال والحرام، ويقود الجيش ويراسل الملوك، ويعقد المعاهدات، ويقضي بين الناس، ويقيم الحدود. وقد ربط القرآن الكريم هذه السلطات بشخص الرسول ﷺ، ففي الآية ٦٦ من سورة الأحزاب: ﴿ **النبيُّ أَولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهِم** ﴾ ، وفي الآية ٣٦ من السورة نفسها: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ ، وفي الآية ٧ من سورة الحشر: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ ، وغيرها كثير. واتّفق المسلمون بكلمة واحدة على أنّ السلطة الزمنيّة والدينيّة التي كانت للرسول تُعطى لخليفته، ثمّ اختلفوا فيما بينهم: هل يُعيَّن الخليفة بالنصّ عليه من النبيّ ﷺ، أو يُترَك الأمر فيه إلى اختيار الأمّة ؟ قال الشيعة: إنّ الخليفة يتعيّن بالنصّ لا بالانتخاب، أي أنّ الله سبحانه يأمر النبيّ أن يبلّغ المسلمين بأنّه قد اختار فلاناً خليفة بعده، وأنّ عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا، وقد صدر هذا النصّ من النبيّ ﷺ على الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

قال الشيخ مغنية: هذا هو التشيّع، وهكذا ابتدأ ونشأ دون أن يضاف إليه أيّ شيءٍ آخر.. والذي يدلّنا على أنّ لفظ الشيعة علَم على من يؤمن بأنّ عليّاً هو الخليفة بنصّ النبيّ عليه السلام ما قاله فقهاء الإماميّة في كتب التشريع من أنّه إذا أوصى رجل بمال للشيعة، أو وقف عقاراً عليهم يُعطى لمن قدّم عليّاً في الإمامة على غيره بعد النبيّ صلى الله عليه وآله ولا يُعطى للمغالين[1]. وبناء على هذا الاعتقاد قالوا بأنّ الإمام المعصوم المنصوص عليه يتولّى الحكم، ويحكم بإرادة الله لا بإرادة الناس، وعليه فالخلافة أو الإمامة أو الولاية تكون بالنصّ لا بالانتخاب. وقد ذكر الشيخ محمّد جواد مغنية أدلّة الشيعة في هذا المضمار بقوله: استدلّ الشيعة على أنّ الخلافة تكون بالنصّ لا بالانتخاب بأدلّة، منها: أنّ الخليفة يحكم باسم الله لا باسم الشعب، فيجب والحال أن يُختارَ مِن قِبل الله بلسان نبيّه، لا من الشعب بطريق الانتخاب. ومنها قوله تعالى في الآية ٦٨ من سورة القصص: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾، فالله سبحانه حصر الاختيار به، ونفاه عن جميع الناس. ومنها: أنّ الأكثريّة غير معصومة عن الخطأ، فمن الجائز أن تختار رجلاً لاتتوافر فيه صفات الإمام من العلم والخُلق، فتعمّ الفوضى والفساد، وقد نص القرآن على سقوط رأي الأكثريّة في الآية ١١٦ من سورة الأنعام: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾، وفي الآية ١٠٦ من سورة المائدة: ﴿**وأكثرُهم لايعقِلون**﴾، وفي الآية ٧١ من سورة المؤمنون: ﴿**وأكثرُهُم لِلحقّ كارِهون**﴾، وغيرها من الآيات[2].

والعقائد التي يقول بها الشيعة هي عقائد واقعية ومعقولة، فهي لاتتعارض مع

١ـ محمّد جواد مغنية، **الشيعة والتشيّع**: ١١. ثمّ أشار في هذه المسألة الشرعيّة إلى كتاب: (**المسالك**، للشهيد الثاني ج١ـ باب الوقف).

٢ـ **الشيعة في الميزان**: ١٦.

العقول السليمة، ولا تغاير أصول التشريع التي جاء بها الكتاب والسنّة. ومن جملة اعتقاد الشيعة المستند إلى النصوص قولهم بأنّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1] في حقيقته هو تأكيد للولاية التي يقول بها الشيعة لعليّ عليه السلام وأبنائه المعصومين عليهم السلام، ويستند علماء الشيعة إلى عدد كبير من علماء أهل السنّة والجماعة، إضافة إلى علماء الشيعة القائلين بأنّ هذه الآية نزلت بحقّ الإمام عليّ عليه السلام[2]. وبالنتيجة فأمثال هذه الآية تثبت وتؤكّد ولاء التدبير والقيادة، إلى جانب ولاء النصرة والمحبّة. والشيعة ترى بأنّ الولاية لله بالأصالة، ولرسوله والذين آمنوا بالتبع والإذن من الله تعالى. وأمّا ما هي هذه الولاية وأبعادها، فعدد كبير من علماء الشيعة يرى بأنّ ما ذكره الله تعالى من ولاية نفسه في كلامه يرجع محصّله إلى ولاية التكوين وولاية التشريع، يقول السيّد محمّد حسين الطباطبائي: إن شئت سمّيتهما بالولاية الحقيقيّة والولاية الاعتبارية. وقد ذكر الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله من الولاية التي تخصّه الولاية التشريعية، وهي القيام بالتشريع والدعوة وتربية الأمّة والحكم فيهم، والقضاء في أمرهم، قال تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ الأحزاب:٦، وفي معناه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ**﴾ النساء: ١٠٥، وقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ الشورى:٥٢، وقوله: ﴿**رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**

١ـ المائدة: ٥٥.

٢ـ قال الواحدي: جاء عبد الله بن سلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وشكا ما يلقى من اليهود، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء. **أسباب النزول**: ١١٣، وقال الزمخشريّ: نزلت في عليّ عليه السلام حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه **الكشّاف** ١: ٦٤٩، وانظر: **التسهيل لعلوم التنزيل**، للكلبي ١: ٣٢٥.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الجمعة:٢، وقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل:٤٤، وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرسولَ﴾ النساء:٥٩، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الأحزاب:٣٦، وقوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ المائدة:٤٩،. . ويجمع الجميع أنّ له صلى الله عليه وآله الولاية على الأمّة في سَوقهم إلى الله والحكم فيهم، والقضاء في شؤونهم، فعليهم الإطاعة المطلقة، فترجع ولايته صلى الله عليه وآله إلى ولاية الله سبحانه بالولاية التشريعيّة، ونعني بذلك أنّ له صلى الله عليه وآله التقدّم عليهم بافتراض الطاعة، لأنّ طاعته طاعة الله فولايته ولاية الله[1].

واعتقاد جميع، أو عامّة الشيعة الإماميّة، مبنيّ على أنّ ولاية النبيّ صلى الله عليه وآله تتمثّل بولاية الأمّة لأوصيائه الذين نصّ عليهم، ومن هذا جاءت رواية الحسن بن سُماعة، عن جعفر بن سماعة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:نزل جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله بصحيفة من السماء، لم ينزل الله كتاباً مِثلها قطّ قبلها ولا بعدها، فيها خواتيم من ذهب، فقال:يا محمّد، هذه وصيّتك إلى النجيب من أهلك، قال له:يا جبرئيل، مَن النجيب من أهلي؟ قال:عليّ بن أبي طالب، مُرْه إذا تُوفّيتَ أن يفكّ خاتماً ثمّ يعمل بما فيه. فلمّا قُبض النبيّ ـ عليه وعلى آله السلام ـ فكّ عليّ خاتماً، ثمّ عمل بما فيه ما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى الحسن بن علي عليه السلام ففكّ خاتماً وعمل ما فيه ما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى الحسين بن علي عليه السلام ففكّ خاتماً فوجد فيه: أُخرج بقوم إلى الشهادة لهم معك، واشْرِ بنفسك لله. فعمل بما فيها ما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى رجل بعده ففكّ خاتماً فوجد فيه:أطرق واصمت، والزمْ منزلك واعبدْ ربّك حتّى يأتيَك اليقين. ثمّ

١ـ الميزان في تفسير القرآن ٦: ١٣.

دفعها إلى رجل بعده ففكّ خاتماً فوجد فيه أن حدّثِ الناسَ وأفتِهم وانشرْ علم آبائك، ففعل بما فيه ما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى رجل بعده ففكّ خاتماً فوجد فيه أن حدّث الناس وأفتهم وصدّق آباءَك ولاتخافن أحداً إلّا الله فإنّك في حرز من الله وضمان، وهو يدفعها إلى رجل من بعده، ويدفعها من بعده إلى مَن بعده، إلى يوم القيامة[1]. ومن المؤكّد أنّ الرجل في هذا الحديث هو الإمام المعصوم الذي كان له دور عيّنه الله تعالى له في ذلك الوقت الذي يعيشه، ونحو هذا روى جابر الجعفيّ أنّ الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام قال في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[2]: عَهِدْنا إليه في محمّد والأئمّة من بعده، فتَركَ ولم يكن له عزم أنّهم هكذا، وإنّما سُمّي أولو العزم أُولي العزم[3] لأنّه عَهِد إليهم في محمّد والأوصياء من بعده والمهديّ وسيرتِهِ، وأجمع عزمُهم على أنّ ذلك كذلك والإقرارِ به. وجاء في خبر أبي عبد الله الصادق عليه السلام: كلمات في محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام من ذريتهم، فنسيَ، هكذا واللهِ نزلت على محمّد صلى الله عليه وآله[4]. ولاشكّ أنّ آخر

١ـ **الإمامة والتبصرة من الحيرة**: ١٦٦/ ح٢٠.

٢ـ طه: ١١٥.

٣ـ قال الطريحي: عزمتَ: صحّحتَ رأيك في إمضاء الأمر، وعزماً: رأياً معزوماً عليه. والعزم والعزيمة: ما عُقد عليه قلبك أنّك فاعله. **تفسير غريب القرآن الكريم**: ٥١١. وأولو العزم: مَن أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة مَن تقدّمه، وهم خمسة: أوّلهم نوح، ثمّ إبراهيم، ثمّ موسى، ثمّ عيسى، ثمّ محمّد صلى الله عليه وآله. وهم الذين أُمروا بالجهاد والقتال وأظهروا المكاشفة وجاهدوا في الدين. وقيل: هم ستّة: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيّوب. ينظر: **مجمع البيان** ٥: ٩٤.

٤ـ **الكافي** ١: ٤١٦/ ح٢٢و٢٣ ـ باب فيه نُكتٌ ونُتفٌ من التنزيل في الولاية.

وصيّ من هؤلاء هو الإمام المهدي عليه السلام الذي غاب عن الأمّة وسيعود بعدها منصوراً من قِبل الله جلّ وعلا؛ لتحقيق الوعد الإلهي، ومن هذا يكون التصديق والقبول بإمامته وانتظار ظهوره هو بمثابة ولاية للنبيّ صلى الله عليه وآله ولبقيّة الأوصياء الذين تقدّموه، وعليه فعقيدة المسلم غير المعتقد بهذا المعتقد، أو المشكك بهذا الأمر تُعتَبر عقيدة غير تامّة أو غير مقبولة.

انبثاق الأنوار الإلهيّة

روى الشيخ علي بن الحسين بن بابويه القمّي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنّ جبرئيل عليه السلام نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله يخبر عن ربّه فقال له: يا محمّد، إنّي لم أترك الأرض إلّا وفيها عالم يعرف طاعتي وهداي، ويكون نجاةً فيما بين قبض النبيّ إلى خروج النبيّ الآخر، ولم أكن أترك إبليس يُضلّ الناس وليس في الأرض حجّة لي وداع إليّ وهادٍ إلى سبيلي وعارف بأمري، وإنّي قد قيّضت لكلّ قوم هادياً أَهدي به السعداء، ويكون حُجّةً على الأشقياء[1] ومن هذه السُّنّة الإلهيّة كانت الجموع البشرية تنتظر بين آونة وأخرى إطلالة الحجج والأوصياء أعلام هداية تتزيّن بهم الأرض وتنار، فظلّت المدينة تحتفل باستمرار وأوقات متباعدة لولادة كلّ نور يشعّ من أنوار محمّد وفاطمة وعليّ عليهم السلام، إلّا نور واحد غاب عنها، هو نور الإمام المنقذ والعدل المنتظر محمّد بن الحسن المهدي عليه السلام الذي كان إشعاع نوره من نصيب سامراء. ولم تكن نطفة وخلقة وولادة الإمام المعصوم ورؤيته لهذه الحياة الدنيا التي تناسخ على العيش عليها أبناء آدم، مماثلة لبقيّة العباد، فمن أوّل خطوة أو لحظة لهذا الإمام الهادي تكون الأقدار الإلهيّة معدّةً لصنع هذه النطفة لتنعم البشرية ببركاته

١ـ الإمامة والتبصرة من الحيرة: ١٦٢/ ح ١٦.

وبرّه وخيره. روى السيّد عبد الله شبّر ناقلاً عن الصفّار في (البصائر) بإسناد معتبر عن الصادق عليه السلام حول مراحل خلقة الإمام فيقول: إذا أراد الله أن يخلق الإمام أرسل قطرة من الماء الذي تحت العرش إلى الأرض، فتسقط تلك القطرة على النبات أو المياه، فيتناوله الإمام فتنعقد النطفة من ذلك الماء، فإذا انتقلت في الرحم أربعين يوماً وليلة في بطن أمّه لايسمع الصوت، ثمّ يسمع بعد ذلك الكلام، فإذا كمل له أربعة أشهر كتب الملك على عضده الأيمن ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[1]، فإذا سقط إلى الأرض ألهمه الله الحكمة وحلاه بالعلم والوقار، وخلع عليه المهابة، وجعل الله له عموداً من نور يبصر به أعمال العباد ويطّلع على سرائرهم[2].

وجاء في رواية محمّد بن يعقوب الكليني عن عبد الله بن إبراهيم الجعفري قال:سمعت إسحاق بن جعفر (الصادق عليه السلام) يقول: سمعت أبي يقول: الأوصياء إذا حملت بهم أمهاتهم أصابها فترةٌ شِبه الغَشْية، فأقامت في ذلك يومها ذلك إن كان نهاراً، أو ليلتها إن كان ليلاً، ثمّ ترى في منامها رجلاً يبشّرها بغلام عليم حليم، فتفرح لذلك، ثمّ تنتبه من نومها فتسمع من جانبها الأيمن في جانب البيت صوتاً يقول:حَمَلتِ بخير، وتصيرين إلى خير، وجئتِ بخير، أبْشِري بغلام حليم عليم. وتجد خفّة في بدنها، ثمّ لم تجد بعد ذلك امتناعاً من جنبَيها وبطنها، فإذا كان لتسعٍ من شهرها سمعت في البيت حسّاً شديداً. فإذا كانت الليلة التي تلد فيها

١ـ الأنعام: ١١٥. يقول الشيخ الطريحي في معنى الآية:أي بلغت الغايةَ أخبارهُ وأحكامه ومواعيده، فلا يزال فيهم مَن يوحّد الله ويدعوإلى توحيده صدقاً وعدلاً. **تفسير غريب القرآن الكريم**: ٥٢٠.

٢ـ **جلاء العيون** ٣: ١٣٠.

ظهر لها في البيت نور، تراه لايراه غيرها إلّا أبوه، فإذا ولدته ولدته قاعداً، وتفتّحت له حتّى يخرج متربّعاً، يستدير بعد وقوعه إلى الأرض فلا يخطئ القبلة حيث كانت بوجهه، ثمّ يعطس ثلاثاً يشير بإصبعه بالتحميد، ويخرج مسروراً[١] مختوناً، ورباعيّتاه من فوقَ وأسفل، وناباه وضاحكاه ومِن بين يديه مثل سبيكة الذهب نور، ويقيم يومه وليلته تسيل يداه ذهباً، وكذلك الأنبياء إذا وُلدوا، و إنّما الأوصياء أعلاق من الأنبياء[٢]. واتّفقَت الأخبار أنّ الأرض تكون على استعداد لهذا المخلوق وها هي تبتهج حين يُولد الإمام، وبعبارة أخرى: حين يؤذن له برؤية هذه الدنيا تكون الأرض مهيّأة له تماماً. وها هي المدينة مدينة الرسالة والوحي قد جددت ثوبها لاستقبال السفير الربّاني الذي كانت تنتظره، فها هي المدينة التي احتضنت جدّه النبيّ المصطفى ﷺ قد تشرّفت برؤية الإمام الحسن العسكري في ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين[٣]، وروي سنة ثلاث وثلاثين، كما يرى الطبريّ[٤]، وفي رواية محمّد بن طلحة الشافعي أنّ مولده سنة إحدى وثلاثين ومائتين للهجرة[٥]،

١ـ قال ابن معصوم المدني: السُّرّة، بالضمّ: الوقبة في وسط البطن لاستتارها بعكن البطن، والجمع سرر، والسرّ ما تقطعه القابلة منها كالسرر، تقول:عرفت ذلك قبل أن يقطع سرّك، ولاتقل سرّتك، لأنّ السرّة لاتقطع. وسرّ الصبيّ ـ بالمجهول ـ فهو مسرور: قطع سرّه. **الطراز الأول** ٨: ٩٤.

٢ـ **الكافي** ١: ٣٨٧/ ح٥.

٣ـ **مسارّ الشيعة**، للمفيد: ٥٥، **الصواعق المحرقة**: ٢٠٧.

٤ـ **دلائل الإمامة**: ٢٢٣.

٥ ـ **مطالب السَؤول في مناقب آل الرسول**: ٣٠٩، وإلى هذه الرواية ذهب ابن أبي الثلج البغدادي في **تاريخ الأئمّة** عليهم السلام ١٦، وابن الخشّاب البغدادي في **تاريخ مواليد الأئمّة ووفياتهم**: ١٤٨.

والأَشهَر في روايات علماء الشيعة التي كانت معتمدة لديهم بأنّ ولادته عليه السلام في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر ربيع الأوّل، ويقال: ولد في شهر ربيع الآخر، كما روى الطبرسي[1]، ويذكر الشيخ عبّاس القمّي بأنّ ولادته بالمدينة الطيّبة كان في يوم العاشر، أو الثامن من شهر ربيع الآخر. وذكر قولاً ثالثاً بأنّ ولادته عليه السلام في رابع ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين[2]. والذي ذكره الشهيد الأوّل من تاريخ ولادة الحسن العسكري عليه السلام هو يوم الإثنين من الرابع من ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين[3]، وقد أشار شيخنا الحرّ العامليّ إلى هذا الاختلاف في الروايات في أرجوزته حيث قال:

مولدُه شهر ربيع الآخِرِ ... وذاك في اليوم الشريف العاشر

في يوم الاثنينِ وقيل: الرابعُ ... وقيل: في الثامن وهو شايعُ[4]

وأمّه أم ولد يقال لها ريحانة[5]، وقيل: اسمها حديث، وقيل: سُوسَن[6]، وقال الشيخ حسين بن عبد الوهّاب: واسم أمّه على ما رواه أصحاب الحديث سليل رضي الله

١ـ تاج المواليد: ١٠٥.

٢ـ الأنوار البهيّة في تواريخ الحجج الإلهيّة: ٣٠٣.

٣ـ الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة ٢: ٢١. ولكنّ العلّامة الحلّي لم يرجّح أيّ تاريخ في تعيين ولادته عليه السلام، واكتفى بالقول: ولد بالمدينة في ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. منتهى المطلب في تحقيق المذهب ١٣: ٣١٦.

٤ـ منتهى الآمال في تواريخ النبيّ والآل: ٧٤٥.

٥ـ معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول والبتول عليهم السلام: ١٢٦.

٦ـ الكافي ١: ٥٠٣.

عنها، وقيل: حديث، والصحيح سليل، من العارفات الصالحات[١]. ونقل الشيخ عبّاس القمّي بأنّ أمّه يقال لها: الجدّة، وكانت من العارفات الصالحات، وكفى في فضلها أنّها كانت مفزع الشيعة بعد وفاة أبي محمّد عليه السلام[٢]. وروى المسعودي: لمّا أُدخلت سليل أمّ أبي محمّد عليه السلام على أبي الحسن عليه السلام قال: سليل، مسلولة من الآفات والعاهات والأرجاس والأنجاس، ثمّ قال لها: سَيَهب اللهُ حجّته على خلقه، يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً. وحملت أمّه به بالمدينة وولدته بها، فكانت ولادته ومنشؤه مثل ولادة آبائه صلّى الله عليهم ومنشئهم. وولد في سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة، وسنُّ أبي الحسن عليه السلام في ذلك الوقت ستَّ عشرة سنة وشهوراً، وشخص بشخوصه إلى العراق في سنة ستّ وثلاثين ومائتين، وله أربع سنين وشهور[٣].

ومن هنا، فالإمام العسكري عليه السلام، بعد أعوام معدودات لم تكمل الخمسُ من عمر الزمن، ومن تشرّف الأرض الحجازية بإقامته، خرج من المدينة مُكرهاً مع أبيه عليه السلام مودِّعاً لها، وكأنّها كانت تفهم أنّ هذا الافتراق لا يكون بعده لقاء لها معهما أبداً، لذا لم تنزع المدينة جلباب الحزن الذي تجلببت به مذ تركاها، لكن كانت هناك بقعة أخرى تنتظر بشوقٍ لقاءهما، وربّما كانت سامراء الغافية على ضفاف دجلة تحلم، أو ربّما كان سمرها مع أمواج دجلة المتلاطمة يبعث ويجدد الأمل لها في أن يُسرعا الخطى نحوها، فتكتحل عيناها الجميلتان بإطلالتهما المباركة، عليهما وعلى

١ـ عيون المعجزات: ١٣٤.

٢ ـ الأنوار البهيّة في تواريخ الحجج الإلهيّة ٣٠٣.

٣ ـ إثبات الوصيّة للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٢٠٧.

آبائهما الصلاة والسلام، فتضاحكت سامراء حيناً من الدهر والزمان مع قطّانها بحلول سليلَي أئمّة الهداية والنور في ثراها المتدثّر بطهارتهما وما زال.

المهدي عليه السلام والدولة المهدويّة

تعدّ المفردات المهدوية من الألفاظ الموحية والطامحة للغد السعيد المشرق الذي يحلم به الإنسان ويمنّي به نفسه، فيثير استخدام مفردة الهدى والهداية والمهدي، وغير ذلك من اشتقاقات هذا اللفظ، معنىً سامياً وأملاً واعداً يحرّك نوازع الصلاح والخير الذي يرجوه الإنسان وينتظره. وقد استعمل المحدّثون والأدباء والشعراء كلمة المهديّ لكلّ من تلبّس بالهدى والصلاح، ودعا إلى الحق والخير والصراط المستقيم، كما استعملها النبيّ صلى الله عليه وآله في هذا المعنى، وهو يتحدّث مع المسلمين في بعض المناسبات، ويقول لهم: وإن تؤمّروا عليكم عليّاً، ولا أراكم فاعلين، تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم إلى الصراط المستقيم.[1] ووصف بها الإمام الصادق عليه السلام الأئمّة الاثني عشر، كما جاء في رواية أبي بصير حيث قال: منّا اثنا عشر مهديّاً مضى ستّة وبقي ستّة يصنع الله بالسادس ما أحبّ[2] كما وصفهم بها غير

١ـ **حلية الأولياء**، لأبي نُعيم الأصفهانيّ ١: ٦٤، **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**، للحافظ الحسكاني الحنفي ١: ٦٤ـ٦٥/ ح ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤. ويراجع أيضاً: **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري الشافعي ٣: ٧، و**كنز العمّال**، للمتّقي الهندي ١١: ٦٣٠ـ٦٣١.

٢ـ رواها الشيخ الصدوق في **كمال الدين وتمام النعمة**: ٣١٨/ ح ١٣ـ الباب ٣٣.

الإمام الصادق عليه السلام من الأئمّة، ولمّا قيل للإمام الصادق عليه السلام: أنت المهديّ من أهل البيت؟ أجاب:كلّنا مهديّون نهدي إلى الحقّ والصراط المستقيم. واستعارها الشعراء في مدح ملوك العبّاسيين والأمويين تزلّفاً وتملّقاً وطمعاً في جوائزهم. وكان الأئمّة عليهم السلام وغيرهم يصفون بها من يهدي إلى الحقّ والخير وإلى الصراط المستقيم، غير أنّها بالمعنى الذي أصبحت فيه عَلَماً للإمام الثاني عشر محمّد بن الحسن ولا يفهم منها غيره عند استعمالها[1]. وقد حاول البعض انتزاع هذا اللفظ من موقعه ومسمّاه الحقيقي وإسقاطه على محمّد بن الحنفيّة، قال النوبختي في حديثه عن الفِرق التي قالت بإمامة محمّد بن الحنفية: وفرقة قالت: إنّ محمّد بن الحنفيّة رحمه الله تعالى هو الإمام المهدي، وهو وصيّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه، ولايخرج عن إمامته، ولا يشهر سيفه إلّا بإذنه، وإنّما خرج الحسن بن عليّ إلى معاوية محارباً له بإذن محمّد، ووادعه وصالحه بإذنه، وأنّ الحسين إنّما خرج لقتال يزيد بإذنه، ولو خرجا بغير إذنه هلكا وضلّا، وإنّ من خالف محمّد بن الحنفيّة كافر مشرك، وإنّ محمّداً استعمل المختار بن أبي عبيد على العراقين بعد قتل الحسين، وأمره بالطلب بدم الحسين وثأره وقتلِ قاتليه وطلبهم حيث كانوا، وسمّاه كيسان لكيسه، ولما عرف من قيامه ومذهبه فيهم، فهم يسمّون المختارية ويدعون الكيسانية[2].

وتوارثت الأجيال عبر العصور الاعتقادات المرتبطة بالهداية والصلاح وانتظار الفرج والصبر، باعتبارها من لوازم مفهوم المهدوية، ولذا تعتبر العقيدة بالإمام

---

١ ـ هاشم معروف الحسني، **سيرة الأئمّة الاثني عشر** ٢: ٥٤٠.

٢ ـ **فِرق الشيعة**: ٢٦.

المهدي وانتظار الدولة المهدوية، والتي يقيمها هذا الإمام القائم المنتظر الكامل المعصوم في آخر الزمان، وهو الثاني عشر من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، والمسمّى محمّد بن الحسن العسكري، مؤكّدةً بنصوص متواترة متّفق عليها ولا يرقى إليها الشكّ مطلقاً، أشارت إليه ونصّت عليه، عليه وعلى آبائه آلاف التحيّة والسلام. والمهدي والمهدوية من عقائد المسلمين المتسالم والمتّفق عليها لدى الفرق جميعها، وهذه العقيدة لدى الشيعة الإماميّة عقيدة ضرورية لاستكمال الاعتقاد الديني، فالشيعة يرون أنّ دولة العدل الإلهي لاتتحقق إلّا على يد إمام معصوم كامل يختم كتاب الإمامة، أو سِفر الإمامة المفتوح، كما ختم النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله كتاب النبوّة. وأجمع المسلمون على ظهور وقيام هذا الإمام العدل المنتظر الذي يزيّن الأرض بنوره و بعدله، فتُخرج الأرض كنوزها وبركاتها، وينعم العباد بهذه الدولة المباركة، بعد يأس وشقاء و امتلاء الأرض بالجور والكفر والضلالة، وقد روت صحاح كتب أهل السنّة والجماعة[1] عدداً من الأخبار الخاصّة بالمهدي

١ـ هناك كتب لأهل السنة والجماعة انفردت ببحث اسم المهدي وحليته وكنيته، وما يظهر من الفتن والعلامات والآيات قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام وقيام دولته المباركة، استناداً إلى روايات معتبرة رويت من طرقهم وأسانيدهم. وهنا نشير إلى واحد من هذه الكتب، وهو كتاب **عقد الدرر في أخبار المنتظر** الذي ألّفه يوسف بن يحيى بن عليّ بن عبد العزيز المَقْدسيّ الشافعي السلميّ، من أعلام القرن السابع الهجري، وحققه الدكتور عبد الفتّاح محمّد الحلو، وقامت بنشره مكتبة عالم الفكر في القاهرة سنة ١٩٧٩ م. وقد جعله المؤلّف في اثني عشر باباً، حيث قال في مقدّمة الكتاب:وجعلتُه مشتمِلاً على اثني عشر باباً، مستعيناً بمن أحاط بكلّ شيءٍ علماً وأحصى كلّ شيء كتاباً، وإليه سبحانه الرغبة في تتميم ما سنح، وإصلاح ما فسد وتقبّل ما صلح، والهداية إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل. الباب الأوّل: في بيان أنّه من ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله وعترته. الباب الثاني:في اسمه وخلقه وكنيته. الباب الثالث: ←

المنتظر عليه السلام، وذكرت من العلامات والآيات المبشّرة بخروجه، منها ما رواه الترمذي: أنّ النبيّ قال:لاتذهب الدنيا حتّى يملك العربَ رجلٌ من أهل بيتي ، يُواطئ اسمه اسمي.وفي رواية: يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي. وعن أبي سعيد الخُدْري قال:خَشِينا أن يكون بعد نبيّنا حدث، فسألنا نبيّ الله صلى الله عليه وآله فقال: إنّ في أمّتي المهديّ، يخرج يعيش خمساً أو سبعاً، أو تسعاً[1]. وما رواه ابن ماجة: أنّ سعيد ابن المسيّب قال:كنّا عند أمّ سلمة فتذاكرنا المهدي فقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المهديُّ مِن وُلد فاطمة. وعن الإمام عليّ عليه السلام قال:المهدي منّا أهلَ البيت، يُصلحه الله في ليلة. وعن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يخرج ناس من المشرق فيوطِّئون للمهدي، يعني سلطانه[2]. ورووا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال:أبشروا بالمهديّ، رجل من قريش من عترتي ـ أراد أهل بيتي ـ يخرج في اختلاف من الناس، وزلزال، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، ويقسّم المال صحاحاً بالسويّة، ويملأ قلوب أمّة محمّد صلى الله عليه وآله غنى، ويسعهم عدله حتّى يأمر منادياً فينادي: مَن له حاجة

في عدله وحليته. الباب الرابع: فيما يظهر من الفتن الدالّة على ولايته، وفيه أربعة فصول. الباب الخامس: في أنّ الله تعالى يبعث من يوطّئ له قبل إمارته. الباب السادس: فيما يظهر له من الكرامات في أيّام خلافته. الباب السابع: في شرفه وعظيم منزلته. الباب الثامن: في كرمه وفتوّته. الباب التاسع: في فتوحاته وسيرته، وفيه ثلاثة فصول. الباب العاشر: في أنّ عيسى بن مريم عليه السلام يصلّي خلفه ويبايعه وينزل في نصرته. الباب الحادي عشر: في اختلاف الروايات في مدّة إقامته. الباب الثاني عشر: فيما يجري من الفتن في أيّامه وبعد انقضاء مدّته. وفيه مقدّمة وثمانية فصول وخاتمة. **مقدّمة الكتاب**: ١٢.

١ـ **الجامع الصحيح** ٤: ٥٠٥ ـ الباب ٥٢ و٥٣ ـ من كتاب الفتن.

٢ـ **سنن ابن ماجة**، للقزويني ٢: ١٣٦٨ ـ من كتاب الفتن.

إليّ؟ فما يأتيه أحد إلّا رجل واحد يأتيه فيسأله فيقول:ائتِ السادة حتّى يُعطيَك، فيأتيه فيقول: أنا رسول المهدي إليك لتعطيني مالاً، فيقول:احثُ، فيحثي حتّى لايستطيع أن يحمله، فيلقي حتّى يكون قدر ما يستطيع أن يحمله فيخرج به فيندم، فيقول: أنا كنت أجشع أمّة محمّد نفساً[1].

ونحو هذه الروايات التي ازدانت بها كتب أهل السنّة والجماعة، بما لايمكن لأيّ مسلم، مهما كان مذهبه الديني أو نحلته السياسيّة، من أن يشكّك في مثل هذه الأخبار المتّفق عليها، ولذا لم تنكر الفرق الإسلاميّة، المشهورة وغير المشهورة ما يقوله الشيعة الإماميّة بخصوص العقيدة المهدويّة، إلّا أنّ الاختلاف الذي حصل هو في ولادة المهدي المنتظر[2]، فالشيعة يَرْوون عن أكابر علمائهم، وبأخبار صحيحة وموثّقة، ومتّفق عليها بينهم اتّفاقاً مطلقاً، بأنّ الإمام المهدي عليه السلام قد وُلد في زمان أبيه الإمام الحسن العسكري عليه السلام. يقول الشيخ الكليني: في باب مولد الصاحب عليه السلام: ولد عليه السلام للنصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين[3]. وذلك في حياة أبيه عليه السلام الذي توفّي بعد ولادة ولده بخمس سنين على الأشهر. وقال الشيخ المفيد:كان الإمام بعد أبي محمّد عليه السلام ابنه المسمّى باسم رسول الله صلى الله عليه وآله المكنّى بكنيته، ولم يخلّف أبوه ولداً ظاهراً ولا باطناً غيره، وخلفه غائباً مستتراً.. وكان مولده عليه السلام ليلة النصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وأمّه أمّ

١ـ **كنز العمّال** ١٤: ٢٦٠/ ح٣٨٦٥.

٢ـ وإن كان هنالك عددٌ كبير من علماء أهل السنّة يقولون بولادة الإمام المهدي عليه السلام وأنّه ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام الذي استُشهد سنة ٢٦٠ هجرية. (يراجع: **أصالة المهدويّة في الإسلام**، للشيخ مهدي فقيه إيماني: ٨١ـ١٠٢).

٣ـ **الكافي** ١: ٥١٤.

ولد يقال لها:نرجس، وكان سنّه عند وفاة أبيه خمس سنين، آتاه الله فيها الحكمة وفصل الخطاب، وجعله آية للعالمين، وآتاه الحكمة كما آتاها يحيى صبيّاً، وجعله إماماً في حال الطفوليّة الظاهرة، كما جعل عيسى بن مريم في المهد نبيّاً[1]. وروى المسعوديّ عن جماعة من العلماء، منهم: علّان الكلابي، وموسى بن محمّد الغازي، وأحمد بن جعفر بن محمّد، بأسانيدهم أنّ حكيمة بنت أبي جعفر الجواد عليه السلام عمّة أبي محمّد عليه السلام كانت تدخل إلى أبي محمّد العسكري عليه السلام فتدعو له أن يرزقه الله ولداً، وأنّها قالت: دخلتُ عليه يوماً فدعوت له كما كنت أدعو، فقال لي: يا عمّة، أما إنّه يولد في هذه الليلة ـ وكانت ليلة النصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين ـ المولود الذي كنّا نتوقّعه، فاجعلي إفطارك عندنا. وكانت ليلة الجمعة، فقلت له:ممّن يكون هذا المولود يا سيّدي؟! فقال: من جاريتك نرجس، قالت:ولم يكن في الجواري أحبّ إليّ منها، ولا أخفّ على قلبي، وكنت إذا دخلت الدار تتلقّاني وتقبّل يدي وتنزع خفّي بيدها، فلمّا دخلت إليها ففعلت بي كما كانت تفعل، فانكببتُ على يدها فقبّلتها ومنعتها ممّا تفعله، فخاطبتني بالسيادة فخاطبتها بمثله، فأنكرت ذلك، فقلت لها:لاتنكري ما فعلتُه، فإنّ الله سيهب لك في ليلتنا هذه غلاماً سيّداً في الدنيا والآخرة، قالت: فاستحيت.قالت حكيمة: فتعجّبت وقلت لأبي محمّد: إنّي لست أرى بها أثر حمل، فتبسّم صلّى الله عليه وقال لي:إنّا معاشرَ الأوصياء لانُحمَل في البطون، ولكنّا نُحمَل في الجنوب. وفي هذه الليلة مع الفجر يولد المولود الكريم على الله إن شاء الله. قالت: فنمتُ بالقرب من الجارية وبات أبو محمّد عليه السلام في ضعة في تلك

١ـ الإرشاد: ٣٤٦.

الدار، فلمّا كان وقت صلاة الليل قمت، والجارية نائمة ما بها أثر الولادة، وأخذت في صلاتي ثمّ أوترت، فبينا أنا في الوتر حتّى وقع في نفسي أنّ الفجر قد طلع، ودخل في قلبي شيء، فصاح أبو محمّد عليه السلام من الصفّة: لم يطلع الفجر يا عمّة بعد! فأسرعت الصلاة وتحرّكت الجارية، فدنوت منها وضممتها إليّ وسمّيت عليها، ثمّ قلت لها: هل تحسّين شيئاً؟ قالت: نعم. فوقع علَيّ سبات لم أتمالك معه أن نمت، ووقع على الجارية مثل ذلك فنامت وهي قاعدة، فلم تنتبه إلّا وهي تحسّ مولاي وسيّدي تحتها، وبصوت أبي محمّد عليه السلام وهو يقول: يا عمّتي، هاتِ ابني إليّ! فكشفت عن سيّدي صلّى الله عليه فإذا أنا به ساجداً متقلّباً إلى الأرض بمساجده، وعلى ذراعه الأيمن مكتوب ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]، فضممته إليّ فوجدته مفروغاً منه ـ يعني مطهّر الختانة ـ ولففته في ثوب وحملته إلى أبي محمّد عليه السلام، فأخذه وأقعده على راحته اليسرى، وجعل يده اليمنى على ظهره، ثمّ أدخل لسانه في فيه وأمرّ يده على عينيه وسمعه ومفصاله، ثمّ قال: تكلّم يا بنيّ، فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأنّ عليّاً أمير المؤمنين. ثمّ لم يزل يعدّ السادة الأوصياء صلّى الله عليهم إلى أن بلغ إلى نفسه فدعا لأوليائه على يديه بالفَرَج، ثمّ صمت عليه السلام عن الكلام. قال أبو محمّد عليه السلام: اذهبي به إلى أمّه ليسلّم عليها وردّيه إليّ. فمضيت به فسلّم عليها فرددته، فوقع بيني وبينه كالحجاب فلم أر سيّدي، فقلت له: يا سيّدي أين مولاي؟ فقال: أخذه مَن هو أحقّ منكِ ومنّا. فإذا كان في اليوم السابع جئت فسلّمت وجلست، فقال عليه السلام: هلمّ ائتيني به. فجئت بسيّدي وهو في ثياب صفر، ففعل كفعاله الأوّل، وجعل لسانه في فيه ثمّ قال له:

١ـ الإسراء: ٨١.

تكلّم يا بنيّ، فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وثنّى بالصلاة على محمّد وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمّة، حتّى وقف على أبيه ثمّ قرأ هذه الآية ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1]. فلمّا كان بعد أربعين يوماً دخلتُ دار أبي محمّد عليه السلام، فإذا بمولاي يمشي في الدار! فلم أرَ وجهاً أحسن من وجهه صلّى الله عليه، ولا لغة أفصح من لغته، فقال أبو محمّد عليه السلام: هذا المولود الكريم على الله جلّ وعلا، قلت: يا سيّدي، أرى من أمره ما أرى وله أربعون يوماً! فتبسّم عليه السلام وقال: يا عمّتي أَوَما علمتِ أنّا معاشرَ الأوصياء ننشأ في اليوم مثل ما ينشأ غيرنا في الجمعة، وننشأ في الجمعة مثل ما ينشأ غيرنا في الشهر، وننشأ في الشهر مثل ما ينشأ غيرنا في السنة. فقمت فقبّلت رأسه وانصرفت، ثمّ عدت وتفقّدته فلم أره! فقلت لسيّدي أبي محمّد عليه السلام: ما فعل مولانا؟ فقال: يا عمّة، استودعناه الذي استودَعَت أمُّ موسى[2].

وروى الشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي مجموعة من الأخبار في ولادة الحجّة عليه السلام زمان أبيه عليه السلام، منها حديث محمّد بن موسى بن المتوكّل عن عبد الله بن جعفر الحِمْيري قال: حدّثنا محمّد بن أحمد العلويّ عن أبي غانم الخادم قال: وُلد لأبي محمّد عليه السلام ولد فسمّاه محمّداً، فعرضه على أصحابه يوم الثالث وقال: هذا صاحبكم من بعدي، وخليفتي عليكم، وهو القائم الذي تمتدّ إليه الأعناق بالانتظار، فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً خرج فملأها قسطاً وعدلاً. وعن

---

١ ـ القصص: ٥ و٦.

٢ ـ **إثبات الوصيّة:** ٢١٨.

عليّ بن الحسن بن الفرج المؤذّن قال: حدثني محمّد بن الحسن الكرخي قال:سمعت أبا هارون ـ رجلاً من أصحابنا ـ يقول: رأيت صاحب الزمان عليه السلام، وكان مولده يوم الجمعة سنة ستّ وخمسين ومائتين. وروى محمّد بن موسى بن المتوكّل قال:حدّثني عبد الله بن جعفر الحميري قال:حدّثني محمّد بن إبراهيم الكوفيّ: إنّ أبا محمد عليه السلام بعث لي بعض مَن سمّاه لي بشاةٍ مذبوحة، وقال: هذه من عقيقة ابني محمد. وروى محمّد بن عليّ ماجيلويه قال:حدّثنا محمّد بن يحيى العطّار قال:حدّثنا الحسين بن عليّ النيسابوري قال:حدثنا الحسن بن المنذر، عن حمزة بن أبي الفتح قال:جاءني يوماً فقال لي: البشارة! وُلد البارحة في الدار مولود لأبي محمد عليه السلام وأمر بكتمانه، قلت: وما اسمه ؟قال: سُمّي بمحمّد وكُنّي بأبي جعفر. وروى محمّد بن إبراهيم بن إسحاق قال: حدّثنا الحسن بن عليّ بن زكريّا بمدينة السلام قال:حدثنا أبو عبد الله محمّد بن خليلان قال:حدّثني أبي عن أبيه، عن جدّه، عن غياث بن أسيد قال: وُلد الخلف المهدي عليه السلام يوم الجمعة، وأمّه ريحانة ويقال لها: نرجس، ويقال:صقيل، ويقال:سوسن، إلّا أنّه قيل:لسبب الحمل صقيل[1]. وكان مولده عليه السلام لثمان ليال خلون من شعبان سنة ستّ وخمسين ومائتين، ووكيله عثمان بن سعيد، فلمّا مات عثمان أوصى إلى ابنه أبي جعفر محمّد بن عثمان، وأوصى أبو جعفر إلى أبي القاسم الحسين بن روح، وأوصى أبو القاسم إلى أبي الحسن عليّ بن محمّد السمريّ رضي الله عنهم، قال: فلمّا حضرت السمريَّ الوفاةُ سُئل أن يوصي، فقال: لله أمر هو بالغُه. فالغيبة التامّة وقعت بعد

١ـ يقال لأمّ مولانا الإمام الحجّة صلوات الله عليه صقيل، لِما اعتراها من النور والجلاء بسبب الحمل المنوّر. **بحار الأنوار** ٥١ : ١٥/ ح ١٥ـ عن: **كمال الدين، سفينة البحار** ٣: ١٠١ (صقل).

مضيّ السمري رضي الله عنه[1].

والمراد من الغيبة التامّة هي الغيبة الكبرى. فالمحصّل من عامّة الأخبار التي رواها علماء الشيعة أنّ الإمام الحسن العسكري على آبائه وعليه التحيّة والسلام لم يُظهر ولادة المهدي عليه السلام، بل كتمها عن شيعته وأنصاره، إلّا لعدد من خواصّ شيعته وأصحابه، نظراً للرقابة العبّاسيّة الشديدة التي كانت تخشى هذا المولود الذي يهدّد سلطانهم. و كان قد توثّق سلاطين بني العبّاس من حصول الولد للإمام الحسن العسكري عليه السلام، بعد تناقل أخبار متواترة لديهم عن جدّهم عبد الله بن عبّاس وغيره من الصحابة، بأنّ المهدي من نسل فاطمة عليها السلام، فقد كان العبّاسيون يتناقلون الأخبار عن قيام المهدي عليه السلام، حتّى إنّ المنصور الدوانيقي[2] ربّما سمّى

١ـ **كمال الدين وتمام النعمة** ـ ٣٩٦ ـ ٣٩٧، الباب ٤٢/ ح ٨ ـ ١٢ ما رُوي في ميلاد القائم صاحب الزمان حجّة الله.. .

٢ـ كان أبو جعفر المنصور الدوانيقي يعتقد في أعماقه بأنّ المهدي عليه السلام حقّ لا مراء فيه، وأنّه من ولد فاطمة عليها السلام، فقد روى الشيخ المفيد بإسناده إلى إسماعيل بن الصبّاح قال: سمعت شيخاً من أصحابنا يذكر عن سيف بن عُمَيرة قال:كنت عند أبي جعفر المنصور فقال لي ابتداءً: يا سيف بن عميرة، لابدّ من منادٍ ينادي من السماء باسم رجل من وُلد أبي طالب، فقلت: جعلت فداك يا أمير المؤمنين، تروي هذا ! قال:إي والذي نفسي بيده، لسماع أذني له، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إنّ هذا الحديث ما سمعتُه قبل وقتي هذا، قال: يا سيف، إنّه لَحقّ، فإذا كان فنحن أوّل من يجيبه، أما إنّ النداء لرجل من بني عمّنا، فقلت: رجل من ولد فاطمة؟! قال: نعم، يا سيف، لولا إنّني سمعت من أبي جعفر محمّد بن عليّ يحدّثني به، وحدّثني به أهل الأرض كلّهم ما قبلته منهم، ولكنّه محمّد بن عليّ. **الإرشاد**: ٣٥٨. وكذلك الحال لهارون العبّاسي، فقد كان يعتقد بأنّ المهدي الحقّ هو من ذرّية النبيّ صلى الله عليه وآله، وليس للعبّاس فيه نصيب، فنفى أن يكون المقصود به المهدي العبّاسي. وقد روى الطبرسي في ←

ولده بالمهدي ظنّاً منه أنّ القائم سيكون من ولده، وربّما تصوّر سلاطين بني العبّاس بأنّهم يتمكّنون من التحكّم بهذا الشخص أووضعه في مدارهم، وحصره بنسلهم، وكأنّه يمكن أن يصير بقبضتهم، أوأن يتمكّنوا من محوه من الوجود إن خرج عن إرادتهم أو أرادوا ذلك، وإلى ذلك أشار الشيخ المفيد بالقول: خلّف [الإمام العسكري عليه السلام] ابنَه المنتظر لدولة الحقّ، وكان قد أخفى مولده وستر أمره، لصعوبة الوقت، وشدّة طلب سلطان الزمان له، واجتهاده في البحث عن أمره، ولِما شاع من مذهب الشيعة الإماميّة فيه، وعُرف من انتظارهم له، فلم يُظهر ولده عليه السلام في حياته، ولا عرفه الجمهور بعد وفاته، وتولّى جعفر بن عليّ أخو أبي محمّد عليه السلام أخذ تَرِكته، وسعى في حبس جواري أبي محمّد عليه السلام واعتقال حلايله، وشنّع على أصحابه بانتظارهم ولده وقطعهم بوجوده والقول بإمامته، وأغرى بالقوم حتّى أخافهم وشرّدهم، وجرى على مخلفي أبي محمد عليه السلام بسبب ذلك كلّ عظيمة، من اعتقال وحبس وتهديد وتصغير واستخفاف وذلّ، ولم يظفر السلطان منهم بطائل. وحاز جعفر ظاهراً تركة أبي محمّد عليه السلام، واجتهد في القيام عند الشيعة مقامه، ولم يقبل أحد منهم ذلك، ولا اعتقده فيه، فصار إلى سلطان الوقت يلتمس مرتبة أخيه،

حديث لسليمان بن إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العبّاس قال:حدّثني أبي قال:كنت يوماً عند الرشيد فذكر المهدي، وما ذكر من عدله، فأطنب عن ذلك، فقال الرشيد:أحسَبُكم تحسبونه أبي المهدي! حدّثني أبي عن أبيه، عن جدّه، عن ابن عبّاس، عن أبيه العبّاس بن عبد المطّلب أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال له:يا عمّ، يملك مِن وُلدي اثنا عشر خليفة، ثمّ تكون أمور كريهة شديدة عظيمة، ثمّ يخرج المهدي مِن وُلدي يُصلح اللهُ أمره في ليلة ، فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، ويمكث في الأرض ما شاء الله، ثمّ يخرج الدجّال. **إعلام الورى بأعلام الهدى:** ٣٦٥.

وبذل مالاً جليلاً، وتقرّب بكلّ ما ظنّ أنّه يتقرّب به فلم ينتفع بشيءٍ من ذلك[1].

وهناك رواية حول هذا الموضوع يرويها الشيخ الصدوق، عن أبيه ومحمّد بن الحسن بن الوليد أنّهما قالا:حدّثنا سعد بن عبد الله قال:حدّثنا من حضر موت الحسن بن عليّ بن محمّد العسكري عليه السلام ودفنه، ممّن لا يوقف على إحصاء عددهم، ولايجوز على مثلهم التواطؤ بالكذب. وبعد، فقد حضرنا في شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين، وذلك بعد مضيّ أبي محمّد الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام بثماني عشرة سنة أو أكثر، مجلس أحمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وهو عامل السلطان يومئذ على الخراج والضياع بِكُورة قمّ، وكان من أنصب خلق الله وأشدّهم عداوة لهم، فجرى ذكر المقيمين من آل أبي طالب بسرّ من رأى، ومذاهبهم، وصلاحهم، وأقدارهم عند السلطان، فقال أحمد بن عبيد الله: ما رأيت ولا عرفت بسرّ من رأى رجلاً من العلويّة مثل الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ الرضا عليهم السلام، ولاسمعت به في هديه وسكونه وعفافه ونبله وكرمه عند أهل بيته والسلطان وجميع بني هاشم، وتقديمهم إيّاه على ذوي السنّ منهم والخطر، وكذلك القوّاد والوزراء والكتّاب وعوامّ الناس، فإنّي كنت قائماً ذات يوم على رأس أبي، وهو يوم مجلسه للناس إذ دخل عليه حجّابه فقالوا له: إنّ ابن الرضا على الباب، فقال بصوت عال:إئذنوا له. فدخل رجل أسمر أعيَن حسَن القامة، جميل الوجه، جيّد البدن، حسن السنّ، له جلالة وهيبة، فلمّا نظر إليه أبي قام فمشى إليه خُطى، ولا أعلمه فعَلَ هذا بأحد من بني هاشم، ولا بالقوّاد ولا بأولياء العهد، فلمّا دنا منه عانقه وقبّل وجهه ومنكبيه، وأخذ بيده فأجلسه على مصلّاه الذي كان عليه، وجلس إلى

١ـ الإرشاد: ٣٤٥.

جنبه، مُقْبلاً عليه بوجهه، وجعل يكلّمه ويكنّيه، ويُفدّيه بنفسه وأبويه، وأنا متعجّب ممّا أرى منه، إذ دخل عليه الحجّاب فقالوا:الموفّق قد جاء. وكان الموفّق إذا جاء ودخل على أبي تقدّم حجّابه وخاصّة قوّاده، فقاموا بين مجلس أبي وبين باب الدار سماطين إلى أن يدخل ويخرج، فلم يزل أبي مُقْبلاً عليه ويحدّثه حتّى نظر إلى غلمان الخاصّة فقال حينئذ: إذا شئتَ فقم، جعلني الله فداك يا أبا محمد. ثمّ قال لغلمانه: خذوا به خلف السماطين كي لا يراه الأمير ـ يعني الموفّق ـ. فقام وقام أبي وعانقه وقبّل وجهه ومضى، فقلت لحجّاب أبي وغلمانه: وَيْلكم! مَن هذا الذي فعل به أبي هذا الذي فعل؟! فقالوا:هذا رجل من العلوية يقال له: الحسن بن علي يعرف بابن الرضا. فازددت تعجّباً، فلم أزل يومي ذلك قلقاً متفكّراً في أمره وأمر أبي وما رأيت منه حتّى كان الليل، وكانت عادته أن يصلّي العتمة، ثمّ يجلس فينظر فيما يحتاج إليه من المؤامرات وما يرفعه إلى السلطان، فلمّا صلّى وجلس جئت فجلست بين يديه، فقال:يا أحمد، ألك حاجة؟ فقلت:نعم يا أبه، إن أذنتَ سألتك عنها، فقال:قد أذنت لك يابنيّ فقل ما أحببت، فقلت له:يا أبه، من كان الرجل الذي أتاك بالغداة، وفعلت به ما فعلت من الإجلال والتكريم والتبجيل، وفدّيته بنفسك وبأبويك ؟ فقال:يا بنيّ، ذاك إمام الرافضة، ذاك ابن الرضا. فسكت ساعة فقال:يا بنيّ، لو زالت الخلافة عن خلفاء بني العبّاس ما استحقّها أحد من بني هاشم غير هذا، فإنّ هذا يستحقّها في فضله وعفافه وهديه وصيانة نفسه وزهده وعبادته وجميل أخلاقه وصلاحه، ولو رأيت أباه لرأيت رجلاً نبيلاً خيّراً فاضلاً. فازددت قلقاً وتفكّراً وغيظاً على أبي ممّا سمعت منه فيه، ولم يكن لي همّة بعد ذلك إلّا السؤال عن خبره، والبحث عن أمره، فما سألت عنه أحداً من بني هاشم ومن القوّاد والكتّاب والقضاة والفقهاء وسائر الناس إلّا وجدته عندهم في غاية

الإجلال والإعظام، والمحلّ الرفيع، والقول الجميل، والتقديم له على جميع أهل بيته ومشايخه وغيرهم، وكلّ يقول: هو إمام الرافضة. فعظم قَدْره عندي إذ لم أر له وليّاً ولاعدوّاً إلّا وهويحسن القول فيه والثناء عليه.

فقال له بعض أهل المجلس من الأشعريين: يا أبا بكر، فما خبرأخيه جعفر؟ فقال: ومَن جعفر فيُسأل عن خبره، أو يُقرَن به ! إنّ جعفراً معلن بالفسق، ماجن، شرّيب للخمور، وأقلّ من رأيته من الرجال وأهتكهم لستره، فَدْمٌ[1] خمّار، قليل في نفسه خفيف، والله لقد ورد على السلطان وأصحابه في وقت وفاة الحسن بن عليّ عليهما السلام ما تعجّبت منه، وما ظننت أنّه يكون، وذلك أنّه لمّا اعتلّ بُعث إلى أبي أنّ ابن الرضا قد اعتلّ، فركب من ساعته مبادراً إلى دار الخلافة، ثمّ رجع مستعجلاً ومعه خمسة نفر من خدّام أمير المؤمنين كلّهم من ثقاته وخاصّته، فمنهم نحرير، وأمرهم بلزوم دار الحسن بن عليّ عليهما السلام وتعرّف خبره وحاله، وبعث إلى نفر، من المتطبّبين فأمرهم بالاختلاف إليه وتعاهده صباحاً ومساءً، فلمّا كان بعد ذلك بيومين جاءه مَن أخبره أنّه قد ضعف، فركب حتّى بكّر إليه، ثمّ أمر المتطبّبين بلزومه، وبعث إلى قاضي القضاة فأحضره مجلسه وأمره أن يختار من أصحابه عشرة ممّن يوثق به في دينه وأمانته وورعه، فأحضرهم فبعث بهم إلى دار الحسن عليه السلام، وأمرهم بلزوم داره ليلاً ونهاراً، فلم يزالوا هناك حتّى توفّي عليه السلام لأيّام مضت من شهر ربيع الأوّل من سنة ستّين ومائتين، فصارت سُرّمن رأى ضجّة واحدة: مات ابن الرضا! وبعث السلطان إلى داره من يفتّشها ويفتّش حُجرَها، وختم على جميع ما

١ـ الفَدْم من الناس: العيي عن الحجّة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلّة فهم، وهو أيضاً الغليظ السمين الأحمق الجافي. **لسان العرب** (فدم).

فيها. وطلبوا أثر ولده وجاؤوا بنساء يَعرفن بالحَبَل، فدخلن على جواريه فنظرن إليهنّ فذكر بعضهنّ أنّ هناك جارية بها حبل، فأمر بها فجُعلت في حجرة ووُكّل بها نحرير الخادم وأصحابه ونسوة معهم، ثمّ أخذوا بعد ذلك في تهيئته، وعطّلت الأسواق وركب أبي وبنو هاشم والقوّاد والكتّاب وسائر الناس إلى جنازته عليه السلام، فكانت سرّ من رأى يومئذ شبيهة بالقيامة، فلمّا فرغوا من تهيئته بعث السلطان إلى أبي عيسى بن المتوكّل فأمره بالصلاة عليه، فلمّا وُضعت الجنازة للصلاة دنا أبو عيسى منها فكشف عن وجهه فعرضه على بني هاشم من العلوية والعبّاسيّة والقوّاد والكتّاب والقضاة والفقهاء والمعدّلين وقال: هذا الحسن بن عليّ بن محمّد بن الرضا مات حتف أنفه على فراشه، حضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان، ومن المتطبّبين فلان وفلان، ومن القضاة فلان وفلان. ثمّ غطّى وجهه وقام، فصلّى عليه وكبّر عليه خمساً وأمر بحمله من وسط داره، ودفن في البيت الذي دفن فيه أبوه عليه السلام.

فلمّا دُفن وتفرّق الناس اضطرب السلطان وأصحابه في طلب ولده، وكثر التفتيش في المنازل والدور، وتوقّفوا على قسمة ميراثه، ولم يزل الذين وُكّلوا بحفظ الجارية التي توهّموا عليها الحبل ملازمين لها سنتين وأكثر حتّى تبيّن لهم بطلان الحبل، فقُسّم ميراثه بين أمّه وأخيه جعفر، وادّعت أمّه وصيّته، وثبت ذلك عند القاضي. والسلطان على ذلك يطلب أثر ولده، فجاء جعفر بعد قسمة الميراث إلى أبي وقال له:اجعل لي مرتبة أبي وأخي، وأُوصل إليك في كلّ سنة عشرين ألف دينار مسلّمة، فزبره أبي وأسمعه. وقال له:يا أحمق، إنّ السلطان ـ أعزّه الله ـ جرّد سيفه وسوطه في الذين زعموا أنّ أباك وأخاك أئمّة ليردّهم عن ذلك فلم يقدر، ولم يتهيّأ له صرفهم عن هذا القول فيهما، وجهد أن يزيل أباك وأخاك عن تلك المرتبة فلم يتهيّأ له ذلك، فإن كنت عند شيعة أبيك وأخيك إماماً، فلا حاجة بك إلى السلطان يرتّبك مراتبهم ولا غير السلطان، وإن لم تكن عندهم بهذه المنزلة لم تنلها بنا.

واستقلّه[١] أبي عند ذلك واستضعفه، وأمر أن يُحجَب عنه فلم يأذن له بالدخول عليه حتّى مات أبي. وخرجنا والأمر على تلك الحال والسلطان يطلب أثر ولد الحسن بن علي عليه السلام حتّى اليوم. قال الشيخ الصدوق في تعليقه على هذا الكلام: وإنّما كان السلطان لايفتُر عن طلب الولد لأنّه قد كان وقع في مسامعه خبره، وقد كان وُلد عليه السلام قبل موت أبيه بسنين، وعرَضَه على أصحابه وقال لهم:هذا إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم، أطيعوه ولا تتفرّقوا من بعدي في أديانكم فتهلكوا، أما إنّكم لن تروه بعد يومكم هذا. فغيّبه ولم يُظهره، فلذلك لم يَفتُر السلطان عن طلبه[٢].

ويبدو أنّ الإمام المهدي أو القائم عليه السلام، في أذهان بني أميّة وبني العبّاس، كان يرمز إلى القوّة القاهرة الماحقة التي تزيل الظلم وتمحقه، لذلك كان هناك شعور قوي لديهم بأنّ هذا الرجل سيظهر في أيّ فترة وفي أيّ ظرف يقدّره الله له، وسينهي تسلطهم وسطوتهم على العباد والبلاد، فسعوا لاستئصاله والقضاء عليه قبل ظهور أمره وتحققه، كما أشار الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى هذا بقوله لجماعة من أصحابه[٣]: إنّ الله تعالى ذِكرُه أدار في القائم منّا ثلاثة أدارها لثلاثة من الرسل: قدّر مولده تقدير مولد موسى عليه السلام، وقدّر غيبته تقدير غيبة عيسى عليه السلام، وقدّر إبطاءه تقدير إبطاء نوح عليه السلام، وجعل له من بعد ذلك عمر العبد الصالح ـ أعني الخضر عليه السلام ـ دليلاً على عمره. فقلنا: اكشف لنا يا ابن رسول الله عن وجوه هذه المعاني ؟ قال: أمّا مولد موسى عليه السلام فإنّ فرعون لمّا وقف على أنّ زوال ملكه على يده، أمر بإحضار الكهنة،

١ـ استقلّ الشيءَ: عدّه قليلاً. **القاموس المحيط** ٣: ٦٠٢.

٢ـ **كمال الدين وتمام النعمة:** ٤٣٥/ ح٢ـ الباب ٤٣، **الإرشاد:** ٣٣٨ـ٣٤٠.

٣ـ روى الخبر الشيخُ الطوسي بإسناده عن سدير الصيرفي قال:دخلت أنا والمفضّل بن عمر وداود ابن كثير الرقّي وأبو بصير وأبان بن تغلب على مولانا الصادق عليه السلام. **الغيبة:** ١٦٧/ الرقم ١٢٩.

فدلّوا على نسبه، وأنّه يكون من بني إسرائيل، فلم يزل يأمر أصحابه بشقّ بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل، حتّى قتل في طلبه نيّفاً وعشرين ألفَ مولود، وتعذّر عليه الوصول إلى قتل موسى عليه السلام بحفظ الله تعالى إيّاه. كذلك بنو أميّة وبنو العبّاس، لمّا أن وقفوا على أنّ به زوال مملكة الأمراء والجبابرة منهم على يدَيِ القائم منّا، ناصبونا العداوة، ووضعوا سيوفهم في قتل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وإبادة نسله، طمعاً منهم في الوصول إلى قتل القائم عليه السلام، فأبى الله أن يكشف أمره لواحد من الظلمة إلّا أن يتمّ نوره ولو كره المشركون[1].

وتكاد تتّفق الأخبار على أنّ قيام دولة الإمام المهدي عليه السلام سيكون في آخر الزمان البشري، وستكون دولته عليه السلام عابرة لأزمنة ودول كثيرة، ظهرت بعضها وقامت، ومنها دول وحكومات لم يشهد الزمان ولادتها إلى الآن، وقد يطول أو يقصر الزمن الذي ترى فيه الأجيال ظهور هذه الدول واختفاءَها، ولذا لم تَخْلُ كتب الأخبار من الإشارة إلى ذكر الإمام المنتظر المهدي عليه السلام ودولته القادمة، وما يتقدّم هذه الدولةَ مِن فتن وملاحم وأحداث تعصف بالأرض وتزلزلها، حتّى تنقضي وتزول في نهاية المطاف، ويكون الحكم لله ويتحقّق وعده. وكان الأئمّة عليهم السلام يتوارثون الإخبار عنه والوصيّة به، تصريحاً وتلميحاً، وربّما يكون مناسباً للبحث نقل بعض هذه النصوص الواردة بهذا الخصوص في الإشارة إلى المهدي عليه السلام:

منها ما روى الشيخ المفيد بإسناده إلى داود بن القاسم الجعفريّ قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام ـ أي علي الهادي عليه السلام ـ يقول: الخَلَف من بعدي الحسن عليه السلام، فكيف لكم بالخَلَف مِن بعد الخلف! فقلت: ولِمَ جعلني الله فداك؟! فقال: إنّكم لا ترون

١ـ الغَيبة، للطوسي: ١٦٩.

شخصه، ولايحلّ لكم ذِكرُه باسمه، فقلت:فكيف نذكره؟فقال:قولوا الحجّة من آل محمّد عليه السلام[1]. وروي عن عليّ بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه عن جدّه عن عيسى بن صبيح أنّه قال: دخل الحسن العسكريّ عليه السلام علينا الحبس وكنت به عارفاً، فقال لي: لك خمس وستّون سنة وشهر ويومان. وكان معي كتاب دعاء عليه تاريخ مولدي، وإنّني نظرت فيه فكان كما قال. وقال: هل رُزقتَ ولداً؟ قلت:لا، فقال: أللهمّ ارزقه ولداً يكون له عضداً، فنعم العضد الولد. ثمّ تمثّل عليه السلام:

مَــن كان ذا عَضُدٍ يُدرِكْ ظُلامتَهُ إنّ الذليلَ الذي لَيسَت له عَضُدُ

قلت: ألك ولد؟ قال:إي والله، سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، فأمّا الآن فلا. ثمّ تمثّل:

لعــلّك يــوماً أن تراني كأنّما بَنيّ حــواليَّ الأســـودُ اللوابدُ
فإنّ تميماً قبـل أن يلد الحصى أقـام زماناً وهوفي الناس واحدُ[2]

وتعتبر المدّة الزمنيّة لإمامة الهادي والعسكري عليهما السلام هي المقدّمة أوالتمهيد الروحي والنفسي للأمّة، لاستقبال فكرة الخليفة السماوي المنقذ الذي يحمل بصمات آخر رسالة سماويّة، أوبعبارة أخرى يقوم بتطبيق هذه الرسالة الأخيرة، أو يجدد آخررسالة سماوية، ويبعث روح جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله فيها، بعد أن تناساها المسلمون وتركوا العمل بها، وتاهوا في ضلالات السنين، وانغمسوا في شهواتهم ونزواتهم، فيأخذ بأيديهم ويضعهم على جادّة السنّة، ويمحوما ظهرمن البدع، ويقمع الفتنه ورؤوسها.

١ـ الإرشاد: ٣٣٨.

٢ـ بحار الأنوار٥٠: ٢٧٥ـ٢٧٦/ ح٤٨ـ عن: الخرائج والجرائح ١: ٤٧٨/ ح١٩.

المهدي والسفياني والدجّال

ربّما تكاثرت الموضوعات والمقالات التي تبحث في مقدّمات العصور التي ستشهد موجة من الاضطرابات والانقلابات والفتن، والتي ستتمخّض عنها أحداث ومتغيّرات هائلة، ويرافقها أو يتزامن معها ظهور شخصيات فيها غرابة أوأشياء غير مألوفة، وليس بالضرورة أن تكون هذه الظواهر والعلامات نذير شؤم أو أنّ عذاباً سيلحق بالمجتمعات البشريّة، فهناك ظاهرة سماوية إيجابية تحمل معها مبشّرات، كأن تكون معجزات أو أعاجيب، كالدابّة التي هي شخصية بشريّة خيّرة، فالدابّة التي أشارت إليها الأخبارُ وجّهت إلى شخص معيّن أو طبقة صالحة، حيث أشار قوله تعالى في محكم كتابه: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ**﴾[1]، فظاهر الآية يشير إلى شخص ربّاني كامل يكلّم الناس في آخر الزمان، أو في زمن الرجعة. وفي رواية أبي بصير فَسَّره الإمام الصادق عليه السلام هنا بعليّ أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله، ثمّ قال له:قم يا دابّة الله، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، أَيُسمّي بعضنا بعضاً

---

١ ـ النمل: ٨٢.

بهذا الاسم؟ فقال:لا والله، ما هوإلّا له خاصّة، وهوالدابّة التي ذكرالله في كتابه.. ثمّ قال:يا عليّ، إذا كان آخِرُالزمان أخرجك الله في أحسن صورة، ومعك ميسم تَسِم به أعداءك. فقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام:إنّ الناس يقولون هذه الدابّة إنّما تكلّمهم، فقال أبوعبد الله عليه السلام: كلّمهم الله في نار جهنّم، إنّما هو يكلّمهم من الكلام[1] وإلى جانب هذه الظاهرة أو الشخصية هناك ظواهر وشخصيات سلبية مضطربة قلقة، قد تعصف بحياة المسلمين وتمزّقهم، وقد رمزت بعض الأخبار والروايات لهذه الشخصيات بعنوان الدجّال أو السفياني، وربّما كان هذا الرمز يشير إلى طبقة من الكذّابين، أو الطغاة، أوالمشعوذين، أو المنحرفين عن الخطّ الديني السماوي. وربّما كانت هناك بعض الأخبار فوق مدارك الرواة فأهملوها، أو كأنّهم لم يفهموها، ومهما تكن هذه الأخبار فهي أخبار مستقبلية ربّما لم يَحِنْ بعدُ زمانُ تحققها فتحيّرت العقول في فهمها، وما زالت الأذهان البشرية تتوقّف عندها.

وربّما اتّفقت ألسنة الرواة أحياناً على بعض هذه المسمّيات في هذا الشأن، وصارت مفاهيم وعناوين في هذا الشأن ملازمة لبحث الدولة المهدويّة، فقد تكرر ذكر بعض الألفاظ والاصطلاحات التي لها ارتباط من قريب أو بعيد بهذا البحث، كمفهوم السفياني، أو اليماني، أو الحسني أونحو ذلك، وقد اقترن لفظ السفياني، أو خبره في علائم الظهور، أو مقدّمات الغيبة. وهناك روايات وإشارات كثيرة أومأت إلى خبرالسفياني تناقلتهاكتب الشيعة الإماميّة، منها ما رواه الشيخ الطوسي بإسناده عن هشام، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:اليماني والسفياني كفَرَسَي رهان. وأسند إلى خلّاد عن جعفربن محمّد عليه السلام قال: الفياني لابدّ منه، ولايخرج إلّا في

١ـ تفسيرالقمّي ٢: ١٠٦.

رجب. وعن خلّاد أيضاً: سأل رجل جعفربن محمّد عليه السلام فقال:يا أبا عبد الله، إذا خرج السفياني فما حالنا؟ قال:إذا كان ذلك فإلينا[1]. وما رواه الشيخ الصدوق بإسناده إلى إلى المعلّى بن خُنَيس، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ أمر السفياني من الأمر المحتوم، وخروجه في رجب. وأسند إلى عمر بن حنظلة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:قبل قيام القائم خمس علامات محتومات:اليماني، والسفياني، والصيحة، وقتل النفس الزكيّة، والخسف بالبيداء. وأسند إلى أبي حمزة الثُّمالي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ أبا جعفر عليه السلام كان يقول:إنّ خروج السفياني من الأمر المحتوم؟ قال لي: نعم، واختلاف وُلد العبّاس من المحتوم، وقتل النفس الزكيّة من المحتوم، وخروج القائم عليه السلام من المحتوم[2]. وقد ورد ذلك أيضاً في روايات أهل السنّة والجماعة بمعناه دون لفظه، وأكثر لفظ تداولته مصادر أهل السنّة والجماعة، ومنها كتب الصحاح لديهم، هو لفظ «الدجّال»، وهناك روايات كثيرة لهذا الرمز تناقلوها في كتبهم المعتبرة، ومن هذه الروايات رواية أبي عبيدة الجرّاح الذي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:إنّه لم يكن نبيّ بعد نوح إلّا قد أنذر الدجّال قومَه، وإنّي أُنذركموه! فوصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وآله.[3]

وكأنّ لفظ السفياني أصبح رمزاً لكلّ تيّار وخطّ يعادي الفطرة البشرية والإسلام الحقيقيّ، وبالضرورة وبالحتميّة التاريخيّة يكون معادياً للفكر الإمامي والمعتقدات التي يؤمن بها أتباع أهل البيت عليهم السلام، وقد اقترن لفظ السفياني أو نحو هذا اللفظ

١ـ **أمالي الطوسيّ**: ٦٦١ و ٦٧٩/ الرقم ١٣٣٧٦ / ١٤٤٢ / ٢١ و٢٢.

٢ـ **كمال الدين وتمام النعمة**: ٥٨٩ ـ ٥٩٠/ ح و١٤ـ الباب ٥٧.

٣ـ **سنن الترمذي** ٤: ٥٠٧/ الرقم ٢٢٣٤ـ الباب ٥٥ من كتاب الفتن.

أيضاً بلفظ قد يرادف محتواه، كأن يكون لفظ الدجّال، كما جاء في رواية الشيخ الطوسي عن مجمع بن جارية قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول: يُقتَل الدجّال دون باب اللدّ بسبعة عشر ذراعاً. واللدّ بالرملة. وفي رواية أخرى أيضاً عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: ليهبطنّ الدجّال بجور وكرمان في ثمانين ألفاً، كأنّ وجوههم مجانّ مطرّقة، يلبسون الطيالسة وينتعلون الشعر. وفي رواية أخرى أيضاً عن قتادة، عن أنس قال: قال النبيّ ﷺ: الدجّال لايدخل مكّة والمدينة، على كلّ نقب من أنقابها ملك شاهر سيفه. وفي رواية جابر بن يزيد الجُعفيّ، عن عبد الله بن يحيى الحضرميّ قال:سمعت عليّاً عليه السلام يقول: كنّا جلوساً عند النبيّ ﷺ وهو نائم ورأسه في حِجْري، فتذاكرنا الدجّال، فاستيقظ النبيّ ﷺ محمرّاً وجهُه فقال: لَغيرُ الدجّال أخوف عليكم من الدجّال الأئمّةُ المضلّون، وسفك دماء عترتي من بعدي، أنا حرب لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم[1]. والتعبير عن الدجّال أو السفياني باللفظ المباشر أو

١ـ **أمالي الطوسي:** ٢٦٥ و ٣٨٢ و٥١٢ / الرقم ٤٨٧ / ٢٥ و٤٨٨ / ٢٦ و٨٢٢ / ٧٣ و١١٢١ / ٢٨. وقد روى الشيخ الصدوق بإسناده إلى النزّال بن سبرة قال:خطَبَنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه وصلّى على محمّد ﷺ ثمّ قال: سلوني أيّها الناس قبل أن تفقدوني ـ ثلاثاً ـ ، فقام إليه صعصعة بن صُوحان فقال: يا أمير المؤمنين، متى يخرج الدجّال؟ فقال له عليّ عليه السلام: اقعدْ فقد سمع الله كلامك وعلم ما أردت، والله ما المسؤول عنه بأعلمَ من السائل، ولكن لذلك علامات وهيئات يَتْبع بعضها بعضاً كحذو النعل بالنعل، وإن شئتُ أنبأتك بها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: احفظ، فإنّ علامة ذلك: إذا أمات الناسُ الصلاة، وأضاعوا الأمانة، واستحلّوا الكذب، وأكلوا الربا، وأخذوا الرُّشى، وشيّدوا البنيان، وباعوا الدين بالدنيا، واستعملوا السفهاء، وشاوروا النساء، وقطعوا الأرحام، واتّبعوا الأهواء، واستخفّوا بالدماء، وكان الحِلم ضَعفاً، والظلم فخراً، وكان الأمراء فَجَرة، والوزراء ظَلَمة، والعرفاء خَوَنة، والقرّاء فسقة، وظهرت شهادة الزور، واستعلن الفجور وقول البهتان والإثم

←

والطغيان، وحُلّيت المصاحف، وزُخرفت المساجد، وطُوّلت المنارات، وأُكرمت الأشرار، وازدُحمت الصفوف، واختلفت القلوب، ونُقضت العهود، واقترب الموعود، وشارك النساء أزواجهنّ في التجارة حرصاً على الدنيا، وعلت أصوات الفسّاق واستُمع منهم، وكان زعيم القوم أرذلَهم، واتُّقي الفاجر مخافة شرّه، وصُدّق الكاذب، وائتُمن الخائن، واتُّخذت القيان والمعازف، ولعنَ آخرُ هذه الأمّة أوّلها، وركب ذواتُ الفروج السروج، وتشبّه النساء بالرجال والرجالُ بالنساء، وشهد الشاهد من غير أن يُستشهَد، وشهد الآخر قضاء لذمام بغي حقّ عرفه، وتُفقّه لغير الدين، وآثروا عمل الدنيا على الآخرة، ولبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب، وقلوبُهم أنتن من الجِيف، وأمرُّ من الصبر، فعند ذلك الوحا الوحا! ثمّ العجل العجل، خير المساكن يومئذ بيت المَقْدس، وليأتين زمان يتمنّى أحدهم أنّه من سكّانه. فقام إليه الأصبغ ابن نباتة فقال: يا أمير المؤمنين، مَن الدجّال؟ فقال: ألا إنّ صائد بن الصيد، فالشقيّ من صدّقه، والسعيد من كذّبه، يخرج من بلدة يقال لها: إصفهان، من قرية تُعرَف باليهودية، عينه اليمنى ممسوحة، والعين الأخرى في جبهته تُضيء كأنّها كوكب الصبح، فيها علقة كأنّها ممزوجة بالدم، بين عينيه مكتوب: كافر، يقرأه كلّ كاتب وأمّيّ، يخوض البحار وتسير معه الشمس، بين يديه جبل من دخان، وخلفه جبل أبيض يرى الناس أنّه طعام، يخرج حين يخرج في قحط شديد تحته حمار أقمر، خطوة حماره ميل، تُطوى له الأرض منهلاً منهلاً، لايمرّ بماء إلّا غار إلى يوم القيامة، ينادي بأعلى صوته يسمع ما بين الخافقين من الجنّ والإنس والشياطين يقول: إليّ أوليائي، أنا الذي خَلَق فسوّى وقَدّر فهدى، أنا ربّكمُ الأعلى! وكذب عدوّ الله، إنّه أعور يطعم الطعام، ويمشي في الأسواق، وإنّ ربّكم عزّوجلّ ليس بأعور، ولايطعم ولايمشي ولايزول، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. ألا وإنّ أكثر أتباعه يومئذ أولاد الزنا، وأصحاب الطيالسة الخضر، يقتله الله عزّوجلّ بالشام على عقبة تُعرَف بعقبة أفيق لثلاث ساعات مضت من يوم الجمعة على يد من يصلّي المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام خلفه، ألا إنّ بعد ذلك الطامّة الكبرى! قلنا: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟! قال: خروج دابّة الأرض من عند الصفا، معها خاتم سليمان بن داود وعصى موسى عليهما السلام، يضع الخاتم على وجه كلّ مؤمن فينطبع فيه: هذا مؤمن حقّاً، ويضعه على وجه كلّ كافر فيكتب: هذا كافر حقّاً، حتّى إنّ ←

بأيّ رمز أو إشارة أو وصف بكنية أو اسم وغير ذلك، كلّها تشير بالضرورة إلى مجموعة من الأشخاص الكفرة والكذّابين الذين يظهرون في مراحل زمنيّة، قد تكون متباعدة أو متقاربة في تحققها، إلّا أنّها تكاثرت على ألسن الرواة أو تواترت، فنقلتها المصادر المعتبرة لدى المسلمين في نصوص لايمكن التشكيك بصحّتها، وربّما انقلبت هذه الأخبار أو تبدّلت باصطلاحات، أو إشارات تصحّفت في كتب الملاحم والفتن، ربّما تكون في الأعمّ الأغلب هي الأخبار الدالّة على تقارب الزمان، وعلى ظهور الإمام الغائب المنتظر الذي يُصلح الأرض وينشر العدل الإلهي، وربّما صار هذا اللفظ في الفكر الشيعي ـ أي لفظ أو مفهوم السفياني ـ رمزاً

المؤمن لينادي: الويل لك ياكافر، وإنّ الكافر ينادي: طوبى لك يا مؤمن، وددتُ أنّي اليوم كنتُ مِثلَك فأفوزَ فوزاً عظيماً. فترفع الدابّة رأسها فيراها مَن بين الخافقين بإذن الله جلّ جلاله، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها، فعند ذلك ترفع التوبة، فلاتوبةَ تُقبل ولاعملَ يُرفع ﴿لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ الأنعام: ١٥٨. ثمّ قال عليه السلام: لاتسألوني عمّا يكون بعد هذا، فإنّه عهد عهده إليّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا أخبر به غير عترتي. قال النزّال بن سبرة: فقلت لصعصعة بن صوحان: يا صعصعة، ما عنى أمير المؤمنين عليه السلام بهذا ؟ فقال صعصعة: يابن سبرة، إنّ الذي يصلّي خلفه عيسى بن مريم عليهما السلام هو الثاني عشر من العترة، التاسع من ولد الحسين بن عليّ عليهما السلام، وهو الشمس الطالعة من مغربها، يظهر عند الركن والمقام فيطهّر الأرض، ويضع ميزان العدل فلا يظلم أحد أحداً. فأخبر أمير المؤمنين عليه السلام أنّ حبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليه أن لا يُخبر بما يكون بعد ذلك غير عترته الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين. **كمال الدين وتمام النعمة** ـ باب حديث الدجّال وما يتّصل به من أمر القائم عليه السلام ص٤٧٦ـ الباب ٤٧. فهذه الأخبار ونحوها من مرويات كثيرة، والتي رواها علماء من الشيعة وأهل السنّة والجماعة، ربّما تكون فيها إشارات ورموز يمكن حلّها أو تفسيرها، لأنّ النصوص التي دوّنها الشيخ الصدوق على درجة من الوثاقة.

للضلالة والشر والطغيان. وقد أطلق المؤرّخون لفظ السفياني على بعض الشخصيات التي حاولت أن تعيد المجد الأموي، أو كأنّها انتسبت إلى البيت الأموي بعمودها في النسب، وقد سجّل المؤرّخون أشخاصاً تَسمّوا بهذا الاسم أو أُطلق عليهم هذا اللقب، ففي كتاب أبي زيد أحمد بن سهل البلخيّ جاء عنوان: خروج السفياني على أبي العبّاس، قال فيه: وفي السنة الثانية من ولاية أبي العبّاس، وهي سنة ثلاث وثلاثين ومائة، خرج زياد بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بحلب، وبيّضوا ثيابهم وأعلامهم، وأدّعى الخلافة، فبعث أبو العبّاس أخاه، فأتاه من جانب الجزيرة، وجاءه عبد الله بن عليّ من فوقه، فوافاه وهزمه ومزّقوا جموعه كلّ مُمزَّق[1] ولم يمض وقت طويل على خروج هذا السفيانيّ الأوّل، حتّى تجدّد مرّة أخرى إطلاق هذا اللقب، وذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة حينما أطلق المؤرّخ محمّد بن جرير الطبري على علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية لقب السفياني، عندما أرّخ أحداث سنة ١٩٥ للهجرة، فقال:وفي هذه السنة ظهر بالشام السفيانيُّ عليّ بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية، فدعا إلى نفسه، وذلك في ذي الحجّة منها، فطرد عنها سليمان بن أبي جعفر بعد حصره بدمشق، وكان عامل محمّد ـ أي محمّد الأمين العبّاسي ـ عليها، فلم يفلت منه إلّا بعد البأس[2]. ويروي الطبريّ أيضاً عن شخص ظهر في زمان الدولة العبّاسيّة، ادّعى مناصروه بأنّه السفياني، وكان ذلك في سنة سبع وعشرين ومائتين، واسمه أبو حرب المبرقع اليماني الذي خرج بفلسطين، وكان سبب خروجه أنّ بعض الجند أراد

١ـ البدء والتاريخ: ٤٦٨.

٢ـ تاريخ الأمم والملوك ٧: ٢٥.

النزول في داره، وهو غائب عنها، وفيها إمّا زوجته و إمّا أخته، فمانَعَته فضربها بسوط كان معه فاتّقته بذراعها، فأصاب السوط ذراعها فأثّر فيها، فلمّا رجع أبو حرب إلى منزله بكت وشكت إليه ما فعل بها، وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه، فأخذ أبو حرب سيفه ومشى إلى الجنديّ وهو غارّ[1]، فضربه به حتّى قتله، ثمّ هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يُعرَف، فصار إلى جبل من جبال الأردنّ، فطلبه السلطان فلم يُعرَف له خبر، وكان أبو حرب يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً، فيراه الرائي فيأتيه، فيذكره ويحرّضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس وعيبه، فما زال ذلك دأبه حتّى استجاب له قوم من أهل تلك الناحية وأهل القرى، وكان يزعم أنّه أمويّ، فقال الذين استجابوا له: هذا هو السفياني! فلمّا كثرت غاشيته وأتباعه من هذه الطبقة من الناس، دعا أهلَ البيوتات من أهل تلك الناحية، فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية، منهم رجل يقال له:ابن بيهس، كان مطاعاً في أهل اليمن، ورجلان آخران من أهل دمشق، فاتّصل الخبر بالمعتصم، وهو عليل علّته التي مات فيها، فبعث إليه رجاء بن أيّوب الحضاري في زهاء ألف من الجند، فلمّا صار وجاء إليه وجده في عالم من الناس. قال الطبريّ: فذكر الذي أخبرني بقصّته أنّه كان في زهاء مائة ألف، فكَرِه رجاء مواقعته وعسكر بحذائه وطاوله حتّى كان أوّلُ عمارة الناس الأرضين وحراثتهم، وانصرف من كان مَن الحرّاثين مع أبي حرب إلى الحراثة، وأرباب الأرضين إلى أرضيهم، وبقي أبو حرب في نفر زهاء ألف أو ألفين، ناجزه رجاء الحرب، فالتقى العسكران عسكر رجاء وعسكر المبرقع، فقال لأصحابه:ما أرى في

١ـ الغارّ: الغافل. **لسان العرب** (غرر).

عسكره رجلاً له فروسية غيره، وإنّه سيظهر لأصحابه من نفسه بعض ما عنده من الرجلة[١]، فلا تعجلوا عليه، وكان الأمر كما قال رجاء، فما لبث المبرقع أن حمل على عسكر رجاء.[٢]، فآل أمره أن أسره رجاء وجاء به إلى المعتصم. وروى الطبري خبراً آخر يقول بأنّ خروجه كان في سنة ٢٢٦، وأنّه خرج بفلسطين أو بالرملة فقالوا:إنّه سفيانيّ[٣،٤].

وإذا كان الشيعة يطلقون على رموز الضلالة والجور مصطلح السفياني، أو ربّما هناك لفظ آخر نحو هذا اللفظ، إلّا أنّ الأمويين أنفسهم ـ أي ما تبقّى من نسلهم ـ ومن كان يناصرهم، كانوا يعنون من هذا اللفظ حين يطلقونه معنى إيجابياً متفائلاً بنظرهم، قد يعيد لهم أمجادهم وأيّامهم الزاهية التي طواها الزمن وقضى عليها، وربّما استهواهم مصطلح القائم الذي يطلقه الشيعة الإماميّة على الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، فآثروا إطلاقه على الشخص الأموي المنتظَر والموعود لديهم، وربّما كانت لهم أساطير وقصص بطوليّة عنه، فيذكر ابن عماد الحنبلي عن ظهور شخص، كان يبشّر بقائم أموي، في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة – وهي فترة داخلة ضمن

١ـ الرجلة ـ بفتح الراء وكسرها ـ شدّة المشي. وترجّل القوم، إذا نزلوا عن دوابّهم في الحرب للقتال، ويقال: حملك الله على الرجلة ـ بضمّ الراء ـ والرجلة هنا: فعل الرجل الذي لا دابّة له. **لسان العرب** (رجل)، وقال ابن دريد: رجل بيّن الرجلة ـ بضمّ الراء ـ إذا كان بيّن الجلد. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٢٨ (رجل).

٢ـ **تاريخ الأمم والملوك** ٧: ٣١٢.

٣ـ المصدر نفسه ٧: ٣١٣.

٤ـ حول السفياني، يراجع كتاب: **الأسرار فيما كُنّي و عُرِف به الأشرار**، للشيخ عبد الأمير الفاطمي النجفي، مواضع عديدة. يراجع: ج ٤، ص٥٠١ للمتابعة.

عصور الغَيبة لدى الشيعة ـ هوأبوركوة، وهوأموي من ذرّية هشام بن عبد الملك، وكان يحمل الركوة في السفر ويتزهّد، ولقي المشايخ، وكتب الحديث، ودخل الشام، وهوفي خلال ذلك يدعوإلى القائم من بني أميّة، ويأخذ البيعة على من يستجيب[1].

١ـ شذرات الذهب ٣: ١٤٨.

نشوء الفقه الشيعي

لايمكن عزل الفقه الإمامي، الذي استقلّ وعُرف في أحكامه ومسائله، عن فقه الطوائف الإسلاميّة الأخرى التي ربّما تكون قد سبقته بفواصل زمنيّة ليست بالكبيرة، فالفقه الذي عرفه المسلمون في بدء أمره كان يعني الإجابة على سؤالات العوامّ الذين افتقدوا النبيّ ﷺ، أو تعذّر عليهم رؤيته أو الوصول إليه لبعد المسافة، أولسبب آخر يعيشه المكلّف نفسه، فانبرى أصحاب النبيّ ﷺ في إجابة السائلين وتوضيح مسائل وأمور الدين المتعلّقة بالتكاليف الشرعيّة من أحكام العبادات والمعاملات الخاصّة بتلك الأزمنة، وربّما قدّم بعضهم تفصيلات في إجابة المسائل التي يراها الأصحاب ضرورية لهؤلاء الناس، فلم تكن هناك قواعد للاستنباط، أو قواعد عامّة يرجع إليها الفقيه، بما عُرف لاحقاً بأصول الفقه الذي يستند إليه الفقيه ويرجع إليه في التوصّل إلى بعض الأحكام أو استنبا ط جوابات المسائل الشرعيّة، وما يعرض لعموم الناس من مستجدّات الأمور مع تقادم الأيّام وتطوّر حياة الإنسان . وكان مفهوم الفقهاء في أوّل أمره يعني جماعات الصحابة الذين سمعوا النبيّ ﷺ ورووا أخباره، وإن كان الأمر لايعدو نقل حديث أو خبر سمعه الصحابيّ مباشرة من النبيّ ﷺ، أو من بقيّة الأصحاب الذين سمعوا النبيّ

ولم ينكره ثقةً بهم، أو تقريرَ سنّة أو وصف موقف أو رسم صورة لسلوك النبيّ ﷺ في حياته أو آدابه التي يهتدي بها المسلمون.

والملاحظ على هذه الحقبة المبكّرة من الفقه أنّ جلّ الصحابة كانوا متمركزين في المدينة. ويروي ابن سعد في باب مَن كان يُفتي بالمدينة بعد أصحاب رسول الله ﷺ من أبناء المهاجرين وأبناء الأنصار، بإسناده عن سليمان بن عبد الرحمن ابن خبّاب أنّه قال: أدركت رجالاً من المهاجرين، ورجالاً من الأنصار من التابعين يفتون في البلد. فأمّا المهاجرون: فسعيد بن المسيّب، وسليمان بن يسار، وأبو بكر ابن عبد الرحمن بن هشام، وأبان بن عثمان بن عفّان، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة، وعروة بن الزبير، والقاسم وسالم، ومن الأنصار: خارجة بن زيد بن ثابت.. وقيل: كان الذين يفتون في المدينة بعد الصحابة: السائب بن يزيد والمسور بن مخرمة، وعُدّ سعيد بن المسيّب من أبرز علماء المدينة، فرُوي عن مكحول أنّه قال: ما حدّثتكم به فهو عن سعيد بن المسيّب. وقيل: كان يقال له: عالم العلماء. ونقل عن محمّد الباقر عن أبيه عليّ بن الحسين عليهما السلام أنّه قال: سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدّم من الآثار، وأفقههم في رأيه[1]. وقالوا: سعيد بن المسيّب سيّد التابعين، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع. وهو أحد الفقهاء السبعة المعروفين بالمدينة[2]، بل يقال: إنّه

١ـ **الطبقات الكبرى** ٢: ٣٨٣.

٢ـ قال ابن قيّم الجوزيّة: كان المفتون بالمدينة من التابعين: ابن المسيّب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمّد، وخارجة بن زيد، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان ابن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. وهؤلاء هم الفقهاء، وقد نظمهم القاشل فقال:

←

أفضلهم، واتّفقوا أنّ مرسلاته أصحّ المراسيل[1]. وهذا الفقه الذي كان مع سعيد بن المسيّب يمتدّ جذره إلى الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام الذي كان يرعاه ويعلّمه كيف يستنبط ويفتي، كما شهد لذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله: كان سعيد بن المسيّب، والقاسم بن محمّد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابلي من ثقات عليّ بن الحسين عليهما السلام[2]. فهؤلاء يمتدّون إلى مدرسة آل البيت، ومن معينها استقوا. فالفقه يعني هنا صوت المدينة وصورتها التي كان يعكسها آل البيت عليهم السلام والصحابة الذين تلقّوا دروس الرسالة من النبيّ صلى الله عليه وآله، ومن هنا يقال في العلم الموروث: هو أوّلاً كان لدى الأوصياء، ومن ثمّ يكون لدى الصحابة. وربّما يفسّر هذا ما كان عليه الصحابة الأوّلون من إيثار المدينة على غيرها من المواطن والبلدان، فخروجهم من المدينة يعني موت علومهم، وانحدار درجتهم إلّا ما كان من العدد القليل منهم الذي شذّ عن هذه القاعدة، وخرج عن المدينة بوقت مبكّر، لسبب البعوث والجهاد، أو لسبب آخر اقتضاه تطوّر مساحة الدولة الإسلاميّة، والحاجة إلى إدارة مرافقها التي تتطلّب بالضرورة وجود عدد من الصحابة للولاية والقضاء وإقامة الصلاة وجباية الصدقات، فكان تحرّك الصحابة ضرورياً لسدّ الفراغ التشريعي والإداري في هذه البقاع الجديدة التي انضوت تحت راية الإسلام. وربّما كان

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر ... روايتهم ليست عن العلم خارجة
فقل: هم عبيد الله، عروة، قاسم ... سعيد، أبو بكر، سليمان، خارجة

أعلام الموقّعين عن ربّ العالمين ١: ٢٣.

١ـ **سفينة البحار** ٢: ٦٤١ ـ ٦٤٢ (سعد). وقد عدّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام سعيد بن المسيّب من حواريي عليّ بن الحسين عليه السلام. **رجال الكشيّ**: ٩/ الرقم ٢٠.

٢ـ **الكافي** ١: ٤٧٢ ـ باب مولد أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام.

الصحابة الشباب أو أبناء الصحابة هم آخر فقهاء هذه الحقبة الذين كانوا يفتون أو يجيبون على أسئلة الناس، لذلك قالوا: لمّا مات العبادلة: عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي، ففقيه مكّة عطاء، وفقيه اليمن طاووس، وفقيه اليمن يحيى بن أبي كثير، وفقيه البصرة الحسن البصري، وفقيه الكوفة إبراهيم النخعيّ، وفقيه الشام مكحول، وفقيه خراسان عطاء الخراساني[1].

فالفقه في هذه المرحلة كأنّه خرج من جغرافية المدينة، ولم يَعُد هناك تواجد قوي لفقهاء الجمهور، أو أهل السنّة في بقعة معيّنة دون غيرها، بل اتّسع الإفتاء لديهم وأخذ في الانتشار، إلّا الفقه الإمامي أو الشيعي فهو في هذه المرحلة ما زال يعيش في رحاب المدينة وكنفها، وظلّ في نشوئه تحت رعاية أهل البيت عليهم السلام محوطاً بعنايتهم وعطفهم وحدبهم عليه، حرصاً منهم على سلامة هذا الفقه ونقائه. ومن هنا يمكن أن نعدّ بدايات الفقه الإمامي إلى هذه البقعة المباركة، وربّما يمكن لنا أن نقول: تعود لَبِنات تأسيس الفقه الشيعي إلى تلميذ النبيّ صلى الله عليه وآله ووصيّه ووارثه الإمام عليّ عليه السلام الذي كان يجيب على جميع أسئلة السائلين، ويوضّح لهم معالم دينهم، وبسط للأمّة القول حين انتخبته الأمّة وبايعته للخلافة، فكان عليه السلام يفتي لهم ويمارس دوره التشريعي والاستنباطي في تفصيلات العبادات والمعاملات، ووضع لهم قواعد وأسس فقه الدولة، كما ساهم في تفصيلات وتطبيقات القضاء الإسلامي الذي أسنده إلى شُرَيح، ووضع قواعد الأحكام للبلدان في مكاتباته إلى الولاة والعمّال الذين كانوا يسألونه عن معالم دينهم، وربّما كان يضع لهم قواعد عامّة

---

١ ـ شذرات الذهب ١: ١٠٣.

للاستهداء بها من غير سؤال منهم، فحين ولّى محمّد بن أبي بكر مصر وأعمالها كتب إليه كتاباً وأمره أن يقرأه على أهل مصر، جاء فيه: وانظر إلى الوضوء، فإنّه من تمام الصلاة، تمضمض ثلاث مرّات، واستنشق ثلاثاً، واغسل وجهك ثمّ يدك اليمنى ثمّ اليسرى، ثمّ امسح رأسك ورجليك، فإنّي رأيت رسول الله ﷺ يصنع ذلك، واعلم أنّ الوضوء نصف الإيمان. ثمّ ارتقب وقت الصلاة فصَلِّها لوقتها، ولاتعجل بها قبله لفراغ، ولاتؤخّرها عنه لشغل، فإنّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ: عن أوقات الصلاة، فقال رسول الله ﷺ أتاني جبرئيل عليه السلام فأراني وقت الصلاة حين زالت الشمس، فكانت على حاجبه الأيمن، ثمّ أراني وقت العصر فكان ظلُّ كلّ شيءٍ مِثلَه، ثمّ صلّى المغرب حين غربت الشمس، ثمّ صلّى العشاء الآخرة حين غاب الشفق، ثمّ صلّى الصبح فأغلس بها والنجوم مشتبكة، فصلّ لهذه الأوقات والزم السُّنّة المعروفة والطريق الواضحة، ثمّ انظر ركوعك وسجودك، فإنّ رسول الله ﷺ كان أتمَّ الناس صلاةً وأحقّهم عملاً بها. واعلم أنّ كلّ شيءٍ من عملك تَبَعٌ لصلاتك، فمن ضيّع الصلاة فإنّه لغيرها أضيع..[1]. وكتب الإمام عليّ عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة بقوله: أمّا بعد، فصلّوا بالناس الظهر حتّى تَفيءَ الشمس من مَربِض العَنْز، وصلّوا بِهِمُ العصر والشمسُ بيضاءُ حيّة في عضوٍ من النهار حين يُسار فيها فرسخان، وصلّوا بهم المغرب حين يُفطر الصائم، ويدفع الحاجُّ إلى منى، وصلّوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق إلى ثُلُث الليل، وصلّوا بهم الغداةَ والرجلُ يعرف وجه صاحبه، وصلّوا بهم صلاة أضعفهم[2].

---

١ ـ أمالي الطوسي: ٢٩: الرقم ٣١.

٢ ـ نهج البلاغة: الكتاب ٥٢.

وكان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام بعد أبيهما الإمام عليّ عليه السلام يضعان تطبيقات الأحكام الشرعية في عملهما وحديثهما بين يدي الأمّة حتّى اختارتهما الإرادة الإلهية إلى جنّات الخلود، فورث العِلمَ والحُكمَ والفتيا سيّد الساجدين الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، إلّا أنّ الوضع العام للدولة الأمويّة ـ بعد شهادة أبيه الحسين عليه السلام ـ لم يكن يسمح لشيعته وغيرهم بالاتّصال به، فافتقدت الأمّة فقهه وحديثه الذي يؤدّي بها نحو جادّة الهدى، فلم يُدوَّن له الشيء الكثير، حتّى كان ولده الإمام محمّد الباقر عليه السلام الذي استدرك الأمّة بعد جهالتها وحرمانها من الفقه والسنّة المحمّدية الأصيلة، فشرع بالحديث والفتيا، وفتح باب العلم بما تيسّر له واستطاعه من تغافل السلطان عنه، أو انشغال ولاتهم عنه عليه السلام، وبالتالي حصول أجواء تعدّ فرصة ذهبيّة للإمام محمّد الباقر عليه السلام وأصحابه الذين اتّصلوا به عليه السلام وغرفوا من معين علمه، فرووا من أحاديثه ودرر كلامه عليه السلام، فاستقرّت في المجاميع الحديثية للشيعة، وربّما كان سلاطين وولاة الأمويين يرون ممارسة الضغط على الإمام الباقر عليه السلام وعلى عترة النبيّ صلى الله عليه وآله قد يأتي بنتائج ليست بصالحهم، ربّما يؤدّي إلى التفاف المسلمين حولهم باعتبارهم الخلفاء الحقيقيين للنبيّ صلى الله عليه وآله، فهم ورثة النبيّ صلى الله عليه وآله في هديه وصلاحه وكماله، كما لم تجد الأمّة فيما بقي من الصحابة والتابعين لهم نظيراً في العلم[1] والهدى والصلاح والتقوى والسلامة، فآثروا المسالمة لما تبقّى منهم بعد ضعف دولتهم، فأمنت النخبة الطيّبة في المدينة من أذى

١ـ كانت الأمّة وعلماؤها تُذعن لفضيلة أهل البيت عليهم السلام وسموّ درجتهم، ولعلومهم عليهم السلام على وجه الخصوص، يقول الفخر الرازي: انظركم كان فيهم من الأكابر من العلماء، كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام. **التفسير الكبير** ٣٢: ١٢٤. مع ذلك لم يأخذ هذا عنهم! بل خالفهم!!

السلطة حيناً من الدهر، فتمكّنت في هذا الوضع من القول ونشر الحديث إلى حدّ التأسيس والبناء لمراحل لاحقة.

ومن هنا تظهر بدايات مدرسة الحديث والفقه الإمامي، فعصر الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام بالتحديد، يعدّ عصر الولادة للحديث والفقه الذي ما زال الشيعة يعتمدونه ويؤسسون عليه أحكامهم، لما كان عليه السلام يبيّن ويفصّل لأصحابه تفريعات الأحكام وتفصيلاتها مستدلّاً بنصوص الكتاب والسنّة، فيروي زرارة عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾[1] قال عليه السلام: ليس له أن يَدَع شيئاً من يديه إلى المرفقين إلّا غسله، ثمّ قال:امسحوا برؤوسِكم وأرجلِكم إلى الكعبين، فإذا مَسَح بشيء من رأسه أو من قدميه ما بين كعبيه إلى أطراف أصابعه فقد أجزأه، قال زرارة:فقلت: أصلحك الله، أين «الكعبين»؟ قال:هاهنا، يعني المفصل دون عظم الساق. وعن زرارة وبكير بن أعيَن قالا: سألنا أبا جعفر عليه السلام عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله، فدعا بطشت أو تور فيه ماء، فغمس كفّه اليمنى فغرف بها غرفة فصبّها على جبهته، فغسل وجهه بها، ثمّ غمس كفّه اليسرى، فأفرغ على يده اليمنى فغسل بها ذراعه من المرفق إلى الكفّ لايردّها إلى المرفق، ثمّ غمس كفّه اليمنى فأفرغ بها على ذراعه الأيسر من المرفق وصنع بها كما صنع باليمنى، ومسح رأسه بفضل كفَّيه وقدَميه لم يُحدث لها ماءً جديداً، ثمّ قال: ولا يُدخل أصابعه تحت الشراك، ثمّ قال: إنّ الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾ فليس له أن يدع شيئاً من وجهه إلّا غسله، وأمر بغسل اليدين إلى

١ـ المائدة: ٦.

المرفقين، فليس ينبغي له أن يدع من يديه إلى المرفقين شيئاً إلّا غسله، لأنّ الله يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، ثمّ قال ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، فإذا مسح بشيءٍ من رأسه أو بشيءٍ من قدميه ما بين أطراف الأصابع فقد أجزأه. قالا:قلنا:أصلحك الله، أين الكعبان؟ قال:هاهنا، يعني المفصل دون عظم الساق، فقلنا:هذا هو؟ قال: من عظم الساق والكعب أسفل من ذلك، فقلنا:أصلحك الله، فالغرفة الواحدة تجزي الوجه وغرفة للذراع؟قال:نعم إذا بالغتَ فيهما، والثنتان تأتيان على ذلك كلّه[1].

ونحو هذه الروايات التي روتها كتب أحاديث الشيعة التي تناولت تفصيلات المسائل الفقهيّة، وكلّ هذه الأخبار تشير إلى الدور الفقهي الذي مارسه الإمام عليه السلام، كما وتشير أيضاً إلى امتناع الرواة والأصحاب من الاجتهاد، أو إظهار نظرهم في هذه المسائل، إلّا جماعة محدودة منهم كانت تمارس عملية الاستنباط باستنساخ أحاديث الباقر والصادق عليهما السلام، أو تقوم بتفسير نصوص منها أو توضيحها للمكلّفين، كما يظهر من حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي قال فيه:ما أحد أحيا ذِكرَنا وأحاديث أبي عليه السلام إلّا زرارة وأبو بصير ليث المرادي، ومحمّد بن مسلم، وبُرَيد بن معاوية العجلي، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفّاظ الدين، وأمناء أبي عليه السلام على حلال الله وحرامه[2]. وربّما كان هؤلاء يشكّلون الصفّ المتقدّم في المدرسة الفقهية الإماميّة التي ولدت آنذاك. ولكن على العموم تعتبر هذه المرحلة مرحلة تأسيس وبداية للفقه الشيعي، وربّما كان الإمام الصادق عليه السلام يمارس هذا الدور،

١ـ تفسير العيّاشي ١: ٢٩٨/ ح ٥٠ و٥١.

٢ـ رجال الكشّي: ١٣٦/ الرقم ٢١٩.

حيث تناول الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في نصوص رويت عنه، هذه المسائلَ بنفس أسلوب ولغة أبيه الباقر عليه السلام. وربّما كان مصطلح الفقه والفقيه قد تبلور أو بدأ يظهر في عصر الإمام الصادق عليه السلام، ففي خبر يُروى عن زرارة أنّه قال: أسمعُ ـ واللهِ ـ بالحرف من جعفر بن محمّد في الفتيا فأزداد به إيماناً[1]. وربّما كان زرارة أكثر الأصحاب سؤالاً ومتابعة لتفصيلات الفروع الفقهية المستنبطة من أدلّتها، والتي كان الإمام الصادق عليه السلام يقرّرها، ففي خبر أنّ أبا بصير دخل على أبي عبد الله عليه السلام فقال عليه السلام له: إنّ زرارة سألني عن شيءٍ ولم أُجبه، وقد ضقت، فاذهب أنت رسولي إليه وقل: صلّ الظهر في الصيف إذا كان ظلّك مِثلَك، والعصرَ إذا كان مِثلَيك[2]. وعلى هذا المنوال كانت إجابات الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لشيعته وأصحابه، والذي تناقل بعضَها أصحابه، فزخرت كتب الأخبار في كافّة أبواب الحديث والفقه ببيان إجاباته التفصيلية. وتناول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قسطاً من هذه المسائل، ومن بعده الإمام محمّد بن علي الجواد عليه السلام، ليكون آخر وصيّ وإمام يتّخذ المدينة مركزاً للعلم والفقه الإمامي، ومن بعدُ كانت سامراء مركز العلم والفقه الإمامي بعد استيطان الإمام علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام فيها، ولكن بمرويات أقلّ ممّا كان يروى عن الأئمّة الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام. لتبدأ مرحلة جديدة تعتبر مرحلة أخيرة للعصور الأولى، وتعدّ المرحلة التمهيدية لما قبل التأسيس المدرسيّ، وهي مرحلة حديث وفقه الغيبة الصغرى، الذي بلور نواة الفقه الشيعي، لينتقل إلى مرحلة أوسع وأكبر في عصور الغيبة الكبرى وما تلاها من ظهور المدارس الفقهية

١ـ نفسه: ١٣٣/ الرقم ٢٠٩.

٢ـ نفسه: ١٤٤ / الرقم ٢٢٦.

الكبيرة للشيعة.

ومن هنا يمكن اعتبار القرن الثالث الهجري، أي عصر الغيبة، هو قرن التأسيس للفقه الشيعي المدرسي، إذ إنّ الشيعة لم يبادروا إلى الاستنباط والفتيا ـ إلّا بشكل محدود ـ طيلة ما يقارب القرنين والنصف من تاريخ الإسلام والمسلمين، كما يلاحظ لدى فرق أهل السنّة والجماعة الذين أسرعوا الخوض في الاستنباط والاجتهاد، ممّا أدى إلى ظهور نواة المدارس الفقهية لديهم في وقت مبكّر، قد يؤشّر إلى زمن الدولة الأمويّة، في حين يلحظ بشكل بيّن وواضح صمت أكثر أصحاب الأئمّة عليهم السلام ورواتهم عن الخوض في الفتيا، أو التسرّع في إظهار نظر في عموم المسائل وتفريعاتها، بدون إذن من الحجّة الشرعيّة أو الرجوع إليه، فهم عارفون بأنّ المناط والعود والملجأ في كلّ الأمور ينبغي أن يكون إلى الإمام المعصوم[1]، باعتباره الشخص العارف والكامل الذي غطّى مساحة زمنيّة ليست بالقليلة، فوجود الإمام المعصوم وسط المسلمين يغني عن الاستنباط والفُتيا أو إظهار أيّ نظر في المسائل الشرعيّة أو الاعتقادية، وحتّى في مسائل ومواضيع تخصّ الأخبار وقصص الماضين، أو ما يتعلّق بالتاريخ العام، أو في التفسير والمباحث القرآنية، أو نحو ذلك من أمور تتعلّق بالتشريع أو عموم العلوم، وحتّى المعرفة الدينية التي تخصّ السِّير وتاريخ الأديان الأخرى، وقد كان الرواة وأصحاب الأئمّة عليهم السلام ينقلون نصوص الأئمّة المعصومين عليهم السلام كما سمعوها، وربّما كانوا يضعونها في سياقها المطلوب، إلّا

---

١ ـ كان صحابة الأئمّة عليهم السلام يسلّمون تسليماً مطلقاً لما يقول الإمام المعصوم ولايتجاوزونه، فيروى عن عبد الله بن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: والله لو فلقتَ رمّانة بنصفين فقلت: هذا حرام، وهذا حلال، لشهدتُ أنّ الذي قلتَ: حلال، حلال، وأنّ الذي قلت: حرام، حرام. قال عليه السلام: رحمك الله، رحمك الله. **رجال الكشّي:** ٢٤٩/ ح ٤٢٦.

في موارد محدودة وخاصّة كان الرواة يجتهدون فيها وفقاً للظروف وللموضوعات والمسائل الضرورية المتداولة، وحسب توجيه الأئمّة عليهم السلام لهم.

ولم يكن إطلاق مصطلح الفقيه معروفاً أو متداولاً لدى الشيعة بمعناه الاصطلاحي، وإنّما أخذ هذا اللفظ معنى آخر لديهم، كأن يعني طول الصحبة مع الأئمّة عليهم السلام، أو السعة في الاطلاع والحفظ للأحاديث والأخبار، أو كان يعني لديهم الشخص الثقة الموثوق المؤتمن، أو نحو هذا. وقد عرف الرجاليون وأهل الأخبار أنّ هذا الاصطلاح نال عدداً من صحابة الأئمّة عليهم السلام مثل: عبد الله بن أبي يعفور، ومحمّد ابن مسلم، وزرارة بن أعيَن، وحُمران بن أعيَن، ومحمّد بن أبي عُمَير، ومحمّد بن إسماعيل بن بَزيع. . ولاتخفى شخصية مشهورة على الشيعة مثل شخصيّة عبد الله ابن أبي يعفور الذي عرّفه علماؤنا بأنّه: كوفي ثقة جليل القدر، كان كريماً على أبي عبد الله الصادق عليه السلام ومات في أيّامه، وكان قارئاً يقرئ في مسجد الكوفة[1]، قال الشيخ عبّاس القمّي في توثيقه وتجليله: كان من حواريّي الصادقَين عليهما السلام، ومن الفقهاء المعروفين الذين هم عيون هذه الطائفة، يُعدّ مع زرارة وأمثاله[2]. وكذلك القول في محمّد بن مسلم بن رباح الثقفي الذي صحب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وروى من أخبارهما، لذا أُطلق عليه مصطلح الفقيه، يقول النجاشي في تعريفه: وجهُ أصحابنا بالكوفة، فقيه ورع صحب أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام[3]. وربّما كانت التسمية الفقهية له تعود إلى أمر الإمام الصادق عليه السلام أصحابه بالرجوع

١ـ **رجال النجاشي**: ٢١٣/ الرقم ٥٥٦.

٢ـ **سفينة البحار** ٣: ٣١٤ (عبد).

٣ـ **رجال النجاشي**: ٣٢٣/ الرقم ٨٨٢.

إليه، كما روى الشيخ المفيد أنّ ابن أبي يعفور قال:قلت لأبي عبد الله عليه السلام:إنّي ليس كلَّ ساعة ألقاك ولايمكنني القدوم، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني، وليس عندي كلُّ ما يسألني عنه؟قال عليه السلام:فما يمنعك من محمّد بن مسلم الثقفي ! فإنّه قد سمع من أبي وكان عنده مرضيّاً وجيهاً[1] والظاهر أنّ عدداً من أصحاب الأئمّة عليهم السلام ورواة أحاديثهم كانوا يطلقون عليه هذا الوصف، فيُروى عن ابن أبي عمير أنّه قال:سمعت عبد الرحمن بن الحجّاج وحمّاد بن عثمان يقولان: ما كان أحد من الشيعة أفقه من محمّد بن مسلم[2].

ولذا يُرجع الباحثون هذا التراث الكبير للفقه الإمامي إلى عصر الإمام الباقر عليه السلام، فينتظم الفقه الشيعي بجملته في جامعة أهل البيت الكبيرة، التي أسسها الإمام الباقر عليه السلام، واستقلّ بها ولده الإمام الصادق عليه السلام من بعده أكثر من ثلاثين عاماً، وقصدها الآلاف من العلماء وطلّاب العلم من كلّ مكان، وكان لها أطيب الأثر في تاريخ التشريع الإسلاميّ، وإليها يشير إمام المذهب الحنفي بقوله: لولا السنتان لَهلَك النعمان. كما انتمى إليها إمام المالكيّة مالك بن أنس مدّة من الزمن، كما تؤكّد ذلك المصادر التي تعرّضت لتاريخه، ولم يكن نشاطها مقصوراً على دراسة الفقه الإسلامي وأدلّة التشريع، بعد أن انطلق الفكر الإسلاميّ إلى ما وراء هذه المواضيع، ودخل المسلمون مع غيرهم من الأمم في صراع جديد، كانت الأصول الإسلاميّة مسرحاً له، ونتج عن ذلك الصراع بعض التجاوزات والانحرافات عن الأصول الإسلاميّة التي أقرّها القرآن الكريم و ثبّتتها السنّة الشريفة، وتعددت فيها

١ـ **الاختصاص**: ٢٠١.

٢ـ **الاختصاص**: ٢٠٣ـ عنه: **بحار الأنوار** ٤٧: ٣٩٤/ ح١١٦.

الآراء، كما تعددت في الفروع، واحتجّ كلّ فريق لمذهبه بظواهر القرآن وبمقالات نسبوها إلى الرسول ﷺ، ونتج عن هذا الصراع الفكري حول هذه المواضيع جدال عنيف وخصومات انتهت إلى تعدد الفرق والمذاهب وانتشارها انتشاراً واسعاً، وقد وقف أهل البيت عليهم السلام في وجه أولئك وما حملوه من أفكار وآراء ومعتقدات، وشجّعوا أصحابهم وتلاميذهم على الجدال بالتي هي أحسن، و على المناظرات العلميّة، وأمدّوهم بالحجج والبراهين وأساليب الدفاع[1].

وأبرزت مدرسة بغداد الفقهية ملامح الفقه الإمامي بشكل واضح وقوي، حيث كان للسفراء الأربعة الدور الناقل والوسيط بين الإمام المعصوم الغائب ـ عليه وعلى آبائه التحية والسلام ـ وبين فقهاء الشيعة الذين حظوا برعاية الإمام المهدي عليه السلام وعنايته المتواصلة لهم. وقد ظهرت عنايته عليه السلام في توقيعاته إلى فقهاء الشيعة الذين لم يبعد بهم العهد عنه، ومنهم الشيخ المفيد، كما ورد في كتاب نقله الشيخ الطبرسي ورد من الناحية المقدّسة في أيّام بقيت من صفر سنة عشر وأربعمائة على الشيخ المفيد أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان قدّس الله روحه ونوّر ضريحه، ذكر موصلُه أنّه يحمله من ناحية متّصلة بالحجاز، نسخته: للأخ السديد، والوليّ الرشيد، الشيخ المفيد، أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان أدام الله إعزازه، من مستودع العهد المأخوذ على العباد. بسم الله الرحمن الرحيم: أمّا بعد، سلام عليك أيّها الوليّ المخلص في الدين، المخصوص فينا باليقين، فإنّا نَحمَد إليك اللهَ الذي لا إله إلّا هو، ونسأله الصلاة على سيّدنا ومولانا ونبيّنا محمّد وآله الطاهرين، ونُعْلمك ـ أدام الله توفيقك لنصرة الحقّ، وأجزل مثوبتك على نطقك عنّا

١ـ ينظر: سيرة الأئمّة الاثني عشر ٢: ٢٦٧.

بالصدق ـ أنّه قد أُذن لنا في تشريفك بالمكاتبة، وتكليفك ما تؤدّيه عنّا إلى موالينا قِبلَك، أعزّهم الله بطاعته، وكفاهم المهمَّ برعايته لهم وحراسته، فقف ـ أيّدك الله بعونه على أعدائه المارقين من دينه ـ على ما أذكره، وأعمل في تأديته إلى من تسكن إليه بما نرسمه إن شاء الله.

نحن وإن كنّا نائين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين، حسب الذي أرانا الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين، فإنّا نحيط علماً بأنبائكم، ولايعزب عنّا شيءٌ من أخباركم، ومعرفتنا بالذلّ الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ماكان السلف الصالح عنه شاسعاً، ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهوركم كأنّهم لايعلمون.

إنّا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لَنَزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء، فاتّقوا الله جلّ جلاله، وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم، يهلك فيها من حمّ أجَلُه، ويحمى عنها من أدرك أمله، وهي أمارة لأزوف حركتنا، ومبائتكم بأمرنا ونهينا، واللهُ مُتمّ نوره ولو كره المشركون.

اعتصموا بالتقيّة، من شبّ نار الجاهلية يحششها عصب أمويّة، يهول بها فرقة مهديّة. أنا زعيم بنجاة مَن لم يرمِ فيها المواطن، وسلك في الطعن منها السبل المرضيّة، إذا حلّ جمادى الأولى من سنتكم هذه فاعتبروا بما يحدث فيه، واستيقظوا من رقدتكم لما يكون في الذي يليه. ستظهر لكم من السماء آية جليلة، ومن الأرض مثلها بالسويّة، ويحدث في أرض المشرق ما يُحزن ويُقلق، ويغلب من بعدُ على العراق طوائف عن الإسلام مراق، تضيق بسوء فعالهم على أهله الأرزاق، ثمّ تنفرج الغمّة من بعدُ ببوار طاغوت من الأشرار، ثمّ يستر بهلاكه المتّقون الأخيار، ويتّفق لمريدي الحج من الآفاق، ما يؤمّلونه منه على توفير عليه منهم واتّفاق، ولنا

في تيسير حجّهم على الاختيار منهم والوفاق، شأن لظهر على نظام واتّساق.

فليعمل كلّ امرئٍ منكم بما يقرّب به من محبّتنا، ويتجنّب ما يدنيه من كراهتنا وسخطنا، فإنّ أمرنا بغتة فُجاءة حين لاتنفعه توبة، ولاينجيه من عقابنا ندم على حوبة، واللهُ يلهمكم الرشد، ويلطف لكم في التوفيق برحمته.

نسخة التوقيع باليد العليا على صاحبها السلام: هذا كتابنا إليك أيّها الأخ الوليّ، والمخلص في ودّنا الصفيّ، والناصر لنا الوفيّ، حرسك الله بعينه التي لاتنام..[1].

وربّما كانت هناك مراسلات وتوقيعات لعلماء الشيعة الذين عاشوا زمن الشيخ المفيد أو الأزمنة اللاحقة بعده، فوصيّة الإمام المهدي عليه السلام بعلماء الشيعة وعلوّ منزلتهم وَضَعَتهم تحت الرقابة العبّاسية التي ما انفكّت تلاحقهم، رغم أنّ علماء الشيعة كانوا في حيطة وحذر شديد، ولم يُظهروا ما كان يجري من مراسلات أو اتّصالات مباشرة أو غير مباشرة، نظراً لما كان للسلطة العبّاسية من أعوان وجنود يضغطون على من كان لديهم، وربّما كانت سياستهم فريدة من نوعها تجاه علماء الشيعة، وربّما كان إحراق كتبهم ووثائقهم أهون شدائدهم، يقول ابن حجر العسقلاني: أُحرقت كتب الشيخ الطوسي بمحضر من الناس[2]، وكأن شيئاً لم يكن!

١ـ الاحتجاج: ٤٩٥ـ٤٩٨.

٢ـ لسان الميزان ٥: ١٣٥/ الرقم ٤٥٢.

خلافة الإمام العسكري عليه السلام

اتّفقت آراء العلماء ومنقولاتهم، عن علماء سبقوهم، على فضيلة وعلوّ درجة الإمام الحسن بن عليّ العسكري عليهما السلام، حتّى قال محمّد بن عزّ الدين الزرندي شيخ الحديث بالمسجد النبوي الشريف في وصف الإمام العسكري عليه السلام: هو صاحب الفضل والكرامة، الذي انتشر عنه من السؤدد والفضل ما انتشر، ولم يكن قطُّ في الكِبَر أحسن حالاً منه في الصغر، بل كان من ملازمة النسك والتقوى والاجتهاد والتتبّع للطريقة مثلاً على أكمل الاستقامة، فلذلك صارت له الإمامة، فهو الإمام الصامت الزكيّ، والهادي المرتضى التقيّ، والسيّد الكامل العسكريّ، أبو محمّد الحسن بن عليّ[1]. وقال العلّامة الحسن بن المطهّر الحلّي: كان الإمام بعد أبي الحسن عليّ بن محمّد عليهما السلام ابنَه أبا محمّد الحسن بن عليّ عليهما السلام؛ لاجتماع خِلالِ الفضل فيه وتقدّمه على كافّة أهل عصره فيما يوجب له الإمامة، ويقتضي له الرياسة من العلم والزهد وكمال العقل، والعصمة والشجاعة، والكرم، وكثرة الأعمال المقرّبة إلى الله جلّ اسمه، ثمّ لنصّ أبيه عليه وإشارته بالخلافة إليه[2].

١ـ معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول والبتول عليهم السلام: ١٢٥.

٢ـ المستجاد من كتاب الإرشاد: ٣٣١.

وكان هذا دأب الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وجرت عليه سيرتهم، في تسمية وتعيين الإمام المعصوم الذي ينبغي أن ترجع إليه الطائفة في أمورها ومسائلها، لئلّا تحصل فجوة أو حيرة، أو ربّما بعض الشكوك والشبهات في أذهان بعض الأصحاب، فيُحْدثون إرباكاً أو فتنة لدى عموم الشيعة، أو ربّما يحصل نوع من الارتداد أو ما سُمّي بالوقف، كما حصل في فترة انتقال الإمامة والمرجعية من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى ولده الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، حيث أنكر عدد من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام أن يكون هناك إمام معصوم بعد الإمام الكاظم عليه السلام ترجع إليه الطائفة، وكانت هناك ظروف موضوعية صعبة أحاطت بالإمام الكاظم عليه السلام، وكان هناك إلى جانب هذا الظرف الصعب خلل واضطراب في العقائد سرى إلى بعض الأفراد من الشيعة نتيجة تداول موجة من الأخبار[1]، والتي لم تتفهّم بعض الجماعات مدلولاتها، أو كأنّها حُرّفت فتعسّر إدراك مضامينها، فوقعت في أيدي جماعة من الشيعة، ومنهم الوكلاء. وهناك أيضاً أوضاع ومناخات سياسية واجتماعيّة مضطربة ومرتبكة، كان بعضها بتخطيط من السلطة العبّاسيّة التي كانت تترصّد مسار الشيعة وأوضاعهم، فتحاول النفوذ إلى تفاصيل اعتقاداتهم وأخبارهم لإرباكهم وتشتيت أفكارهم وتشقيقها، أو ربّما كانت مواقف عفوية

١ـ هناك أخبار نُقلت في مصنّفات الشيعة الإماميّة تحتاج إلى تأويل وتأمّل، رواها بعض الرواة كان لهم توثيق واعتبار من عامّة الشيعة ربّما كانت باعثاً وذريعة لهؤلاء الواقفين وغيرهم، منها قول الإمام الصادق عليه السلام: كأنّي بابن حميدة على أعوادها قد دانت له شرق الأرض وغربها. وقوله عليه السلام لسعيد المكّيّ: يا سعيد، الأئمّة اثنا عشر، إذا مضى ستّة فتح الله على السابع، ويملك منّا أهلَ البيت خمسة، وتطلع الشمس من مغربها على يد السادس. وقوله عليه السلام: على رأس السابع منّا الفَرَج. **الغَيبة**، للشيخ الطوسي: ٥٣.

وتلقائية لدى بعض الشيعة، فصادفت هناك أهواءً وعوامل شخصيّة لبعض الشيعة، حرّكتها عوامل الأنانيّة والضعف البشري الموجودة في أعماق كلّ إنسان، فطمع عدد من الوكلاء ـ من الذين كانوا يتّصلون بالعوام فيدفعون لهم ما بذمّتهم من حقوق شرعية ـ بالأموال الكثيرة التي كانت بحوزتهم، ممّا أدّى إلى نشوء فكر ضالّ منحرف، ينهي هذا الفكرُ الإمامةَ ويوقفها عند الإمام السابع موسى بن جعفر عليه السلام، سمّي بالوقف.

وهذا الوقف أو التوقّف في مسير الطائفة الإماميّة كان عاملاً قويّاً في بدء أمره في تفرّق الشيعة وانشطارهم في ذلك الوقت إلى حين. وقد كان هذا التشظّي والانشطار الفرقي الذي حصل في صفوف الطائفة يضرب جذوره و يعود إلى زمن انتقال الإمامة من الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى ولده موسى الكاظم عليه السلام. وبرزت خطوط وملامح من هذه الجماعات في حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهو مُودَع في غياهب السجن، وليس يعود إلى زمان لاحق بعد موته عليه السلام، يقول النوبختي:إنّ جماعة المؤتمّين بموسى بن جعفر لم يختلفوا في أمره، فثبتوا على إمامته إلى حبسه في المرّة الثانية، ثمّ اختلفوا في أمره فشكّوا في إمامته عند حبسه في المرّة الثانية التي مات فيها في حبس الرشيد، فصاروا خمس فرق:فرقة منهم زعمت أنّه مات في حبس السندي بن شاهك، وأنّ يحيى بن خالد البرمكي سمّه في رطب وعنب بعثهما إليه فقتله، وأنّ الإمام بعد موسى عليٌّ بن موسى الرضا، فسُمّيت هذه الفرقة القطعيّة لأنّها قطعت على وفاة موسى بن جعفر وعلى إمامة عليّ ابنه بعده، ولم تشكّ في أمرها ولا ارتابت، ومضت على المنهاج الأوّل. وقالت الفرقة الثانية: إنّ موسى بن جعفر لم يمت وإنّه حيّ ولايموت حتّى يملك شرق الأرض وغربها، ويملأها كلّها عدلاً كما مُلئت جوراً، وأنّه القائم المهدي، وزعموا أنّه خرج من

الحبس ولم يره أحد نهاراً ولم يُعلَم به، وأنّ السلطان وأصحابه ادّعوا موته وموّهوا على الناس وكذبوا، وأنّه غاب عن الناس واختفى، ورووا في ذلك روايات عن أبيه جعفر بن محمّد عليهما السلام أنّه قال: هو القائم المهدي، فإن يدهده رأسه عليكم من جبل فلا تصدّقوا فإنّه القائم. وقال بعضهم: إنّه القائم وقد مات، ولاتكون الإمامة لغيره حتّى يرجع فيقوم ويظهر، وزعموا أنّه قد رجع بعد موته إلّا أنّه مختفٍ في موضع من المواضع حيّ يأمر وينهي، وأنّ أصحابه يلقونه ويرونه، واعتلّوا في ذلك بروايات عن أبيه أنّه قال:سُمّي القائم قائماً لأنّه يقوم بعدما يموت. وقال بعضهم: إنّه قد مات وإنّه القائم، وإنّ فيه شبَهاً من عيسى بن مريم صلّى الله عليه، وإنّه لم يرجع ولكنّه يرجع في وقت قيامه فيملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً، وإنّ أباه قال: فيه شبَهاً من عيسى بن مريم، وإنّه يقتل على يدي وُلد العبّاس فقد قتل. وأنكر بعضهم قتله وقالوا: مات ورفعه الله إليه، وإنّه يردّه عند قيامه، فسُمّوا هؤلاء جميعاً الواقفة؛ لوقوفهم على موسى بن جعفر أنّه الإمام القائم، ولم يأتمّوا بعده بإمام ولم يتجاوزوه إلى غيره. وقد قال بعضهم ممّن ذكر أنّه حيّ: إنّ الرضا عليه السلام، ومن قام بعده ليسوا بأئمّة ولكنّهم خلفاؤه واحداً بعد واحد إلى أوان خروجه، وإنّ على الناس القبول منهم والانتهاء إلى أمرهم، وقد لقّب الواقفةَ بعضُ مخالفيها ممّن قال بإمامة عليّ بن موسى بـ«الممطورة»، وغلب عليهم هذا الاسم وشاع، وكان سبب ذلك أنّ عليّ بن إسماعيل الميثمي ويونس بن عبد الرحمن ناظرا بعضهم، فقال له عليّ بن إسماعيل وقد اشتدّ الكلام بينهم: ما أنتم إلّا كلاب ممطورة. أراد أنّهم أنتن من جيف الكلاب، لأنّ الكلاب إذا أصابها المطر فهي أنتن من الجيف، فلزمهم هذا اللقب فهم يُعرفوَن به اليوم، لأنّه إذا قيل في الرجل بأنّه ممطور، فقد عُرف أنّه من الواقفة على موسى بن جعفر خاصّة، لأنّ كلّ من مضى منهم فله واقفة قد وقفت عليه،

وهذا اللقب لأصحاب موسى خاصّة. وقالت فرقة منهم: لا ندري أهو حيّ أم ميّت، لأنّا قد روينا فيه أخباراً كثيرة تدلّ على أنّه القائم المهدي، فلايجوز تكذيبها، وقد ورد علينا من خبر وفاة أبيه وجدّه والماضين من آبائه عليهم السلام في معنى صحّة الخبر، فهذا أيضاً ممّا لايجوز إنكاره وردّه لوضوحه وشهرته وتواتره من حيث لايكذب مثله، ولايجوز التواطؤ عليه، والموت حقّ والله عزّوجلّ يفعل ما يشاء، فوقفنا عند ذلك على إطلاق موته وعلى الإقرار بحياته، ونحن مقيمون على إمامته لانتجاوزها حتّى يصحّ لنا أمره وأمر هذا الذي نصب نفسه مكانه وادّعى الإمامة. (يعنون علي بن موسى الرضا)، فإن صحّت لنا إمامته كإمامة أبيه من قبله بالدلالات والعلامات الموجبة للإمامة بالإقرار منه على نفسه بإمامته وموت أبيه لا بإخبار أصحابه، سلَّمْنا له ذلك وصدّقناه. وهذه الفرقة أيضاً من الممطورة، وقد شاهد بعضهم من أبي الحسن الرضا عليه السلام أموراً فقطع عليه بالإمامة، وصدّقت فرقة منهم بعد ذلك روايات أصحابه وقولهم فيه فرجعت إلى القول بإمامته[1].

ولم تفت هذه المنعرجات والتصدعات التي قد تحدث في المسيرة العامة للشيعة القائدَ الديني والسياسي الذي تتطلّع له العيون، لذا جرت السيرة في حياة الأئمّة المعصومين أن ينصّ السابق على اللاحق، والسلف على الخلف، تنويهاً باسمه، وتشخيصاً للإمامِ من بين إخوته، وتعيينه للملأ، وتنصيبه علَماً للأمّة، وسادناً للإسلام، ومرشداً للمسلمين[2]، ودفعاً لما قد يحصل من اضطراب وتشتت في أذهان العامّة، نتيجة الانحراف والضلال الذي قد يحصل لدى فئة قليلة من بعض المحسوبين على الطائفة، لذا كان الأئمّة: الرضا والجواد والهادي عليهم السلام يؤكدون على

١ـ **فِرق الشيعة** ٧٩.

٢ـ ينظر: علي محمّد علي دخيل، **أئمتنا** ١: ٤١٠.

أصحابهم وشيعتهم في استمرار الوصيّة والإمامة حتّى تكتمل مهمّتها في الأرض. وبناء على هذا الأساس كان النصّ والإشارة أو التعيين ضرورياً في حياة الأئمّة عليهم السلام، لئلّا تبرز مشكلات عقائدية وسياسيّة تلحق ضرراً بليغاً بكيان الطائفة[1]. وقد لوحظ في سيرة الأئمّة السابقين للإمام الحسن العسكري عليه السلام أنّ تعيين الإمام وتسميته مسألة لها ضرورتها العقائدية والاجتماعيّة، حتّى ربّما تدخل في صميم أسرة الإمام المعصوم نفسه، كما حدث هذا مِن قَبل بين أولاد الإمام جعفر الصادق عليه السلام. وكان أبوهاشم الجعفري، وهو من أصحاب الأئمّة العارفين، مطّلعاً على هذا الأمر. وربّما كان أبوهاشم الجعفري يحدّث نفسه عن حصول ما يكره في الأسرة العلوية قد يؤدّي إلى حصول انشقاق وتصدّع جديد في كيان الطائفة يقلق الأصحاب والعلماء، كما روى الشيخ الكليني عنه بالقول: كنت عند أبي الحسن عليه السلام ـ بعدما مضى ابنه أبو جعفر ـ وإنّي لأفكّر في نفسي أريد أن أقول:كأنّهما ـ أعني أبا جعفر وأبا محمّد ـ في هذا الوقت كأبي الحسن موسى وإسماعيل ابنَي جعفر بن محمّد عليهما السلام وأنّ قصّتهما كقصّتهما، إذ كان أبو محمّد عليه السلام المُرْجى بعد أبي جعفر، فأقبل عليّ أبو الحسن عليه السلام قبل أن أنطق فقال: نعم يا أبا هاشم، بدا للهِ في أبي محمّد عليه السلام بعد أبي جعفر[2] ما لم يكن يُعرف له، كما بدا له في موسى عليه السلام بعد مضيّ إسماعيل ما كشف

١ـ يراجع: **الكافي** ج١ ـ باب ما نصّ الله و رسوله على الأئمّة عليهم السلام واحداً بعد واحد، باب الإشارة والنصّ على أمير المؤمنين عليه السلام، باب الإشارة والنصّ على الحسن بن عليّ عليهما السلام، باب الإشارة والنصّ على الحسين بن عليّ عليهما السلام ... وهكذا إلى: باب الإشارة والنصّ على صاحب الدار عليه السلام. كذلك يراجع كتاب: **كمال الدين و تمام النعمة**، فقد احتوى فصولاً مطوّلة في ذلك.

٢ـ وجاء في خبر آخر رواه الشيخ المفيد في **الإرشاد** ص٣٣٦ أنّ الإمام الهادي عليه السلام قال لولده العسكري عليه السلام: يا بُنيّ، أحدِثْ لله شكراً، فقد أحدث فيك أمراً. وفي هذا إشارة إلى ما يعتقده ←

علماء الشيعة في البَداء. قال الشيخ الطوسي في تفسير قول الإمام عليه السلام: «بدا لله فيه» معناه بدا من الله فيه، وهكذا القول في جميع ما يروى من أنّه بدا لله في إسماعيل، معناه بدا من الله، فإنّ الناس كانوا يظنّون في إسماعيل بن جعفر ـ على أبيه السلام ـ أنّه الإمام بعد أبيه، فلمّا مات علموا بطلان ذلك وتحققوا إمامة موسى عليه السلام، وهكذا كانوا يظنّون إمامة محمّد بن عليّ بعد أبيه، فلمّا مات في حياة أبيه علموا بطلان ما ظنّوه. **الغيبة:** ٨٣. وقال الشيخ الصدوق: فأمّا قوله:«ما بدا لله في شيءٍ كما بدا له في إسماعيل ابني»، فإنّه يقول: ما ظهر لله أمر كما ظهر له في إسماعيل ابني»، إذ اخترمه في حياتي ليُعلم بذلك أنّه ليس بإمام بعدي. وعندنا مَن زعم أنّ الله عزّوجلّ يبدو له اليوم في شيء لم يعلمه أمس، فهو كافر والبراءة منه واجبة، كما روي عن الصادق عليه السلام. حدثني أبي رضي الله عنه، عن محمّد بن يحيى الأشعري قال:حدّثنا أبو عبد الله الرازي، عن الحسن بن الحسين اللؤلؤي، عن محمّد بن سنان، عن عمّار، عن أبي بصير وسماعة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:من زعم أنّ الله يبدو له في شيءٍ اليوم لم يعلمه أمس فابرؤوا منه. وإنّما البداء الذي ينسب إلى الإماميّة القول به هو ظهور أمره، يقول العرب: بدا لي شخص، أي ظهر لي، لابدا ندامةً، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. **كمال الدين وتمام النعمة:** ٧٥. وذهب الشيخ محمّد جواد الطبسيّ إلى نحو هذا في تفسير البداء هنا بالقول: البداء في اللغة هو ظهور الشيء، يقال:بدا الشيء يبدو إذا ظهر، ومنه بدا له في الأمر، إذا ظهر له استصواب شيءٍ غير الأوّل. وهذا المعنى لايجوز إطلاقه على الله سبحانه لاستلزامه حدوث علمه تعالى بشيء بعد جهله به، وهذا محال. ولا نظنّ أنّ مسلماً يعتقد بهذا، ومن اعتقد به فعلى الآخرين البراءة منه ومن اعتقاده، لأنّه قيل: من زعم أنّ الله عزّوجلّ يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابرؤوا منه. فلابد أن نطلق البداء على الله بنحو لايستلزم المحال، ولذلك نقول:البداء منه تعالى بمعنى أنّه يُظهر لمن يشاء من خلقه ما كان قد أخفاه عنهم. وعليه لابدّ أن نفسّر قول الإمام الهادي عليه السلام: بدا لله في أبي محمّد بعد أبي جعفر ما لم يكن يُعرَف له كما بدا له في موسى بعد مضيّ إسماعيل، أي ظهر من الله وأمره في أخيه الحسن ما زال الريب والشكّ في إمامته، فإنّ جماعة من الشيعة كانوا يظنّون أنّ الأمر في محمّد بن عليّ حيث كان الأكبر، كما كان يظنّ جماعة أنّ الأمر في إسماعيل بن جعفر دون موسى عليه السلام، فلمّا مات ←

به عن حاله، وهو كما حدّثتك نفسك وإن كره المبطلون، وأبو محمّد ابني الخلَفُ من بعدي، عنده علم ما يُحتاج إليه ومعه آلة الإمامة[1].

وتأكيد الإمام الهادي عليه السلام على ما عند أبي محمّد عليه السلام من العلم هو من أقوى دلائل إمامته عليه السلام، فإنّ علم الإمام هو الاختبار والبرهان الجليّ على استمرار الوصيّة وتجلّيها في شخصه، ولايخفى أنّ تحصيل العلم لأيّ شخص يتطلّب من الوقت والجهد الشيءَ الكثير، في حين أنّ الإمام المعصوم يتحصّل له العلم بالإلهام أو التلقين أو المعجز أو التوريث ونحو هذا[2]، ولايقتصر علم الإمام المعصوم على علوم الكتاب والسنّة دون غيرهما، فالشريعة والكتاب وعلوم الخُلق جميعها قد جُمعت في يد الإمام المعصوم، ومن هذا المعنى يروي الحسن بن سليمان الحلّي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: أُوتينا علم الكتاب وفيه تبيان كلّ شيء، وأقلّ ما أُوتينا من العلم علم الكتاب. ثمّ قال:وروي عنهم عليهم السلام: إنّ أقلّ فضلنا العلم. ووجهه أنّ الإمام يؤتى العلم وإن لم يطلبه ويجهد في تحصيله، كما قال سبحانه: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾[3]،

محمّد ظهر من أمر الله فيه، وأنّه لم ينصبه إماماً، كما ظهر في إسماعيل مِثلُ ذلك، لا أنّه كان نصّ عليه، ثمّ بدا له في النصّ على غيره، فإنّ ذلك لايجوز على الله تعالى العالم بالعواقب. وبهذا يتبيّن معنى قول الإمام الهادي عليه السلام للحسن العسكري عليه السلام :أحدث لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً، فيكون معناه:أحدِثْ لله شكراً لأنّه عزّوجلّ رفع كلّ الأوهام والشكوك حول إمامتك بموت أخيك محمّد. أضف إلى ذلك أنّ التفسير لايصحّ بغير هذا المعنى، لأنّ إمامة الحسن العسكري عليه السلام ثابتة ومنصوص عليها من قِبل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام. **حياة الإمام العسكري عليه السلام**: ٥٣.

١ ـ **الكافي** ١: ٣٢٧ / ح ١٠.

٢ ـ يراجع: **الكافي** ج١ ـ باب جهات علوم الأئمّة عليهم السلام ، وأبواب أخرى.

٣ ـ سورة مريم: ١٢.

والحكم يقتضي العلم، وكذلك الأئمّة عليهم السلام يؤتيهم العلم والفضل من حال صِغرهم، لما اتّصفت به أنفسهم من العلم والكمال والفضل من قبل خروجهم من ظهر آبائهم في الذرّ الأوّل[1]. ومع أنّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام كانت تبدو فيه ملامح الإمامة والرياسة من أوّل وهلة، في بدء حياته، وكما وصفه الزرندي الحنفي بالقول المتقدّم: صاحب الفضل والكرامة، الذي انتشر عنه من السؤدد والفضل ما انتشر، ولم يكن قطُّ في الكبَر أحسن حالاً منه في الصغر[2]، ولكن كانت هناك بعض الأوضاع قد طرأت في حياة الإمام الهادي عليه السلام ربّما توهمت صورتها على الشيعة والأصحاب، وكأنّ الإمام الهادي عليه السلام قد أحسّ أنّ عيون الشيعة والأصحاب كانت تتطلّع إلى أبي جعفر محمّد بن الإمام علي الهادي عليه السلام (المعروف بـ: سبع الدجيل، أو: سيّد محمّد)، لِما عرف عنه من الفضل والشمائل المحمودة، ولتقدّمه في السنّ على أبي محمّد الحسن عليه السلام[3]، فأفهمهم الإمام الهادي عليه السلام أنّ الإرادة الإلهيّة أرادت لأبي

١ـ **تفضيل الأئمّة عليهم السلام على الأنبياء والملائكة:** ٤٢٣/ ح٢٧٩.

٢ـ **معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول والبتول:** ١٢٥.

٣ـ قال السيّد محمّد حسين الجلالي: قَدِم السيّد محمّد من المدينة لرؤية والده في سامراء، ولمّا أراد الرجوع بلغ بلد ومرض وتوفّي بها في حياة والده. وكانت وفاته صدمة للجماهير المؤمنة التي كانت تعتقد وصول الإمامة إليه حيث لم يظهر لهم العلم الإلهيّ المخزون المعبّر عنه بالبَداء، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ لله عِلمَين: علماً مخزوناً لايعلمه إلّا الله وهو من ذلك البداء، وعلماً علّمه ملائكته ورسله. ومرقده الطاهر في منطقة تُسمّى الدجيل، ولهذا السبب يعبّر في المحاورات عن السيّد بسبع الدجيل. أمّا اليوم فتسمّى المنطقة بالسيّد محمّد باسم صاحب المرقد. وتعرف المنطقة إداريّاً باسم بلد. وقد توالى على مرقده الطاهر العمران والبناء والتجديد، كلّما توالت العمارات على مرقد العسكريّين عليهما السلام، كما يتوافد الزوّار زرافاتٍ ووحداناً لزيارة المرقد كلّما زاروا سامراء. **مزارات أهل البيت وتاريخها:** ١٤٥ـ١٤٦. وقال ←

جعفر أمراً آخر غير الأمر الذي قدره الله للحسن العسكري عليه السلام لما يحمل هذا الوصيّ من أسرار الإمامة وما استُودع من معارف وعلوم لم تكن لأبي جعفر أخيه، فيروي الشيخ المفيد بإسناده إلى أحمد بن محمّد بن عبد الله بن مروان الأنباري قوله: كنت حاضراً عند مضيّ أبي جعفر محمّد بن عليّ، فجاء أبو الحسن (الهادي) عليه السلام فوُضع له كرسيّ فجلس عليه وحوله أهل بيته، وأبو محمّد (العسكريّ) عليه السلام ابنه قائم

الشيخ عبّاس القمّي: قبره مشهور، يقصده الناس بالنذور ويتبرّكون به ويطلبون منه الحاجات، وينقلون عنه كثيراً من الكرامات، وكان لشيخي المحدّث المتبحّر الفاضل صاحب **المستدرك على الوسائل** اعتقاد عظيم بزيارته، سعى في تعمير بقعته ونصب ضريحه، وكتب في كتيبة ضريحه ما هذا لفظه: هذا مرقد السيّد الجليل أبي جعفر محمّد ابن الإمام أبي الحسن عليّ الهادي عليه السلام، عظيم الشأن، جليل القدر، كانت الشيعة تزعم أنّه الإمام بعد أبيه عليه السلام، فلمّا توفّي نصّ أبوه على أخيه أبي محمّد الزكيّ وقال له: أحدِثْ لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً. خلّفه أبوه في المدينة طفلاً وقدم عليه في سامرّاء مشتدّاً، ونهض إلى الرجوع إلى الحجاز، ولمّا بلغ بلد على تسعة فراسخ مرض وتوفّي، ومشهده هناك. ولمّا توفّي شقّ أبو محمّد ثوبه وقال في جواب من عابه عليه: قد شقّ موسى على أخيه هارون. وكانت وفاته في حدود اثنتين وخمسين بعد المائتين. **سفينة البحار ومدينة الحِكم والآثار** ١: ٧٥٨ (حمد). ويقول الباحث محمّد حرز الدين في وصفه واسمه: كان أبو جعفر جليل القدر رفيع المنزلة، عالماً عابداً، يُكنّى بأبي علي السيّد محمّد البعّاج، توفّي بنواحي بلد سنة ٢٥٢ للهجرة يحيط بمرقده الشريف صحن فيه الغرف والاسطوانات التي أُعِدّت لزائريه والوفود التي تأوي إليه من كلّ بلد وصُقْع. تتحامى مرقده الأعراب التي حوله خشية من سطوته ونقمته، فكم له من سطوة بالعابثين والمفسدين والسرّاق. وإنّ زائريه في مأمن، وكذا أثاث الوقف المعدّ لزوّاره والأعراب التي حول مرقده. تارة يلقّبونه بالبعّاج وأخرى بسبع الدجيل على حدّ تعبيرهم لِما لمسوه من النقمة بمن يريد الحطّ من كرامته. **مراقد المعارف** ٢: ٢٦٢ ـ ٢٦٦/ الرقم ٢٢١. ويراجع: **شعراء سبع الدجيلي**، لحسين البلداوي.

في ناحية، فلمّا فرغ من أمر أبي جعفر التفت إلى أبي محمّد عليه السلام فقال: يا بُنيّ، أحدِثْ لله شكراً، فقد أحدث فيك أمراً[1].

والأمر الذي أحدثه الله هو إيداع الأمانة والعلوم والأسرار لدى أبي محمّد العسكري عليه السلام. ولم يسلم الإمام العسكري عليه السلام من تقوّلات المشكّكين والمرتابين في إمامته، كما لم تكن خلافته خالية من تقوّلات كانت مكررة ومعروفة للإمام المعصوم الذي سبقه، ويبدو أنّ الأثر الذي تركه الشكّاك والمرتابون كان وقعه ثقيلاً على الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فخرج في بعض توقيعاته عليه السلام عند اختلاف قوم من شيعته في أمره: ما مُنِي أحد من آبائي بمِثلِ ما مُنيتُ به من شكّ هذه العصابة فيّ، فإن كان هذا الأمر أمراً اعتقدتموه ودنتم به إلى وقت ثمّ ينقطع فللشكّ موضع، وإن كان متّصلاً ما اتّصلت أمور، فما معنى هذا الشكّ؟[2] وربّما كان تحرير النصوص وإطلاقها في تسمية الخليفة اللاحق يأتي متأخّراً طبقاً للظروف المحيطة بالإمام، أو يكون السبب هو للمحافظة عليه من قتل السلطة الحاكمة آنذاك التي كانت تترصّد الإعلان عن اسمه للقضاء عليه، أو تطويقه وعزله. فقد كان صدور النصّ على إمامة أبي محمّد العسكري عليه السلام قريباً من زمان شهادة الإمام الهادي عليه السلام، حيث روى الشيخ الكليني بإسناده إلى يحيى بن يسار القنبري (خ ل العنبري) أنّ الإمام أبا الحسن الهادي عليه السلام أوصى إلى ابنه الحسن عليه السلام قبل مضيّه بأربعة أشهر. ثمّ قال الراوي: وأشهدني على ذلك وجماعةً من المَوالي[3]. فتوافرت لدينا نصوص لايمكن تحريفها أو الشكّ في وثاقتها، ومنها ما رواه الشيخ الصدوق بإسناده إلى عبد العظيم

١ـ **الإرشاد**: ٣٣٦.

٢ـ **تحف العقول عن آل الرسول**: ٣٦١.

٣ـ **الكافي** ١: ٣٢٥ ـ باب الإشارة والنصّ على أبي محمّد/ ح ١.

ابن عبد الله الحسني، قال: دخلت على سيّدي عليّ بن محمدعليه السلام، فلمّا بصر بي قال لي: مرحباً بك يا أبا القاسم، أنت وليّنا حقّاً، قال:فقلت له:يا ابن رسول الله، إنّي أريد أن أَعرض عليك ديني، فإن كان مرضيّاً ثبتّ عليه حتّى ألقى الله عزّوجلّ، فقال: هاتِ يا أبا القاسم، فقلت:إنّي أقول: إنّ الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شيء، خارج عن الحدَّين حدِّ الإبطال وحدّ التشبيه، وإنّه ليس بجسم ولاصورة، ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسِّم الأجسام، ومصوِّر الصور، وخالق الأعراض والجواهر، وربُّ كلّ شيء ومالكه، وجاعله ومُحْدثه. وإنّ محمّداًصلى الله عليه وآله عبده ورسوله خاتم النبيّين، فلا نبيّ بعده إلى يوم القيامة، وإنّ شريعته خاتمة الشرائع، فلا شريعة بعدها إلى يوم القيامة. وأقول:إنّ الإمام والخليفة ووليّ الأمر بعده أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ جعفر بن محمّد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ عليّ بن موسى، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ أنت يا مولاي. فقال عليه السلام: ومن بعدي الحسنُ ابني، فكيف للناس بالخَلف مِن بعده! قال: فقلت:وكيف ذاك يا مولاي؟! قال:لأنّه لايُرى شخصه، ولا يحلّ ذِكرُه باسمه حتّى يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً، قال:فقلت:أقررتُ وأقول: إنّ وليّهم وليّ الله، وعدوّهم عدوّ الله، وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله. وأقول: إنّ المعراج حقّ، والمُساءلة في القبر حقّ، وإنّ الجنّة حقّ، والنار حقّ، والصراط حقّ، والميزان حقّ، وإنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور. وأقول:إنّ الفرائض الواجبة بعد الولاية: الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال عليّ بن محمّد عليهما السلام: يا أبا القاسم، هذا واللهِ دِينُ الله الذي ارتضاه لعباده، فاثبت عليه، ثبّتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة[1].

١ـ كمال الدين وتمام النعمة: ٣٥٣/ ح١ ـ الباب ٣٧.

الإمام العسكري والمعجزة والدلالة

الإعجاز في المفهوم العام أن يأتي المدّعي لمنصب من المناصب الإلهيّة بما يخرق في إشاراته أو أعماله نواميس الطبيعة وقوانينها، ويعجز غيره عن الإتيان بهذا الأمر، ليثبت صدق دعواه ونحلته. والعمل الخارق للعادة يقف على النقيض من العمل المستحيل عقلياً، وقد قال العلماء:إنّ المعجزة لاتتعلّق بالأعمال التي تستحيل عقلياً، كما أنّ إرادة الحقّ تعالى لاتتعلّق بمثل هذه الأمور أيضاً. أي أنّ المعجزة تتعلّق بالأعمال التي يبدو تحقّقها مستحيلاً بشكل اعتيادي وطبيعي[1]. ولايحصل هذا المستحيل إلّا بأمر وعناية إلهيّة، وربّما جاءت المعجزة لتتحدّى أرباب الفنون والصناعات والمهارات المشهورة في ذلك العصر الذي تظهر فيه المعجزة، فقد جاء موسى عليه السلام بالعصا واليد البيضاء والآيات الأُخرفي زمن شاع فيه السحر والشعبذة، فعلم أرباب الفنّ والاختصاص أنّ ما جاء به موسى عليه السلام ليس من السحر، فكانوا أوّل من آمن به، وجاء عيسى عليه السلام بمعجزاته التي أحيا بها الموتى،

١ـ هاشم الرسولي المحلّاتي، **بحوث حول بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وإيمان آبائه، وما هي المعجزة**، المقالات والرسائل للمؤتمر العالمي لمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد ـ قم ١٤١٣ للهجرة، التسلسل ١١ ص٤١.

وطبّب الأكمه والأبرص، فشهد له أساطين الطبّ أنّ ما جاء به عيسى عليه السلام لم يكن عن دراسة وتطبيق لقواعد وقوانين الطبّ، بل هو أمر خارج عن إرادة وقدرة الإنسان، فكانوا أوّل من آمن به، وأصبحوا الحجّة على قومهم.

وجاء النبيّ صلى الله عليه وآله بالقرآن الكريم في أمّة كان لها قصب السبق في البلاغة والفصاحة والأدب، فاعترف له أرباب الفنّ أنّ قرآنه كلام لاينتمي إلى العقل البشري وقابلياته. ولم يكن القرآن المعجزةَ الوحيدة للنبيّ صلى الله عليه وآله، بل رُوي له صلى الله عليه وآله الآلاف من المعاجز، حيث روى المؤرّخون وأصحاب السِّير أنّه كان يتحدّث عن المغيّبات، ويكلّم الحيوانات والأشجار والصخور والحصى[1]، وكلّها كانت تسبّح بين يديه بصوت مسموع[2]. ويذهب الشيخ محمّد جواد البلاغي إلى تعريف وتلخيص معنى

١ـ هناك من يرى للمعجزة معنى ومفهوماً أكبر وأوسع ممّا يُروى ويُتناقل. فالديمومة والبقاء مع مسار التاريخ البشري هي من أكبر المعاجز وأقواها، يقول الكاتب باسم الحلّي: إنّ المعجزة أشمل وأعمّ ممّا هو مطروح عند أهل الأديان، فليست هي فقط المقلّصة المضيّقة بانفراج البحر لموسى عليه السلام فقط، ولا بالقرآن فقط، ولا بإبراء الأكمه والأبرص، ولا ماكان على هذا المنوال فقط. فالديموتاريخ يتحدّى ذلك التقليص والتضييق بكلّ ثبات، فهو فيما بان واتّضح يجزم بأنّ كلّ ما يتناوله قانون الديموتضادّ هو معجزة. فبقاء الرسول محمّد صلى الله عليه وآله والحسين عليه السلام أحياءً متنامون في أمّة مستمرّة، وكذلك بقاء القرآن بلا أن يشيب، وعلى هذا المنوال بقاء المعاني السامية، كالحرّية والإنسانية، هي المنتصرة المتصرّفة في مسيرة التاريخ تحدّياً لقوانين الاطّراد التاريخي. **ديموتاريخ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والحسين عليه السلام**: ٥٦٠.

٢ـ ينظر: جبّار مكّاوي، **مائة مبحث ومبحث**، المبحث السابع والستّون من **شرح دعاء أبي حمزة الثمالي** ٢: ١١٩ و ١٢٧.

وروى الشيخ الطوسي نحو هذه المعجزات بإسناده إلى الإمام علي بن موسى الرضا عن ←

المعجز فيقول: هو الذي يأتي به مدّعي النبوّة بعناية الله الخاصّة خارقاً للعادة، وخارجاً عن حدود القدرة البشرية، وقوانين العلم والتعلّم، ليكون بذلك دليلاً على صدق النبيّ وحجّته في دعواه النبوّة ودعوته[1]. وقد استفاضت كتب الشيعة وأهل السنّة والجماعة بما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله من معجزات وكرامات لايمكن التشكيك فيها، بل حصل الاتّفاق من جميع المذاهب على هذه المرويات، لكن الذي حصل هو إنكار البعض من حصول هذه المعجزات والدلائل لأوصيائه الأئمّة المعصومين عليهم السلام، أو تجاهل هذه الأخبار، وقد سلّم الأكثر على حصول بعض المعجزات كمعجزة ردّ الشمس للإمام عليّ عليه السلام، وبلغ من شهرة هذه المعجزة أن أشار إليها السيّد الحميري في شعره بما سُمّي بالقصيدة المذهّبة التي شرحها السيّد المرتضى لأهمّيتها التاريخية والأدبية، فيقول فيها:

رُدّت عليه الشمسُ لمّا فاتَه ... وقتُ الصلاة وقد دَنَت للمغربِ
حتّى تبلّج نورُها في وقتها ... للعصر ثمّ هَوَت هُويَّ الكوكبِ
وعليه قد حُبِست ببابلَ مرّةً ... أخرى، ولم تُحبَس لخَلقٍ مُعربِ
إلّا لأحمدَ أوله، ولردِّها ... ولحبسها تأويلُ أمرٍ مُعجَبِ[2]

آبائه عليهم السلام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: إنّي لأعرف حجَراً كان يسلّم عليَّ بمكّة قبل أن أُبعث، وإنّي لأعرفه الآن. **أمالي الطوسي**: ٣٤١/ الرقم ٦٩٧.

١ـ **الوجيز في معرفة الكتاب العزيز**: ٢١. لا بأس بمراجعة كتاب: **الكرامات الرضويّة**، للشيخ مروّج الاسلام ـ **مقدّمة في بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي للمعجزة**: ١١ـ ٣٩.

٢ـ ينظر: **بحار الأنوار** ٤١: ١٨٥ ـ ١٩٠. وقد رُوي هذا الشعر بألفاظ أخرى وباختلاف في البيت الثالث والرابع:

وعليه قد رُدّت ببابلَ مرّةً ... أخرى، وما رُدّت لخلق معربِ

←

يقول العلّامة الحسن بن مطهّر الحلّي: رجوع الشمس له مرّتين، إحداهما في زمن النبيّ ﷺ والثانية بعده. أمّا الأولى فروى جابر وأبو سعيد الخُدْريّ أنّ رسول الله ﷺ نزل عليه جبرئيل يوماً يناجيه من عند الله تعالى، فلمّا تغشّاه الوحي توسّد فخذ أمير المؤمنين عليه السلام فلم يرفع رأسه حتّى غابت الشمس، فصلّى عليٌّ العصر بالإيماء، فلمّا استيقظ النبيّ ﷺ قال له: سَلِ الله تعالى يردّ عليك الشمس لتصلّي العصر قائماً. فدعا، فرُدّت الشمس، فصلّى العصر قائماً. وأمّا الثانية: فلمّا أراد أن يعبر الفرات ببابل اشتغل كثير من أصحابه بتعبير دوابّهم، وصلّى بنفسه في طائفة من أصحابه العصر، وفاتت كثيراً منهم، فتكلّموا في ذلك، فسأل اللهَ تعالى ردّ الشمس فردّت[1].

إلّا ليُوشَعَ أو له مِن بعدِه ولِرَدِّها تأويلُ أمرٍ مُعجِبِ

الإرشاد للشيخ المفيد: ١٨٢.

١ـ **منهاج الكرامة في معرفة الإمامة:** ١٧١. وروى الشيخ الطوسي عن ردّ الشمس للمرّة الثانية لعلي عليه السلام في النهروان بإسناده إلى يحيى بن العلاء الرازي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لمّا خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى النهروان، وظعنوا في أوّل أرض بابل حين دخل وقت العصر، فلم يقطعوها حتّى غابت الشمس، فنزل الناس يميناً وشمالاً يصلّون، إلّا الأشتر وحده، فإنّه قال: لا أصلّي حتّى أرى أمير المؤمنين قد نزل يصلّي. قال: فلمّا نزل قال: يا مالك، هذه أرض سبخة، ولا تحلّ الصلاة فيها، فمن كان صلّى فَلْيُعدِ الصلاة. ثمّ قال: استقبَلَ القبلة، فتكلّم بثلاث كلمات، ما هنّ بالعربيّة ولا بالفارسيّة، فإذا هو بالشمس بيضاء نقيّة، حتّى إذا صلّى بنا سمعنا لها حين انقضّت خريراً كخرير المنشار. **أمالي الطوسي:** ٦٧١/ الرقم ١٤١٥. وقد كُتبت عشرات الكتب والفصول في هذه المعجزة العلويّة مِن قِبل علماء الشيعة والسنّة، منها: رسالة **كشف اللَّبْس من حديث ردّ الشمس**، للحافظ السيوطي الشافعي، و رسالة **مُزيل اللَّبْس عن حديث ردّ الشمس**، لمحمّد بن يوسف الشامي الصالحي. يراجع: **الغدير**، للشيخ الأميني ٣: ١٢٦ـ١٤١.

وربّما كانت هناك ضرورات تقتضي ظهور أمثال هذه الكرامات للأئمّة المعصومين عليهم السلام، كأن تكون تقويةً للنصوص والإشارات التي كان النبيّ صلى الله عليه وآله يظهرها بين حين وآخر، فهناك تفاوت في الإيمان والتصديق بالرسالة والنبوّة التي جاء بها النبي محمّد صلى الله عليه وآله بين جماعات كثيرة من المسلمين، ومنهم من كان مشكّكاً في كثير من الأحكام والعقائد، وربّما كان هذا التشكيك حتّى بين صفوف الصحابة وجماعة من المسلمين الأوائل، خاصّة الذين لاتتوصّل أو لاتستوعب مدركاتهم العقلية والإيمانيّة أنّ الوصيّة قد حصلت بأمر سماوي، ولعلّ المعجز الذي حصل الإمام عليّ عليه السلام في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله قد يزيل بعضاً من هذه الشكوك. وربّما كانت هناك رسائل وإشارات أرادها النبيّ صلى الله عليه وآله من ردّ الشمس لعليّ عليه السلام، منها: لن يكون هذا المعجز مختصّاً بالأنبياء وحدهم دون أوصيائهم. ولن تكون المعجزة أوّل وآخر رسالة يتلقّاها البشر عن هؤلاء الأوصياء. وعلى العموم كانت المعجزة تساير النص الذي صدر بحقّ الإمام عليّ عليه السلام، ومن هذا الاعتبار قال الشيعة باستمرار الوصيّة وظهور ما يؤيّدها من معجز في الأعقاب عند الضرورة.

يقول الكاتب علي محمّد علي دخيّل: إذا كانت إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ثبتت بنص الرسول صلى الله عليه وآله، وبظهور المعاجز على يديه، فإمامة أولاده عليهم السلام ثبتت بنص الرسول صلى الله عليه وآله عليهم، وبنص كلّ واحد منهم على الآخر، وبظهور المعاجز على أيديهم صلوات الله عليهم أجمعين[1]. وربّما كان إنكار بعض الناس ظهورَ المعجزة على يد الأئمّة عليهم السلام، لاعتقادهم باقتصارها على الأنبياء دون غيرهم، والأئمّة عليهم السلام لم يكونوا أنبياء ولم يدّعوا النبوّة، فأجاب الشيخ المفيد على هذا القول والاعتقاد بالقول: مع

١ـ أئمتنا ١: ١٣.

أنّ ظهور الآيات على الأئمّة عليهم السلام لايوجب لهم الحكم بالنبوّة، لأنّها ليست بأدلّة تختصّ بدعوى الأنبياء عليهم السلام من حيث دعوى إلى نبوّتهم، لكنّها أدلّة على صدق الداعي إلى ما ادّعى إلى تصديقه فيه على الجملة دون التفصيل، فإن دعا رجلٌ إلى اعتقاد نبوّتهم كانت دليلاً على صدقه في دعوته، وإن دعا الإمام عليه السلام إلى اعتقاد إمامته كانت برهاناً له في صدقه على ذلك، وإن دعا المؤمن الصالح إلى تصديق دعوته إلى نبوّة نبيّ أو إمامة إمام، أو حكمٍ سمعه من نبيّ أو إمام، كان المعجز شاهداً على صدق دعواه[1]. ويقول عماد الدين الطبريّ:الإمامة أمر من أمور الدين مقابل النبوّة، وهي الحكومة على الخلائق كافّة، فلو جاز نصب الإمام من قِبل الناس لجاز أيضاً نصب الرسول بالبيعة، فإن قيل:إنّ الرسول يحتاج إلى المعجزة، قلنا: إنّ الإمام يحتاج أيضاً إلى النصّ والنصب وإظهار المعجزة عند الحاجة، فلا فرق بين هذا المعنى وذاك سوى الوحي[2].

ولذا لايمكن إنكار أو تضييع بعض الأخبار التي تحدّثت عن معجزات للأئمّة عليهم السلام، وربّما كان البعض يشكّك تشكيكاً لايمكن توجيهه، أشبه بمن يسأل سؤالاً تعنّتيّاً، لا جدوى أو فائدة منه، كأن يطلب ظهور معاجزهم عليهم السلام حسب طلبه وتوقيته، وكأنّ الأمر خاضع لمزاجه وهواه، من غير نظر إلى المصالح والنتائج المترتّبة على هذه المعجزة. وقد ردّ الشيخ الصدوق بالقول:قد علمنا أنّ الأنبياء عليهم السلام قد أقاموا المعجزات في وقت دون وقت، ولم يقيموها في كلّ يوم ووقت ولحظة وطَرفة، وعند كلّ محتجّ عليهم ممّن أراد الإسلام، بل في وقت دون وقت،

---

١ ـ خمس رسائل في إثبات الحجّة: ٣٠.

٢ ـ تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار عليهم السلام: ٥٥.

على حسب ما يعلم الله عزّوجلّ من الصلاح. وقد حكى الله عزّوجلّ عن المشركين أنّهم سألوا نبيّه ﷺ أن يَرقى في السماء، وأن يُسقِط السماء عليهم كِسَفاً، أوينزّل عليهم كتاباً يقرؤونه، وغير ذلك ممّا في الآية، فما فعل ذلك بهم، وسألوه أن يحيي لهم قصي بن كلاب، وأن ينقل عنهم جبال تهامة، فما أجابهم إليه، وإن أقام لهم عليه السلام غير ذلك من المعجزات[1]. وكذا الأمر بالنسبة إلى الإمام العسكريّ عليه السلام فلم يكن يستجيب لأهواء الآخرين وأمزجتهم، بل كانت معجزاته تجري وفقاً للمصالح والغايات المرجوّة من المعجزة.

وما حصل للإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام من خوارق للعادة أو للقوانين سُمّيت كرامات أو معجزات أو دلائل تشير بمجموعها إلى أنّ الحسن العسكري هو الوصيّ والوارث الحقيقي للإمامة المنصوصة، وقد تواترت أخبار عن الشيعة وأهل السنّة والجماعة في هذا الخصوص، منها ما رواه الشيخ مؤمن بن حسن الشبلنجي الشافعي في فصل من كتابه **نورالأبصار** بقوله: كرامات:

الأولى: هي جامعة الكرامات، حدّث أبوهاشم داود بن قاسم الجعفري قال:كنت في الحبس الذي فيه الجوسق أنا والحسن بن محمّد ومحمّد بن إبراهيم العَمْري، وفلان وفلان وخمسة أو ستّة، إذ دخل علينا أبومحمّد الحسن بن عليّ العسكري وأخوه جعفر فحففنا بأبي محمد، وكان المتولّي للحبس صالح بن يوسف الحاجب، وكان معنا في الحبس رجل أعجميّ، فالتفت إلينا أبومحمّد وقال لنا سرّاً: لولا أنّ هذا الرجل فيكم لأخبرتكم متى يفرّج الله عنكم، وهذا الرجل قد كتب فيكم قصّة إلى الخليفة يخبره فيها بما تقولون فيه، وهي معه في ثيابه، يريد الحيلة

١ـ كمال الدين وتمام النعمة: ٦٩.

في إيصالها إلى الخليفة من حيث لاتعلمون، فاحذروا شرّه. قال أبو هاشم: فما تمالكنا أن تحاملنا جميعاً على الرجل، ففتّشناه فوجدنا القصّة مدسوسة معه في ثيابه وهو يذكرنا فيها بكلّ سوء، فأخذناها منه وحذّرناه. وكان الحسن يصوم في السجن، فإذا أفطر أكلنا معه من طعامه. قال أبو هاشم: فكنت أصوم معه، فلمّا كان ذات يوم ضعفتُ عن الصوم، فأمرت غلامي فجاء لي بكعك، فذهبت إلى مكان خال في الحبس فأكلت وشربت، ثمّ عدت إلى مجلسي مع الجماعة ولم يشعر بي أحد، فلمّا رآني ـ أي الحسن العسكري عليه السلام ـ تبسّم وقال: أفطرت! فخجلت، فقال: لا عليك يا أبا هاشم، إذا رأيتَ أنّك قد ضعفت وأردت القوّة فكُلِ اللحم، فإنّ الكعك لا قوّة فيه، وقال: عزمت عليك أن تفطر ثلاثاً، فإنّ البنية إذا أنهكها الصوم لاتتقوّى إلّا بعد ثلاث.

قال أبو هاشم: ثمّ لم تطل مدّة أبي محمّد الحسن بن عليّ [العسكري] في الحبس بسبب أن قَحَط الناس بسرّ من رأى قحطاً شديداً، فأمر الخليفة المعتمد على الله بن المتوكّل بخروج الناس إلى الاستسقاء، فخرجوا ثلاثة أيّام يستسقون فلم يُسقَوا، فخرج الجاثليق في اليوم الرابع إلى الصحراء وخرج معه النصارى والرهبان، وكان فيهم راهب كلّما مدّ يده إلى السماء هطلت بالمطر، ثمّ خرجوا في اليوم الثاني وفعلوا كفعلهم أوّل يوم فهطلت السماء بالمطر، فعجب الناس من ذلك، وداخَلَ بعضَهم الشكُّ، وصَبَأ[1] بعضهم إلى دين النصرانيّة! فشقّ ذلك على الخليفة، فأنفذ إلى صالح بن يوسف أن أخرِجْ أبا محمّد الحسن من الحبس وائتني به، فلمّا

١ـ قال الفيروزآبادي: صبأ ـ كمنع وكرم ـ صَبئاً وصَبُوءاً: خرج من دِينٍ إلى دين آخر. **القاموس المحيط** ١: ٢٤.

حضر أبو محمّد الحسن عند الخليفة، قال له:أدرِكْ أمّة محمّد فيما لَحِقهم من هذه النازلة العظيمة ! فقال أبو محمّد: دَعْهم يخرجون غداً اليوم الثالث، فقال له: قد استغنى الناس عن المطر واستكفَوا، فما فائدة خروجهم !قال:لأُزيل الشكّ عن الناس وما وقعوا فيه. فأمر الخليفةُ الجاثليقَ والرهبان أن يخرجوا أيضاً في اليوم الثالث على جاري عادتهم، وأن يخرج الناس، فخرج النصارى وخرج معهم أبو محمّد الحسن ومعه خلق من المسلمين، فوقف النصارى على جاري عادتهم يستسقون، وخرج راهب معهم ومدّ يديه إلى السماء ورفعت النصارى والرهبان أيديهم أيضاً كعادتهم، فغيّمت السماء في الوقت ونزل المطر، فأمر أبو محمّد الحسن بالقبض على يد الراهب وأخذِ ما فيها، فإذا ما بين أصابعه عظمُ آدمي، فأخذه أبو محمّد الحسن ولفّه في خرقة وقال لهم:استسقوا. فانقشع الغيم وطلعت الشمس، فتعجّب الناس من ذلك، وقال الخليفة: ما هذا يا أبا محمد؟فقال:هذا عظم نبيّ من الأنبياء ظفر به هؤلاء من قبور الأنبياء، وما كشف عن عظم نبيّ من الأنبياء تحت السماء إلّا هطلت بالمطر. فاستحسنوا ذلك وامتحنوه فوجدوه كما قال، فرجع أبو محمّد الحسن إلى داره بسرّ من رأى وقد أزال عن الناس هذه الشبهة وسُرّ الخليفة والمسلمون بذلك، وكلّم أبو محمّد الحسن الخليفةَ في إخراج أصحابه الذين كانوا معه في السجن، فأخرجهم وأطلقهم من أجله، وأقام أبو محمّد بمنزله معظَّماً مكرّماً وصِلات الخليفة وإنعاماته تصل إليه في كلّ وقت، نقله غير واحد.

الثانية: عن عليّ بن إبراهيم بن هشام، عن أبيه، عن عيسى بن الفتح قال: لمّا دخل علينا أبو محمّد الحسن الحبس قال لي: يا عيسى، لك من العمر خمس وستّون سنة وشهر ويومان، قال: وكان معي كتاب فيه تاريخ ولادتي، فنظرت فيه فكان كما قال، ثمّ قال: هل رُزقتَ ولداً؟ قلت:لا، فقال: أللهمَّ ارزقْه ولداً يكون له

عَضُداً، فنعم العضد الولد. ثمّ أنشد:

مَن كان ذا عضدٍ يُدرِكْ ظُلامتَهُ إنّ الذليلَ الذي ليست له عَضُدُ

فقلت: يا سيّدي، وأنت لك ولد؟ فقال: إنّي واللهِ سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وأمّا الآن فلا.

الثالثة: عن إسماعيل بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس قال:قعدت لأبي محمّد الحسن على باب دار حتّى خرج، فقمت في وجهه وشكوت إليه الحاجة والضرورة وأقسمت أنّي لا أملك الدرهم الواحد فما فوقه، فقال: تُقسم وقد دفنتَ مائتي دينار، وليس قولي هذا دفعاً لك عن العطيّة ! أعطه يا غلام ما معك. فأعطاني مائة دينار، فشكرت له وولّيت، فقال: ما أخوفَني أن تفقد المائتي دينار أحوجَ ما تكون إليها! فذهبت إليها فافتقدتها، فإذا هي في مكانها، فنقلتها إلى موضع آخر ودفنتها ولم يطّلع عليها أحد، ثمّ قعدت مدّة طويلة فاضطُررتُ إليها، فجئت أطلبها فلم أجدها، فحزنت وشقّ ذلك علَيّ، فوجدت ابناً لي قد عرف مكانها وقد أخذها وأنفذها ولم أحصل منها على شيء، وكان كما قال.

الرابعة: عن محمّد بن حمزة الدوري قال: كتبت على يدَي أبي هاشم داود بن القاسم وكان مؤاخياً لأبي محمّد الحسن، أسأله أن يدعو الله لي بالغنى، وكنت قد أملقت وخفت الفضيحة، فخرج الجواب على يده: أبشِرْ فقد أتاك الغنى من الله تعالى مات ابن عمّك يحيى بن حمزة وخلّف مائة ألف درهم ولم يترك وارثاً سواك، وهي واردة عليك عن قريب، فاشكُرِ الله، وعليك الاقتصاد وإيّاك والإسراف. فورد علَيّ المال والخبرُ بموت ابن عمّي ـ كما قال، عن أيّام قلائل، وزال عنّي الفقر، وأدّيت حقّ الله تعالى فيه، وبررت إخواني وتماسكت بعد ذلك، وكنت قبل ذلك

مبذّراً[١].

وروى الكليني بإسناده إلى عليّ بن محمّد، عن بعض أصحابنا قال: سُلِّم أبو محمد عليه السلام إلى نحرير فكان يضيّق عليه ويؤذيه، فقالت له امرأته:ويلك! اتّقِ الله، لاتدري مَن في منزلك! وعرّفَتْه صلاحه، وقالت:إنّي أخاف عليك منه، فقال: لَأرمينّه بين السباع. ثمّ فعل ذلك به، فرئي عليه السلام قائما يصلّي وهي حوله[٢].

وروى الشيخ المفيد بإسناده إلى محمّد بن عليّ بن إبراهيم قال: حدّثني أحمد ابن الحرّاث القزويني قال:كنت مع أبي بسرّ من رأى، وكان أبي يتعاطى البيطرة في مربط أبي محمّد عليه السلام، قال:وكان عند المستعين بغلٌ لم يُرَ مِثله حُسناً وكِبَراً، وكان يمنع ظهرَه واللجام، وقد كان جمع عليه الروّاض، فلم تكن لهم حيلة في ركوبه، قال:فقال له بعض ندمائه: يا أمير المؤمنين، ألا نبعث إلى الحسن بن الرضا حتّى يجيء، فإمّا أن يركبه وإمّا أن يقتله. قال:فبعث إلى أبي محمّد عليه السلام ومضى معه أبي، قال:فلمّا دخل أبو محمّد الدار كنت مع أبي، فنظر أبو محمّد عليه السلام إلى البغل واقفاً في صحن الدار فعدل إليه فوضع يده على كفله، قال:فنظرت إلى البغل وقد عرق حتّى سال العرق منه. ثمّ صار إلى المستعين فسلّم عليه فرحّب به وقرّب مجلسه وقال: يا أبا محمّد، ألجِمْ هذا البغل، فقال أبو محمّد لأبي: ألجم يا غلام، فقال له المستعين: ألجمه أنت. فوضع أبو محمّد طيلسانه ثمّ قام فألجمه، ثمّ رجع إلى مجلسه وجلس، فقال:يا أبا محمّد أسرِجْه، فقال لأبي: يا غلام أسرج، فقال المستعين: أسرجه أنت. فقام ثانية فأسرجه ورجع، فقال له: ترى أن تركبه، فقال أبو محمّد: نعم. فركبه من غير

١ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار صلى الله عليه وآله: ٣٣٨.

٢ـ الكافي ١: ٥١٣/ ح٢٦.

أن يمتنع عليه، ثمّ ركضه في الدار، ثمّ حمله على الهملجة فمشى أحسن مشي يكون، ثمّ رجع فنزل، فقال له المستعين: يا أبا محمد، كيف رأيته ؟قال: ما رأيت مثله حسناً وفراهة، فقال له المستعين:فإنّ أمير المؤمنين قد حملك عليه، فقال أبو محمّد لأبي: يا غلام خذه، فأخذه أبي فقاده[1].

وروى الشيخ الطوسي بإسناده إلى أبي محمّد هارون بن موسى التلعكبري قال:كنت في دهليز أبي عليٍّ محمّد بن همام﵀ على دكّة إذ مرّ بنا شيخ كبير عليه درّاعة، فسلّم على أبي عليّ بن همام فردّ عليه السلام ومضى، فقال لي: أتدري مَن هو هذا ؟ فقلت:لا، فقال: هذا شاكريّ لسيّدنا أبي محمّد عليه السلام، أفتشتهي أن تسمع من أحاديثه عنه شيئاً؟قلت: نعم، فقال لي: معك شيءٌ تعطيه؟فقلت له:معي درهمان صحيحان، فقال:هما يكفيانه. فمضيت خلفه فلحقته فقلت له:أبو عليّ يقول لك تنشط للمصير إلينا، فقال: نعم. فجئنا إلى أبي عليّ بن همام فجلس إليه فغمزني أبو عليّ أن أسلّم إليه الدرهمين، فسلّمتها إليه فقال لي: ما يحتاج إلى هذا. ثمّ أخذهما، فقال له أبو عليّ بن همام:يا أبا عبد الله، حدّثْنا عن أبي محمّد عليه السلام ما رأيت، فقال:كان أستاذي صالحاً من بين العلويين لم أر قطّ مِثلَه، وكان يركب بسرج صفته بزيون مسكي وأزرق، قال:وكان يركب إلى دار الخلافة بسرّ من رأى في كلّ إثنين وخميس، قال: وكان يوم النوبة يحضر من الناس شيءٌ عظيم، ويغصّ الشارع بالدوابّ والبغال والحمير والضجّة، فلا يكون لأحد موضع يمشي ولايدخل بينهم، قال: فإذا جاء أستاذي سكنت الضجّة، وهدأ صهيل الخيل ونهاق الحمير، قال: وتفرّقت البهائم حتّى يصير الطريق واسعاً لايحتاج أن يتوقّى من الدوابّ تحفّه

١ـ الإرشاد: ٣٤١ـ٣٤٢.

ليزحمها، ثمّ يدخل فيجلس في مرتبته التي جُعلت له، فإذا أراد الخروج وصاح البوّابون هاتوا دابّة أبي محمّد، سكن صياح الناس وصهيل الخيل وتفرّقت الدوابّ حتّى يركب ويمضي. وقال الشاكري: واستدعاه يوماً الخليفة وشقّ ذلك عليه، وخاف أن يكون قد سعى به إليه بعضُ مَن يحسده على مرتبته من العلويين والهاشميين، فركب ومضى إليه، فلمّا حصل في الدار قيل له: إنّ الخليفة قد قام، ولكن اجلس في مرتبتك أو انصرف. قال:فانصرف وجاء إلى سوق الدوابّ وفيها من الضجّة والمصادمة واختلاف الناس شيءٌ كثير، فلمّا دخل إليها سكن الناس وهدأت الدوابّ . قال: وجلس إلى نخّاس كان يشتري له الدوابّ، قال:فجيء له بفرس كبوس لايقدر أحد أن يدنو منه، قال: فباعوه إيّاه بوكس، فقال لي: يا محمّد، قم فاطرح السرج عليه، قال: فقمت فعلمت أنّه لايقول لي ما يؤذيني، فحللت الحزام وطرحت السرج عليه فهدأ ولم يتحرّك، وجئت به لأمضي به فجاء النخّاس فقال لي: ليس يُباع، فقال لي: سلّمه إليهم، قال: فجاء النخّاس ليأخذه، فالتفت إليه التفاتة ذهب منه منهزماً. قال:وركب ومضينا فلحقنا النخّاس فقال:صاحبه يقول: أشفقت أن يردّ، فإن كان قد علم ما فيه من الكبس فليشتره، فقال له أستاذي: قد علمت، فقال: قد بعتك، فقال لي:خذه، فأخذته. قال:فجئت به إلى الاصطبل فما تحرّك ولا آذاني ببركة أستاذي.فلمّا نزل جاء إليه وأخذ أذنه اليمنى فرقاه، ثمّ أخذ أذنه اليسرى فرقاه، فوالله لقد كنت أطرح الشعير له فأفرّقه بين يديه، فلا يتحرّك، هذا ببركة أستاذي. قال أبو محمد:قال أبو عليّ بن همام: هذا الفرس يقال له: الصؤول، قال:يرجم بصاحبه حتّى يرجم به الحيطان ويقوم على رجليه ويلطم صاحبه. قال محمّد الشاكري: كان أستاذي أصلحَ مَن رأيت من العلويّين والهاشميّين، ما كان يشرب هذا النبيذ، كان يجلس في المحراب ويسجد فأنام وأنتبه و أنام وهو ساجد،

و كان قليل الأكل، كان يحضره التين والعنب و الخوخ وما شاكله، فيأكل منه الواحدة والثنتين، ويقول: شلْ هذا يا محمّد إلى صبيانك، فأقول هذا كلّه؟! فيقول: خذه. ما رأيت قطّ أسدى منه[1].

وروى الشيخ حسين بن عبد الوهّاب عن أبي هاشم قال:دخلت على أبي محمّد عليه السلام وكان يكتب كتاباً، فحان وقت الصلاة الأولى، فوضع الكتاب من يده وقام عليه السلام إلى الصلاة، فرأيت القلم يمرّ على باقي القرطاس من الكتاب ويكتب حتّى انتهى إلى آخره، فخررت له ساجداً، فلمّا انصرف من الصلاة أخذ القلم بيده وأذن للناس[2].

وروى محمّد بن عليّ الطوسي المعروف بابن حمزة بإسناده إلى أبي هاشم الجعفري قال:كنت عند أبي محمّد الحسن عليه السلام فاستُؤذن لرجل من أهل اليمن، فدخل رجل طويل جسيم جميل وسيم، فسلّم عليه بالولاية، فردّ عليه بالقبول، وأمره بالجلوس، فجلس ملاصقاً بي، فقلت في نفسي:ليت شعري مَن هذا ؟ فقال أبو محمّد عليه السلام:هذا من وُلد الأعرابيّة صاحبة الحصاة التي طَبَع فيها آبائي بخواتيمهم فانطبعت، فقد جاء بها معه يريد أن نطبع فيها. ثمّ قال: هاتِها. فأخرج حصاة من جانب منها موضعٌ أملس، فأخذها ثمّ أخرج خاتمه فطبع فيها فانطبع، وكأنّي أقرأ نقش خاتمه الساعة «الحسن بن عليّ»، فقلت لليماني:أرأيته قبل هذا؟ قال:لا والله، وإنّي منذ دهر لحريصٌ على رؤيته حتّى كان الساعة أتاني شابّ لست أراه فقال لي: قم فادخل، فدخلت. ثمّ نهض اليماني وهو يقول: رحمة الله وبركاته عليكم أهلَ

١ـ الغيبة: ٢١٥/ ح١٧٩.

٢ـ عيون المعجزات: ١٣٤.

البيت، ذرّيّةً بعضها من بعض، أشهد أنّ حقّك لواجب كوجوب حقّ أمير المؤمنين عليه السلام والأئمّة من بعده، وإليك انتهت الحكمة والإمامة[1]، وإنّك وليُّ الله، لا عذر لأحد في الجهل بك. فسألته عن اسمه فقال: اسمي مهجع بن الصلت بن عقبة بن سمعان بن غانم بن أمّ غانم، وهي الأعرابيّة اليمانية صاحبة الحصاة التي ختم فيها أمير المؤمنين عليه السلام[2].

قال ابن حمزة: وهذه أمّ غانم صاحبة الحصاة غير تلك صاحبة الحصاة المشهورة، وهي أمّ الندى بنت جعفر حبّابة الوالبية الأسدية، من أسد بن خزيمة بن مدركة، من بني سعد بن بكربن زيد مناة. وأمّا صاحبة الحصاة الأولى فهي أمّ مسلم، وقيل: أمّ أسلم، جاءت النبيَّ صلى الله عليه وآله منزل أمّ سلمة فسألتها عن النبيّ صلى الله عليه وآله فقالت: خرج صلى الله عليه وآله في بعض الحوائج، الساعة يجيء. فانتظرَتْه عند أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها حتّى جاء صلى الله عليه وآله، فقالت أمّ مسلم: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، إنّي قد قرأت الكتب وعلمت أنّ لكلّ نبيّ وصيّاً، فموسى كان له وصيّ في حياته ووصيّ بعد وفاته، وكذلك عيسى، فمن وصيّك يا رسول الله ؟ فقال لها:يا أمّ مسلم، وصيّي في حياتي وبعد مماتي واحد. ثمّ ضرب بيده إلى حصاة فجعلها كهيئة الدقيق، ثمّ عجنها وختمها بخاتمه، ثمّ قال لها:يا أمّ مسلم، مَن فعل بعدي مِثلَ فعلي فهو وصيّي في حياتي وبعد مماتي. فخرَجَت من عنده وأتت أمير المؤمنين عليه السلام فقالت: بأبي أنت وأمّي، أنت وصيّ رسول الله ؟ فقال: نعم يا أمّ مسلم. ثمّ ضرب بيده إلى الحصاة فجعلها كهيئة الدقيق، ثم عجنها وختمها بخاتمه، ثمّ قال:يا أمّ مسلم، مَن

١ـ جاء في رواية الشيخ: الولاية، بدل الإمامة. **الغيبة**: ٢٠٤/ الرقم ١٧١.

٢ـ إلى هنا تتفق هذه الرواية مع رواية الكليني في **الكافي** ١: ٣٤٧ ـ من كتاب الحجّة.

فعل مثل فعلي هذا فهو وصيّي. فأتت الحسن عليه السلام وهو غلام فقالت له:سيّدي، أنت وصيّ أبيك ؟قال:نعم، يا أمّ مسلم. وضرب بيده إلى الحصاة ففعل بها كفعلهما.فخرجت من عنده حتّى أتت الحسين عليه السلام، وهي مستصغرة له، فقالت:بأبي أنت وأمّي، أنت وصيّ أخيك ؟فقال:نعم يا أمّ مسلم. وفعل مثل فعل أخيه. ثمّ لحقت بعليّ بن الحسين عليه السلام بعد قتل الحسين عليه السلام في منصرفه، فسألته: أنت وصي أبيك؟فقال:نعم. ثمّ فعل كفعلهم عليهم السلام[1].

العسكري عليه السلام وخلفاء بني العبّاس

عاش وعانى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وكذلك الحال مع أبيه عليّ الهادي عليه السلام، شطراً من الحقبة الزمنيّة المقدّرة لهما أن يعيشا ويحيا فيها، والتي أطلق عليها المؤرّخون العصر العبّاسي الثاني من عصور الدولة العبّاسية، وقضى القسط الأهمّ من حياته في العاصمة العبّاسيّة الجديدة سامراء، وواكب جميع الظروف والملابسات والمواقف التي واجهت أباه عليهما السلام، وتسلّم مركز الإمامة بعد أبيه وعمره آنذاك اثنين وعشرون عاماً. وكانت مدّة إمامته بعد أبيه ستّ سنين[2]. وجاءت مواقفه امتداداً لمواقف أبيه عليه السلام، بوصفه المرجع الولائي والروحي لأصحابه وقواعده وراعياً لمصالحهم العقائدية والاجتماعيّة، بالإضافة إلى تمهيده لغيبة ولده الحجّة بن الحسن المهدي عليه السلام[3].

ويظهر من روايات علماء الشيعة أنّ التقاء الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام مع حكّام

١ـ **الثاقب في المناقب:** ٥٦١.

٢ـ **إعلام الورى بأعلام الهدى:** ٣٤٩.

٣ ـ عادل الأديب، **الأئمّة الاثنا عشر:** ٢٣٥.

بني العبّاس قد بدأ في زمان حكومة أحمد بن محمّد بن المعتصم بن الرشيد، والملقّب بالمستعين، الذي نُصّب في اليوم الذي توفّي فيه المنتصر، وهو خامس ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونيه من سنة ٨٦٢ م)، ولم يزل حاكماً إلى أن خُلع يوم الجمعة ٤ محرّم سنة ٢٥٢ الموافق (١٥ يناير سنة ٨٦٦ م)، فكانت مدّته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و٢٨ يوماً[1]. ويؤيّد هذا ما جاء في رواية الشيخ الطوسي عن عليّ بن محمّد بن زياد الصيمريّ قال: دخلت على أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر وبين يديه رقعة أبي محمّد عليه السلام فيها: إنّي نازلتُ الله في هذا الطاغي ـ يعني المستعين ـ وهو آخذه بعد ثلاث. فلمّا كان اليوم الثالث خُلع، وكان من أمره ما كان إلى أن قُتل[2]. وروى السيّد ابن طاووس كما في كتاب **الأوصياء عليهم السلام وذكر الوصايا** تأليف السعيد عليّ بن محمّد بن زياد الصيمريّ ـ ووجد هذا الكتاب في خزانة مصنّفه بعد وفاته سنة ثمانين ومائتين ـ عن نسخة عتيقة ما هذا لفظه: ولمّا همّ المستعين في أمر أبي محمّد عليه السلام بما همّ، وأمر سعيد الحاجب بحمله إلى الكوفة، وأن يحدث عليه في الطريق حادثة، انتشر الخبر بذلك في الشيعة، فأقلقهم، وكان بعد مضيّ أبي الحسن عليه السلام بأقلّ من خمس سنين، فكتب إليه محمّد بن عبد الله والهيثم بن سيّابة: بلغنا ـ جعَلَنا الله فداك ـ خبرُ أقلقنا وغمّنا وبلغ منّا. فوقّع عليه السلام: بعد ثلاث يأتيكم الفَرَج. فخُلع المستعين في اليوم الثالث وقعد المعتزّ، فكان كما قال عليه السلام. وروى الصيمريّ أيضاً في الكتاب المذكور في ذلك ما هذا لفظه: وحدّث محمّد بن عمر المكاتب عن عليّ بن محمّد بن زياد الصيمريّ، صهر جعفر بن

١ـ الدولة العبّاسية: ٢٣٥.

٢ـ الغيبة: ٢٠٤/ الرقم ١٧٢.

محمود الوزير، على ابنته أمّ أحمد، وكان رجلاً من وجوه الشيعة وثقاتهم، ومقدَّماً في الكتابة والأدب والعلم والمعرفة، قال:دخلت على أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر، وبين يديه رقعة أبي محمّد عليه السلام فيها: إنّي نازلت الله عزّوجلّ في هذا الطاغي ـ يعني المستعين ـ وهو آخذُه بعد ثلاث. فلمّا كان في اليوم الثالث خُلع، وكان من أمره ما رواه الناس في إحداره إلى واسط وقتلِه[1].

وكان العصر الذي أرّخه المؤرّخون في عهد المستعين هو عصر التشتّت والانشطار، فشهد المسلمون في عصره حالة انقسام الدولة وتشرذمها، فقد حصلت في أيّام المستعين فتنة كبيرة بين بغداد وسامرّاء دفع المسلمون ثمنها غالياً. فيتحدّث ابن كثير الدمشقيّ عن أحداث سنة إحدى وخمسين ومائتين فيقول: وركب الخليفة في حَرّاقة[2] من سامراء إلى بغداد، فاضطربت الأمور بسبب خروجه، وذلك في المحرّم، فنزل دار محمّد بن عبد الله، وفيها وقعت فتنة شنعاء بين جند بغداد وجند سامرّاء، ودعا أهل سامرّاء إلى بيعة المعتزّ[3]، واستقرّ أمر أهل بغداد على

١ـ **مهج الدعوات ومنهج العبادات:** ٢٧٣.

٢ـ الحرّاقة، بالفتح والتشديد: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يُرمى به العدوّ في البحر. **لسان العرب** (حرق).

٣ـ لعب أولاد المتوكّل دوراً كبيراً في إشعال الفتن وتمزيق البنية الاجتماعية المتماسكة للمجتمع الإسلامي، وكأنّ حكومة أولاد الرشيد على الدولة الإسلاميّة التي أشعلت نيران الفتن والحروب لم تؤخذ بنظر الاعتبار، أو تكون درساً لهم في احترام دماء المسلمين وحقنها، فتجدّدت الفتن والمصائب التي كاد أن يتناساها المسلمون بعد سنين حمراء لاهبة. ويتحدّث البلخي عن تاريخ أولاد المتوكّل بالقول: بويع جعفر بن إسحاق المتوكّل على الله فأخذ البيعة لولده الثلاثة: لمحمّد بن جعفر المنتصر بالله، ولإبراهيم بن جعفر المؤيّد بالله، ولأبي عبد الله بن جعفر المعتزّ بالله، وجعل العهد للمنتصر وبعده للمعتزّ وبعده للمؤيّد، ←

المستعين، وأُخرج المعتزّ وأخوه المؤيّد من السجن فبايع أهلُ سامرّاء المعتزّ، واستحوذ على حواصل بيت المال فيها، فإذا بها خمسمائة ألف دينار، وفي خزانة أمّ المستعين ألف ألف دينار، وفي حواصل العبّاس بن المستعين ستمائة ألف دينار، واستفحل أمر المعتزّ بسامراء. وأمر المستعين لمحمّد بن عبد الله بن طاهر أن يحصّن بغداد ويعمل في السورين والخندق، وغرم على ذلك ثلاثمائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار، ووكّل في كلّ باب أميراً يحفظه، ونصب على السور خمسة مناجيق[1]، منها واحد كبير جدّاً يقال له:الغضبان، وستّ عرّادات[2]، وأعدّوا آلات الحرب

وعقد لكلّ واحد منهم لواءً. وولّى المنتصرَ العراق والحجاز واليمن. وولّى المعتزّ خراسان والريَّ والجبال. وولّى المؤيّد أجناد الشام.. ولمّا بويع المنتصر خلع المعتز والمؤيّد ومات بعد ستّة أشهر ثمّ بويع أحمد بن محمّد المعتصم ـ المستعين ـ فحبس المعتزّ والمؤيّد وأطلق الحسن بن الأفشين وإخوته ومواليه من الحبس وخلع عليهم، وعقد لمحمّد بن طاهر بن عبد الله على خراسان، فشغب الوالي والشاكريّة وكسروا باب السجن وأنزلوا المعتزّ وخلعوا المستعين. **البدء والتاريخ:** ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

١ ـ المناجيق جمع المنجنيق، قال الفيروز آباديّ: المنجنيق، ويُكسر الميم: آلة تُرمى بها الحجارة معرّبة، وقد تُذكّر، الجمع منجنيقات ومجانق ومجانيق. **القاموس المحيط** ٣: ٢٩٥. وحكى الفارسيّ عن أبي زيد: جَنَّقونا بالمنجنيق تجنيقاً، أي رمونا بأحجارها، ويقال:مجنق المنجنيق وجنّق. **لسان العرب** (جنق). وروى ابن دريد عن أبي عبيدة قال:سألت أعرابيّاً عن حروب كانت بينهم. فقال:كانت بيننا حروب عون تُفقأ فيها العيون، مرّة نجنق وأخرى نرشق. فقوله:نجنق، دالّ على أنّ الميم زائدة، ولو كانت أصليّة لقال:نمجنق. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٣٢٣ (جنق).

٢ ـ قال ابن معصوم المدنيّ: العرّادة، كعبّاسة: شبه المنجنيق، إلّا أنّها صغيرة، وصانعها عرّاد، كعبّاس. **الطراز الأوّل** ٦: ٧٨.

والحصار والعُدد، وقُطعت القناطر من كلّ ناحية لئلّا يصل الجيش إليهم. وكتب المعتزّ إلى محمّد بن عليّ بن طاهر يدعوه إلى الدخول معه في أمره، ويذكّره ماكان أخذه عليهم أبوه المتوكّل من العهود والمواثيق، من أنّه وليّ العهد بعده، فلم يلتفت إليه بل ردّ عليه واحتجّ بحجج يطول ذكرها. وكتب كلّ واحد من المستعين والمعتزّ إلى موسى بن بغا الكبير، وهو مقيم بأطراف الشام لحرب أهل حمص، يدعوه إلى نفسه، وبعث إليه بألوية يعقدها لمن اختار من أصحابه. وكتب إليه المستعين يأمره بالمسير إليه إلى بغداد ويأمره أن يستنيب في عمله، فركب مسرعاً، فسار إلى سامراء فكان مع المعتزّ على المستعين، وكذلك هرب عبد الله بن بغا الصغير من عند أبيه من بغداد إلى المعتزّ، وكذلك غيره من الأمراء والأتراك. وعقد المعتزّ لأخيه أبي أحمد بن المتوكّل على حرب المستعين وجهّز معه جيشاً لذلك، فسار في خمسة آلاف من الأتراك وغيرهم نحو بغداد، وصلّى بعكبرا يوم الجمعة ودعا لأخيه المعتزّ، ثمّ وصل إلى بغداد ليلة الأحد لسبع خلون من صفر، فاجتمعت العساكر هنالك، ثمّ جرت بينهما حروب طويلة وفتن مهولة جدّاً.. وقد استمرّت الفتنة والقتال ببغداد بين أبي أحمد أخي المعتزّ، وبين محمّد بن عبد الله بن طاهر نائب المستعين، والبلد محصور وأهله في ضيق شديد جدّاً بقيّة شهور هذه السنة، وقُتل من الفريقين خلق كثير في وقعات متعددات، وأيّام نحسات، فتارة يظهر أصحاب أبي أحمد ويأخذون بعض الأبواب فتحمل عليهم الطاهرية فيزيحونهم عنها، ويقتلون منهم خلقاً ثمّ يتراجعون إلى مواقفهم، ويصابرونهم مصابرة عظيمة كثيراً.. ولمّا تفاقم الأمر واشتدّ الحال، وضاق المجال، وجاع العيال وجهد الرجال، جعل ابن طاهر يُظهر ماكان كامناً في نفسه من خلع المستعين، فجعل يعرّض له في ذلك ولايصرّح، ثمّ كاشفه به وأظهره له وناظره فيه وقال له: إنّ المصلحة تقتضي أن

تصالح عن الخلافة على مال تأخذه سلفاً وتعجيلاً، وأن يكون لك من الخراج في كلّ عام ما تختاره وتحتاجه..[1] وبذلك تمّ إطفاء الفتنة بعد خسارة كبيرة، وجهد جهيد ناء به أهل بغداد، وتحمّله المسلمون من خراجهم الذي يدفعونه لخزينة الدولة العبّاسيّة. ولم يكن المستعين مدّة حكومته هو الحاكم الفعلي، بل كان يحمل لقب الخليفة فحسب، وهو لقب شرفيّ لا أكثر، وكان الحاكم الحقيقيّ هما: وصيف وبغا[2]، وغيرهما من قوّاد الأتراك، وفي هذا يقول الشاعر، مجسّداً الحقيقة:

خليفة في قفصٍ بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقد ترك الأتراك الوزارة بيد أحمد بن الخصيب الذي كان وزيراً للمعتصم، ثمّ غضبوا عليه فاستصفوا أمواله وأموال وُلده، ونفوه إلى جزيرة أقريطش، وكان ذلك سنة ٢٤٨ للهجرة /٨٦١ م، واختاروا للوزارة واحداً منهم اسمه أتامش، وله كاتب اسمه شجاع، وصار أتامش الحاكم بأمره، بعد أن جعله المستعين على داره وأولاده وعياله و خزائنه، يساعده في ذلك خادمه شاهَك وأم المستعين، فاكتسح أتامش ما في الخزائن من أموال وقسمها بينه وبين شاهَك وأم المستعين، وما بقي من مال جعله للعبّاس بن المستعين بالله، وقد وضعه الحاكم العبّاسي في حجر أتامش ليتولّى

١ـ **البداية والنهاية** ١١: ١١.

٢ـ لقد كان هذا القائد متنفّذاً يشكّل مصدر رعب وقلق لحكّام الدولة العبّاسيّة، ينقل المسعودي أنّ المعتزّ في حياة بغا كان لا يلتذّ بالنوم، ولايخلع سلاحه، لا في ليل ولانهار خوفاً من بغا، وقال: لا أزال على هذه الحالة حتّى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي. وكان يقول: إنّي لأخاف أن ينزل عليّ بغا من السماء أو يخرج عليّ من الأرض. **مروج الذهب** ٥: ٨٨.

تربيته[١]. يقول الطبريّ: ذُكر أنّ المستعين، لمّا أفضت إليه الخلافة، أطلق يد أتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال، وأباحهما فِعلَ ما أرادا فِعلَه فيها، وفعل ذلك بأمّ نفسه فلم يمنعها من شيءٍ تريده، وكان كاتبها سلمة بن سعيد النصرانيّ، فكانت الأموال التي ترد على السلطان من الآفاق إنّما يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة الأنفس[٢].

ونال عامّة العلويين من الحيف والقهر في سلطان المستعين ما نال الآخرين من رعايا الدولة، وكما هو محسوس لسائر عوامّ المسلمين، لكنّ يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن عليّ بن الحسين عليه السلام لم يُطق هذا الوضع، فخرج بالكوفة، وكان قبل خروجه يتردّد بين بغداد وسامراء يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه، فكان يرجع دائماً بالفشل، فاستثار جمعاً كثيراً من الأعراب، وانضمّ إليه جمع من الكوفة، فعسكر بهم بضواحي الكوفة، ولمّا علم بخبره محمّد بن عبد الله بن طاهر، وجّه الجنود إليه، فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها، ثمّ خرج منها وصار يتردد في السواد، ثمّ عاد إلى الكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمّد، وكُشِف أمره وتولّاه العامّة من أهل بغداد[٣]. وفي خلافة المستعين، وذلك في سنة خمسين ومائتين، ظهر ببلاد طَبْرستان الحسن بن زيد بن محمّد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة وقتال شديد، وما زالت في يده إلى أن مات سنة سبعين ومائتين، وخلفه أخوه

١ـ موسوعة تاريخ العرب ٢: ٣٢٦.

٢ـ تاريخ الأمم والملوك ٧: ٤٢٣.

٣ـ الدولة العبّاسيّة: ٢٣٧.

محمّد بن زيد فيها، إلى أن حاربه رافع بن هرثمة وصار في جملته وانقاد لدعوته والقول بطاعته، وكان الحسن بن زيد ومحمّد بن زيد يدعوان إلى الرضا من آل محمّد، كذلك مَن طرأ بعدهما ببلاد طبرستان، وهو الحسن بن عليّ الحسنيّ المعروف بالأطروش وولده، ثمّ الداعي الحسن بن القاسم الذي قتله أسفار بطبرستان. وكان الحسن بن القاسم من ولد الحسن بن عليّ بن أبي طالب. وظهر في هذه السنة ـ وهي سنة خمسين ومائتين ـ بالريّ محمّد بن جعفر بن الحسن، ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان، وكانت له حروب بالري مع أهل خراسان من المسوّدة[1]، فأُسر وحُمل إلى نيسابور إلى محمّد بن عبد الله بن طاهر، فمات بمحبسه بنيشابور، فظهر بعده بالري أحمد بن عيسى بن عليّ بن الحسين بن عليّ ابن أبي طالب، ودعا إلى الرضا من آل محمّد، وحارب محمّد بن عليّ بن طاهر وكان بالري، فانهزم عنها وسار إلى مدينة السلام فدخلها العلويّ. وفي هذه السنة ـ وهي سنة خمسين ومائتين ـ ظهر بقزوين الكركيّ، وهو الحسن بن إسماعيل بن محمّد بن عبد الله بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فحاربه موسى ابن بغا وصار الكركيّ إلى الديلم، ثمّ وقع إلى الحسن بن زيد الحسنيّ فهلك قبله. وظهر بالكوفة الحسين بن محمّد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فسرّح إليه محمّد بن عبد الله بن طاهر من بغداد جيشاً عليه ابن خاقان، فانكشف الطالبيّ واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم

---

١ ـ يذكر المؤرّخون، ومنهم أبو حنيفة الدينوري، أنّ أبا مسلم حين ظهر بخراسان انجفل الناس عليه من هراة وبوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونَسا وأبيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان والطخارستان وختّلان وكشّ ونسف، فتوافَوا جميعاً مُسوِّدي الثياب، وقد سوّدوا أيضاً أنصاف الخشب التي كانت معهم. **الأخبار الطِّوال**: ٣٦١.

عنه، وكان ذلك في سنة إحدى وخمسين ومائتين ـ كما ذكر المسعوديّ[1].

وكان المستعين يحاول إقصاء أولاد المتوكّل وإبعادهم عن الساحة، ربّما كان بدافع الأتراك الذين كانوا يخشون أن تتحرّك في نفوسهم رغبة الانتقام والثأر للمتوكّل الذي تناوشته سيوفهم، فلمّا بويع المستعين خلع المعتزّ والمؤيّد وأطلق الحسن ابن الأفشين وإخوته ومواليه من الحبس وخلع عليهم، وعقد لمحمّد بن طاهر بن عبد الله على خراسان، لكنّ هذا الأمر لم يَجْرِ وفقاً لإرادة المستعين، فسرعان ما شغب الوالي والشاكريّة وكسروا باب السجن وأنزلوا المعتزّ وخلعوا المستعين، وكانت أيّامه سنتين وتسعة أشهر، وبويع أبو عبد الله المعتزّ[2]. ويقال له: أبو عبد الله الزبير (المعتزّ) بن جعفر المتوكّل بن محمّد المعتصم، وأمّه أم ولد اسمها قبيحة، بويع له بعد خلع المستعين في ٤ محرّم سنة ٢٥٢ للهجرة. ويعتقد بعض المؤرّخين ـ وفقاً للاعتقاد السلطاني الذي يؤرّخ للسلطان والحاكم دون الأمّة والأوضاع الموضوعيّة ـ بأنّه لم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلّا أنّ الأتراك كانوا منذ قتلوا المتوكّل قد استولوا على المملكة واستضعفوا الحكّام، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاؤوا أبقوه وإن شاؤوا خلعوه، وإن شاؤوا قتلوه. وفي أوّل حكومة المعتزّ كتب المعتزّ بإسقاط اسم وصيف وبغا، وهما أكبر قوّاد الأتراك، لما كان من مساعدتهما المستعين. والتفت المعتزّ إلى ابن عمّه المستعين بالله، وكان خلعه وقرر قتله بوحي من الأتراك الذين سرّبوا إليه معلومات تفيد أنّ حكومته لن تثبت إلّا إذا قتل المستعين، ووقفت إلى جانبهم قبيحة أمّ المعتزّ التي خافت على حياة

١ـ مروج الذهب ٥: ٦٦ ـ ٦٨.

٢ـ البدء والتاريخ: ٨٤٩.

ولدها، فلم يمض إلّا أقلّ من السنة على كتاب الأمان الذي وقّعه المعتزّ للمستعين، حتّى أرسل المعتزّ إلى ابن طاهر يأمره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلّم المستعين لمن ندبه المعتزّ لاستلامه، وهو أحمد بن طولون التركي، فأخرج المستعين من واسط لستّ بقين من رمضان فوافى به القاطول في الثالث من شوّال، فتسلّمه منه سعيد بن صالح، وكان في ذلك نهاية حياة المستعين بالله على يد ابن عمّه المعتزّ بالله.

وإذ استراح المعتزّ ابن قبيحة من المستعين، ولم يرعَ كتاب الأمان، التفت إلى أخيه إبراهيم المؤيّد وإلى أخيه الآخر أحمد بن المتوكّل، وقد أعطى كلّاً منهما كتاب الأمان، وأحمد بن المتوكّل هو الذي أسقط المستعين حين قاد الجيش إلى بغداد وحاصرها. فخلع المعتزّ أخاه إبراهيم المؤيّد عن ولاية العهد ثمّ حبسه وأماته، وحبس أخاه الآخر وضيّق عليه. ولم تدم أيّامه مع الترك طويلاً، فجاءت جنودهم إليه وقالوا له: أعطنا أرزاقنا حتّى نقتل لك صالح بن وصيف، فأرسل المعتزّ إلى أمّه قبيحة ذات الثراء الفاحش يطلب منها مالاً لسدّ مستحقّات الجنود، فأبت أن تعطيه شيئاً وأنكرت أن يكون عندها شيء، ولمّا وجد الأتراك أنّ المعتزّ وأمّه قد امتنعا أن يسمحا لهم بشيءٍ وبيت المال خالٍ، اتّحدت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتزّ، فساروا إليه في آخر أيّام رجب وتناولوه ـ كما قيل ـ ضرباً بالدبابيس، فخرج وقميصه مخرّق في مواضع، وآثار الدم على منكبه، فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحرّ، فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي كان أُقيم فيه، ثمّ بعثوا إلى قاضي القضاة فحضر، وأمر المعتزّ أن يمضي على كتاب خلع كتب له فأمضى وشهد عليه الحاضرون . ويقال: إنّه بعد الخلع دُفع إلى من يعذّبه، ومُنع الطعام والشراب ثلاثة أيّام، فطلب حسوة من ماء

البحر فمنعوه حتّى مات في الأيام الأخيرة من رجب سنة ٢٥٥ للهجرة[١]. وكأن المعتزّ أراد أن يقلب موازين القوى في الدولة، لكنّه سرعان ما تلقّى ضربة قويّة من الأتراك وأنصارهم أجهزت عليه. يقول المسعوديّ: ولمّا رأى الأتراك إقدام المعتزّ على قتل رؤوسهم، وإعماله الحيلة في إفنائهم، وأنّه قد اصطنع المغاربة والفراغنة دونهم، صاروا إليه بأجمعهم، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وجعلوا يقرّعونه بذنوبه، ويوبّخونه على أفعاله، وطالبوه بالأموال، وكان المدبّر لذلك صالح بن وصيف مع قوّاد الأتراك، فلجّ وأنكر أن يكون قبله شيءٌ من المال، فلمّا حضر المعتزّ في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمّد بن الواثق الملقّب بالمهتدي[٢]، وبويع لمحمّد المهتدي بالله بن هارون الواثق بن المعتصم الرشيد لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ للهجرة، ولم يزل حاكماً إلى أن خُلع في ١٤ رجب من سنة ٢٥٦، فكانت مدّته ١١ شهراً وأيّاماً[٣].

ويبدو أنّ المهتدي قد أحسّ بإفراط حكّام الدولة ورجالها بالمجون والخلاعة، فأراد أن يبدّل صورة هذه الدولة التي تمادت بغيّها ولهوها، وربّما كان يحسّ بوخز الضمير الذي أنّبه إلى ما آلت إليه أمور بني العبّاس. حدّث ابن كثير الدمشقيّ بأنّه

١ـ **موسوعة تاريخ العرب** ٢: ٣٣٥ ـ ٣٤١.

٢ـ **مروج الذهب** ٥: ٨٨.

٣ـ وجاء في حديث الطبري عن وقائع سنة ٢٥٥ للهجرة: وفي يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب من هذه السنة بويع محمّد بن الواثق فسُمّي بالمهتدي بالله، وكان يُكنّى أبا عبد الله. وذكر عن بعض من كان شاهداً أمرهم أنّ محمّد بن الواثق لم يقبل بيعة أحد حتّى أُتي بالمعتزّ فخلع نفسه، وأخبر عن عجزه عن القيام بما أسند إليه ورغبته في تسليمها إلى محمّد بن الواثق، وأنّ المعتزّ مدّ يده فبايع محمّد بن الواثق فسمّوه بالمهتدي. . **تاريخ الأمم والملوك** ٧: ٥٢٧.

أمر بأن يُنفى القيان والمغنّون من سامراء، وأمر بقتل السباع والنمور التي في دار السلطان، وقتل الكلاب المعدّة للصيد، وأمر بإبطال الملاهي وردّ المظالم، وأن يُؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، وجلس للعامّة[1]. وربّما راجع أو تذكّر أخبار وسيرة الخليفة الكامل العادل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والذي كان يُمضي الأيام والليالي ذاكراً ربّه فيناجيه مناجاة العابدين العارفين. فيروي المسعوديّ عن محمّد بن عليّ الربعيّ، وكان ممّن يكثر ملازمة المهتدي، وكان عارفاً بأيّام الناس وأخبارهم، قال: كنت أبايت في الليالي المهتدي، فقال لي ذات ليلة: أتحفظ خبر نوف الذي حكاه عن عليّ بن أبي طالب حين كان يبايته؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، ذكر نوف قال: رأيت عليّاً رضي الله عنه ليلةً قد أكثر الخروج والدخول والنظر إلى السماء، ثمّ قال لي: يا نوف، أنائمٌ أنت ؟ قال:قلت: بل رامق بعيني منذ الليلة يا أمير المؤمنين، فقال لي: يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتّخذوا أرض الله بساطاً، وترابها ثياباً، وماءها طيباً، والكتاب شعاراً[2]، والدعاء دِثاراً[3]، ثمّ قرضوا[4] الدنيا قرضاً على منهاج المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام. يانوف، إنّ الله تعالى

١ـ **البداية والنهاية** ١١: ٢٣.

٢ ـ الشعار: كل شيءٍ لبستَه تحت ثوب فهو شعار له. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٢٩٣ (شعر). ومنه جاء قول الإمام عليّ عليه السلام لأصحابه:واستشعروا الصبر فإنّه أدعى إلى النصر. **نهج البلاغة:** الخطبة ٢٦.

٣ ـ الدِّثار: كلّ ما طرحتَه عليك من كساء أو غيره. **ترتيب جمهرة اللغة** ١: ٥٩٥ (دثر). قال الزمخشريّ: يقال: لبس الدثار فوق الشعار، هو متدثّر بالكساء ومدّثر به. **أساس البلاغة** ١: ٢٦٣ (دثر).

٤ـ قال الفيروز آباديّ: قَرَضَه يقرضه:قطعه وجازاه، وفي سيره: عدل يمنةً ويسرة، والمكان عدل عنه عنه وتنكّبه. **القاموس المحيط** ٢: ٥٢٢.

أوحى إلى عبده عيسى عليه السلام: أن قل لبني إسرائيل ألّا يدخلوا بيوتي إلّا بقلوب خاضعة، وأبصار خاشعة، وأكفّ نقيّة، وأعلِمْهم أنّي لا أجيب لأحد منهم دعوة، ولأحد من خلقي عليهم مظلمة. قال محمّد بن عليّ الربعيّ: فوَاللهِ لقد كتب المهتدي الخبر بخطّه، ولقد كنت أسمعه في جوف الليل، وقد خلا بربّه في بيت كان لخلوته، وهو يبكي ويقول: يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة. ويمرّ في الخبر إلى آخره، إلى أن كان من أمره مع الأتراك ما كان من قتلهم إيّاه[1]. ويبدو أنّ الدموع التي ذرفها المهتدي، والآهات الصادرة منه في أوّل وآخر الليل لم تفعل فعلها مع حاشيته من الأتراك الذين كانوا يعدّون العدّة لتصفيته وإلقائه خارج قصر الملوكية والسلطنة، إذ إنّ المُلك والثوب السلطاني الذي أعاره الزمن له حيناً من الدهر، لم يدم له طويلاً حتّى خلعت أيدي الدهر عنه ذلك الثوب ليلبسه مَلِك آخر في ألعوبة من ألاعيب الحكم، فخلعه الأتراك أو قتلوه، وبعده بويع لأحمد المعتمد على الله بن المتوكّل بن المعتصم، الذي بويع له من غير عهد سابق، يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦، ولم يزل حاكماً حتّى توفّي ليلة الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ للهجرة[2].

يتحدّث ابن كثير الدمشقي عن بيعة المعتمد بالقول: بويع للمعتمد بالخلافة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب من سنة ستّ وخمسين ومائتين، وذلك قبل خلع المهتدي بأيّام، ثمّ كانت بيعة العامّة يوم الإثنين لثمانٍ مضت من رجب. وخرج في هذه السنة في الكوفة شخص يقال له: عليّ بن زيد الطالبيّ، وجاء

١ـ مروج الذهب ٥: ١٠٢.

٢ـ الدولة العبّاسية: ٢٤٩ و٢٥٣.

جيش من جهة الخليفة، فكسره الطالبيّ واستفحل أمره بالكوفة، وقويت شوكته، وتفاقم أمره. وفي هذه السنة وثب محمّد بن واصل التميميّ على نائب الأهواز الحارث بن سيما الشرابي فقتله واستحوذ على بلاد الأهواز[1]. وهذه الأحداث تُعدّ من جملة الأحداث المألوفة والمتتابعة في عصور الدولة العبّاسيّة المختلفة، والتي كانت تتوالى على سلطة بني العبّاس، والتي كانت تتعرّض لهزّات وضربات متلاحقة من حين وآخر، أدّت بعضها إلى اقتطاع وانثلام أجزاء من الدولة العبّاسيّة، فظلّت هذه الأجزاء المقتطعة في منأى عن هيمنة عاصمة الدولة المركزية، والتي يرقد فيها الحاكم العبّاسي مستمتعاً بأحلامه الكبيرة والكثيرة، التي ملأت جفونه، وكأنّه كان عاجزاً عن لمّ أطرافها وشدّها نحوه.

والمعتمد هو آخر الحكّام العبّاسيّين الذين تولّوا هذا الأمر في زمان آخر الأئمّة الأحد عشر الذين مضوا إلى رحمة ربّهم ورضوانه، وفي ملك المعتمد في سنة مائتين وستّين من يوم الجمعة الثامن من ربيع الأوّل كانت شهادة الإمام الحسن ابن عليّ العسكريّ عليه السلام. قيل في سبب وفاته: سمّه المعتمد، وقيل: قتله المعتزّ من بني العبّاس[2]. وقال كمال الدين محمّد بن طلحة الشافعي: مولده سنة إحدى وثلاثين ومائتين للهجرة، وأمّا عمره فتوفّي في الثامن من ربيع الأوّل سنة ستّين ومائتين للهجرة في خلافة المعتمد، وقد تقدّم ذكر ولادته في سنة إحدى وثلاثين ومائتين، فيكون عمره تسعاً وعشرين سنة. كان مقامه مع أبيه ثلاثاً وعشرين سنة

١ـ البداية والنهاية ١١: ٢٩.

٢ـ التتمّة في تواريخ الأئمّة: ١٤٤.

وأشهراً، وبعد أبيه خمس سنين وشهوراً[١]. وبرواية الشيخ المفيد:قُبض الإمام الحسن العسكري عليه السلام وله يومئذ ثمانٍ وعشرون سنة، ودفن في داره بسرّ من رأى في البيت الذي دُفن فيه أبوه عليه السلام[٢]. وفي رواية الحسين بن حمدان الخصيبي: مضى أبو محمّد الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام وله سبع وعشرون سنة، يومَ الجمعة لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأوّل سنة ستّين ومائتين من الهجرة[٣]. وقد شهد الإمام الهادي عليه السلام شطراً من ظلامة هذا العصر ومرارته، وهو يطوي سنين عمره الأخيرة، ويشاركه الإمام الحسن العسكري عليه السلام في معايشة هذه المرحلة الزمنية العسيرة التي مرّت بها الأمّة الإسلاميّة، وقد لقي الإمام الهادي عليه السلام من عَنَت ومرارة سلطة العبّاسيين حتّى آخر عهد المعتزّ، حيث كانت شهادة الإمام علي بن محمّد الهادي عليه السلام بعد أن عاش بعد أبيه محمّد الجواد عليه السلام ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر. وكانت سنين إمامته بقيّةَ ملك الواثق، ثمّ ملك المتوكّل، ثمّ المستعين أحمد ثمّ المعتزّ، وفي آخر عمره استُشهد وليّ الله وقد كمل عمره أربعين سنة، وذلك في يوم الإثنين من رجب سنة مائتين وخمسين من الهجرة مسموماً، وقيل: سنة أربع وخمسين ومائتين، وقيل لخمس من رجب سنة أربع وخمسين، ودُفن بسرّ من رأى في داره[٤]. وهذا هو الأشهر في روايات الشيعة، ولكن هناك رواية لم يعتمدها المؤرّخون ولم يركنوا إليها، نقلها السيّد تاج الدين العاملي، تقول بأنّ المعتمد على

١ـ مطالب السَؤول في مناقب آل الرسول: ٣٠٩ـ٣١٠.

٢ـ الإرشاد: ٣٣٥.

٣ـ الهداية الكبرى: ٣٢٧.

٤ـ دلائل الإمامة: ٢١٦.

الله هوالذي سمّه[1]، والمعتمد هوأحمد بن جعفر المتوكّل على الله ابن محمّد المعتصم، بويع له من غير عهد سابق الثلاثاء في السادس عشر من رجب سنة ٢٥٦ للهجرة، كما قدّمنا.

وكان المعتمد مستضعَفاً، وكان أخوه الموفّق طلحة الناصر[2] هوالغالب على أموره، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه طلحة كالشريكين في الحكم، للمعتمد الخطبة والسكّة والتسمّي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر، ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء والأمراء. وكان

---

١ ـ **التتمّة في تواريخ الأئمّة:** ١٣٩.

٢ ـ قال ابن كثير الدمشقي في ترجمته: هوالأمير الناصر لدين الله، ويقال له: الموفّق، ويقال له: طلحة بن المتوكّل على الله جعفر بن محمّد المعتصم بن هارون الرشيد. كان مولده في يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين ومائتين، وكان أخوه المعتمد حين صارت إليه الخلافة قد عُهد إليه بالولاية بعد أخيه جعفر، ولقّبه الموفّق بالله، ثمّ لمّا قُتل صاحب الزنج وكسر جيشه تلقّب بناصر دين الله، وصار إليه الحلّ والعقد والولاية والعزل، وإليه يجبى الخراج، وكان يُخطَب له على المنابر، فيقال: أللهمّ أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفّق بالله ولي عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين. ثمّ اتّفق موته قبل أخيه المعتمد بستّة أشهر. وكان سبب موته أنّه أصابه مرض النقرس في السفر، فقدم إلى بغداد وهوعليل منه فاستقرّ في داره في أوائل صفر وقد تزايد به المرض وتورّمت رجله حتّى عظمت جدّاً، وكان يوضع له الأشياء المبرّدة كالثلج ونحوه، وكان يُحمل على سريره، يحمله أربعون رجلاً بالنوبة، كلّ نوبة عشرون، فقال ذات يوم: ما أظنكم إلّا قد مللتم منّي، فيالليتني كواحد منكم آكل كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، وأرقد كما ترقدون في عافية. وقال أيضاً: في ديواني مائة ألف مرتزق، ليس فيهم أحد أسوأ حالاً منّي. **البداية والنهاية** ١١: ٧٣.

المعتمد مشغولا بلذّاته[1]، وقد عاشت سامراء في دوّامة من الفتن والاضطرابات التي نزعت البسمة من شفاهها، وأورثتها حزناً وكآبة تركت أثراً على معالم المدينة وصورتها، وربّما كانت تندب حظّها العاثر الذي دفع بأشرار الزمان إلى سهولها الخضراء وجنانها الرائعة، ويبدو أنّ بغداد كانت بعيدة عن هذه الفتن والاضطرابات التي كانت تمزّق سامراء وتزعجها في فسحة من الدهر، يقول الشيخ محمّد الخضري: كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين، الأوّل: بُعد هؤلاء الغلف القلوب عنها ـ أي الأتراك ـ ، والثاني:وجود محمّد بن عبد الله بن طاهر بها، وهو رجل ذو عزم وأيد، زيادة على ما في نفس القوم من الهيبة، ومع ذلك كلّه فقد مسّها طائف من شيطان الاضطراب في سنة ٢٥٢، وذلك أنّ المعتزّ كتب إلى محمّد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التي منها أرزاق جند بغداد، وكتب إلى والي البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القوّاد، ففعل ذلك دون أن يُعلِم الأمير ابن طاهر، فلمّا قرأ الكتاب على القوّاد جاؤوا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر، فأحضر والي البريد وقال له: ما حملك على هذا بغير علمي؟! وتهدده على ذلك، ثمّ اجتمعت الجنود البغداديّة إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها، فأخبرهم أنّ كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق بغداد:إن كنتَ فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم، وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم. أعطاهم ابن طاهر ما سكّنهم به وقتاً، ثمّ اجتمعوا في ١١ رمضان سنة ٢٥٢، ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسيّة وغيرهما، وبنوا بيوتاً من بواري القصب، وهكذا استعدّوا للشغب على ابن طاهر، كما يشغب

١ـ موسوعة تاريخ العرب ٢: ٣٥٠.

أتراك سامراء على المعتزّ، فجمع ابن طاهر الجند القادمين من خراسان وأعطاهم لشهرين، وأعطى جند بغداد القدماء الفارسَ منهم دينارين والراجل ديناراً، وشحن داره بالرجال. اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له:عبدان بن الموفّق، وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات، وهو الذي يحضّ أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفائتهم، وضمن لهم أن يكون رأساً يدبّرهم، وأن يعينهم بماله حتّى ينالوا ما يطلبون. فوجّه إليهم ابن طاهر قوّاده في جماعة من الفرسان، فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشاغبون قوّاد ابن طاهر، ثمّ فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم، فقبض على رؤوسهم وعوقبوا أشدّ العقوبات، وصلب رئيسهم عبدان بن الموفّق، وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن[1].

والمشهور في روايات الشيعة أنّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام قد أدرك حكّام بني العبّاس في سامراء بدءاً من المتوكّل وحتّى سلطان المعتمد، وقد حدّد الشبلنجي حكّام بني العبّاس الذين عاصروا الإمام الحسن العسكري عليه السلام بالقول:معاصره: المعتزّ، والمهتدي، والمعتمد[2] وكان الإمام عليّ الهادي عليه السلام ـ حسب قول الشيخ عباس القمّي ـ أدرك من خلفاء بني العبّاس: المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكّل، والمنتصر، والمستعين، والمعتزّ، واستُشهد في أيّام المعتزّ بالسمّ[3] وكانت هناك محاولات من المتوكّل لإطفاء نوره والإجهاز عليه، لكنّها كانت تبوء بالفشل، منها ما رواه القطب الراوندي عن أبي سعيد سهل بن زياد

١ـ الدولة العبّاسيّة: ٢٤٦.

٢ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار صلى الله عليه وآله: ٣٣٨.

٣ـ منتهى الآمال في تواريخ النبيّ والآل: ٧٣٨.

قال: حدّثنا أبو العبّاس فضل بن أحمد بن إسرائيل الكاتب، ونحن في داره بسامراء، فجرى ذكر أبي الحسن عليه السلام فقال: إنّي أحدّثك بشيءٍ حدّثني به أبي، قال: كنّا مع المعتزّ ووقف وقفت خلفه، وكان عهدي به إذا دخل رحّب به ويأمره بالقعود، فأطال القيام وجعل يرفع رِجلاً ويضع أخرى، وهو لا يُأذَن له بالقعود، ونظرت إلى وجهه يتغيّر ساعة بعد ساعة، ويقبل على الفتح بن خاقان ويقول: هذا الذي تقول فيه ما تقول! ويردد عليه القول والفتح مقبل عليه يسكّنه ويقول: مكذوب عليه يا أمير المؤمنين وهو يتلظّى ويقول: واللهِ لأقتلنّ هذا المرائي. . ثمّ قال: جئني بأربعة من الخزر جلاف لايفقهون. فجيء بهم ودفع إليهم أربعة أسياف، وأمرهم أن يرطنوا بألسنتهم إذا دخل أبو الحسن وأن يقبلوا عليه بأسيافهم فيخبطوه ويعلّقوه، وهو يقول: والله لأحرقنّه بعد القتل! وأنا منتصب قائم خلف المعتزّ من وراء الستر، فما علمت إلّا بأبي الحسن قد دخل وقد بادر الناس قدّامه وقالوا: قد جاء! والتفتّ فإذا أنا به وشفتاه تتحرّكان وهو غير مكروب ولا جازع، فلمّا بصر به المتوكّل رمى بنفسه عن السرير إليه ويسبقه وانكبّ عليه فقبّل ما بين عينيه ويديه وسيفه بيده، وهو يقول: يا سيّدي، يا ابن رسول الله[1]. وكأن شيئاً لم يكن، لأن الأجل المقدّر له لم يحن بعد، ولم يكن الله تعالى قد قدّر شهادته يومها.

وأمّا الحسن العسكري عليه السلام فقد أراد قتلَه الملوكُ الثلاثة الذين كانوا في زمانه، حيث بلغهم أنّ المهدي عليه السلام يكون من ظهره، فحبسوه عدّة مرّات، فدعا على من دعا عليه منهم، فهلك في سريع من الأوقات[2]، حتّى نال الشهادة في الوقّت الموقت له والمقدّر في اللوح المحفوظ. وقد روى الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسيّ

١ـ الخرائج والجرائح ١: ٤١٧/ ح ٢١.

٢ـ مهج الدعوات: ٢٧٣.

بإسناده إلى محمّد بن الحسن بن شمسون، عن أحمد بن محمّد قال: كتبتُ إلى أبي محمّد عليه السلام، حين أخذ المهتدي في قتل الموالي، وقلت: يا سيّدي، الحمد لله الذي شغله عنك، فقد بلغني أنّه يتهدّدك ويقول: واللهِ لأجلينّهم من جديد الأرض! فوقّع أبو محمّد عليه السلام بخطّه: ذاك أقصرُ لعمره، عُدَّ مِن يومك هذا خمسة أيّام ويُقتل في اليوم السادس بعد هوان واستخفاف يمرّ به. فكان كما قال عليه السلام.[1]

وذلك حين أراد استعمال الحيلة في التخلّص من نفوذ الأتراك الذين استبدّوا بالأمور وأفسدوا وبغوا وتمادوا في غيّهم باستبدال الحكّام وعزلهم وفقاً لما يرغبون ويشتهون، فأنفذ المهتدي جنداً لمحاربة خارجيّ وفيه موسى بن بغا وبايكباك ومفلح، فكتب المهتدي إلى بايكباك يأمره أن يضمّ العسكر الذي مع موسى إلى نفسه. يقول ابن كثير: إنّ الخليفة ـ أي المهتدي ـ أراد أن يخالف بين كلمة الأتراك، فكتب إلى بايكباك أن يتسلّم الجيش من موسى بن بغا، ويكون هو الأمير بين الناس، وأن يُقْبل بهم إلى سامراء، فلمّا وصل إليه لكتاب أقرأه موسى بن بغا، فاشتدّ غضبه على المهتدي واتّفقا عليه وقصدا إليه إلى سامراء، وتركا ما كانا فيه، فلمّا بلغ المهتدي ذلك استخدم من فوره جنداً من المغاربة والفراغنة والأشروسية والأرزكشية والأتراك أيضاً، وركب في جيش كثيف، فلمّا سمعوا به رجع موسى بن بغا إلى طريق خراسان وأظهر بايكباك السمع والطاعة، فدخل في ثاني عشر رجب إلى الخليفة سامعاً مطيعاً، فلمّا أُوقف بين يديه وحوله الأمراء والسادة من بني هاشم شاورهم في قتله، فقال له صالح بن علي بن يعقوب بن أبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين، لم يبلغ أحد من الخلفاء في الشجاعة ما بلغت، وقد كان أبو مسلم

١ـ إعلام الورى بأعلام الهدى: ٣٥٦، الكافي ١: ٤٢٧/ ح١٦.

الخراسانيّ شرّاً من هذا وأكثر جنداً، ولمّا قتله المنصور سكنت الفتنة وخمد صوت أصحابه. فأمر عند ذلك بضرب عنق بايكباك ثمّ ألقى رأسه إلى الأتراك، فلمّا رأوا ذلك أعظموه وأصبحوا من الغد مجتمعين على أخي بايكباك طاغوتياً فخرج إليهم الخليفة فيمن معه، فلمّا التقوا خامرت الأتراك الذين مع الخليفة إلى أصحابهم وصاروا إلباً واحداً على الخليفة، فحمل عليهم الخليفة فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف، ثمّ حملوا عليه فهزموه ومن معه، فانهزم الخليفة وبيده السيف صلتاً وهو ينادي: يا أيّها الناس، انصروا خليفتكم. فدخل دار أحمد بن جميل صاحب المعونة، فوضع فيها سلاحه، ولبس البياض وأراد أن يذهب فيختفي، فعاجله أحمد بن خاقان منها، فأخذه قبل أن يذهب ورماه بسهم وطعن في خاصرته به، وحُمل على دابّة وخلفه سائس وعليه قميص وسراويل حتّى أدخلوه دار أحمد بن خاقان، فجعل مَن هناك يصفعونه ويبزقون في وجهه، وأخذ خطّه بستمائة ألف دينار، وسلّموه إلى رجل فلم يزل يَوجَأ خصيتَيه ويطأهما حتّى مات[1].

وفي خبر المسعودي: أُسر وبه ضربات مثخنة، وقُتل بسرّ من رأى لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦، وكانت خلافته أحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً[2].

---

١ ـ البداية والنهاية ١١: ٢٧.

٢ ـ التنبيه والإشراف: ٣٦٦.

فلسفة النيابة والتمهيد لعصر الغيبة

كان العبّاسيون يرقبون الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ويخشون الخَلَف الذي سيخرج منه، والذي سيقضّ ويهدم أبنية الباطل ويقيم دولة العدل الإلهيّ، وربّما كانت لديهم خشية أن يكون زمانهم الزمان الأخير الذي سيقام على أنقاضه الحكم السماوي العادل. وكانت هناك بعض الأمور لُوحظت في سيرة الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، ربّما اطّلعوا على بعضها، أوغابت عنهم أشياء، فقد كثرت الشيعة في زمان أبي محمّد عليه السلام وانتشروا في كلّ بلد، حتّى في عاصمة أولئك الحكّام، فلاحظوا اجتماعهم على الإمام أبي محمّد عليه السلام وتدفّق الأموال عليه من مختلف المناطق بواسطة وكلائه المنتشرين هنا وهناك، بالإضافة إلى الوفود التي كانت تزدحم على بابه بين الحين والآخر، وإلى انتفاضات العلويين ضدّ الحكم القائم يوم ذاك في أكثر من مكان، كانتفاضة الحسن بن زيد العلوي الذي سيطر على طبرستان وجهاتها وغيره، قد أقضّ مضاجع الحكّام وجسّد لهم الأخطار التي تكمن في بقاء الإمام الحسن العسكريّ حرّاً طليقاً هو وشيعته.

كلّ ذلك قد أقضّ مضاجعهم، ففرضوا عليه الإقامة الجبرية إلى جوارهم، كما فرضوها على أبيه من قبله، وسلّطوا عليه أجهزتهم، وسجنوه خلال السنوات القليلة من إمامته أكثر من مرّة، وشدّدوا الحصار على شيعته المنتشرين في أنحاء البلاد،

حتّى قتلوا منهم في مدينة قمّ معقل الشيعة والعلماء والمحدّثين مقتلة عظيمة. وظل الضغط يتوالى عليه ويشتدّ حتّى تاريخ شهادته، وهو في ريعان شبابه قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره مسموماً. ولقد رافق التشيّع، بما له من المعنى الصحيح، ظهورَ الإسلام، ومضى في طريقه ببطء تارة وبقوّة أخرى، حتّى دخل في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ببركة الدماء الزكيّة التي أريقت في سبيل الله، وجهودهما وآثارهما التي كانت ولا تزال أفضل ما أنتجه الفكر الإسلامي، وأوفرها عطاءً في كلّ مدينة وكلّ قرية، بالرغم من تلك الأحداث القاسية التي كانت تلاحقه في كلّ بلد، بل وفي كلّ بيت، من الأمويين والعبّاسيين على السواء، بل كانت محنته من العبّاسيين أقسى وأمرّ، كما يدلّ على ذلك تاريخهم الطويل مع الشيعة وأئمّتهم الأطهار. ولم يحدّث التاريخ عن دعوة لقيت ما لقيه التشيّع من التحدّي والمطاردة والظلم بأقبح صوره وأشكاله، واستطاعت أن تصمد في وجه أعدائها، كما صمد التشيّع وتجاوز الأحداث والحكّام لينتشر في أرجاء الدنيا الواسعة متحدّياً جميع الطغاة والجبابرة، وكأنّ أولئك الذين كانوا يعملون بكلّ ما لديهم من قوى الشرّ والبغي لمحقه أو تحجيمه، وهو أقلّ ما كانوا يأملون، كأنّهم كانوا يدفعون به إلى الأمام بكلّ ما يملكون من حول وطَول. وظلّ يتّسع خلال القرنين الثاني والثالث برعاية الأئمّة الأطهار وتعاليمهم وجهادهم المتواصل، بالرغم من الحصار المفروض عليهم من السلطات الحاكمة وأجهزتها التي كانت تلاحقهم في كلّ مكان.

وفي عهد الإمامين الهادي والعسكريّ عليهما السلام كان عدد الشيعة في بعض المناطق من إيران والكوفة والبصرة واليمن والحجاز، وحتّى في سامراء عاصمة العبّاسيين، يُقدَّر بعشرات الملايين، ولم يكن لهم مرجع سوى الإمام أبي محمّد العسكريّ بعد أبيه فيما أشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم، كما كانت أخماس أموالهم تُجبى

إليه بواسطة وكلائه المنتشرين هنا وهناك[1]. ومن هنا كان لابدّ من إدامة الاتصال بين الشيعة وقادتهم، ولكن الإمام الحسن العسكري عليه السلام كان عالماً بشهادته، وأنّ هناك عهداً بين وصيّه وعموم الشيعة، ولكنّ هذا الوصيّ الأخير والخاتم لايمكنه ممارسة دوره إلّا باستتار ونأي عن أعين الأنام، وأن يكون على بعد ومسافة من سلطات بني العبّاس، وهو ما عُرف بالاصطلاح بعصور الغَيبة، ومن هنا فلابدّ من مقدّمة وإعداد للأمر. وتُعدّ فترة إمامة الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام مقدّمة عمليّة ونظريّة للإعداد للغيبة الصغرى والكبرى التي سيعيشها أو يُضطَرّ إليها الإمام الثاني عشر للشيعة، وهذا الإمام الذي عاصر ظروفاً ومناخات سياسيّة قلقة ومضطربة، كانت تؤشّر له ولشيعته وأنصاره فترة ومرحلة أقلّ ما يقال عنها أنّها صعبة وقاسية، ومن ثَمّ فالواجب عليه لمواجهة وتجنّب معركة غير متكافئة، أو لم يحن وقتها، أو لم يكن هناك مبرر له ولشيعته، أن يخوض هذه المعركة، لذا فمن المتوقّع أنّ آخر إمام وآخر حجّة سيغيب غيبة اضطرارية قاهرة لابدّ منها، وبالتالي فالقبول النفسي والسياسي لها أمر مقدّر ينبغي إدراكه والتهيّؤ له.

وكان الإمام علي الهادي عليه السلام يمارس عمليّة التغيّب عن أنصاره وشيعته للضرورات السياسيّة والاجتماعيّة، يقول المسعودي: رُوي أنّ أبا الحسن صاحب العسكر عليه السلام احتجب عن كثير من الشيعة إلّا عن عدد يسير من خواصّه، فلمّا أفضى الأمر إلى أبي محمّد عليه السلام كان يكلّم شيعته الخواصّ وغيرهم من وراء الستر إلّا في الأوقات التي يركب فيها إلى دار السلطان، وإنّ ذلك إنّما كان منه ومن أبيه قبله مقدّمةً لغَيبة صاحب الزمان، لِتَأْلف الشيعة ذلك، ولا تنكر الغيبة، وتجري العادة

١ـ ينظر: سيرة الأئمّة الاثني عشر ٢: ٥١٢.

بالاحتجاب والاستتار[1]. ولهذا كانت القيادة الشيعيّة الشعبيّة ـ أي الوكلاء وأصحاب الأئمة عليهم السلام ـ تحرص على خلق ترابط روحي ونفسي بين الإمام المعصوم وعموم طبقات الشيعة الذين يجب إحاطتهم برعاية ومتابعة متواصلة، فعرف الشيعة مصطلح النيابة أو السفارة، وهذا المصطلح يعني عدم خلوّ الأرض من حجّة لله على العباد، أو بمعنى آخر وجود واسطة بين المعصوم والمكلّفين للاطلاع المفترض المتبادل بين الطرفين.

وربّما يمكن لنا أن نعدّ أوّل سفير للإمام المعصوم هو مسلم بن عقيل[2] الذي اتّخذه الإمام الحسين عليه السلام نائباً عنه أو سفيراً له، وذلك حين أرسله إلى العراق

---

١ ـ **إثبات الوصيّة:** ٢٣١.

٢ ـ يعدّ مسلم بن عقيل بن أبي طالب من الشخصيات اللامعة والقويّة التي تميّزت بخصائص المؤمن الملتزم والصابر والوفيّ، ومن الشخصيات النادرة التي أرّخ لها في تاريخ الإسلام السياسي، لذا انتخبه الإمام الحسين عليه السلام سفيراً وممثّلاً له في تلك الحقبة الحرجة من تاريخ الإسلام، كما يؤرّخ لبدء الدولة الأموية وإقبال الحظّ السياسي لها، وإقبال الدنيا عليها. يقول عبد الرزّاق الموسويّ المقرّم: من الجدارة التعريف بنواحي هذا الرجل العظيم الذي دخل الكوفة وحده بلا عُدّة ولا عدد، فدوّى أرجاءها بصرخته الحسينيّة في وجه المنكر، وأقلق فكر الممثّل للزعامة الأمويّة في الشام.. لقد عرف الناس مسلم بن عقيل في بيته وحسَبه ومروّته وفضائله منذ عهد الصبا إلى أن بلغ مبلغ الرجال المحنّكين، وقد وعوا كلمة الحسين عليه السلام في صكّ ولايته. **الشهيد مسلم بن عقيل:** ٣٤ و١٥٣. كما أنّ مسلم له نجابة وعراقة في نسبه من جهة الأب والأم، فعقيل سليل الهاشميين ونتاية قريش. أمّا أمّه فأمّ ولد يقال لها: حلية، كان عقيل اشتراها من الشام. **مقاتل الطالبيين:** ٨٠. والظاهر أنّ أمّ مسلم كانت شريفة في قومها كما يظهر من ابن قتيبة حين عرّفها بالقول: كانت أمّ مسلم بن عقيل نبطيّة من آل فرزندا. **المعارف:** ٢٠٤.

ليكون وسيطاً له عليه السلام مع شيعته. وربّما يقال: لم تكن هناك ضرورة، أو لم يكن يسمح الظرف أو الوقت للأئمّة المعصومين الآخرين لتكرار تجربة وكالة أو سفارة مثل التجربة الأولى التي اتّخذها الإمام الحسين عليه السلام، ولكن كان هناك وكالة أو سفارة عامّة تمثّلت بأصحاب أو رواة الأئمّة عليهم السلام كانوا يدعون إلى إمامة الأئمّة المعصومين، وربّما كان أحدهم يقوم بدور الوكيل أو الممثّل للإمام المعصوم، أو يقوم بتقديم بعض الخدمات العلمية، كأن تكون إجابات لأمور مبسطة أو واضحة لكنّها تحتاج إلى شخص مرتبط بالإمام المعصوم أو مورد اعتماد يكون مصدر اطمئنان للعوامّ، أو هناك ضرورة لشخص يقوم بنقل الأسئلة والاستفسارات أو المكاتبات اللازمة إلى الإمام المعصوم فيقوم بهذا الدور، ومن ثمّ لابدّ من نقل إجابات المعصوم على ما تحصّل لديه من مجموع أسئلة أو مسائل أو مواقف من قضايا تخصّ زمن المعصوم، أو نقل رسائل خاصّة تتعلق بأوضاع الطائفة من غير سؤال أو استفسار، فهنا يبرز دور الراوي أو الصحابي أو الواسطة أو السفير. وربّما تكون هناك ضرورة، كأن تكون قضيّة طارئة، أو حاجة ماسّة للاتّصال المباشر من هؤلاء الأصحاب، لاستحصال الحقوق وترتيب الالتزامات التي تتعلّق بالطائفة تجاه القيادة الدينية، أو نحو ذلك، فيقوم الأصحاب بهذا الدور النيابي.

ومفهوم السفارة أو النيابة توضّح في عصر الإمام المهدي وغيبته الصغرى، وبدت هناك ضرورة أو فراغ تشريعي واضح يتطلّب سدّه بالسفراء والوكلاء، ولذلك حصل انشداد واستقطاب كبير لهذه السفارة من قِبل الشيعة، فتحرّكت العامّة بقضّها وقضيضها باتجاه السفراء والعلماء. وهذا التحرّك والاتّجاه صوبَ العلماء والسفراء جاء نتيجة اعتقاد الشيعة الإماميّة ـ وفقاً لروايات أهل البيت عليهم السلام ـ بأنّ الإمام المهدي عليه السلام هو الحافظ للأسرار الغيبيّة والإلهية، وهو الخازن والمستودع

للعلوم التي ورثها من آبائه وأجداده عليهم السلام، فالأمّة هنا ترى من اللازم عليها أن ترجع إليه في المسائل والأمور التي تخصّ دينها ودنياها، فهي بحاجة ماسّة لاستكمال دينها من هذا المنبع، ولذا تصبح وتصير الأمّة من هذا المنطلق مرتبطةً بوكلائه وسفرائه الذين يمتدّون إليه بمسائل الناس. يقول السيّد عليّ الشهرستاني: إنّ الإمام المهدي ورث علوم آبائه وأجداده، كما ورث كتاب عليّ وغيره من الكتب التي كانت عندهم، وقد صرّح أئمّة أهل البيت عليهم السلام بأنّ ما في كتاب عليّ أو مصحف فاطمة أو غيرهما من مدوّنات عصر الرسالة يكون عند الإمام المهديّ. ويعرّف السيّد كتاب عليّ بالقول: لم ينحصر عمل الإمام في ما كتبه في الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ نصّت المصادر على أنّ عليّاً كان قد دوّن كتباً أخرى استُقيت من علم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد نَسَب الشريف المرتضى المتوفّى ٤٣٦ للهجرة إلى الإمام كتاب **المحكم والمتشابه في القرآن**. والأشعريّ القمّي المتوفّى ١٠٣ للهجرة نسب إليه كتاب **ناسخ القرآن ومنسوخه**، والحافظ ابن عقدة الكوفيّ المتوفّى ٣٣٣ للهجرة، ذكر للإمام ستّين نوعاً من أنواع علوم القرآن. أمّا أولاد الإمام عليّ وأصحابه فقد دوّن كلّ واحد منهم كتباً في جميع المجالات[1].

ومن هذا المنطلق لابدّ من مواصلة واتّصال بمنتهى العلوم وحاملها، وهذا العالم والمرجع غائب مستور مطارد، فلا مناصّ من شخص آخر، أو شخص ثالث يكون بين الغائب والحاضر، فيكون بالضرورة هنا في مرحلة غيبة الإمام المعصوم السفير الذي يكون واسطة وقناة لنقل العلم الذي يحمله الإمام المعصوم. ولم تقتصر مهمّة السفراء في توصيل الرسائل والبيانات الصادرة من الإمام المهدي عليه السلام إلى الشيعة،

١ـ منع تدوين الحديث: ٥١٤ و ٤٦٨.

أو في بيان الأحكام الشرعيّة التي يحتاجها المكلّفون، وإنّما كانت السفارة بمثابة المرجع السياسي والاجتماعي والديني للطائفة الذي ينتهي إليه المسلمون. .وقد كان هناك إعداد مبكّر للسفارة المهدوية من قبل السيّدة الفاضلة التقيّة حكيمة بنت الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام: يقول الشيخ محمّد باقر المجلسيّ: كانت حكيمة مخصوصة بالأئمّة عليهم السلام ومودعة أسرارهم، وكانت أمّ القائم عندها، وكانت حاضرة عند ولادته عليه السلام، وكانت تراه حيناً بعد حين في حياة أبي محمّد العسكريّ عليه السلام، وكانت من السفراء والأبواب بعد وفاته[1].

والمرويّ في أخبار الشيعة أنّ ولادة المهدي عليه السلام قد تمّت قبل وفاة أبيه العسكري عليه السلام بسنتين وسبعة أشهر، وكان بابه عثمان بن سعيد، فلمّا مات عثمان أوصى إلى ابنه أبي جعفر محمّد بن عثمان، وأوصى أبو جعفر إلى أبي القاسم الحسين بن روح، وأوصى أبو القاسم إلى أبي الحسن عليّ بن محمّد السَّمَري، فلمّا حضرت السمريَّ الوفاة سُئل أن يوصي فقال: إنّ الله بالغ أمره[2]. ويستظهر الكاتب عادل الأديب أنّ الإمام المهدي عليه السلام اعتمد تنظيماً هرميّاً في ارتباطاته واتّصالاته بقواعده ومواليه، فكان عليه السلام في قمّة الهرم قائداً يمارس عمله بسرّية وخفاء، يصدر الأوامر والتعليمات إلى سفرائه مباشرة، وهم بمثابة أعضاء الارتباط بينه وبين الوكلاء الذين انتشروا في المناطق البعيدة، ليكونوا همزة الوصل بين السفراء والقواعد الشعبيّة الواسعة. وكان الإمام المهدي عليه السلام يعمد إلى إحاطة اتّصاله بالوكلاء بالغموض المطلق، وكان ذلك الاتّصال مجهولاً تماماً لدى كلّ إنسان

١ـ **بحار الأنوار** ١٠٢: ٧٩ ـ باب زيارة الإمامين العسكريّين عليهما السلام / ح١٢ ـ بيان.

٢ـ **روضة الواعظين** ٢: ٢٤.

مهما كان خاصّاً ومقرّباً ما عدا السفير نفسه، الذي يضطلع بمهمّة الاتّصال المباشر، ومن الممكن القول بأنّ السفير كان منهيّاً عن التصريح به أساساً لكلّ أحد. وكان اختيار الإمام المهدي عليه السلام لأشخاص السفارة و إيكال الوكالة الخاصّة لهم تقوم على عمق إخلاصهم، وقوّة تحمّلهم للتعذيب، فيما إذا وقعوا تحت أيدي السلطة، ولم يشترط الإمام عليه السلام أن يكون السفير هو الأعمق فقهاً، أو الأوسع ثقافة، لأنّ السفارة لاتعني إلّا التوسّط في التبليغ، ومن هنا جاز إسنادها إلى المفضول مع وجود الأفضل، حرصاً على الإخلاص العميق وقوّة الإرادة. ومن هنا جاء البعض يعترض على أبي سهل النوبختي، فقيل له:كيف صار هذا الأمر ـ أي السفارة ـ إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح دونك ؟ فقال:هم أعلم وما اختاروا، ولكن أنا رجل ألقى الخصوم وأناظرهم، ولو علمت بمكان كما علم أبو القاسم وضغطتني الحجّة، لعلّي كنت أدلّ على مكانه، وأبو القاسم فلو كان الحجّة تحت ذيله وقرض ذيله بالمقاريض ما كشف الذيل عنه. وكانت مسؤولية السفراء في هذا التنظيم عامّة وشاملة، على حين نرى مسؤوليّة الوكلاء خاصّة، تشمل منطقته فقط، ومهمّة الوكيل في التنظيم تسهيل عمل السفير وتوسيعه، خصوصاً أنّ ظروف العمل السرّي تمنع حرّيّة الحركة والاتّصال المباشر بالقواعد الشعبية المنتشرة في مختلف البلدان الإسلاميّة، فيكون لعمل الوكلاء ونشاطهم أكبر الأثر في إيصال التعاليم والتوجيهات إلى أوسع مقدار ممكن من القواعد الشعبيّة الموالية، فضلاً عن ذلك أنّ فكرة اعتماد نظام الوكلاء في التنظيم الهرميّ تساهم في إضفاء طابع التكتّم والسرّية على اسم وشخص السفير، فالفرد المنتمي للقواعد الشعبية العارف بفكرة السفارة غاية ما يستطيعه هو الاتّصال بأحد الوكلاء من دون معرفة اسم السفير أو عمله أو مكانه. وكانت الأموال والحقوق الشرعيّة تصل الإمام عليه السلام ليعاد توزيعها بواسطة السفراء ثمّ

الوكلاء لتصرف في مواضعها. وهذه الأموال منها ما يصل الإمام عليه السلام مباشرة، ومنها ما يصرفه الوكيل وفقاً للقواعد والأحكام الإسلاميّة في صرف الحقوق. ومن مهمّة السفراء أيضاً أخذ الأسئلة الفقهيّة والعقائدية وغيرها التي كانت توجّه للإمام عليه السلام[1].

والمعروف أنّ الإمام المهدي اختار أربعة أشخاص لسفارته أو واجهته، وعهد إليهم أن يكونوا واسطة بينه وبين الجماهير الشيعية في مختلف المناطق، وهناك من يرى أنّ الإمام المهدي عليه السلام خلال هذه الفترة اختار جماعة من ثقات الشيعة وأوكل إليهم مساندة سفرائه في بعض المهمّات لتذليل الصعوبات التي كانت تعترض تحرّكاتهم بواسطة مراقبة الحكّام وأجهزتهم، وكانت مهمّة الوكيل محدودة بالقياس إلى مهمّة السفير، وذلك لأنّ السفير كان يتّصل بالإمام مباشرة ويأخذ منه التعليمات والتواقيع، ويقوم بأكثر مسؤولياته حسب التوجيه الذي يتلقّاه منه، في حين أنّ مسؤولية الوكيل في الغالب في حدود منطقته، كاستلام الأخماس وتسهيل اتّصال الشيعة بالسفراء ليرفعوا إليهم حوائجهم، وتبليغ الأحكام والتوجيه، ونحو ذلك[2].

وقد ترسّخ مفهوم الغيبة لدى الشيعة الإماميّة، وأصبح من الاعتقادات الضرورية لهم، والغَيبة تعني لهم أنّ الإمام المهدي عليه السلام كانت له غيبتان:غيبة صغرى، وغيبة كبرى.ومعنى الصغرى أنّ الإمام المهدي عليه السلام كان يحتجب عن الناس إلّا عن الخاصّة، وأنّ اتّصاله بشيعته كان عن طريق السفراء، فكان الشيعة يعطون الأسئلة إلى السفير، وهو بدوره يوصلها إلى الإمام، وبعد الجواب عنها والتوقيع عليها

١ـ الأئمّة الاثنا عشر: ٢٥٧.

٢ـ سيرة الأئمة الاثني عشر٢: ٥٨٠.

يرجعها إلى السائلين على يد سفيره.ومن هنا سُمّيت الغيبة الصغرى، أي أنّها ليست بغيبة كاملة ولا طويلة، بحيث انقطع فيها عن جميع الناس، وكانت مدّتها ٧٤ سنة. وكان السفير الأوّل بين الإمام الغائب وشيعته رجلاً يُدعى عثمان بن عمر. وكان عثمان هذا وكيلاً للإمام عليّ الهادي عليه السلام جدّ الإمام المهدي، ثمّ وكيلاً لأبيه الإمام الحسن العسكري، ثمّ صار سفيراً للإمام المهدي عليه السلام، ولمّا توفّي عثمان تولّى السفارة بعده ولده محمّد بأمر الإمام المهدي، ثمّ تولّاها بعده الحسين بن روح النوبختي، ثمّ عليّ بن محمّد السمريّ.

وبعد هؤلاء السفراء الأربعة انتهت الغيبة الصغرى، أمّا الغيبة الكبرى فتبتدئ من منتصف شعبان سنة ٣٢٨ للهجرة ـ أو سنة ٣٢٩ على قول ـ وفيها انقطعت الاتّصالات والسفارة بين الإمام وشيعته، والله تعالى أعلم بحكمتها، فإنّها سرّ من أسراره عزّوجلّ، والشك في أسرار الله جحود[1]. يذكر الرواة أنّ السمري قبل وفاته بأيّام أخرج إلى الناس توقيعاً من ناحية الحجّة عليه السلام جاء فيه: يا عليّ بن محمّد، أعظَمَ اللهُ أجر إخوانك فيك، فإنّك ميّت ما بينك وبين ستّة أيّام، فاجمِعْ أمرك ولاتوصِ إلى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامّة، فلا ظهور إلّا بعد أن يأذن الله تعالى ذِكرُه، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدّعي المشاهدة، فمن ادّعاها فهو كذّاب مفتر[2]، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. وأضاف الراوي أنّه بعد ستّة أيّام دخلنا عليه فوجدناه يجود بنفسه،

---

١ ـ الشيعة والتشيّع: ٢٧٢.

٢ ـ جاء التوقيع في رواية الشيخ الطوسي بهذا اللفظ: سيأتي شيعتي من يدّعي المشاهدة، ألا فمن ادّعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذّاب مفترٍ، ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم. الغيبة ٣٩٥.

فقلنا له: من وصيّك بعدك ؟فقال: لله أمر هو بالغه. وكانت وفاته سنة ٣٢٩ وللإمام يوم ذاك من العمر أربع وسبعون عاماً قضى منها مع أبيه أربع سنوات ونصفاً، وتسعة وستّين عاماً ونصف العام في غيبته الأولى المسمّاة بالصغرى[1].

وللباحث محمّد الصدر بيان ورأي في الغيبة الصغرى، حيث يقول:تبدأ الغيبة الصغرى من حين وفاة الإمام العسكري عليه السلام وتولّي الإمام المهدي عليه السلام الإمامة، وقد بدأها عليه السلام بالإيعاز بنصب وكيله الأوّل، حين قابله وفد القمّيين. ولذا نجد أنّ الأمر لا يخلو من المسامحة إذا قلنا: إنّ الغيبة الصغرى بدأت بإصدار هذا البيان، لا بساعة وفاة أبيه عليه السلام، على أنّ الأمر ليس مهمّاً بعد اتّحاد تاريخها، في نفس اليوم الواحد، بل الصباح الواحد، حيث توفّي الإمام العسكريّ بعد الفجر من اليوم الثامن من شهر ربيع الأوّل عام ٢٦٠، وقابل القمّيون الإمام المهدي عليه السلام قبل الظهر في نفس اليوم. ومن المستطاع القول بأنّ المميّزات الرئيسيّة لهذه الفترة ثلاثة:

الميّزة الأولى: كونها مبدأ تولّي الإمام المهدي عليه السلام للمنصب الإلهي الكبير في إمامة المسلمين بعد أبيه الراحل عليه السلام لكي يتولّى مسؤوليته الكبرى في قيادة قواعده الشعبية خاصّة والبشريّة كلّها عامّة إلى قواعد السعادة والسلام.

الميّزة الثانية: عدم الاستتار الكلّي للمهدي عليه السلام، وإنّما كان يتّصل بعدد مهمّ من الخاصّة لأجل مصالح كبرى، على حين بدأ الاستتار الكلّي ـ إلّا فيمن شاء الله عزّوجلّ ـ بانتهاء هذه الفترة.

الميّزة الثالثة: وجود السفراء الأربعة الموكّلين بتبليغ تعاليم الإمام المهدي عليه السلام إلى الناس من قواعده الشعبيّة، بحسب الوكالة الخاصّة المنصوص عليها من قبل

١ـ سيرة الأئمّة الاثني عشر٢: ٥٧٠.

المهدي عليه السلام نفسه أو من قبل آبائه عليهم السلام. وكان الأسلوب الرئيسي للمهدي عليه السلام في قيادة قواعده الشعبيّة وإصدار التعليمات وقبض الأموال، هو ما يكون بتوسّط هؤلاء السفراء، وما يتسنّى لهم القيام به من قول أو عمل. وقد خسرت الأمّة الإسلاميّة هذه الوكالة الخاصّة بوفاة السفير الرابع، وانتقل التكليف الإسلامي بعده إلى الاتّكال على الوكالة العامّة الثابتة في الكتاب والسنّة، كما هو المعروض في محلّه من كتب البحوث والأحكام الإسلاميّة. ولم تخلُ هذه الفترة من تشاويش وصعوبات عاناها السفراء والإمام المهدي عليه السلام ـ وهو في غيبته ـ من أجل ادّعاء أفراد متعددين للوكالة الخاصّة زوراً، ومعارضتهم للسفراء الحقيقيين، وإغراقهم للناس بالجهل، غير أنّه كانت تُكتب لهم الخيبة والفشل نتيجة للجهود الواسعة التي يبذلها السفراء في تكذيبهم، وعزل الناس عنهم، استشهاداً بأقوال المهدي عليه السلام وبياناته فيهم. وأهمّ هؤلاء المدّعين وأكثرهم تأثيراً في جماعات الناس الشلمغاني[1]. كما أنّ هذه الفترة لم تخلُ من مصاعب بلحاظ المطاردة الحادّة التي كانت السلطات توجهها إلى الإمام المهدي عليه السلام بالخصوص وقواعده الشعبيّة على وجه العموم. وبلحاظ المناقشات وأنحاء الكلام والطعن لا الذي كان يصدر من القواعد الشعبية غير الموالية للأئمّة عليهم السلام، وخاصّة أولئك المتملّقين للدولة والمستأكلين على مائدتها والمنتفعين بسياستها. ولعلّ الثغرة التي كان يمكن لهؤلاء أن يصلوا إليها في

١ـ الشلمغاني: هو أبو جعفر محمّد بن علي بن أبي العزاقر، قال ابن شهرآشوب: له كتب وروايات في حال الاستقامة، منها كتاب التكليف، ثمّ تغيّر. **معالم العلماء**: ١٠٤. والشلمغاني نسبة إلى شلمغان قرية من نواحي واسط، وقد أحدث مذهباً غالياً في التشيّع والتناسخ وحلول الإلهية فيه، وأظهر الحسين بن روح ذلك منه وتبعه الحسين بن قاسم فقبض عليه الحاكم العبّاسي المقتدر وأفتى العلماء بقتله فقُتل سنة ٣٢٢. **وفَيات الأعيان** ٢: ١٥٥ ـ ١٥٦.

مناقشاتهم كانت أوسع بعض الشيء ممّا كانت عليه مناقشات أمثالهم في زمان ظهور الأئمّة عليهم السلام، فإنّ القواعد الشعبية الموالية كانت في هذه الفترة فاقدة للاتّصال المباشر بشخصيّة الإمام عليه السلام، تلك الشخصيّة الفذّة النيّرة التي تعطي من توجيهها وتدبيرها في نقض الشبهات، وحلّ المشكلات الشيءَ الكثير، ممّا يصعب على الوكلاء والسفراء القيام به، لا بشكل يكون أضيق دائرة وأقلّ درجة، على أنّ الإمام المهدي عليه السلام في بياناته ومقابلاته للآخرين لم يكن يألو جهداً في المناقشة والتوجيه والتدبير. مضافاً إلى أنّ فكرة غيبة المهدي عليه السلام، وطول عمره، وما يترتّب على ذلك من فائدة، ونحوها من الأسئلة التي أصبحت تثار من قبل المناقشين، لم يكن لها أيّ موضوع أو مجال في زمان ظهور الأئمّة عليهم السلام، وهذا بنفسه يكلّف السفراء، ومن ثمّ الإمام المهدي عليه السلام نفسه إلى مناقشة مثل هذه الشبهات وتذليل هذه المشكلات بنحو منطقي مقنع[1].

والتاريخ العامّ لهذه الفترة ـ أي الفترة الأولى المعبَّر عنها بالغيبة الصغرى، والتي تُؤرَّخ من شهادة الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام في الثامن من شهر ربيع الأوّل من سنة ٢٦٠ للهجرة وحتّى وفاة السفير الرابع للإمام المهدي عليه السلام، والمسمّى بأبي الحسن عليّ بن محمّد السَّمَري في النصف من شعبان من سنة ٣٢٩ للهجرة أو سنة ٣٢٨، والتي أخذت بما يقارب السبعين عاماً من عمر الإمام المهدي عليه السلام ـ هو تاريخ قلق للشيعة وقد تشكّل هذه السنوات، أي سنوات الغيبة الصغرى، السنوات الخطيرة والحاسمة من حياة المسلمين، فهي مرحلة انتقال العالم الإسلامي من القرن الثالث الهجري إلى القرن الرابع الهجري، وهي المرحلة الأخيرة من التشريع

١ـ تاريخ الغيبة الصغرى: ٣٤١.

السماوي الذي تمثّل بحضور آخر خليفة سماوي ووصيّ كان يتحرّك بين صفوف المسلمين، حيث انتقل هذا الخليفة بعد هذه الفترة الزمنيّة إلى عوالم لا يعلمها إلّا الله، بعد أن أُغلقت علينا أبواب السفارة البشرية التي كان يديرها أربعة من الصلحاء الأتقياء الذين كانوا بصيص نور يومض في الأرض، ونافذة أمل ورحمة فتحها الله للعباد من جهة الإمام المهدي عليه السلام .

وهذه الفترة الزمنيّة المحدودة هي فترة حافلة بالأحداث والتقلّبات السياسيّة والاجتماعيّة، استطاع فيها الرجال الأربعة من القادة الصلحاء للشيعة وأخيارهم النجباء، من التعاطي والتعامل مع الأحداث والأوضاع المضطربة بحكمة ودراية وسعة صدر، حيث صقلتهم التجارب والأيّام بعد تلقّيهم الآداب والعلوم في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، فقد كان أبو القاسم الحسين بن روح ـ وهو ثالث السفراء ـ من أعقل الناس عند المخالف والموافق وكان يستعمل التقيّة، فقد روى أبو نصر هبة الله ابن محمّد قال: حدّثني أبو عبد الله قال: حدّثني أبو عبد الله بن غالب حمو أبي الحسن بن أبي الطيّب قال: ما رأيت مَن هو أعقل من الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح، ولعهدي به يوماً في دار ابن يسار، وكان له محلّ عند السيّدة ـ خ ل: السيّد ـ والمقتدر عظيم، وكانت العامّة أيضاً تعظّمه، وكان أبو القاسم يحضر تقيّةً وخوفاً. وعهدي به وقد تناظر اثنان، فزعم واحد أنّ أبا بكر أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ عمر ثمّ عليّ، وقال الآخر: بل عليّ أفضل من عمر، فزاد الكلام بينهما، فقال أبو القاسم: الذي اجتمعت الصحابة عليه هو تقديم الصدّيق، ثمّ بعده الفاروق، ثمّ بعده عثمان ذو النورين ثمّ عليّ الوصيّ، وأصحاب الحديث على ذلك، وهو الصحيح عندنا! فبقي مَن حضر المجلس متعجّباً من هذا القول، وكان العامّة الحضور يرفعونه على رؤوسهم وكثر الدعاء له والطعن على من يرميه

بالرفض. فوقع علَيّ الضحك، فلم أزل أتصبّر وأمنع نفسي وأدسّ كُمّي في فمي، فخشيت أن أفتضح، فوثبت عن المجلس ونظر إليّ ففطن بي، فلمّا حصلت في منزلي فإذا بالباب يُطرق، فخرجت مبادراً فإذا بأبي القاسم الحسين بن روح راكباً بغلته قد وافاني من المجلس قبل مضيّه إلى داره، فقال لي: يا أبا عبد الله، أيّدك الله لِمَ ضحكت ؟فأردتَ أن تهتف بي كأنّ الذي قلتُه عندك ليس بحقّ! فقلت:كذلك هو عندي، فقال لي: اتّق الله أيّها الشيخ، فإنّي لا أجعلك في حِلّ، تستعظم هذا القول منّي! فقلت: يا سيّدي، رجل يرى بأنّه صاحب الإمام ووكيله يقول ذلك القول لا يُتعجَّب منه ولا يُضحَك من قوله هذا! فقال لي: وحياتك، لئن عدتَ لأهجرنّك. وودّعني وانصرف[1].

هكذا كان السفراء يتعاملون مع الناس، وكانوا يدبّرون الأمور بحكمة متناهية، بما في ذلك المسائل الاعتقادية، فهم حذرون ومتيقّظون في حياتهم اليومية، وكانت سياستهم ومعاملاتهم تُدار بتقيّة ومعرفة برعاية صاحب الأمر عليه السلام، حرصاً على الرسالة وعلى مذهب التشيّع الذي كاد أن يتعرّض للانمحاق والانحراف بغياب الإمام المعصوم. فقد كان يقابلهم عدّة من حكّام بني العبّاس الذين كانوا يتوجّسون من الشخص الذي سيحكم العالم باسم الإسلام الذي أراده الله تعالى ويعمل بالكتاب والسنّة النبويّة التي عطّلوها أو أضاعوها، وكأنّ الشريعة التي جاء بها خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله قد تنوسيت، ولم يعد لها مناصر ولا عالم ينتصر لها ويكشف خباياها بعد غياب الإمام الثاني عشر من الأئمّة المعصومين، لكنّ الإرادة الإلهيّة وحكمة الأئمّة المعصومين عليهم السلام شاءت أن يُوكَّل جيل من العلماء بتحقيق

١ـ **الغَيبة:** للشيخ الطوسي ٣٨٤.

اتّصال بين الناس الأرضيين، وبين شخص سماوي ربّاني يعيش في الأرض ولكنّه مغيّب عن عيونهم، وهو آخر وصيّ يعيش في الأرض، فاتّخذ نوّاباً ووكلاء له بنظام إلهيّ محكم عُرِف بالسفارة، ولولا السفارة التي مثّلها النوّاب الأربعة لَعُمِّي كثير من الأمور ولتاهت جموع كثيرة من الشيعة، أو جرفتها التيّارات الأخرى التائهة التي لم تفقه من أمور دينها الشيءَ الكثير. والسفارة أو النيابة كانت تدبّر أمور الشيعة، وتحلّ بعض المشكلات أو تحقّق لهم بعض المطالب الملحّة، وربّما كانت تقوم بقضاء بعض الحاجات التي يراها السفراء ضرورية بحكمة وتدبير، وتجلّى هذا في إخراج التوقيعات الصادرة عن الإمام المهدي عليه السلام، وحلّ المشكلات وتذليل العقبات التي قد تصادف بعض القواعد الشعبية.

وفي الحقيقة أنّ المشكلات إنّما تحلّ والحاجات إنّما تقضى بتعاليم الإمام المهدي عليه السلام الواردة في توقيعاته، ومن هنا يعتبر التوقيع عملاً من أعماله، وإن استند إلى السفير باعتبار إظهاره والعمل على تطبيقه. وقد تناول السيّد محمّد الصدر هذه المرحلة من الغيبة مشيراً إلى الدور الكبير الذي كان يقوم به الوكلاء بقوله: ونحن إذا لاحظنا أثر التوقيعات من الناحية الاجتماعية في حلّ المشكلات وقضاء الحاجات نراها تندرج ضمن عدّة أمور:

الأمر الأوّل: حلّ المشكلات العائلية، وتحويل الأسرة إلى أسرة سعادة وهناء، فمن ذلك أنّ زوجاً حمل زوجته إلى بيت أبيها، فأقامت فيه سنين، لايسمحون لها بالرجوع إلى منزل زوجها، ولاتجدي محاولات الزوج في ذلك، ثمّ إنّه أتى بغداد وسأل الدعاء من الإمام عن طريق الحسين بن روح، فخرج من التوقيع: والزوج والزوجة فأصلَحَ الله ذات بينهما. فسهّل الله له نقل زوجته بأيسر كلفة، وأقامت معه سنين كثيرة، وأنجبت منه أولاداً. قال الزوج، وهو الراوي: وأسأت إليها إساءات،

استعملتُ معها كلّ ما لاتصبر النساء عليه، فما وقعت بيني وبينها لفظة شرّ ولا بين أحد من أهلها، إلى أن فرّق الزمان بيننا.

الأمر الثاني: تيسير الشفاء من أمراض قد أزمنت وطال علاجها، فمن ذلك: أنّ شخصاً خرج به ناسور، فعرضه على الأطبّاء وأنفق في التداوي عليه مالاً، فلم يجد فيه شيئاً، فكتب رقعة إلى الإمام عليه السلام يسأل فيها الدعاء، فخرج التوقيع إليه قائلاً: ألبسك الله العافية، وجعلك معنا في الدنيا والآخرة. يقول: فما أتت عليّ جمعة حتّى عُوفيت، وصار الأمر مثل راحتي، فدعوت طبيباً من أصحابنا وأريته إيّاه، فقال: ما عرفنا لهذا دواء، وما جاءتك العافية إلّا من الله بغير احتساب.

الأمر الثالث: طلب الولد، فمن ذلك أنّ عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي أرسل إلى أبي القاسم بن روح بواسطة أبي جعفر محمّد بن عليّ الأسود يسأل الإمامَ المهدي عليه السلام أن يدعو له أن يرزقه ولداً ذكراً، فسأله أبو جعفر الأسود لابن بابويه ولنفسه، فأخبره ابن روح بعد ذلك بثلاثة أيّام أنّه عليه السلام دعا لابن بابويه، وأنّه سيولد له ولد مبارك ينفع الله به وبعدَه أولاد.

الأمر الرابع: سؤال الدعاء لمهامّ الأمور، فمن ذلك أنّ القاسم بن العلاء وهو من الوكلاء في أذربيجان، وُلد له عدّة بنين، فكان يكتب إلى المهدي عليه السلام يسأل الدعاء لهم، فلا يجاب بشيءٍ في أمرهم، فماتوا كلّهم، فلمّا ولد له ولده الحسين، كتب يسأل الدعاء له، فأُجيب إلى ذلك، وبقي ابنه في الحياة.

الأمر الخامس: الاستئذان بالسفر، فمن ذلك أنّ رجلاً يمانياً كان في بغداد، فأراد أن يخرج مع قافلة يمنيّة متهيّئة للخروج، فكتب يستأذن في الخروج، فخرج التوقيع قائلاً: لاتخرج معهم، فليس لك مع الخروج معهم خير، وأقم بالكوفة. فامتثل الأمر وأقام بالكوفة، وخرجت القافلة متوجّهة إلى اليمن، فخرجت عليهم بنو حنظلة

فاجتاحتهم واستأصلتهم.فكتب هذا الرجل يستأذن في ركوب البحر، فلم يؤذن له، فبقي متطلّعاً سائلاً عن أخبار المراكب التي خرجت في تلك السنة، فعرف بعد ذلك أنّها جميعاً قد غرقت وتقطّعت من الرياح البوارح، ولم يسلم مركب منها.

الأمر السادس: الاستئذان بالخروج إلى الحجّ، فمن ذلك أنّ رجلاً من بني نوبخت عزم على الحجّ في إحدى السنين وتأهّب له، فخرج إليه من المهدي عليه السلام خطاب يقول:نحن لذلك كارهون. فاغتمّ الرجل وضاق صدره، وكتب إلى الناحية: أنا مقيم على السمع والطاعة، غير أنّي مغتمّ بتخلّفي عن الحجّ. فخرج إليه الجواب:لايضيقنّ صدرك، فإنّك تحجّ من قابل.فلمّا كان من قابل ـ أي السنة الآتية ـ كتب الرجل يستأذن، فورده الإذن. وكتب إلى الناحية:إنّي عادلت محمّد بن العبّاس وأنا واثق بديانته وصيانته، فورد الجواب: الأسديّ نِعمَ العديل، فإن قدم فلاتخترعليه. قال الراوي: فقدم الأسديّ فعادلته. قال الصدر:انظر كيف يتوخّى الإمام المهدي عليه السلام مصالح أصحابه ومواليه، يذلّل مشاكلهم ويحلّ مصاعبهم بسعة صدر وانفتاح على الحوادث، حتّى إنّه يختار لهذا الرجل عديله ورفيق سفره، فينهاه عن شخص ويعيّن له شخصاً آخر، وهو الأسديّ، والظاهر أنّه أبو الحسين محمّد جعفر الاسدي الذُي كان وكيلاً للسفراء في تلك الفترة.

الأمر السابع: طلب الناس تزويدهم بأكفان وحنوط، فمن ذلك أنّه كتب محمّد بن زياد الصيمري يسأل المهدي عليه السلام كفناً يتيمّن بما يكون من عنده، فورد الجواب: إنّك تحتاج إليه سنة إحدى وثمانين. فمات رحمه الله تعالى في الوقت الذي حدّده، وبعث إليه بالكفن قبل موته بشهر. والمظنون أنّ المراد بالسنة المحددة هو سنة إحدى وثمانين ومائتين، وإن كان يحتمل أنّ برواية السنة الحادية والثمانين من عمره على ما ذكره المجلسي. وهذه طلبات كثيراً ما نجدها في الروايات، والسرّ

في ذلك واضح، وهو أنّ المؤمن يهتمّ بطبيعة الحال بما بعد موته، لتأمين راحته وسعادته هناك، وأنّ أفضل الطرق لذلك عند الموالين للإمام عليه السلام هو أن يكون لهم كفن مسّته يد الإمام وبرّكته أنفاسه، واشترى بماله يدفع بها ضغطة القبر وسوء الحساب. أضف إلى ذلك أنّ طلباً من هذا النوع بعيد كلّ البعد عن الأمور السياسية والمهاوي الاجتماعية، وإنّما هي مسألة شخصية محظة، يعذر الإنسان إن رعاها وبذل اهتمامه بها، كما أنّ الكفن المدفوع من قبل السفير ليس فيه أي دلالة على المهدي عليه السلام، أو علامة على مكانه، ولايمكن أن يكون ملفتاً للنظر وإن وصل إلى السلطات، بخلاف التوقيع، فإنّ خطّ المهدي عليه السلام ولحن خطابه واضح فيه، فيكون مصدراً للخطر إن وقع عند السلطات. ومن ثمّ انفسحت فرصة حسنة في توزيع السفراء للأكفان الصادرة عن الإمام عليه السلام بين مواليه وعارفي فضله.

الأمر الثامن: تحذير الوكلاء من السلطات، فإنّه خرج إلى الوكلاء في بعض الأيّام أمر بأن لايأخذوا من أحد شيئاً وأن يتجاهلوا الأمر، فلم يعلم الوكلاء السبب. قال الصدر: وكان السبب أن وصل إلى مسامع عبد الله بن سليمان الوزير وجود وكلاء للمهدي عليه السلام في بغداد وغيرها من النواحي، فهَمّ بالقبض عليهم، فنصحوه أن يرسل لكلّ وكيل شخصاً يدّعي أنّ له مالاً يدفعه للإمام، فمن قَبَض من الوكلاء شيئاً قُبض عليه، فقام الوزير بهذه المحاولة، إلّا أنّ تعاليم الإمام المهدي عليه السلام كانت قد سبقته إلى الوكلاء، فتنصّل الجميع من الوكالة وتجاهلوا أمرها، فحبطت مؤامرة الوزير، ونجا الوكلاء من براثن السلطات. وهذا بشكل عامّ واضح كلّ الوضوح، فإنّه يعكس تطرّف السلطات ضدّ هذا الخطّ المقدّس، كما أنّه يدلّ على تعدّد الوكلاء في بغداد وغيرها. وهو معنى أنّهم وكلاء للسفير لا للمهدي مباشرة، وإن كان المهدي عليه السلام حريصاً على سلامتهم أجمعين. إلّا أنّ الاعتراض الذي يرد على هذه

الرواية، هو أنّ حكّام هذه الفترة، ابتداءً بالمعتمد والمعتضد وانتهاءً بالراضي والمتّقي، ليس من وزرائهم من كان يُدعى: عبد الله بن سليمان، لكن قد يراد به بنحو من التجوّز في التعبير أبا جعفر محمّد بن عبد القادر بن عبيد الله بن سليمان الذي استوزره القاهر إبّان حكومته، ومعه تصحّ هذه الرواية.

وعلى أيّ حال، فهذه أمور ثمانية، لا على وجه الحصر، ممّا كان السفراء فيه الواسطة الأمينة الرحيمة بين الإمام وقواعده الشعبية في حلّ مشكلاتهم وقضاء حوائجهم[1]. وربّما لم يفت الأمراء وعيون أزلام السلطة العبّاسية المفتوحة على الدوام من ملاحظة هذا الجهد الذي كان يقوم به الوكلاء، لكنّ السلطة العبّاسيّة وأتباعها طوال مدّة السفارة لم تجد سبيلاً عليهم، لانضباطهم وحنكتهم وحسن تدبيرهم للأمور. وهذا التدبير الذي قام به السفراء الأربعة هو الذي أدام تواصل عوامّ الشيعة مع العلماء والمراجع، في الفترة الانتقالية بين وجود المعصوم وتغيّبه، ولمراحل لاحقة فيما بعد، وهذه المرحلة الزمنيّة التي ما زال الشيعة يعايشها هي ما اصطلح عليها بعصور الغيبة. وللإمام المهدي عليه السلام غيبتان كما اتّفق عليهما علماء الشيعة، والغيبتان التي يتحدّث عنهما الشيعة أشار إليهما الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله لخازم بن حبيب[2]: يا خازم، إنّ لصاحب هذا الأمر غيبتين يظهر في الثانية، إن جاءك من يقول: إنّه نفض يده من تراب قبره فلا تصدّقه[3]. والمراد بالظهور في الحديث هو قيامه وتأسيس دولة الحقّ على يديه، بعد حصول الغيبة

١ـ **تاريخ الغيبة الصغرى**: ٤٧٢ ـ ٤٧٨.

٢ـ خازم بن حبيب بن صهيب الجُعفي الكوفي، مولى، من أصحاب أبي عبد الله الصادق عليه السلام.
رجال الطوسي: ١٨٨، **معجم رجال الحديث**، للسيّد الخوئي ٨: ١/ الرقم ٤١٥٢.

٣ـ **الغَيبة**، للشيخ الطوسي: ٤٢٤.

الصغرى التي مضت وتحددت، وبعد انتهاء الغيبة الكبرى الطويلة التي تنتهي إلى أمد لايمكن توقيته، ولكنّه حاصل لا محالة.

ويؤرَّخ للغيبة الصغرى من أوّل سفيرلها، وهوالشيخ أبوعمرو عثمان بن سعيد العَمْري، وكان من نوّاب أبي الحسن وأبي محمّد عليهما السلام في الأوّل، وكانت توقيعات إمام العصرتخرج على يدَي عثمان بن سعيد، وابنه أبي جعفرمحمّد بن عثمان إلى شيعته وخواصّ أبيه أبي محمّد بالأمر والنهي عنه، والأجوبة عمّا تسأل الشيعة[1] عنه إذا احتاجت إلى السؤال فيه بالخطّ الذي كان يخرج في حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام. فلم تزل الشيعة مقيمة على عدالتهما إلى أن توفّي عثمان بن سعيد رحمه الله ورضي عنه، وغسّله ابنه أبوجعفر وتولّى القيام به، وحصل الأمر كلّه مردوداً إليه، والشيعة مجتمعة على عدالته وثقته وأمانته، لما تقدّم له من النصّ عليه بالأمانة والعدالة والأمربالرجوع إليه في حياة الحسن عليه السلام وبعد موته في حياة أبيه عثمان رحمة الله عليه[2]. وكان الحسن العسكري عليه السلام نصّ على ولده الخلف الصالح، وجعل وكيله أبا محمّد عثمان بن سعيد العَمْري الوسيط بينه وبين شيعته في حياته، فلمّا أدركته الوفاة أمره فجمع شيعتهم، وأخبرهم أنّ ولده الخلف عليه السلام صاحب الأمر بعده، وأنّ أبا محمّد عثمان بن سعيد العمري وكيله، وهو بابه والسفير بينه وبين شيعته، فمن كانت له حاجة قصده كما يقصده في حال حياته[3]. وكان هذا أسديّاً، وإنّما سمّي العَمريّ لما رواه أبونصرهبة الله بن محمّد بن أحمد الكاتب

١ـ **إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب** ١: ٤٢٤.

٢ـ **الغيبة**، للشيخ الطوسي: ٣٥٦.

٣ـ **المقنع في الإمامة**، للسدّآبادي ١٤٦.

ابن بنت جعفر العمريّ قال أبو نصر: كان أسدياً فنُسب إلى جدّه فقيل: العَمْريّ، وقد قال قوم من الشيعة: إنّ أبا محمّد الحسن بن عليّ عليه السلام قال: لا يُجمع على امرئ بين عثمان وأبو عمرو. وأمر بكسر كنيته فقيل: العمريّ، ويقال له: العسكريّ أيضاً، لأنّه كان يتّجر في السمن تغطية على الأمر. وكان الشيعة إذا حملوا إلى أبي محمّد عليه السلام ما يجب عليهم حمله من الأموال أنفذوا إلى أبي عمرو، فيجعله في جراب السمن وزقاقه ويحمله إلى أبي محمّد عليه السلام تقيّةً وخوفاً[1].

والثاني من السفراء ابنه أبو جعفر محمّد بن عثمان بن سعيد العمري، قام مقام أبيه بنصّ أبي محمّد عليه السلام وأبيه عثمان بأمر القائم عليه السلام، وخرج التوقيع إليه في التعزية بأبيه رحمه الله وفي فصل من الكتاب: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، تسليماً لأمره ورضىً بفعله وبقضائه، عاش أبوك سعيداً ومات حميداً، فرحمه الله وألحقه بأوليائه ومواليه، فلم يزل مجتهداً بأمره ساعياً فيما يقرّبه إلى الله عزّوجلّ وإليهم، نضّر الله وجهه وأقاله عثرته[2].

وجاء في توقيع للإمام المهدي عليه السلام: وأمّا محمّد بن عثمان العمريّ ـ رضي الله عنه وعن أبيه من قبل ـ فإنّه ثقتي وكتابه كتابي[3]. وكان أبو جعفر العمري يتولّى السفارة نحواً من خمسين سنة، يحمل إليه الناس أموالهم، ويُخرج إليهم التوقيعات بالخطّ الذي كان يخرج في حياة الحسن عليه السلام إليهم بالمهمّات في أمر الدين والدنيا، وفيما يسألونه من المسائل بالأجوبة العجيبة رضي الله عنه وأرضاه[4].

١ـ **الغيبة**، للشيخ الطوسي: ٣٥٣.

٢ـ **إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب** ١: ٤٢٤.

٣ـ **كمال الدين وتمام النعمة**: ٤٤٠.

٤ـ **الغيبة**، للشيخ الطوسي: ٣٦٦.

فلمّا مضى السفير الثاني عام ٣٠٤ أو ٣٠٥ للهجرة قام أبو القاسم الحسين بن روح من بني نوبخت بمقام السفارة حتّى وافته المنيّة، وانتقل إلى دار الرحمة والرضوان في عام ٣٢٦ للهجرة، وذكروا أنّ الحسين بن روح عاش قرابة عشرين سنة أو تزيد بعد أن تولّى السفارة بين الإمام المهدي عليه السلام وعشرات الملايين من الشيعة الذين كانوا يراجعونه في أمورهم ومشاكلهم، وهو يتّصل بالإمام ويرجع عليهم بأجوبة مسائلهم بخطّ الإمام وتوقيعه. وكانت وفاته سنة ٣٢٦ في بغداد، وقبره لايزال معروفاً ومقصوداً للزائرين[1]. ينقل الشيخ الطوسي عن الحسين بن إبراهيم القمّي قال: أخبرني أبو عليّ أحمد بن جعفر بن سفيان البزوفري رحمه الله قال: حدّثني أبو عبد الله جعفر بن محمّد المدائني ـ المعروف بابن قزدا ـ في مقابر قريش قال: كان من رسمي إذا حملتُ الذي في يدي إلى الشيخ أبي جعفر محمّد بن عثمان العَمْري رضي الله عنه أن أقول له، ما لم يكن أحد يستقبله بمثله: هذا المال ومبلغه كذا وكذا للإمام عليه السلام، فيقول لي: نعم دَعْه، فأراجعه، فأقول له: تقول لي: إنّه للإمام ؟ فيقول: نعم للإمام عليه السلام، فيقبضه. فصرت إليه آخر عهدي به رضي الله عنه ومعي أربعمائة دينار، فقلت له على رسمي، فقال لي: امضِ بها إلى الحسين بن روح. فتوقّفت فقلت: تقبضها أنت منّي على الرسم ؟ فردّ عليّ كالمُنكِر لقولي وقال: قم عافاك الله، فادفعها إلى الحسين بن روح. فلمّا رأيت في وجهه غضباً خرجت وركبت دابّتي، فلمّا بلغت بعض الطريق رجعت كالشاكّ، فدققت الباب فخرج إليّ الخادم فقال: مَن هذا؟ فقلت: أنا فلان. فاستأذن لي فراجعني وهو مُنكِر لقولي ورجوعي، فقلت له: أدخلْ فاستأذن لي، فإنّه لابدّ من لقائه. فدخل فعرّفه خبر رجوعي، وكان قد دخل إلى دار النساء، فخرج

١ـ سيرة الأئمّة الاثني عشر ٢: ٥٦٩.

وجلس على سرير ورجلاه في الأرض وفيهما نعلان يصف حسنهما وحسن رجليه، فقال لي: ما الذي جرّأك على الرجوع، ولِمَ لم تمتثل ما قلتُه لك ؟ فقلت: لم أجسر على ما رسمته لي، فقال لي وهو مغضب: قم عافاك الله، كما أقول لك. فلم يكن عندي غير المبادرة، فصرت إلى أبي القاسم بن روح، وهو في دار ضيّقة، فعرّفته ما جرى، فسُرّ به وشكر الله عزّوجلّ، ودفعت إليه الدنانير، وما زلت أحمل إليه ما يحصل في يدي بعد ذلك.

ونقل الشيخ الطوسي أيضاً بإسناده إلى أبي القاسم جعفر بن محمّد بن قُولَويه القمّي، عن جعفر بن أحمد بن متيل القمّي يقول: كان محمّد بن عثمان أبو جعفر العمري رضي الله عنه له مَن يتصرّف له ببغداد نحو من عشرة أنفس، وأبو القاسم بن روح فيهم، وكلّهم كانوا أخصّ به من أبي القاسم بن روح، حتّى إنّه كان إذا احتاج إلى حاجة أو إلى سبب ينجّزه على يد غيره لما لم يكن له تلك الخصوصيّة، فلمّا كان وقت مضيّ أبي جعفر رضي الله عنه وقع الاختيار عليه، وكانت الوصيّة إليه[1]. فكان يقوم بمهامّ بمهامّ عمله التي أوكلها إليه صاحب الزمان عليه السلام، حتّى دنا أجله، وأعلمه مولاه بقرب رحيله، فمات رضي الله عنه في شعبان سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة[2]، عندها قام بمقام النيابة أبو الحسن عليّ بن محمّد السمري، والذي يعدّ آخر سفير وآخر واسطة بين الإمام المهدي عليه السلام والشيعة، وبوفاته طُويت مرحلة السفارة المنصوبة للغيبة الصغرى التي امتدّت من وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى سنة ٣٢٨ أو ٣٢٩ للهجرة.

١ـ **الغيبة:** ٣٦٧ و٣٦٩ / الرقم ٣٣٥ و٣٣٦.

٢ـ **الغيبة:** ٣٨٦/ الرقم ٣٥٠.

مصادر ومراجع الكتاب

الأئمّة الاثنا عشر، دراسة تحليلية، عادل الأديب، دار الأضواء ـ قم، ط الأولى ١٣٩٩ للهجرة.

أئمّتنا، علي محمّد علي دخيّل، دار مكتبة الرضا عليه السلام ـ دار المرتضى بيروت، ط السادسة ١٩٨٢م.

إثبات الوصيّة للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ الهذلي المتوفّى ٣٤٦ للهجرة، منشورات المكتبة المرتضويّة ومطبعتها الحيدريّة في النجف الأشرف.

الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ، من علماء القرن السادس الهجري، تعليقات وملاحظات السيّد محمّد باقر الموسوي الخرسان، مطبعة سعيد ـ مشهد ١٤٠٣ الهجرة.

الأحكام السلطانيّة والولايات الدينيّة، أبو الحسن عليّ بن محمّد بن حبيب الماوردي الشافعي المتوفّى ٤٥٠ للهجرة، نشر مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم ١٤٠٦ للهجرة.

الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوريّ المتوفّى ٢٨٢ للهجرة، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي – القاهرة، ط الأولى ١٩٦٠ م، أوفسيت منشورات الرضي قم ١٤١٢ للهجرة.

الإرشاد، محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي الملقّب بالشيخ المفيد

المتوفّى ٤١٣ للهجرة، منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم.

أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ المتوفّى ٥٢٨ للهجرة، دار الكتب ـ القاهرة، ط الثانية ١٩٧٣ م.

أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعيّة، مصطفى إبراهيم الزلميّ، منشورات الدار العربيّة للطباعة، ط الأولى ١٣٩٦ للهجرة.

أسباب النزول، أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحديّ النيسابوريّ المتوفّى ٤٦٨ للهجرة، نشر دار الكتب العلميّة ـ بيروت.

الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسيّة والادبيّة والعلميّة والاجتماعيّة والاقتصادية والفنّية، أنور الرفاعي، منشورات دار الفكر ـ دمشق، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ٢٠٠٢م.

الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي المتوفّى ١٥٠ للهجرة، تحقيق ودراسة عبد الله محمود شحاتة، نشر وزارة الثقافة في جمهورية مصر العربيّة.

أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية، الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، ط الخامسة ١٤٢٠ للهجرة.

أصول العقيدة في التوحيد والعدل، السيّد مهدي الصدر، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٨١ م.

الأصول والفروع من الكافي، محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي المتوفى ٣٢٨ / ٣٢٩ للهجرة، صححه وعلّق عليه علي أكبر الغفّاري، دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران، ط الثالثة ١٣٨٨ للهجرة.

أعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية، تصحيح طه عبد الرؤوف سعد، منشورات دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة – بيروت، ١٩٧٣م.

إعلام الورى بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل أمين الإسلام الطبرسي من

أعلام القرن السادس الهجري، صححه وعلّق عليه علي أكبر الغفّاري، نشر دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٩ م.

الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، الحافظ شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفّى ٩٠٢ للهجرة، حققه وعلّق عليه بالإنكليزية فرانز روزنثال، أشرف على نشر النص وترجم التعليقات صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

أقاليم الدولة الإسلاميّة بين اللامركزية السياسيّة واللامركزية الإدارية، مسعود أحمد مصطفى، منشورات الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٩٠ م.

إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، الشيخ علي اليزدي الحائري المتوفّى ١٣٣٣ للهجرة، منشورات مكتبة الرضي ـ قم، ط الثانية ١٤٠٤ للهجرة.

الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عبد الرزّاق الموسوي المقرّم، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٢ م.

الأمالي، الشيخ أبو جعفر محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي الصدوق المتوفّى ٣٨١ للهجرة، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الخامسة ١٤٠٠ للهجرة.

الأمالي، الشيخ أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠ للهجرة، تحقيق قسم الدراسات الإسلاميّة ـ مؤسسة البعثة، نشر دار الثقافة ـ قم، ط الأولى ١٤١٤ للهجرة.

الأمالي، الشيخ أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد المتوفّى ٤١٣ للهجرة، نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، ط الأولى ١٤٠٣ للهجرة.

الإمامة في الإسلام، عارف تامر، دار الأضواء ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٨م.

الإمامة وأهل البيت عليهم السلام، **النظرية والاستدلال**، السيّد محمّد باقر الحكيم، نشر المركز الإسلامي المعاصر ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٣ م.

الإمامة وأهل البيت عليهم السلام، محمّد بيّومي مهران، منشورات مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، ط الثانية ١٩٩٥ م.

الإمامة والتبصرة من الحيرة، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المتوفّى ٢٣٩ للهجرة، حققه وقدم له السيّد محمّد رضا الحسيني (الجلالي)، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٧ م.

الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفّى ٢٧٦ للهجرة، تحقيق علي شيري، دار الأضواء ـ بيروت، ط الأولى ١٤١٠ للهجرة.

الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء (المعروف بتاريخ القضاعي) القاضي أبو عبد الله محمّد بن سلامة بن جعفر بن عليّ القضاعي المتوفّى ٤٥٤ للهجرة، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٨م.

الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة، السيّد عبد الله شبّر المتوفّى ١٢٤٢ للهجرة، صححه وعلّق عليه جعفر المحمودي، نشر مؤسسة البعثة فرع مشهد، ط الأولى ١٤٠٧ للهجرة.

الأنوار البهيّة في تواريخ الحجج الإلهيّة، الشيخ عبّاس القمّي المتوفّى ١٣٥٩ للهجرة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم، ط الأولى ١٤١٧ للهجرة.

أهل البيت عليهم السلام القيادة الربّانيّة، محمّد كاظم محمّد جواد، منشورات مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر ـ قم، ط الأولى ١٩٩٦ م.

بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي المتوفّى ١١١١ للهجرة، مؤسسة الوفاء بيروت، ط الثانية ١٤٠٣ وط المكتبة الإسلامية ـ طهران.

البدء والتاريخ، أبو زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفّى ٣٤٠ للهجرة، قرأه وقدّم له سمير شمس، منشورات دار صادر ـ بيروت، ط الأولى ٢٠١٠ م.

البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفّى ٧٧٤ للهجرة، حققه ودقق أصوله وعلّق حواشيه علي شيري، منشورات دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الأولى ١٩٨٨ م.

بطل فخّ الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أمير مكّة وفاتحها، الشيخ محمّد هادي الأميني، منشورات شركة الكتبي للطباعة والنشر ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٩٣ م.

تاج اللغة وصحاح العربيّة (المسمّى بالصحاح)، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ المتوفّى ٣٩٨ للهجرة، دار إحياء التراث العربيّ للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط الرابعة ٢٠٠٥ م.

تاج المواليد في مواليد الأئمة ووفياتهم، المطبوع ضمن **مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام**، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي المتوفّى ٥٤٨ للهجرة، أمر بتجديد طبعها السيّد شهاب الدين المرعشيّ النجفيّ، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

تاريخ الأئمّة، الشيخ ابن أبي الثلج البغدادي المتوفّى ٣٢٥ للهجرة، المطبوع ضمن **مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام**، دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

تاريخ الأدب العربي، عمر فرّوخ، دار العلم للملايين بيروت، ط السادسة ١٩٩٢ م.

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط السابعة.

تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي، مسار الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله ونشأة المذاهب، صائب عبد الحميد، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي ـ قم، ط الثانية ٢٠٠٥ م.

تاريخ مواليد الأئمّة ووفياتهم، أبو محمّد عبد الله بن النصر بن الخشّاب البغداديّ المتوفّى ٥٦٧ للهجرة، المطبوع ضمن **مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام**، دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري المتوفّى ٣١٠ للهجرة، مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٩٣٩ م، أوفسيت منشورات مكتبة أرومية ـ إيران.

تاريخ بغداد، الحافظ أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفّى ٤٦٣ للهجرة، منشورات دار الكتب العلمية – بيروت.

تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفّى ٩١١ للهجرة، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط الأولى ١٩٥٢ م.

تاريخ خليفة بن خيّاط العصفري المتوفّى ٢٤٠ للهجرة، حققه وقدّم له الدكتور سهيل زكّار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ١٩٩٣ م.

تاريخ الدويلات العربيّة والإسلاميّة في العصر العبّاسي في المشرق والمغرب، خاشع المعاضيدي ورشيد عبد الله الجميلي، طبع على نفقة جامعة بغداد، ط الأولى ١٩٧٩ م.

تاريخ الشعوب الإسلاميّة، كارل بروكلمان، نقله إلى العربيّة نبيه أمين فارس – منير بعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط السادسة ١٩٧٤ م.

تاريخ صدر الإسلام والدولة الأمويّة، عمر فرّوخ، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط الرابعة ١٩٧٩ م.

تاريخ القضاعي (الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء).

تاريخ الغيبة الصغرى، محمّد الصدر، موسوعة الإمام المهدي عليه السلام – الكتاب الأوّل، منشورات مكتبة الرسول الأعظم، ط الأولى ١٩٧٢ م.

التبيان في تفسير القرآن (أو تفسير التبيان)، محمّد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠ للهجرة، منشورات مطبعة النعمان في النجف الأشرف ١٩٦٩ م، ومكتبة الأمين في النجف أيضاً.

التتمّة في تواريخ الأئمّة عليهم السلام، السيّد تاج الدين بن علي بن أحمد الحسيني العامليّ، من أعلام القرن الحادي عشر الهجري، قسم الدراسات الإسلاميّة ـ مؤسسة البعثة – قم المقدّسة، ط الأولى ١٤١٢ للهجرة.

تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحرّاني من أعلام القرن الرابع الهجري، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط

الخامسة ١٩٦٩ م.

تحفة الأبرار في مناقب الأئمة الأطهارعليهم السلام، عماد الدين حسن بن عليّ الطبريّ من أعلام القرن السابع الهجري، تعريب عبد الرحيم مبارك، مجمع البحوث الإسلاميّة ـ مشهد، ط الثانية ١٤٢٧ للهجرة.

تذكرة الحفّاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبيّ المتوفّى ٧٤٨ للهجرة، منشورات دار إحياء التراث العربيّ – بيروت.

تذكرة الفقهاء، الحسن بن يوسف بن عليّ بن مطهّر الحلّي المتوفّى ٧٢٦ للهجرة، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام ـ قم، ط الأولى.

ترتيب جمهرة اللغة، محمّد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفّى ٣٢١ للهجرة، ترتيب وتصحيح عادل عبد الرحمن البدري، نشر مجمع البحوث الإسلاميّة ـ مشهد، ط الأولى.

تفسير غريب القرآن الكريم، الشيخ فخر الدين بن الشيخ محمّد علي بن الشيخ أحمد الطريحي المتوفّى ١٠٨٥ للهجرة، عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره محمّد كاظم الطريحي.

تفسير القمّي، أبو الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي، من أعلام القرن الثالث الهجري، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩١ م.

تفضيل الأئمة عليهم السلام على الأنبياء والملائكة، عزّ الدين أبو محمّد الحسن بن سليمان الحلّي العاملي، من أعلام القرن الثامن الهجري، تحقيق مشتاق صالح المظفّر، منشورات مكتبة العلّامة المجلسي ـ قم، ط الأولى ١٤٣٠ للهجرة.

التنبيه والإشراف، عليّ بن الحسين بن علي المسعوديّ المتوفّى ٣٤٦ للهجرة، طبع بمطبعة بريل بمدينة ليدن ١٨٩٣ م.

تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، محمّد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠

للهجرة، تصحيح السيّد حسن الخرسان، منشورات دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران.

تهذيب التهذيب، أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني المتوفّى ٨٥٢ للهجرة، منشورات دار صادر ـ بيروت عن نسخة دائرة المعارف الهندية حيدر آباد الدكن، المنشورة سنة ١٣٢٦ للهجرة .

الثاقب في المناقب، عماد الدين أبو جعفر محمّد بن عليّ الطوسي المعروف بابن حمزة، من أعلام القرن السادس الهجري، تحقيق نبيل رضا علوان، نشر مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر ـ قم، ط الثانية ١٤١٢ للهجرة.

ثورة الزنج، فيصل السامر، منشورات مكتبة المنار ـ بغداد، ودار إحياء التراث العربيّ ـ بيروت، ط الثانية ١٩٧١ م.

الثورة العبّاسيّة، محمّد عبد الحي شعبان، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، دار الدراسات الخليجية.

الجامع الصحيح (المعروف بسنن الترمذي) أبو عيسى محمّد بن عيسى بن سورة المتوفّى ٢٧٩ للهجرة، تحقيق أحمد محمّد شاكر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

جلاء العيون، السيّد عبد الله شبّر المتوفّى ١٢٤٢ للهجرة، قدّم له وصححه أحمد الحسيني.

جهاد الشيعة في العصر العبّاسي الأوّل، سميرة مختار الليثي، أوفسيت عن الطبعة المصرية الأولى.

الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محيي الدين أبو محمّد عبد القادر بن أبي الوفاء محمّد ابن محمّد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي المصري المتوفّى ٧٧٥ للهجرة، منشورات مير محمّد ـ كراجي.

الحكم الأموي في خراسان، دراسة الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي ٩٦ ـ ١٢٧ للهجرة، عبد الله مهدي الخطيب، إشراف الدكتور حسن حبشي، رسالة مقدّمة إلى كلية الآداب قسم التاريخ في جامعة عين شمس بمصر ١٩٧١ م للحصول على شهادة

الماجستير.

الحور العين، الأمير أبو سعيد بن نشوان الحِمْيريّ المتوفّى ٥٧٣ للهجرة، حققه وضبطه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه كمال مصطفى، طبع في طهران ١٩٧٢م.

حياة الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام، دراسة وتحليل، باقر شريف القرشيّ، منشورات مكتبة الداوري ـ قم، ط الثانية ١٩٧٧ م.

حياة الإمام العسكري عليه السلام، الشيخ محمّد جواد الطبسيّ، نشر مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم، ط الأولى ١٤١٣ للهجرة.

خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتّى سنة ١٠٠٠ للهجرة، گورگيس عوّاد، دار الرائد العربيّ ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٦ م.

خلفاء بني العبّاس والمغول أسقطوا بغداد، السيّد حسن شبّر، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ بيروت ط الرابعة ٢٠١١ م.

الخلافة العبّاسيّة في عصر الفوضى العسكرية، فاروق عمر، منشورات مكتبة المثنّى ـ بغداد، ط الثانية ١٩٧٧ م.

خمس رسائل في إثبات الحجّة (الفصول العشرة ـ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية ـ لو اجتمع على الإمام بضعة عشر رجل لوجب عليه الخروج ـ ما السبب الموجب لاستتار الإمام وغيبته ـ ما الدليل على وجود الإمام صاحب الغيبة) تأليف أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد المتوفّى ٤١٣ للهجرة، من نشريات مكتبة دار الكتب التجارية ومطبعتها في النجف الأشرف.

الخوارج عقيدةً وفكراً وفلسفة، سلسلة دراسات في علم الكلام، عامر النجّار، دار المعارف ـ القاهرة، ط الثانية ١٩٨٨ م.

الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم، الشيخ جمال الدين بن يوسف بن حاتم الشامي، من

أعلام القرن السابع الهجري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط الأولى ١٤٣١ للهجرة.

الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة، شمس الدين محمّد بن مكّي العاملي المعروف بالشهيد الأوّل، المتوفّى ٧٨٦ للهجرة، تحقيق قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلاميّة – مشهد، ط الثانية ١٤٢٦ للهجرة.

الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة، تأليف سير. توماس و و.أرنولد، ترجمه إلى العربيّة وعلّق عليه حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، منشورات مكتبة النهضة المصرية –القاهرة، ط الثانية ١٩٥٧ م.

دلائل الإمامة، أبو جعفر محمّد بن جرير بن رستم الطبريّ، من علماء المائة الرابعة، منشورات المطبعة الحيدريّة ومكتبتها في النجف الأشرف ١٩٦٣م.

الدولة العبّاسيّة تكامل البناء الحضاري، عيسى الحسن، الأهليّة للنشر والتوزيع ـ عمّان، ط الأولى ٢٠٠٩م.

الدولة العبّاسيّة، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمّد الخضري، دار المعرفة ـ بيروت، ط السابعة ٢٠٠٥ م.

ديمو تاريخ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله **والحسين** عليه السلام، باسم الحلّي، موسوعة الرسول المصطفى ـ مشهد، ط الثانية ٢٠٠٦ م.

ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبد الله الطبريّ المتوفّى ٦٩٤ للهجرة، اعتنى به ووضع حواشيه محمّد أمين ضنّاوي، منشورات محمّد علي بيضون ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٦ م.

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ المتوفّى ٥٣٨ للهجرة، تحقيق سليم النعيمي، نشر ديوان الأوقاف ـ الجمهورية العراقيّة، أوفسيت منشورات الشريف الرضي ـ قم ١٤١٠ للهجرة.

رجال الطوسي، محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى ٤٦٠ للهجرة، تحقيق محمّد صادق آل بحرالعلوم، منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ط الأولى ١٩٦١ م.

رسوم دار الخلافة، أبوالحسين هلال بن المحسّن الصابئ المتوفّى ٤٤٨ للهجرة، عني بتحقيقه والتعليق عليه ميخائيل عوّاد، دار الرائد العربي ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٦م.

الروح المجرّد، دورة علوم ومعارف الإسلام ٤، السيّد محمّد حسين الحسيني الطهراني، تعريب عبد الرحيم مبارك، مؤسسة ترجمة ونشر دورة علوم ومعارف الإسلام ـ مشهد المقدّسة ١٤٢٤ للهجرة.

روضة الواعظين، محمّد بن الفتّال النيسابوري الشهيد في سنة ٥٠٨ للهجرة، تحقيق غلام حسين المجيدي ـ مجتبى الفرجي، منشورات دليل ما ـ قم ط الأولى ١٤٢٣ للهجرة.

زيد بن عليّ ومشروعيّة الثورة عند أهل البيت عليهم السلام، الشيخ نوري حاتم، نشر مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي ـ قم، ط الثالثة ٢٠٠٦ م.

سفينة البحار ومدينة الحِكم والآثار، الشيخ عبّاس بن محمّد رضا بن أبي القاسم القمّي المتوفّى ١٣٥٩ للهجرة، تحقيق مجمع البحوث الإسلاميّة ـ مشهد، ط الأولى ١٤١٦ للهجرة.

سنن ابن ماجة، أبوعبد الله محمّد بن يزيد القزويني المتوفّى ٢٧٣ للهجرة، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة ـ القاهرة، عيسى البابي الحلبي.

سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي المتوفّى ٢٧٥ للهجرة، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنّة النبويّة.

سنن الترمذي (ينظر الجامع الصحيح).

السنن الكبرى، أبوبكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي المتوفّى ٤٥٨ للهجرة، دار المعرفة ـ بيروت.

سِيَر أعلام النبلاء، شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبيّ المتوفّى ٧٤٨ للهجرة، منشورات

مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٨٥م.

سيرة الأئمّة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، الناشر دار القلم ودار التعارف ـ بيروت، ط الأولى والثالثة ١٩٧٧ و١٩٨١م.

سيف الدولة الحمداني أو مملكة السيف ودولة الأقلام، مصطفى الشكعة، الناشر عالم الكتب ـ بيروت، مكتبة المتنبّي ـ القاهرة، ط الثانية.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفّى ١٠٨٩ للهجرة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني المتوفّى ٦٧٩ للهجرة، الناشر دفتر نشر الكتاب.

الشهيد مسلم بن عقيل، عبد الرزّاق الموسويّ المقرّم المتوفّى ١٣٩١ للهجرة/ ١٩٧١م، قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسسة البعثة ـ إيران، ط الأولى ١٤٠٧ للهجرة.

الشيعة والتشيّع، محمّد جواد مغنية، نشر مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ـ بيروت.

الشيعة في الميزان، محمّد جواد مغنية، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت.

الشيعة والحاكمون، محمّد جواد مغنية، منشورات دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر و دار الجواد للطباعة والنشر ـ بيروت، ط الخامسة ١٩٨١ م.

الصحاح(تاج اللغة وصحاح العربيّة)، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ، من أعلام القرن الرابع الهجري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، منشورات دار العلم للملايين ـ بيروت، ط الرابعة ١٤٠٧ للهجرة.

الصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة، أحمد بن حجر الهيتمي المكّي المتوفّى ٩٧٤ للهجرة، خرّج أحاديثه وعلّق حواشيه وقدّم له عبد الوهّاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة بمصر، ط الثانية ١٩٦٥ م.

طبقات الأمم، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن التغلبي الأندلسي، من أعلام القرن الخامس الهجري، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت، ط الأولى ١٩٨٥م.

الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمّد بن سعد بن منيع الزهريّ المتوفّى ٢٣٠ للهجرة، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٨٥م.

الطراز الأوّل والكناز لما عليه من لغة العرب المعوّل، السيّد علي بن أحمد بن محمّد معصوم الحسيني المعروف بابن معصوم المدني المتوفّى ١١٢٠ للهجرة، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم، ط الأولى.

العامّة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة، دراسة في التاريخ الاجتماعي، فهمي سعد، دار المنتخب العربيّ للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٣ م.

العبّاسيون في سنوات التأسيس، عصام سخنيني، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ـ بيروت، الطبعة العربيّة الأولى ١٩٩٨ م.

العبر في خبر من غبر، الحافظ أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفّى ٧٤٨ للهجرة، تحقيق أبي هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

عقد الدرر في أخبار المنتظر، يوسف بن يحيى بن عليّ بن عبد العزيز المَقْدسي الشافعيّ السلمي، من علماء القرن السابع الهجري، تحقيق عبد الفتاح محمّد الحلو، مكتبة عالم الفكر ـ القاهرة، ط الأولى ١٣٩٩ للهجرة.

علل الشرائع، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي، المتوفّى٣٨١ للهجرة، منشورات المكتبة الحيدريّة ـ النجف الأشرف ١٣٨٥ للهجرة.

عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن عليّ الحسينيّ المعروف بابن عنبة المتوفّى ٨٢٧ للهجرة، تحقيق السيّد مهدي الرجائي، منشورات مكتبة آية

الله العظمى المرعشي النجفي ـ الخزانة العالمية للمخطوطات الإسلاميّة، مركز الدراسات لتحقيق الأنساب – قم، ط الأولى ٢٠٠٤ م.

عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليين، أحمد محمّد نور سيف، منشورات دار الاعتصام ـ القاهرة، ط الأولى ١٣٩٧ للهجرة.

العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربيّة الإسلاميّة، مصطفى عبّاس الموسوي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ١٩٨٢ م.

عيون أخبار الرضاعليه السلام، محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي المشهور بالشيخ الصدوق المتوفّى ٣٨١ للهجرة، نشر رضا مشهدي ـ قم.

عيون المعجزات، الشيخ حسين بن عبد الوهّاب، من علماء القرن الخامس الهجري، من منشورات مكتبة الداوري ـ قم.

الغَيبة، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠ للهجرة، تحقيق الشيخ عباد الله الطهراني و الشيخ علي أحمد ناصح، مؤسسة المعارف الإسلاميّة ـ قم المقدّسة، ط الأولى ١٤١١ للهجرة.

فِرق الشيعة، أبو محمّد الحسن بن موسى النوبختي، من أعلام القرن الثالث للهجرة، صححه وعلّق عليه السيّد محمّد صادق آل بحر العلوم، نشريات المكتبة المرتضويّة، المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف ١٩٣٦م.

الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة، عليّ بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي الشهير بابن الصبّاغ المتوفّى ٨٥٥ للهجرة، حقّقه وعلّق عليه السيّد جعفر الحسينيّ، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ قم، ط الأولى ١٤٢٧ للهجرة.

الفكر الإماميّ من النصّ حتّى المرجعيّة، محمّد حسين الصغير، منشورات دار المؤرّخ العربيّ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٠ م.

في ظلال التشيّع، بحث عن نشأة التشيّع والأحداث التي رافقته في صدر الإسلام، محمّد

علي الحسني، مكتبة الألفين ـ الكويت، ط الأولى ١٩٨٣م.

فهرست محمّد بن إسحاق، المعروف بابن النديم الورّاق المتوفّى ٣٨٥ للهجرة، قابله على أصوله وعلّق عليه وقدّم له أيمن فؤاد سيّد، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلاميّ ـ لندن ٢٠٠٩ م.

القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، منشورات دار الفكر ـ بيروت.

القاموس المحيط، مجد الدين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الفيروزآباديّ الشيرازي الشافعيّ المتوفّى ٨١٧ للهجرة، منشورات محمّد عليّ بيضون ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ١٩٩٩ م.

قرب الإسناد، أبو العبّاس عبد الله بن جعفر الحميري، من أعلام القرن الثالث الهجري، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط الأولى ١٩٩٣ م.

قريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة، خليل عبد الكريم، الناشر سينا للنشر ـ القاهرة، ط الأولى ١٩٩٣م.

قصص الأنبياء الحاوي لأحاديث كتاب النبوّة للشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ للهجرة، تأليف قطب الدين أبي الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي المتوفّى ٥٧٣ للهجرة، تحقيق عبد الحليم عوض الحلّي، منشورات مكتبة العلّامة المجلسي ـ قم، ط الأولى ١٤٣٠ للهجرة.

قصور العراق العربيّة والإسلاميّة حتّى نهاية العصر العبّاسي ٦٥٦ للهجرة، طالب علي الشرقي، دار الشؤون الثقافية العامّة، وزارة الثقافة ـ بغداد، ط الأولى ٢٠٠١ م.

قيم خالدة في التاريخ والأدب، حسن الأمين، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط الأولى ١٩٧٤ م.

الكامل في التاريخ، عليّ بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفّى ٦٣٠ للهجرة، راجعه وصححه محمّد

يوسف الدقّاق، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٩٨م.

الكامل في اللغة والأدب، أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد المتوفّى ٢٨٥ للهجرة، مؤسسة المعارف ـ بيروت.

كمال الدين إتمام النعمة، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ للهجرة، منشورات ذوي القربى ـ قم، ط الأولى ١٤٢٨ للهجرة.

الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفّى ٥٢٨ للهجرة، نشر دار الكتاب العربيّ ـ بيروت.

كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد، للمحقق الطوسي(محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى ٥٩٧ للهجرة) تأليف الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي المعروف بالعلّامة المتوفّى ٧٢٦ للهجرة، تحقيق وتعليق حسن مكّي العامليّ، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، دار الصفوة ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٣ م.

كنز العمّال، علاء الدين عليّ المتّقي الهندي المتوفّى ٩٧٥ للهجرة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط الخامسة ١٤٠٥ للهجرة.

مباحث في علم الكلام والفلسفة، علي الشابي، دار المدار الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، من أعلام القرن السادس الهجري، منشورات دار المعرفة ـ بيروت، ط الأولى ١٩٨٦ م.

مجمع البحرين ومطلع النيّرين، فخر الدين الطريحي المتوفّى ١٠٨٥ للهجرة، تحقيق أحمد الحسيني، انتشارات مرتضوي ـ طهران.

المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي المتوفّى(٢٧٤ أو٢٨٠ للهجرة) منشورات دار الكتب الإسلاميّة ـ قم، ط الثانية.

المحكم والمحيط الأعظم، عليّ بن إسماعيل بن سيدة المتوفّى ٤٥٨ للهجرة، تحقيق

عبد الحميد هنداوي، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٠ م.

المختصر في أخبار البشر، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء المتوفّى سنة ٧٣٢ للهجرة، منشورات المطبعة الحسينيّة المصرية، ط الأولى.

المدن في الإسلام حتّى العصر العثماني، شاكر مصطفى، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ط الأولى ١٩٨٨ م.

مذاهب الإسلاميين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط الأولى ١٩٧٣ م.

المرأة في أدب العصر العبّاسي، واجدة مجيد عبد الله الأطرقچي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر ١٩٨١ م.

مراقد المعارف في تعيين مراقد العلويين والصحابة والتابعين والرواة والعلماء والأدباء والشعراء، محمّد حرز الدين، علّق عليه وحققه محمّد حسين حرز الدين، مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف ١٩٧١ م، أوفسيت منشورات سعيد بن جبير ـ قم.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفّى ٣٤٦ للهجرة، عني بتحقيقه شارل بلّا، منشورات الجامعة اللبنانيّة – قسم الدراسات التاريخيّة، ـ بيروت ١٩٧٣ م.

مزارات أهل البيت عليهم السلام وتأريخها، محمّد حسين الحسيني الجلالي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الثالثة ١٩٩٥ م.

مسارّ الشيعة، محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد المتوفّى ٤١٣ للهجرة، المطبوع ضمن **مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام**، دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

المستجاد من كتاب الإرشاد، الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الحلي المعروف بالعلامة المتوفّى ٧٢٦ للهجرة، المطبوع ضمن **مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة عليهم السلام**، منشورات دار القارئ ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

مسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفّى ٢٤١ للهجرة، منشورات دار صادر ـ بيروت.

مشارق أنوار اليقين في حقائق أسرار أمير المؤمنين عليه السلام، الحافظ رجب بن محمّد بن رجب البرسي الحلّي المتوفّى حدود سنة ٨١٣ للهجرة، تحقيق السيّد جمال السيّد عبد الغفّار أشرف المازندراني، انتشارات الشريف الرضي، المكتبة الحيدريّة ـ قم المقدّسة، ط الأولى ١٤٢٦ للهجرة.

مشاهد العترة الطاهرة وأعيان الصحابة والتابعين، السيّد عبد الرزّاق كمّونة، مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٩٦٨ م.

مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، كمال الدين محمّد بن طلحة بن محمّد بن الحسن القرشيّ العدويّ النصيبيّ الشافعيّ المتوفّى ٦٥٢ للهجرة، طبع بإشراف السيّد عبد العزيز الطباطبائي، مؤسسة البلاغ ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٩ م.

معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول والبتول، محمّد بن عزّ الدين يوسف بن الحسن الزرنديّ المتوفّى ٧٥٠ للهجرة، تحقيق وتصحيح عبد الرحيم مبارك ـ سيّد علي أشرف، مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية المقدّسة ـ مشهد، ط الأولى ١٤٢٢ للهجرة.

المعارف، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفّى ٢٧٦ للهجرة، حققه وقدّم له ثروت عكاشة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ مصر، الإدارة العامّة، أوفسيت منشورات الشريف الرضي ـ قم.

معالم العلماء، محمّد بن علي بن شهرآشوب المازندراني المتوفّى ٥٨٨ للهجرة، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف ١٩٦١ م.

معاني الأخبار، محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ للهجرة، تصحيح علي أكبر الغفّاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة ـ قم.

معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحمويّ الروميّ، دار صادر

للطباعة والنشر ـ بيروت، ط الثانية ١٩٩٥ م.

معجم رجال الحديث، السيّد أبو القاسم الخوئي الموسوي، ط الخامسة.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي المتوفّى ٤٨٧ للهجرة، تحقيق جمال طلبة، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٨م.

المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وبيان أفضليته على جميع العالمين بعد الأنبياء والمرسلين، أبو جعفر الإسكافي محمّد بن عبد الله المعتزليّ المتوفّى ٢٢٠ للهجرة، بتحقيق الشيخ محمّد باقر المحمودي.

مقاتل الطالبيين، أبو الفرج عليّ بن الحسين بن محمّد الأصفهانيّ المتوفّى ٣٥٦ للهجرة، شرح وتحقيق السيّد أحمد صقر، دار المعرفة ـ بيروت.

المقالات والفرق، سعد بن عبد الله الأشعريّ القمّي المتوفّى ٢٩٩ أو ٣٠١ للهجرة، تحقيق محمّد جواد مشكور، مجموعة ميراث إيران و الإسلام، وزارة الثقافة في جمهورية إيران الإسلامية، ط الثانية.

المقنع في الإمامة، عبيد الله بن عبد الله السد آبادي، من أعلام القرن الخامس الهجري، تحقيق شاكر شَبَع، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرّسين بقم، ط الأولى ١٤١٤ للهجرة.

مكارم الأخلاق، رضيّ الدين أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسيّ من أعلام القرن السادس الهجري، قدّم له وعلّق عليه محمّد حسين الأعلميّ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط السادسة ١٩٧٢ م.

الملل والنحل، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني المتوفّى ٥٤٨ للهجرة، تحقيق محمّد سيّد گيلاني، منشورات دار صعب ـ بيروت ١٩٨٦ م.

المناقب والمثالب، القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمّد التميميّ المغربي المتوفّى ٣٦٣

للهجرة، تحقيق ماجد أحمد العطيّة، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢ م.

منتهى الآمال في تواريخ النبيّ والآل، الشيخ عبّاس القمّي، تلخيص وتحقيق وترجمة السيّد هاشم الميلاني، الناشر دليل ما ـ قم ط الأولى ١٤٢٥ للهجرة.

منتهى المطلب في تحقيق المذهب، الحسن بن يوسف بن عليّ بن المطهّر الحلّي المعروف بالعلّامة المتوفّى ٧٢٦ للهجرة، تحقيق قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلاميّة ـ مشهد المقدّسة.

منع تدوين الحديث، قراءة في منهجة الفكر وأصول مدرستَي الحديث عند المسلمين، السيّد عليّ الشهرستاني، مؤسسة الرافد ـ قم، توزيع الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، ط الرابعة ٢٠٠٩ م.

منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي المتوفّى ٧٢٦ للهجرة، تحقيق عبد الرحيم مبارك، مؤسسة عاشوراء للتحقيقات والبحوث الإسلاميّة، انتشارات تاسوعاء، ط الأولى.

مهج الدعوات ومنهج العبادات، أبو القاسم رضي الدين عليّ بن موسى بن محمّد بن طاووس المتوفّى ٦٦٤ للهجرة، انتشارات كتابخانه سنائي ـ قمّ.

موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر العبّاسي، خالد عزّام، دار أسامة للنشر والتوزيع ـ عمّان، ط الأولى ٢٠٠٦ م.

موسوعة تاريخ العرب، عبد عون الروضان، منشورات الأهليّة للنشر والتوزيع ـ عمّان، الطبعة العربيّة الثالثة ٢٠٠٩م.

موسوعة العتبات المقدّسة، قسم سامراء، مجموعة من الباحثين بإشراف جعفر الخليلي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الثانية ١٩٨٧ م.

الموسوعة الفلسفيّة، عبد المنعم الحفني، منشورات دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع

ـ بيروت ومكتبة مدبولي ـ القاهرة، ط الأولى ١٩٨٦ م.

الميزان في تفسير القرآن، السيّد محمّد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط الثانية ١٩٧٣ م.

النبوّة، دروس في العقيدة ٣، تأليف ونشر لجنة التأليف، مؤسسة البلاغ ـ طهران، ط الأولى ١٩٩٤ م.

النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمّد بن الأثير الجزري المتوفّى ٦٠٦ للهجرة، خرّج أحاديثه وعلّق عليه أبو عبد الرحمن صلاح بن محمّد بن عويضة، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٧م.

نهج البلاغة، مجموع ما اختاره الشريف الرضي، بتصحيح صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة ـ قم، ط الأولى ١٤٠٧ للهجرة

نهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، الشيخ محمّد تقي التستري، مؤسّسة نهج البلاغة، مطبعة رستم خاني ـ طهران، ط الثانية ١٤٠٩ للهجرة.

نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ﷺ، الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي، من علماء القرن الثالث عشر الهجري، دار الجيل ـ بيروت ١٩٨٩ م.

الهداية الكبرى، أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي المتوفّى ٣٣٤ للهجرة، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، ١٩٩٩ م.

الوجيز في الإمامة والولاية، أحمد حسين يعقوب، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٧ م.

الوجيز في معرفة الكتاب العزيز (مقدّمة كتاب **آلاء الرحمن في تفسير القرآن**)، الشيخ محمّد جواد البلاغي المتوفّى ١٣٥٢ للهجرة، تحقيق محمّد مهدي نجف، نشر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة ـ طهران، ط الأولى ١٤١٩ للهجرة.

وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلِّكان المتوفّى ٦٨١ للهجرة، حقق أصوله وكتب هوامشه يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط الأولى ١٩٩٨ للهجرة، وطبعة أخرى بتحقيق إحسان عبّاس، أوفسيت منشورات الشريف الرضي، قمّ المقدّسة.

الفهرس

مقدّمة الكتاب ٣

مفاتيح و تمهيدات البحث ٥

نشوء الدولة العبّاسيّة ٥٦

التحوّل الاجتماعي والثقافي في العصر العبّاسي ٩٠

ضعف الدولة العبّاسية وظهور الدويلات ١٤٩

الشطّار والغوغاء في العصور العبّاسية ٢٠٠

سامراء في التاريخ والأثر ٢٠٥

عقائد الشيعة في الإمامة والإمام المعصوم ٢١٦

انبثاق الأنوار الإلهيّة ٢٢٨

المهدي عليه السلام والدولة المهدويّة ٢٣٤

المهدي والسفياني والدجّال ٢٥٢

نشوء الفقه الشيعي ٢٦٢

خلافة الإمام العسكري عليه السلام ٢٧٧

الإمام العسكري والمعجزة والدلالة ٢٨٩

العسكري عليه السلام وخلفاء بني العبّاس ٣٠٤

فلسفة النيابة والتمهيد لعصر الغيبة ٣٢٥

مصادر ومراجع الكتاب ٣٤٩